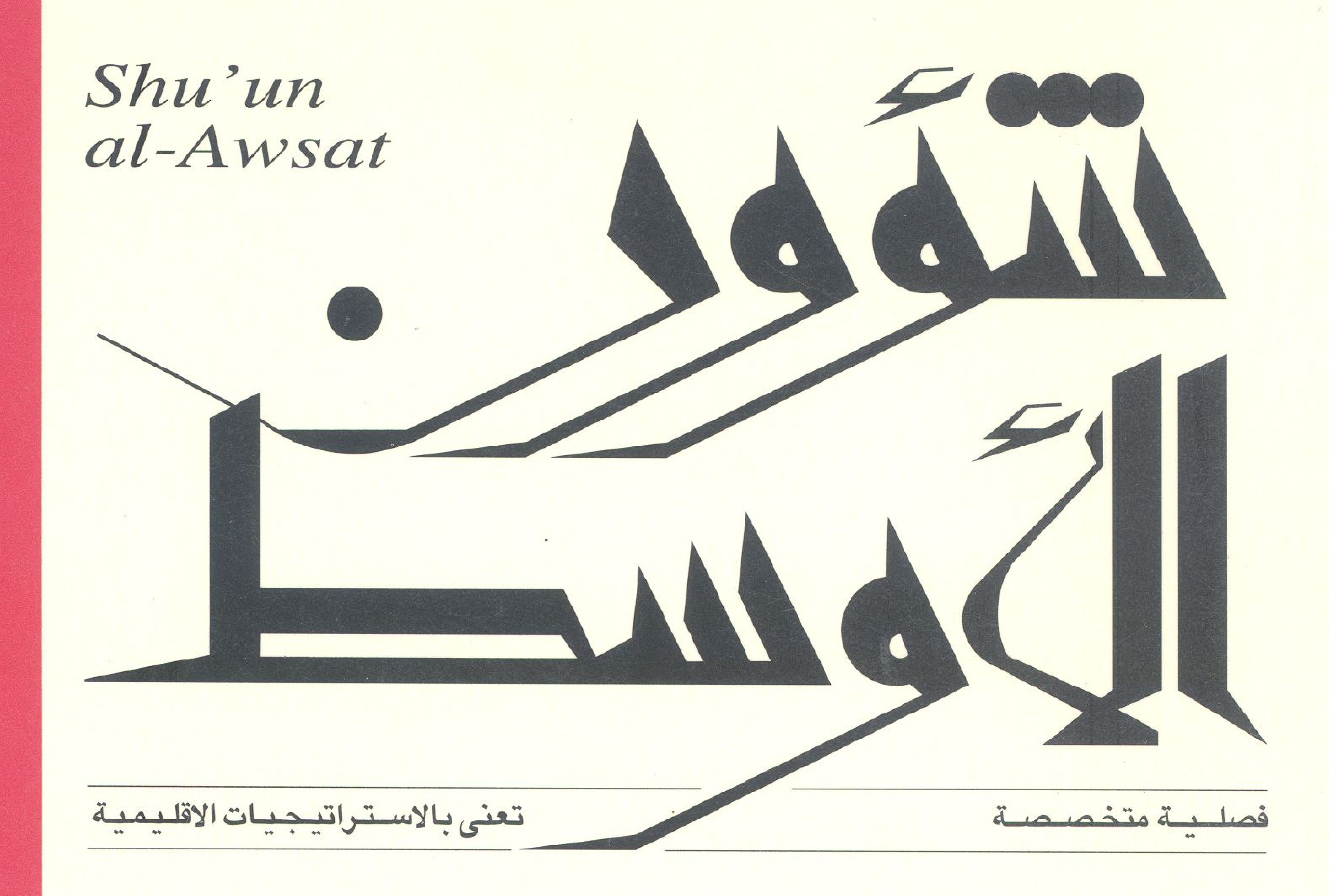
127
خريف ٢٠٠٧
Fall 2007



فصلية متخصصة
تعنى بالاستراتيجيات الاقليمية

الخطاب الإعلامي

التمييز بين الكفاح الوطني والإرهاب

قضية فلسطين في الإعلام الغربي

صورة المقاومة في الإعلام الإسرائيلي

ميتا - ستراتيجيا المقاومة

النهوض العربي وحوار الحضارات

العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية

تحليل محوسب لخطاب بوش الإعلامي

دور العلوم في رسم مستقبل العالم

ندوة

الإسلاميون في تركيا والتغيير

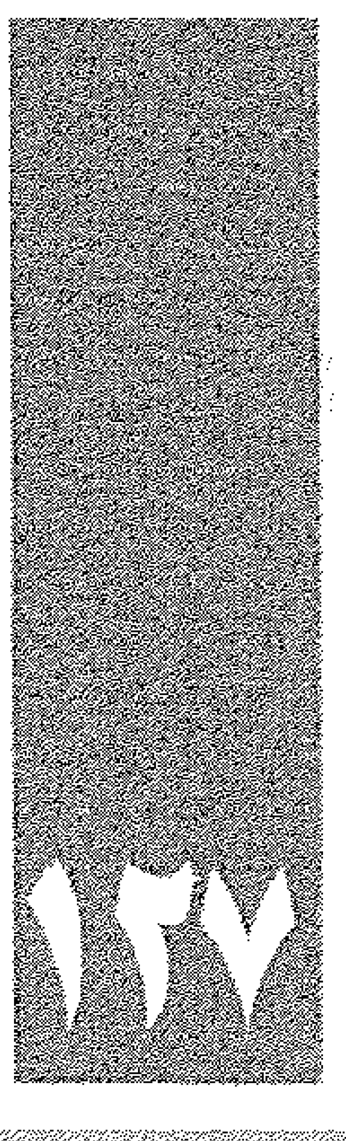
حوار

منير إسماعيل



مركز الدراسات الاستراتيجية

- **ترحّب «شؤون الأوسط» بمساهمات الكتّاب حول مختلف القضايا الشرق أوسطية بما فيها تركيا وايران.**
- **يراعى في المساهمات ألا تكون قد نشرت أو مقدّمة للنشر في مطبوعات أخرى وأن تكون موثقة بطريقة علمية: اسم المؤلف، عنوان الكتاب، الطبعة، مكان النشر، دار النشر، تاريخه، رقم المجلد، رقم الصفحة.**
- **يُفضّل أن يُقدم النص مطبوعاً مع القرص الممغنط (الديسك) أو بخط واضح.**
- **يُرجى من الكتّاب إرفاق مساهماتهم بنبذة فكرية مع عناوينهم من هاتف وفاكس وبريد الكتروني.**
- **الآراء الواردة في المجلة تعكس وجهة نظر كتّابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المركز.**





خريف ٢٠٠٧
Fall 2007

فصلية متخصصة تعنى بالاستراتيجيات الإقليمية

المحتويات

ندوة

ملف

الخطاب الإعلامي

حوار

دراسات ومقالات

تقارير ووثائق

رئيس التحرير
محمد نور الدين

سكرتاريا التحرير
غسان رملاوي

تنفيذ كومبيوتر
منى شري

المدير المسؤول
مصطفى مطر

الفكرة الاستعمارية في لحظة الغياب

تستعيد الولايات المتحدة في مطلع القرن الحادي والعشرين ما كانت تفعله بريطانيا وفرنسا في بدايات القرن العشرين.

القوّتان تتشاركان في ساحة اللعب: العالم الإسلامي وتحديداً الشرق الأوسط منه. وبعد غزوات متواصلة منذ نهاية القرن الثامن عشر (مع حملة بونابرت المصرية) أطبقت بريطانيا وفرنسا على التركة العثمانية. وكانت اتفاقية سايكس - بيكو التي قسّمت الأراضي العثمانية بشقيّها العربي والأناضولي. ومن قبل كانت الأستانة تخسر معظم أراضيها في البلقان.

وفي خضم كل هذا الحراك الاستعماري، انطلق وعد بلفور من جهة لا تملك (بريطانيا) إلى جهة لا حق لها (اليهود) ليبدأ تأسيس الكيان الصهيوني. وبين الوعد (١٩١٧) والتأسيس (١٩٤٨) حوالى الثلاثين عاماً.

اليوم يتكرر التاريخ بأشكال وأدوات أخرى.

الولايات المتحدة تقود الغرب (الذي ما لبث متردّدوه أن التحقوا بها في ما بعد)، في غزو أفغانستان ومن ثمّ في غزو العراق واحتلاله.

ستُ سنوات على احتلال الأول، وخمس على الثاني. وفي الحالتين استمرار الاحتلال والدم والعبث والتدمير لمقومات ومكوّنات وتاريخ وحضارة وجغرافية البلدين.

حوّل الأميركيون العراق تحديداً إلى حقل تجارب للسلاح، وعاثوا بكل قدراته سرقة وعناصره عبثاً. فحرّضوا الكردي على العربي والسنّي على الشيعي وبالعكس، وحرضوا السنّي على السني والشيعي على الشيعي. لم يكن المستعمر حريصاً على الآخر في أي حالة أو يوم. بل كانت "عدّة" شغله. نعم لم يتغير الشعار الأزلي "فرّق تسد".

وها هي الولايات المتحدة، تستعيد الدور البريطاني، عبر الكونغرس الذي أطلق ما يمكن

اعتباره سايكس - بيكو مصغرة، وهو اتخاذ قرار بتقسيم العراق إلى مناطق مذهبية أو عرقية، حظي بتأييد الديموقراطيين المعارضين ونصف الجمهوريين الحاكمين. إذاً هو قرار "وطني" على الصعيد الأميركي. الكونغرس الأميركي يقرّر في موضوع ومكان لا شأن له فيه. من هذه الناحية هو نوع من "بلفور أميركي".

والأميركي نفسه يوزّع القرارات التي لا ناقة للعرب والمسلمين فيها سوى التوقيع.

ستون عاماً، نكرّرها للمرة الألف، ولم يستعد الفلسطينيون شبراً من أرضهم. إنهم في الموقع الأضعف. صحيح. لكن المسؤولية تقع على الغرب نفسه الذي يحول، بدعمه المباشر، دون إرغام اسرائيل على الانسحاب من أراضي ١٩٦٧ على الأقل، ودون أن يستعيد النظام العربي والإسلامي دوره الحاضن لنضالات الشعب الفلسطيني.

وفي هذا الإطار يُنظر إلى المؤتمر الذي دعا إليه الرئيس الأميركي جورج بوش حول التسوية في الشرق الأوسط في قاعدة أنابوليس الأميركية في ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧. هذا المؤتمر الذي انعقد في اللحظة الفلسطينية الأكثر ضعفاً وهشاشة وانقساماً، وفي اللحظة العربية الأكثر إذعاناً وفي اللحظة الإسلامية الأقل ممانعة. وعليه فإن المكتوب يُقرأ من عنوانه: مزيد من هضم حقوق الفلسطينيين وقضمها، ومزيد من تجويف الهوية العربية والإسلامية، حتى يكاد العرب والمسلمون يختفون من على وجه الأرض.

عندما يدعو الكونغرس الأميركي علناً إلى تقسيم العراق، فلأن الإدارة الأميركية تلعب في ساحة فارغة ومرمى مشرع.

لم يعد العرب بحاجة إلى فذلكات وفلسفات وتنظيرات وإيديولوجيات مركّبة. ما عادوا بحاجة إلى دروس ومحاضرات في رصّ الصفوف والوحدة والتكاتف، ما عادوا بحاجة إلى سلاح ونفط. فلشدّة سطوع الفكرة الاستعمارية وتطبيقاتها، تخال، لتواطؤنا وخذلاننا، أننا غير موجودين في الأصل على سطح المعمورة وفي التاريخ. هل من تفسير آخر؟

رئيس التحرير

الإزدواجية الأميركية حيال مسألة "الإرهاب"

سيد حسين موسوي

تشهد السياسة الأميركية تجاه إيران منحاً تصعيدياً تحت ذرائع مختلفة واطلاق اتهامات واحدة تلو الأخرى حسب التطورات في الساحات الساخنة مثل العراق وافغانستان وفلسطين. لكن وضع بعض المؤسسات الإيرانية العسكرية والإعمارية، على لائحة المنظمات الأرهابية يشكل خطوة غير مسبوقة في المسار المتأزم اساساً في علاقة الولايات المتحدة الأميركية مع ايران. وقد علق اكثر من مراقب على الصعيد الدولي على هذه الخطوة الأميركية بأنها خطوة خطيرة للغاية لا لأنها تشكل تصعيداً خطيراً في الأزمة الحالية مع ايران فحسب بل لأنها تشكل سابقة غير معهودة من واشنطن في رفع درجة التدخل في الشؤون الداخلية لدول ذات سيادة وإنها، أي الخطوة الأميركية، وبالرغم من انها لا زالت قيد الدرس فقد تكون لها تداعيات خطيرة على صعيد تأجيج الصراعات الإقليمية وتصاعد احتمالات وقوع حروب جديدة في الشرق الأوسط- المنطقة التي تشهد حالياً حربين طاحنتين في العراق وافغانستان بسبب التدخل المباشر للولايات المتحدة الأميركية.

سنحاول هنا وفي قراءة سريعة استكشاف الأسباب الكامنة وراء الخطوة الأميركية و رسم بعض من الفرضيات للخطوات الأميركية المقبلة. لأن الأسباب المعلنة من قبل واشنطن واضحة و هي وكما تدعي أميركا ان طهران تتدخل في قضايا اقليمية وتقيم تحالفات مع منظمات تصنفها واشنطن من ضمن المنظمات الأرهابية كحزب الله في لبنان وحركة حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين والتدخل في الشؤون العراقية وتزويد القوات المتمردة العراقية بأسلحة فتاكة تعرض القوات الأميركية في العراق و افغانستان للخطر. هذه الأسباب التي بدورها لم تتأكد من قبل اطراف محايدة ولم تتمكن واشنطن من تقديم اية اثباتات واضحة لها، واذا ما اردنا أن نقبلها جدلاً ليست كافية او ليست مبررة للقيام بمثل هذه الخطوة من قبل واشنطن. فالساحات الساخنة في المنطقة وتحديداً الساحة العراقية تشهد تدخلات اقليمية بأشكال مختلفة والمقاومة العراقية ضد الإحتلال الأميركي وحسب الرواية الأميركية الرسمية التي انعكست في العديد من التقارير ومنها تقرير

هاملتون بيكر وخاصة المقاومة المصنفة أميركياً بالمقاومة السنّية في وسط وغرب العراق انما تحظى بمساندة بعض الدول الحليفة لواشنطن في المنطقة إما بالمال او بكوادر ذات هوية عربية تنتقل من حدود الدول التي لها علاقات جيدة مع أميركا ولم تقم واشنطن بخطوات عملية ضد هذه الدول بل اقتصرت ردة فعل الأميركية تجاه هذه الدول بانتقادات محدودة ومطالبتها باتخاذ اجراءات تحول دون التحاق مواطنيها بالمنظمات التي تقاوم الأحتلال الأميركي في العراق. وكل التقارير تؤكد الحقيقة القائلة بأن المقاومين او العابرين للمناطق الحدوية لدول الجوار العراق هم من العرب ولم يكن هناك تقرير واحد لا في الماضي ولا في المرحلة الراهنة يؤكد وجود حتى مقاتل متطوع من ايران، وهذا لا يعني ان ايران تدعم الإحتلال الأميركي للعراق او ان تقبل بما تقوم به واشنطن من مجازر في العراق مثل الذي حصل في الفلوجة. والسياسة الإيرانية فيما يتعلق بإحتلال العراق كانت و لاتزال تتسم بالوضوح التام وهي ضرورة انهاء الإحتلال الأميركي للعراق وجدولة انسحاب القوات الأجنبية منه والحفاظ على وحدته ارضاً وشعباً ومواجهة اية محاولة لتقسيمه او تفتيته عبر سيناريوات تطرحها واشنطن وآخرها مشروع قرار غير ملزم من مجلس الشيوخ الأميركي الذي يقسم العراق إلى ثلاثة اقاليم كحل للأزمة العراقية.

اذاً ما هي الأسباب الكامنة وراء الخطوة الأميركية في وضع بعض المؤسسات الإيرانية، العسكرية والمدنية، في لائحة المنظمات الأرهابية؟

الفرضية الأولى تقول بأن ما قامت به واشنطن بهذا الدرجة من التصعيد في و تيرة ازمتها مع ايران لازال يندرج في اطار الحرب النفسية التي تشنها واشنطن ضد طهران منذ اكثر من اربع سنوات عبر العقوبات التي تفرضها او التهديد باستعمال القوة ضد المنشآت النووية الإيرانية بسبب اصرار ايران على برنامجها النووي التي تؤكد بأنه كان ولا يزال برنامجاً سلمياً لايهدف لا في الوقت الراهن و لا في المستقبل ايصال ايران إلى قدرات نووية عسكرية، وإنها تستمر ببرنامجها هذا مستخدمة حقها في امتلاك قدرات نووية مدنية تتطابق مع المعاهدة الدولية للحد من الإنتشار النووي. وحسب هذه الفرضية، فإن محاولات الولايات المتحدة الأميركية والترويكا الأوروبية لم تنجح في اقناع القيادة الإيرانية على التخلي عن برنامجها النووي وخاصة فيما يتعلق بعملية تخصيب اليورانيوم والذي لم يتجاوز المعايير المحددة من قبل الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وكل التقارير الصادرة عن هذه المنظمة الدولية تؤكد صحة ما تقولها إيران وتفند الكثير من الإدعاءات الأميركية. لذلك وبسبب هذا الإخفاق الأميركي، تلجأ واشنطن إلى خطوات تصعيدية بعد ان فشلت في المشاريع السابقة.

الفرضية الثانية تقول بأن الخطوة الأميركية هذه تندرج في اطار ردة فعل أميركية ذات النزعة الإنتقامية إيران بسبب مساندتها لحزب الله اللبناني الذي نجح في كسر شوكة

القوة الضارية للعدو الإسرائيلي واسقاط اسطورة الجيش الذي لايقهر ووضع سابقة غير مسبوقة لإفشال العقيدة القتالية التي تشكل الدافع الرئيسي للجيش الأسرائيلي واعادة الروح لمعنويات الجيوش العربية التي تعرضت للإنهيار على مدى اكثر من اربعة عقود تمكنت اسرائيل وعبر قوتها المتفوقة من تجذير هذا الأنهيار في الروح القتالية للعرب والمسلمين. وتريد الولايات المتحدة الأميركية عبر خطوة وضع بعض المؤسسات العسكرية الإيرانية على لائحة المنظمات الإرهابية ارسال رسائل إلى الدول والجيوش العربية والرأي العام العربي والإسلامي بأن الإخفاق الإسرائيلي في تحقيق اهدافه المعلنة في حرب تموز/يوليو عام ٢٠٠٦ ضد اسرائيل لايعكس بالضرورة حالة انهزامية لجيش متفوق مثل الجيش الإسرائيلي ويجب عدم المبالغة في قدرة المقاومة الإسلامية في لبنان لصد الهجوم الإسرائيلي ومقاومته لأكثر من ثلاثين يوماً أمام أقوى قوة عسكرية اقليمية.

الفرضية الثالثة وهي الأخطر بين الفرضيات المحتملة ترتكز على قرب تنفيذ خطة أميركية بتوجيه ضربة عسكرية ضد المنشآت النووية الإيرانية بحجة ان ما تقوم به واشنطن يندرج في اطار مايسمى بالحرب ضد الإرهاب الدولي التي تبنته ادارة الرئيس جورج بوش بعد احداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ وان الولايات المتحدة الأميركية لاترغب بمواجهة مع الجيش النظامي الإيراني بل تنوي توجية ضربات استباقية ضد قواعد وقدرات منظمة "ارهابية" إيرانية وحرمانها من قدرات هجومية مضادة و قدرتها على اخذ زمام المبادرة في جر القوات المعادية إلى حرب طويلة تستنزف من خلاله قدرات العدو.

لا توجد مؤشرات واضحة على ارجحية احدى الفرضيات الثلاث في دراسة الأسباب الكامنة وراء الخطوة الأميركية بتصنيف مؤسسات إيرانية، عسكرية ومدنية (جهاد البناء) من ضمن المنظمات الأرهابية، لكن الواضح هنا ان واشنطن تريد ايصال رسالة إلى القيادة الإيرانية بأن واشنطن وعبر وسائل متنوعة عازمة على تحجيم القوة الإيرانية بعد الإختلالات التي حصلت في موازين القوى في الشرق الأوسط نتيجة غياب القوة العسكرية العراقية بعد انهيارها امام القوة الأميركية و بعد سقوط نظرية التفوق العسكري الإسرائيلي بفعل المقاومة الباسلة للمقاومة.

في النهاية لابد من الاشارة إلى نقطة مهمة و حساسة للغاية وهي انه اذا كان للولايات المتحدة الأميركية الحق في تصنيف مؤسسات عسكرية ومدنية تابعة لدولة ذات سيادة بمسميات تهدف إلى تحقيق هدف أميركي معين، فما بال المنظمات الأميركية العسكرية والأمنية الخاصة والمدعومة من قبل البنتاغون التي تعمل خارج الولايات المتحدة و تضرب وتقتل وتغتال وتنهب و تعيث في الأرض فساداً مثل منظمة بلوك ووتر الأميركية العاملة في العراق واستخدامها لعملاء عبر عقود رسمية مدعومة من الإدارة الأميركية وما هي التسمية المناسبة لمثل هذه المنظمات أو الشركات الأميركية التي تزداد كل يوم؟!

الإسلاميون في تركيا ومشروع التغيير

- رسول طوسون
- فائق بولوت
- سمير صالحة

الإسلاميون في تركيا ومشروع التغيير

ندوة *

حَالَ الجيش التركي والمحكمة الدستورية في ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٧ دون انتخاب عبدالله غول، الرجل الثاني في حزب العدالة والتنمية ووزير الخارجية، رئيساً للجمهورية. وكان أن ذهبت البلاد إلى انتخابات نيابية مبكرة في ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠٧ أسفرت عن انتصار كبير لحزب العدالة والتنمية بـ ٤٧,٥ في المئة من الأصوات. وبعدما كان زعيم الحزب ورئيس الحكومة رجب طيب أردوغان أوحى قبيل الانتخابات بإمكانية البحث حول رئيس "توافقي"، عاد الحزب وقرّر ترشيح غول للرئاسة حيث فاز بها في ٢٨ آب/اغسطس ٢٠٠٧ ليكون أول رئيس "إسلامي" للجمهورية العلمانية ويجلس في المقعد الذي شغله ١٥ سنة مؤسس الجمهورية مصطفى كمال أتاتورك.

طرحت سيطرة حزب العدالة والتنمية على الرئاسات الثلاث: البرلمان والحكومة ورئاسة الجمهورية تساؤلات كثيرة من قبيل استكمال مشروع حزب العدالة والتنمية في ترسيخ الديموقراطية والحريات وحقوق الإنسان، بعدما عاد الانسجام بين رئاستي الجمهورية والحكومة. لكن الجبهة العلمانية كان لديها مخاوف من أن يكون ذلك مقدمة لأسلمة الدولة وتغيير طبيعتها العلمانية.

ولا شك أن مشروع الدستور الجديد الذي يعدّه حزب العدالة والتنمية سيكون اختباراً لقدرته على إحداث التغيير المنشود، ولا سيما في مجال الحريات الدينية، ومنها السماح للمحجبات بدخول الجامعات.

في ندوة "شؤون الأوسط" لهذا العدد، استطلعنا آراء ثلاثة كتّاب أتراك متنوعي الاتجاهات حول المرحلة الحساسة الراهنة والمهمة التي تمّر فيها تركيا بعد وصول غول إلى الرئاسة وتجديد سلطة العدالة والتنمية لخمس سنوات جديدة. وحاولت الندوة رسم صورة لتركيا من الداخل، كما التطرق إلى جوانب من سياسة تركيا في الشرق الأوسط والعلاقة مع الاتحاد الأوروبي. والكتّاب الثلاثة هم: **رسول طوسون**، نائب سابق عن حزب العدالة والتنمية (٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٧) ومحلل سياسي في صحيفة "يني شفق"؛ **فائق بولوط**، محلل

(*) اعدّ للندوة د. محمد نورالدين.

سياسي ويحمل خطاباً مناوئاً لحزب العدالة والتنمية؛ و**سمير صالحة**، الأستاذ في جامعة كوجا الي، والمختص في العلاقات الدولية.

شؤون الأوسط: ما الأثر الذي يمكن أن يحدثه وصول عبدالله غول إلى الرئاسة في ما خص مشروع حزب العدالة والتنمية السياسي والاقتصادي؟

رسول طوسون: بقدر ما هو حزب العدالة والتنمية خارج نقاش مشروعيته أمام القانون، بقدر ما هو حزب لا يمكن أن يحظى بالقبول و"الهضم" من جانب الأوساط التي تظنّ نفسها حارسة النظام القائم. لهذا السبب فإن بعض المؤسسات داخل النظام تعمل على عرقلة جهود حزب العدالة والتنمية في اتجاه تحقيق أهدافه الاقتصادية والسياسية. وفي كل خطوة يخطوها حزب العدالة والتنمية كان المقام الأكثر تأثيراً الذي يتصرف كزعيم للمعارضة ضد هذه الخطوات هو مقام رئاسة الجمهورية بالذات. لقد استخدم الرئيس العاشر للجمهورية أحمد نجدت سيزير قصر تشانكايا على امتداد ولايته كمركز للمعارضة وقطعَ سرعة حزب العدالة والتنمية.

لذا مع وصول عبدالله غول إلى الرئاسة، انتفى عامل الكبح هذا وتحول مقام الرئاسة إلى مركز لتسريع خطوات حزب العدالة والتنمية.

إذا كان كافياً مجرد عدم عرقلة مقام الرئاسة لسرعة حزب العدالة والتنمية، فإن الموجود اليوم رئيس جمهورية يقدم الدعم. لذلك يمكن القول إن تركيا يقع على رأسها رئيس منسجم مع الحكومة هي تركيا أكثر قوة. ولم يعد أمام حزب العدالة والتنمية، ولا سيما في أهدافه السياسية، أية أعذار لعدم تحقيقها.

سمير صالحة: منصب رئاسة الجمهورية في تركيا كما تعرفون له ميزاته وخصائصه، وهو رغم كونه، كما يقال أو كما جاء في الدساتير التركية المتعاقبة منصباً رمزياً إلا أن القيادات السياسية والعسكرية والاقتصادية في البلاد أولته اهمية بالغة. وكانت الشخصيات التي تولت هذا المنصب تعمل في اكثر من مكان للتدخل أو التأثير في القرارات الحياتية الهامة التي تعني تركيا سواء كانت داخلية او خارجية، وغول برأيي لن يغير هذه القاعدة . السؤال هنا برأيي: هل سينسى غول كيف صارع من اجل الوصول الى هذا الموقع وانه لم يكن وحده في هذه المواجهة ؟ هل سيأخذ بعين الاعتبار سياسة حزب العدالة والتنمية ومواقفه وطروحاته عند اعطاء قراراته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟ هل المراسيم والتعيينات التي بدأها مؤخراً تعكس ميوله السياسية والعقائدية ؟ ما يجري ليس جديداً على الاتراك اطلاقاً. رؤساء الجمهوريات كلهم كانوا عند اعطاء قراراتهم يتعاطفون مع جهة او موقف معين، وهذا لا يعني بالضرورة التخلي عن التعهدات والالتزامات المعلنة اثناء اداء اليمين وحيال الدستور. وغول لن يفعل عكس ذلك، لكن السؤال الواجب طرحه هنا هو معرفة حجم وقوة العلاقة والترابط الذي سيستمر

بين حزب العدالة الحاكم والرجل الثاني في الحزب عبد الله غول الذي اصبح رئيساً للبلاد ومن سيؤثر اكثر على الآخر في اي مجال والى متى وكيف ستحسم هذه المسائل؟ عبد الله غول لن يكون بعد الساعة جزءاً من مشروع العدالة والتنمية، لكن السؤال هو هل سيكون غول قادراً على دفع العدالة والتنمية للتأقلم مع سياسته ومواقفه وشعاراته التي سيطرحها هو في المستقبل القريب كرئيس للجمهورية؟

فائق بولوط : إن جوهر البرنامج السياسي والإنماء الاقتصادي لحزب العدالة والتنمية هو العولمة. حيث يتم التركيز على الاقتصاد الليبرالي والسوق الحرة والخصخصة حسب البرامج التي اعدها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي اللذان تسيطر عليهما الولايات المتحدة الأميركية. حيث تتعهد وتصمم الحكومة الجديدة على الاستمرار بهذه البرامج حتى النهاية. ماذا حققت هذه السياسات للشعب التركي؟

١ ـ لم يتم تحقيق العدالة في توزيع الدخل. اصبح الغني اكثر غنى والفقير اكثر فقراً:لم يتم تحقيق تحسن ملموس في أوضاع قطاع العاملين والفلاحين والمتقاعدين نتيجة السياسات الاقتصادية التي فرضها صندوق النقد الدولي، حيث حققت مجموعة "كوتش"، التي هي المؤسسة الكبيرة من بين اكبر مؤسستين في تركيا، هدفها الذي خططت للوصول اليه في عام ٢٠١٠، في عام ٢٠٠٥، وضاعفت رأسمالها عدة اضعاف. وكبرت مجموعة "دوغان" التي تحتكر الصحافة ووسائل الإعلام ثمانية اضعاف. وتضاعف عدد الاغنياء الذين يمتلكون مليار دولار وما فوق والذين كان عددهم ثلاثة اشخاص فقط في عام ٢٠٠٢ إلى ١٥ شخصاً. ويوجد في البلد ١٩ مليون فقير وجائع. ولا يتجاوز راتب نصف العاملين ٣٣٠٠ دولار. (مقالة الصحفي علي بولاتش المؤيد لحزب العدالة والتنمية والتي نشرها في صحيفة الزمان بتاريخ ٥ تموز/يوليو ٢٠٠٧).

٢ ـ لقد تضاعف عدد المواطنين المدينين إلى ٤,٤ اضعاف. ووصل عدد العاطلين من العمل إلى ثلاثة ملايين تقريباً. ان سعر المازوت في تركيا هو الاغلى في العالم.

٣ ـ وصل رأس المال الاجنبي الذي يدخل تركيا إلى ثمانين مليار دولار. وتدفع تركيا اعلى فوائد في العالم لاستثمارات رأس المال الاجنبي: ٢٢ في المئة ويسيطر الاجانب على ٧٢ في المئة من البورصة و٥١ في المئة من المصارف.

٤ ـ يتم اعطاء المؤسسات العامة كهبة إلى الاحتكارات المحلية والاجنبية في عملية الخصخصة. ويوجد بين الشركاء السريين اوالعلنيين يهود في مؤسسات الدولة مثل شركة الصناعات البترو ـ كيميائية PETKIM ومؤسسة النفط والغاز الطبيعي TUBRAS ومؤسسة الهاتف TELEKOM، واعطى حزب العدالة والتنمية امتيازات كبيرة لعدة شركات لها علاقة بالطرق الدينية من اجل ايجاد ارضية رأسمال مؤيد له.

٥ ـ تم شرح الاصلاحات التي تم القيام بها في مجال الصحة على الشكل التالي: تخفيف

عبء مستشفيات الدولة وتحقيق امكانية استفادة المواطنين من امكانيات المستشفيات الخاصة. الا ان شراء الدولة خدمات من المستشفيات الخاصة، يؤدي إلى اغراض تجارية، ما يسبب تهديداً لحياة البشر. لأن المؤسسات الصحية الخاصة تستخدم مواد رديئة في العمليات والمعالجة. حيث يتم استخدام وعاء جمع البول لعدة مرات خلال تشخيص المرض ومعالجة المرضى. ويتم استخدام وحدة الدم عدة مرات ولمرضى مختلفين. تكلف عملية فتح شرايين القلب ١٥ الف ليرة تركية جديدة (حوالى ١١ ألف دولار). لا تدفع الدولة الا ٥-٦ آلاف ليرة منها فقط. تستخدم المستشفيات الخاصة خيوط عمليات رديئة جداً. وبذلك يرتفع ربح المستشفيات الخاصة الذي يجب ان يكون ١٠ في المئة إلى ٣٥ - ٤٠ في المئة وتخصص الدولة ٥ في المئة كميزانية للقطاع الصحي، ٨٥ في المئة منها للأدوية. حيث بنت شركات الادوية الكبرى نظاماً بفضل حزب العدالة والتنمية بات لا يمكن الحد منه. (كراس عام ٢٠٠٧ لحزب السعادة ذي الاتجاه الإسلامي الذي ينتقد حزب العدالة والتنمية).

٦ - تم توثيق قيام ادارات بلديات المدن والمحافظات لحزب العدالة والتنمية بتحقيق ارباح غير مستحقة لمؤيديها. تُعرف هذه باسم ترفيهات "علي دبيو" (كراس حزب السعادة).

٧ - بمقابل ذلك قدم حزب العدالة والتنمية قروضاً لقطاع الزراعة اكثر من الحكومات الماضية. لذلك اعطى القرويين الذين يشكلون اكثر من ٪ ٣٥ من عدد سكان تركيا اصواتهم لحزب العدالة والتنمية.

٨ - اصبح الاقتصاد التابع للخارج والمعولم ضعيفاً، لدرجة ان أي تموج بسيط في مراكز التمويل الكبيرة في العالم الرأسمالي (الولايات المتحدة الأميركية واوربا واليابان والخ) يؤدي إلى زعزعة كبيرة في البلد، حيث يوجد الجمود والغموض في افق الدول الرأسمالية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأميركية حسب تحاليل مراكز التمويل الغربية. (من تحليل أرغين يلديزاوغلو - صحيفة جمهوريات ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧)، يمكن ان ينعكس هذا الخطر على تركيا بأضعاف.

أما على الصعيد السياسي فيخطط حزب العدالة والتنمية للقيام بإصلاحات سياسية واجتماعية في اطار المقاييس التي حددها الاتحاد الأوروبي. ويتم اجراء تعديلات على دستور ١٩٨٢ الذي تم اعداده في عهد الطغمة العسكرية عام ١٩٨٠ حيث ستقوم اللجنة التي تم انشاؤها لهذا الغرض بأعداد مسودة دستور وسيطرحه لمناقشته على الرأي العام، وستقوم الحكومة بصوغ الشكل النهائي له وتقديمه لاستفتاء شعبي بعد مناقشته في البرلمان. ان العلمانية والعلاقة بين الجيش والنظام المدني والمواد المتعلقة بالحقوق الديموقراطية ووضع المؤسسات المدنية والجماعات الدينية تؤدي إلى نقاشات في تركيا.

يمكن ان تظهر نقاشات وتوترات على محور العلمانية. سيقوم حزب العدالة والتنمية بتعديلات جديدة على مفهوم العلمانية الكمالية المتواصلة منذ أعوام العشرينات، وستحاول

قصقصة قواعد العلمانية القديمة وستجعلها اكثر مرونة كما هو واضح في مسودة التعديل. وستتخذ النموذج العلماني السائد في الغرب اساساً لها. ان ذلك يكفي لأن يكون سبباً للتوتر. حيث اثبتت دراسات الرأي العام التي تم القيام بها قبل فترة قصيرة واظهرت ان ٣٠ في المئة من الشعب التركي يرى ان المفهوم العلماني لحزب العدالة والتنمية خطير. تعتبر مسودة تعديل العلاقات بين الجيش والسلطة المدنية موضوعاً حساساً جداً، "حيث تنص المسودة الجديدة للدستور على تعيين رئيس الاركان من قبل الحكومة وليس من قبل رئيس الجمهورية. وسيكون رئيس الاركان تحت إمرة الحكومة. ان رئيس الاركان الذي يعتبر قائداً في زمن الحرب لم يعد قائداً باسم رئيس الجمهورية".

من الواضح ان الجيش لن يقبل بهذه التعديلات بسهولة. لذلك فإن علاقة الجيش بالسلطة المدنية تحولت إلى صراع خفي وغير مباشر بعد انتخاب عبد الله غول رئيساً للجمهورية، حيث لم يشارك رئيس الاركان يشار بيوك انيت وقادة الجيش في حفل اليمين الدستوري لغول في البرلمان وفي الحفل الذي اقيم في قصر الرئاسة. لكن لا تزال معادلة المقاطعة السرية ـ الاتصال العلني مستمرة دون قطع علاقات البروتوكول الرسمية. اذا صح التعبير فإن الجيش لا يريد قطع شعرة معاوية. ان الرئيس غول ورئيس الوزراء رجب طيب اردوغان يستخدمان تكتيكات مشابهة. اولاً ان غول واردوغان يحاولان نيل قبول الجيش والدولة خطوة فخطوة ويتبعان سياسة تهدف إلى بناء علاقة ودية معها كخطوة ثانية وجعل الجيش يوافق على التعديلات. لذلك ان اردوغان لا يقبل بالقضية الكردية ويحذر النواب الأكراد من الحزب الديموقراطي في تركيا، ويوجه رسائل شديدة اللهجة لحزب العمال الكردستاني. وقام غول بأول زيارة له كرئيس للجمهورية إلى منطقة شرق وجنوب شرق الاناضول التي اغلبية سكانها من الأكراد وعقد اجتماعاً هاماً مع الجنرال بيوك انيت قبل الزيارة المذكورة. ربما اشعلوا الضوء الاخضر للزيارة المرتقبة لرئيس الجمهورية العراقية جلال الطالباني إلى تركيا. ان اردوغان ينظر إلى نسبة الاصوات التي حصل عليها حزب العدالة والتنمية من الأكراد ويقول:"ان حزب العدالة والتنمية هو الممثل الحقيقي للشعب الكردي" وبذلك يريد التستر على المشكلة الكردية وانقاذ المشهد من خلال القيام بتعديلات شكلية بما يخص الديموقراطية ويريد استخدام القوة الديناميكية الكردية ضد الجيش من خلال كسب البلديات التي حصل عليها حزب المجتمع الديموقراطي (الكردي) في تركيا والقاعدة الجماهيرية لصفوف حزب العدالة والتنمية. لأن هناك مسألتين حساستين بالنسبة للجيش هما: العلمانية والمشكلة الكردية. يمكن أردوغان وغول ان يتفقا مع الجيش بهذا الصدد. ويمكن ان يكون ذلك خطوة اولى لاقتراب اوساط الجيش ايجابياً نحو غول واردوغان.

ان الارضية الاجتماعية والمادية للعلمانية في تركيا تختلف تماماً عن الدول العربية

والإسلامية. ليس الدين والدولة (الكماليون) في حالة مواجهة في تركيا، عكس ما يرى اغلب المفكرين والمثقفين العرب. ان العلمانية تلقى قبولاً من قبل جماهير واسعة، وهي منقوشة في ارواح الناس. في مقابل ذلك فإن جذور الدين كإيمان عميقة في المجتمع. لذلك لا يوجد بين الدين والعلمانية مشكلة لا يمكن الاتفاق عليها، بل ان اغلب العلمانيين في تركيا متدينون ايضاً واغلب المتدينين يؤمنون بفصل الدين عن الدولة في الحياة اليومية.
مثلاً: ان الحجاب الذي يثير نقاشات كبيرة في البلدان العربية غير موجود في برنامج حزب العدالة والتنمية. حيث اظهرت استطلاعات الرأي العام التي تم اجراؤها قبل ستة اشهر ان نسبة ٧٦ في المئة من المتدينين لا يعارضون قيام فتياتهم بخلع حجابهن من اجل تلقي التعليم في المدارس، و٦٠ في المئة من المشاركين في الاستطلاع لا يهتمون بذهاب زوجة غول خير النساء إلى قصر الرئاسة بالحجاب، والنسبة نفسها من المشاركين تعتبر ان الحجاب ليس من القواعد الاساسية للدين و٤٠ في المئة من المشاركين في الاستطلاع يرون ان الحجاب رمز ديني تم تسييسه.
إن السماح بحرية ارتداء الحجاب والتشجيع على انتشاره يتعارض ان مع المشروع "الديموقراطي" لحزب العدالة والتنمية. ان الامتيازات التي يتم اعطاؤها للحجاب ستلحق الضرر بالمساواة بين الرجل والمرأة في تركيا قبل كل شيء. وهذا يتعارض مع القواعد الديموقراطية ايضاً ، ويشكل خطراً من الناحية العلمانية. (لقاء مع الكاتب اردم طرهان صاحب شركة استطلاع: صحيفة راديكال ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧).
من الواضح ان حكومة حزب العدالة والتنمية ورئيس الجمهورية عبدالله غول قد عززوا وسيعززون ادخال مؤيديهم في كوادر السلطة. وهذا الاجراء يعتبر تفرقة، حيث لم يقم غول بدعوة المؤسسات المدنية التي نظمت مسيرات الجمهورية قبل الانتخابات إلى حفل رئاسة الجمهورية. ويؤدي هذا النوع من التفرقة إلى تقاطب المجتمع وانقسامه، ورد فعل الجيش والكماليين الموجودين في الدولة.
لا توجد ارضية وظروف الآن لتدخل الجيش في السياسة. تشير الاستطلاعات إلى ان الجيش لا يزال هو المؤسسة المرموقة في تركيا، وتؤكد ان الانسان التركي لا يؤيد تدخل الجيش بالسياسة. يجب ان نزيل القناعة المغلوطة التي مفادها ان حزب العدالة والتنمية حصل على ٤٦ في المئة من اصوات الناخبين، لكون الجيش تدخل بالسياسة (معارضة الجيش لانتخاب غول لرئاسة الجمهورية)، لأن هذا الرأي غير صحيح. لقد اثبت استطلاع رأي عام جدي تم اجراؤه في شهر أيلول/سبتمبر لعام ٢٠٠٦، أي قبل حدوث الصراع بين الجيش وحزب العدالة والتنمية بأن نسبة اصوات ناخبي حزب العدالة والتنمية ٤٥,٧ في المئة. اضافة إلى ذلك فإن ٧٠ في المئة من الذين شاركوا في استطلاع رأي عام تم اجراؤه بعد الانتخابات يؤمنون ان لا علاقة لمنع عبد الله غول من ان يكون رئيساً

للجمهورية بارتفاع الاصوات التي حصل عليها حزب العدالة والتنمية في الانتخابات الاخيرة.

اذا نظرنا إلى الانتخابات الاخيرة نرى ان حزب العدالة والتنمية اخذ اصوات حزب الطريق القويم وحزب الوطن الام وحزب الحركة القومية والحزب الشاب. إن حزب الطريق القويم وحزب الوطن الام والحزب الشاب حصلوا في انتخابات ٢٠٠٢ على٥,٢٢ في المئة من الاصوات. ذهبت في انتخابات ٢٠٠٧ نسبة ٦ في المئة من اصوات حزب الحركة القومية إلى حزب العدالة والتنمية وحصل حزب الطريق القويم على نسبة ٥,٥ في المئة من الاصوات واذا اضفنا نسبة (١١ في المئة) المتبقية إلى نسبة الاصوات القديمة (٣٤ في المئة) لحزب العدالة والتنمية نستطيع معرفة كيفية حصول هذا الحزب على اصواته. لذلك ان الذين صوتوا لحزب العدالة والتنمية وفضلوا رجب طيب اردوغان ليسوا لكونهم مناهضين للجيش بل لكونهم يريدون الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي. اظهر استطلاع رأي عام تم اجراؤه بعد الانتخابات مباشرة ان نسبة ٧٨ في المئة من الذين صوتوا لصالح حزب العدالة والتنمية فضلوا هذا الحزب من اجل" برنامج اقتصادي واجتماعي مستقر".

يحمل سبب اعطاء الأكراد اصواتهم لحزب العدالة والتنمية معنى مناهضاً للجيش عكس الناخب التركي. ان تهديدات الديموقراطيين الاجتماعيين (ظاهرياً) وحزب الحركة القومية خلال الدعاية الانتخابية وقيام الجيش بعمليات عسكرية ما وراء الحدود والشارات المناهضة للأكراد في مسيرات الجمهورية ادى إلى ان ينظر الشعب الكردي إلى حزب العدالة والتنمية "كأهون الشرّين". ان حزب العدالة والتنمية ليس حزباً "محباً للأكراد" لكنه لم يعلن عن سياسة عدائية للأكراد علناً كما فعل حزب الشعب الجمهوري وحزب الحركة القومية وبعد ان تجمعت الاصوات الكردية التي كانت تذهب إلى حزب الطريق القويم وحزب الوطن الام وحزب السعادة في حزب العدالة والتنمية وتم النظر إلى هذا الحزب كأنه الممثل الوحيد للأكراد. ان هذا التحليل خاطئ، لأنه اذا نظرنا إلى الاصوات التي حصل عليها من الاحزاب القومية (المناهضة للأكراد) فإننا نرى ان حزب العدالة والتنمية يستخدم شعارات قومية - دينية إلى حد كبير. ان هذا الوضع يمنع حزب العدالة والتنمية من التعامل بموضوعية مع المشكلة الكردية وايجاد حلول مقبولة لها. ان حزب العدالة والتنمية الذي رأى هذا الوضع رفع "وتيرة المقولات القومية " إلى حد كبير وتقريباً دخل بسباق رفع الاعلام مع حزب الشعب الجمهوري وحزب الحركة القومية.

إن نسبة الاصوات الإسلامية لحزب العدالة والتنمية هي ٨ - ١٠ في المئة. وباقي الاصوات تأتي من اوساط العولمة والسوق الحرة والليبيراليين والمحافظين والقوميين الديموقراطيين.

ان هذه الحقيقة تمنع حزب العدالة والتنمية من ازالة العلمانية كلياً او تحويل تركيا إلى دولة دينية وبناء نظام اسلامي في البلد. اضافة إلى ذلك هناك من يظن في الولايات

المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي ان لدى حزب العدالة والتنمية نيات خفية وان دخول حزب العدالة والتنمية في مسار ديني علناً سيزعج الاوساط الغربية كثيراً. لذلك في الوقت الذي يحاول فيه حزب العدالة والتنمية قصقصة العلمانية ووضعها في القالب الذي يريده، عليه ان يكون حذراً وان يتبع سياسة عقلانية ايضاً.

شؤون الأوسط : هل تعتقد أن حزب العدالة والتنمية يحمل مشروعاً بعيد المدى لأسلمة الدولة أم لا؟ وهل الإصرار على وصول غول إلى الرئاسة جزء من هذا المشروع؟

رسول طوسون : لا توجد مشكلة مثل "أسلمة" تركيا. وعدا ذلك تركيا بلد نسبة المسلمين فيه ٩٩ في المئة. ولا يوجد لدى حزب العدالة والتنمية مشروع لأسلمة الدولة على المدى البعيد، بل العكس تماماً إن الحزب يحمل مشروعاً لدمقرطة الدولة وهذا كرّره بوضوح كما في برنامجه الحزبي كذلك في بياناته الانتخابية وبياناته الوزارية. في حال تحقق الدمقرطة فإن الحريات، ولا سيما تلك التي تبدو اليوم محدودة، مثل حرية الدين والعبادة والتعبير، ستتحقق. لذا فإن الإصرار على عبدالله غول رئيساً للجمهورية هو إصرار على عملية دمقرطة الدولة. لأن غالبية الناخبين أعطوا أصواتهم إلى حزب العدالة والتنمية كردة فعل على الموقف المعرقل لوصول غول (في نيسان/أبريل ٢٠٠٧) إلى الرئاسة. وقد استجاب حزب العدالة والتنمية لردة فعل الناخبين في الانتخابات وأعلن ترشيح غول مجدداً.

سمير صالحة : تركيا بحكم مسارها التاريخي والسياسي خصوصاً بعد حرب الاستقلال التي جرت بين سنوات ١٩١٩ و١٩٢٣ اكتسبت هوية سياسية فكرية عقائدية جديدة. الشعب بغالبيته من المسلمين، لكن الدولة هي لائكية تتبنى طروحات ومفاهيم علمانية غربية حديثة ساهم مؤسس الدولة مصطفى كمال اتاتورك بوضعها واقرارها تحت شعار طيّ مرحلة واطلاق مرحلة جديدة، لكن ما جرى لا علاقة له اطلاقاً بالمساس بالشعائر الدينية الاسلامية والتطبيق والممارسة.

العدالة والتنمية يعرف تماماً كل هذه المسائل، وهو برأيي لن يخرج عن القواعد والاطر المعلنة بهذا الشأن رغم اصراره على اطلاق حملة واسعة من التغيرات في التعامل مع القضايا التي يصفها جزءاً من الحريات الاساسية التي ينبغي حلها ضمن مسار العلاقات التركية ـ الأوروبية. باختصار لا اظن ان العدالة والتنمية التركي سيناقش مسألة من هذا النوع لأنه لا يطرحها أولاً ضمن برامجه وخططه السياسية والاجتماعية، ولأنها ستتعارض مع المسار الأوروبي ثانياً. فالدول الأوروبية التي تطالب بتعزيز الحريات وتوسيع رقعتها داخل تركيا لن ترضى بأن تكون نتيجة ما تطالب به اعلان اسلمة الدولة في تركيا. من هنا، مسألة الاصرار على ايصال غول الى منصب رئاسة الجمهورية في تركيا لا علاقة لها بمثل هذه المسألة اطلاقاً فقيادات العدالة رددت دائماً رفضها لما توصف به او ما

يحاول بعض المفكرين والمثقفين تحميلها اياه جماعة الاسلام المعتدل. فرجب طيب اردوغان قال اكثر من مرة ان حزبه خارج هذه الطروحات والصفات التي يتلطى من ورائها البعض في عالمنا الاسلامي في محاولة لتصنيف الاسلام والمسلمين ضمن فئات وتركيبات وترتيبات لا تخدم سوى المراهنين على تفتيت التقارب بين الدول والشعوب الاسلامية.

فائق بولوط : يوجد لحزب العدالة والتنمية مشاريع بعيدة المدى خاصة به، وان انتخاب عبدالله غول إلى رئاسة الجمهورية هو جزء من تلك المشاريع. وسيحاول رئيس الوزراء اردوغان القيام ببعض التعديلات القانونية بهدف انتخابه رئيساً للجمهورية في المرحلة المقبلة. يمكننا تعداد المشاريع الطويلة المدى لحزب العدالة والتنمية: دولة اسلامية معتدلة في طريق الانضمام للاتحاد الأوروبي ولها علاقات جيدة مع الولايات المتحدة الأميركية. القيام بتعديلات في البنية الفوقية والتحتية من شأنها ان تكون نموذجاً للدول الإسلامية. توظيف كوادر حزب العدالة والتنمية في المواقع الحساسة للدولة ومؤسساتها الدستورية. خلق مجموعة رأسمال (جمعية رجال الاعمال المستقلين ذات الاتجاه الإسلامي) تدعم حزب العدالة والتنمية دون قيد او شرط توازي جمعية رجال الاعمال في تركيا التي تمثل رأس المال الكبير. مشروع إيجاد حل للمشكلة الكردية مع أكراد العراق والولايات المتحدة الأميركية، وبذلك تحويل تركيا إلى حامي للمنطقة الكردية العراقية.

لا شك انه يمكن تحقيق ذلك من خلال تقديم الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي الدعم للحكومة التركية، لأنه لن يستطيع حزب العدالة والتنمية تحقيق ذلك بديناميكيته الداخلية في الوقت الحالي. ولن ينجح أي مشروع له دون الدعم الخارجي. ماذا سيكون ثمن ذلك؟ هذا سؤال مختلف. قامت لجنة تحت اشراف مدحت باشا في زمن المشروطية الأولى (١٨٧٦) في عهد الدولة العثمانية بإعداد مسودة دستور تحت اسم القانون الاساسي وبدعم من الدول الأوروبية. لكن افتقار ذلك على ديناميكية داخلية ادى إلى قيام السلطان عبد الحميد بالتحرك حسب التوازنات الداخلية وإلغائه للبرلمان والدستور.

شؤون الأوسط : كيف تقرأ حساسية الجيش والعلمانيين تجاه وصول غول للرئاسة واستمرار حزب العدالة والتنمية في السلطة؟ هل ولّى زمن الانقلابات أم أن وجود غول في الرئاسة سيفرض واقعاً يفتح على المصالحة؟

رسول طوسون : من الواضح ان الجيش والعلمانيين ليسوا مسرورين من نتائج الانتخابات. إن استمرار حكومة حزب العدالة والتنمية في السلطة وانتخاب غول رئيساً للجمهورية لا شك ليس أمراً يمكن "هضمه" بسهولة بالنسبة لهؤلاء. لكن رغم كل المعارضات يجب ان يظهر هؤلاء احتراماً للإرادة الشعبية. عندما عقدوا مهرجانات الجمهورية (المؤيدة للعلمانية) ظنّوا أن الأمة لن تؤيد حزب العدالة والتنمية. لكن مع ظهور نتائج الانتخابات رأوا البعد الكبير للتأييد. هنا بالذات كان للقرار السليم والشجاع لحزب

العدالة والتنمية دورٌ كبير. إذ وقف الحزب قبالة بيان منتصف الليل للجيش. وأمام مواقف حزب المعارضة الرئيسي والمحكمة العليا والمؤسسات الأخرى، قرر حزب العدالة والتنمية الاحتكام للشعب. إن كون الشعب حكماً في الديموقراطيات، وفي حال نجاح السياسيّ في ذهابه إلى الشعب، فإن التدخلات غير الديموقراطية تتحيّد بنسبة كبيرة.
لذلك بقدر ما يذهب السياسيّ إلى الشعب يمكن أن يُحمى من التدخلات غير السياسية. وفي التدخلات السابقة، لو ان الحكومات وقفت على قدميها ونجحت بالذهاب إلى الشعب، لما حصلت في الأساس هذه التدخلات.

سمير صالحة : نعم ولّى زمن الانقلابات العسكرية في تركيا واتمنى ان ينصرف بعض المفكرين والمثقفين خصوصاً في عالمنا العربي والاسلامي الى الحديث عن مسائل اخرى غير مسألة الجيش التركي التي هي عقدتهم المزمنة في موضوع العلاقات العربية - التركية. بل على العكس اتمنى ان يبدأوا التفكير والكتابة عن اهمية الجيوش في منطقتنا ودورها في حماية النظام والبلاد وسط ما يحيط بنا من مؤامرات وخطط تفتيت وتقسيم. قوة الجيش التركي وتماسكه يزعجان البعض، من هنا فهم يحاولون دائماً تحويله الى مكسر عصى كلما نظروا إلى جيوشهم هم التي وقعت بأيدي بعض القوى الاقليمية والدولية تديرها وتحركها كما تشاء. الجيش قوة الدفاع الرئيسية عن النظام والأسس في تركيا ومن بينها النظام العلماني الذي اعلنت قيادات العدالة نفسها تبنيه والتحرك تحت غطائه. ومع ذلك فإن بعض الفئات التي يزعجها هذا المنظر وهذا الموقف تدير ظهرها له متمسكة بمهاجمة الجيش التركي ومحاولة تصويره وكأنه عدو للشعب. العدالة والتنمية اعطى قراره النهائي منذ البداية: الجيش هو جيش الجميع وهو حامي الوطن والوحدة والتماسك في البلاد خصوصاً في هذه الظروف الداخلية والخارجية الصعبة التي تمر بها تركيا وامام المخططات الاقليمية التي تحيق بالمنطقة. المطلوب برأيي اخذ الدروس والعبر من قوة وتماسك الجيش التركي والاقتناع بأهمية دوره وموقعه جنباً الى جنب مع الجيش الايراني والجيش المصري مثلاً في حماية منطقتنا والذود عنها. العدالة والتنمية سيحاول لعب ورقة الجيش كقوة تدفع تركيا الى الامام في العلاقات مع الاتحاد الأوروبي ومع الولايات المتحدة الاميركية وضمن منطق تعزيز دور وموقع تركيا اقليمياً ودولياً.

فائق بولوط : يرى الجيش نفسه منذ القرن التاسع عشر في تركيا انه الفئة الاكثر تنوراً في الدولة والباني الاساسي للدولة والحارس الوحيد للنظام. اضافة إلى ان الجيش كان بمثابة ممثل للحضارة الغربية في ظروف المرحلة، حيث تبنى الآراء العلمانية والعقلانية للثورة الفرنسية. ادى إلغاء الخلافة العثمانية إلى جعل الجيش منغلقاً في وجه الايديولوجيات الدينية التي مصدرها الشرق الاوسط. لذلك ان كل انحراف عن مبادئ الجمهورية يؤدي إلى شعور الجيش بخطورة ازالة "الوطن والامة والدولة." ان انحدار

الدولة العثمانية (استقلال اليونان وبلغاريا والدول العربية عن الدولة العثمانية) يؤدي إلى تمسك الجيش بمبادئ الجمهورية والنزعة القومية، حيث ادى ذلك بدوره إلى التوجه نحو بناء دولة حديثة و"خلق امة موحدة". لذلك ان ايديولوجية "الامة" ذات الارضية الدينية تعني التقسيم والانفصالية بالنسبة للجيش.

لا يمكن ان ينتهي زمن الانقلابات العسكرية والفوضى الاجتماعية في الدول مثل تركيا. يقول رئيس الجمهورية السابق سليمان دميرال: "من الصعب معرفة ماذا سيحدث خلال ٢٤ ساعة في تركيا". لذلك يمكن ان يتدخل الجيش في السياسة ويمكن حدوث تموجات اجتماعية بأي لحظة. ولا يزال الكفاح المسلح الكردي يتواصل في تركيا. برأيي لا توجد ظروف قد تستدعي الجيش للقيام بانقلاب عسكري، وهذا الرأي ساري المفعول لمدة سنة او سنتين. يمكن الجيش تلقي الدعم من الخارج (الولايات المتحدة الأميركية) والقيام بانقلاب عسكري. ان الولايات المتحدة الأميركية تدعم حزب العدالة والتنمية في الوقت الحالي. وهناك مجموعة في البيت الابيض والبنتاغون (مثل ريتشارد بيرل) يشك بإسلامية حزب العدالة والتنمية لذلك تقوم بدعم الجيش. ان احتمال القيام بانقلاب عسكري وحدوث فوضى اجتماعية ليس له علاقة بالدنياميكيات الداخلية، بل هو مرتبط بالتطورات في الشرق الاوسط. مثلاً: اذا وقف حزب العدالة والتنمية ضد سياسات الولايات المتحدة الأميركية واسرائيل يمكن ان تغير هاتان الدولتان صفوفهما في تركيا وتحركا المؤسسات المناهضة لحزب العدالة والتنمية. لكننا نعرف ان هناك شخصيات مهمة من حزب العدالة والتنمية لها علاقة جيدة مع اللوبي اليهودي والماسوني. ربما لذلك قال رئيس دولة اسرائيل شمعون بيريز في عام ٢٠٠٤ " ان حزب العدالة والتنمية لذيذ مثل الراحة التركية" اضافةإلى ان رجب طيب اردوغان اكد انه منسجم مع السياسة الأميركية من خلال قوله انه الرئيس الاقليمي لمشروع الشرق الاوسط الكبير. تقوم الولايات المتحدة الأميركية بالتخلي عن حزب العدالة والتنمية وتدعم الجيش والتيار العلماني في حال حدوث ما يلي: ١ - معارضة حزب العدالة والتنمية لسياسات الاعتداء على ايران، ٢ - قيام حزب العدالة والتنمية بفعاليات ضد السياسة الأميركية في العراق.

إن علاقة غول واردوغان مع الجيش والعلمانيين ستتراوح بين التوتر والاتفاق. وسيرتفع الضغط بعض الاحيان وسيتواصل الاتفاق في حين آخر. وسيتبع الجيش في الوقت الحالي سياسة "أنتظر وأرى" وسيعلن نياته من خلال تصرفات رمزية كمقاطعة حزب العدالة والتنمية، وسيترصد قيام حزب العدالة والتنمية بأخطاء استراتيجية وافتقاره إلى الدعم الداخلي والخارجي. برأيي ان التدخل الحقيقي مرتبط بتطور الديناميكيات الاجتماعية نحو الاطراف. ان لعبة كسر العظام والعض ستستمر و ستشهد العلاقات المد والجزر.

شؤون الأوسط : هل يمكن وصول غول للرئاسة أن يحدث تحولاً في السياسة الخارجية وفي أي اتجاه؟ وكيف تقوّم الدور التركي عموماً في الشرق الأوسط؟

رسول طوسون : إن رئاسة عبدالله غول تشكل أرضية لتقوية السياسات الوطنية أكثر من التغيير في السياسة الخارجية. إن تولي غول على امتداد خمس سنوات وزارة الخارجية وقيامه بلقاءات مع ممثلي وزعماء العالم ونجاحه في الوزارة، يمكنه الآن مع تولي رئاسة الجمهورية ان يكون فرصة كبيرة جداً لتركيا.

إن الحكومة تسعى لتحقيق أهدافها في السياسة الخارجية، بموازاة مواجهة العقبات التي تظهر أمامها. والرئيس السابق (سيزير) لم يتبنّ أية سياسات موالية للغرب ولا للشرق. الآن أصبح لدينا رئيس جمهورية مضاد، يشكل هذه السياسات. لذا لا شبهة أبداً في أن عبدالله غول سيكون رئيساً يضع ثقله في السياسة الخارجية. إن فترة تولي غول لوزارة الخارجية كانت الفترة التي تطورت فيها العلاقات كثيراً بين تركيا والشرق الأوسط. وسيكون لغول، كرئيس، إمكانية القيام بدور أكثر فاعلية في الشرق الأوسط.

سمير صالحة : طبعاً وصول عبد الله غول الى منصب الرئاسة سيدخل على السياسة الخارجية لتركيا زخماً ودفعاً جديدين، فهو وزير الخارجية التركي المعروف الذي قاد علاقات تركيا مع الخارج لسنوات ويمسك بأكثر من ملف وقضية، ومن حق غول ان يقول رأيه ويتحرك للمضي في تعزيز دور تركيا وموقعها في الخارج. التحول سيحدث لكنه سيكون تحولاً اكثر ايجابية. فالطرف الآخر الذي كان يحاور غول وزيراً سيحاوره رئيساً للبلاد هذه المرة قادراً على اعطاء القرار والالتزام به وتنفيذه، وخصوصاً أنه يأتي من قلب العدالة والتنمية الحاكم اليوم. غول كان يقود السياسة الخارجية لتركيا باسم العدالة والتنمية لكنه اليوم يقودها باسم تركيا والحزب الحاكم والمعارضة على السواء. من هنا انا اتوقع مرحلة جديدة في السياسة الخارجية لتركيا تنجح خلالها في حل العديد من مسائلها العالقة مع اكثر من قوة ودولة وجهة. واتمنى هنا ان تعطي حكومة العدالة والتنمية اهمية كبيرة لملف ازمات الشرق الاوسط خصوصاً قضية الصراع العربي - الاسرائيلي واسترداد الاراضي السليبة والمساهمة بفاعلية اكبر في انهاء محنة العراق والشعب الفلسطيني والتطوع عند الضرورة والطلب للوقوف الى جانب اللبنانيين في محنتهم السياسية الداخلية هذه المرة بعدما كسبت حكومة العدالة والتنمية نقاطاً كثيرة بوقوفها الى جانب لبنان في حربه مع اسرائيل والمسارعة بإرسال القوات التركية الى الجنوب للمساهمة في عملية اعمار لبنان.

فائق بولوط : (هنا جواب واحد على هذا السؤال، والسؤال الذي سيلي) ان السياسة الخارجية التقليدية لتركيا مرتبطة بالولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي. لذلك انها ليست حرة. اذا نظرنا إلى المرحلة التي كان فيها عبدالله غول وزيراً للخارجية نرى انه لم

يحقق أي شيء يذكر على صعيد العلاقات مع الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي والمشكلة العراقية والفلسطينية والمشكلة القبرصية. يمكن رئيس الجمهورية غول ان يقوم بمبادرات اقتصادية وسياسية واجتماعية من شأنها فتح الطريق امام السياسة الخارجية لحكومة اردوغان. لكن هنا يوجد مشكلة: رئيس الجمهورية السابق احمد نجدت سيزر لم يتخذ موقفاً قد يعوق الحكومة في سياستها الخارجية. لكن غول يمكن ان يخلق سياسة خارجية ذات رأسين بقصد او من دون قصد من خلال تجربته كوزير خارجية سابق.

إن تركيا وضعت مسافة في علاقاتها مع الدول العربية منذ زمن طويل. وبنت علاقات تعاون عسكري واستراتيجي مع اسرائيل. اذا اخذنا بعين الاعتبار موقف حكومة حزب العدالة والتنمية حيال آخر اعتداء قامت به اسرائيل بطائراتها ضد سوريا (٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧) يمكن حزب العدالة والتنمية ان يقترب إلى الدول الإسلامية والعربية وان يكون اكثر تفهماً من الحكومات السابقة، ويمكن ان يطور علاقاته الاقتصادية والسياسية والتجارية معها. ان استقبال زعيم حماس خالد مشعل في انقرة وقيام تركيا باستثمارات في قطاع غزة من اجل الفلسطينيين وقيامها بالوساطة بين سوريا واسرائيل ومشاركتها في اجتماع الدول المجاورة للعراق يعتبر مثالاً على ذلك. ويتطلب تغيير تركيا لاستراتيجيتها موافقة الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي وحلف الناتو واسرائيل. يذكر ان اتفاقية الغاز الطبيعي بين تركيا وايران والزيارات المتبادلة بين تركيا وسوريا تتعرض لانتقادات اميركية واسرائيلية. فمن الطبيعي للدول المتوسطة الحجم مثل تركيا انه لا يمكنها ان تتصرف في حل القضايا المعقدة في المنطقة وبسياساتها الاستراتيجية. مثلاً لا يمكن تركيا ان تنجح في حل الخلاف الإسرائيلي - الفلسطيني او الخلاف الداخلي اللبناني حتى لو ارادت ذلك، لأن ذلك يتطلب موافقة الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي واسرائيل. إذاً يمكن تركيا ان تتبع سياسة حذرة حيال الدول العربية تدور في الفلك الجيواستراتيجي لاميركا والاتحاد الأوروبي واسرائيل. ويمكن ان تنقل علاقاتها إلى نقطة متقدمة مع الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأميركية. ان السياسة المشتركة لأنقرة مع واشنطن تحمل مجازفة وخطورة كبيرة يمكن ان تؤثر سلباً على تركيا. يمكن تركيا ان تأخذ ادواراً معينة في العراق، لكن يتطلب ذلك الاتفاق مع الولايات المتحدة الأميركية ودرجة علاقاتها مع ايران.

باختصار: انني قرأت مئات المقالات في الصحف الاجنبية ولا سيما العربية بعد فوز حزب العدالة والتنمية في الانتخابات. حيث اقترفت اخطاء كبيرة - الا القليل منها - حيال فهمها لتركيا وعلاقات الاسلام مع العلمانية. حيث يتناول المحللون العرب حزب العدالة والتنمية وقضايا الدين والاسلام والعلمانية بطريقة تتناقض مع وجهة نظر المستشرقين الغربيين

لكنهم يتناولونها باستشراقية معكوسة تستند لتحليل عالمي ذي مركز اسلامي. مثلاً يعتبرون فوز حزب العدالة والتنمية انتصاراً للدين والاسلام وهزيمة للعلمانية". صحيح ان الموجة الدينية اثرت على تركيا مثل ما اثرت على الشرق الاوسط والعالم، لكن ذلك ليس جوهر المشكلة.

لا بد من ان تشهد الدول التي تحولت إلى الرأسمالية بطريقة موجهة وفوضوية مشاكل بنيوية بشكل دائم. ان تركيا تغير جلدها، لذلك تشهد مرحلة مخاض. ان الكماليين ليسوا كمالي الماضي والإسلاميين ليسوا إسلاميي الماضي والقوميين الطورانيين ليسوا قوميي الماضي والقوميين الأكراد ليسوا أكراد الماضي والاشتراكيين ليسوا اشتراكيي الماضي! ان التغيير احاط بالعلمانيين والإسلاميين والدولة والجيش والامة والأكراد والأتراك والعلويين والسنة وكل الذين يعيشون في تركيا.

ان الاصلاحات التي سيقوم بها حزب العدالة والتنمية مثل جريان الماء على اسس تركيا. اذا كانت هذه الاسس متينة يمكن ان تتجاوز تركيا تغييرها الداخلي دون ازمات كبيرة. لكن اذا كانت تلك الاسس مهترئة فسينهار النظام القديم لكن لن يحل مشروع حزب العدالة والتنمية محله في المدى البعيد. لأن الهندسة الاجتماعية (الجمهورية الثانية) لحزب العدالة والتنمية اشتقاق آخر للهندسة الاجتماعية للكماليين (الجمهورية الاولى) التي أفلست حتى الآن. ان مشاريع حزب العدالة والتنمية ضيقة وليست بديلاً واقعياً. وان اصلاحات حزب العدالة والتنمية تحمل اهمية من ناحية اظهار الديناميكيات الكامنة والخفية لتركيا. ولا يمكن ان يحدث ذلك دون مشاكل وازمات. اضافة لذلك ان تركيا ليست عبارة عن حزب العدالة والتنمية والكماليين والجيش والإسلاميين والعلمانيين فقط، ويجب علينا ان لا ننسى وجود اللون الرمادي بين الاسود والابيض أي هناك قوى مرشحة للتفعيل. ان الصورة التي تقدمها القوى الغربية المهيمنة عن تركيا وحزب العدالة والتنمية هي جزء من الحقيقة فقط، انهم يرسمون تركيا حسب ما تقتضي مصلحتهم (صورة وردية تنسجم مع جنّة استعمار الاوليغاركية المالية) لذلك يجب ان لا يضللنا ذلك.

شؤون الأوسط: كيف تقرأ العلاقة التركية - الأوروبية في ظل سيطرة العدالة والتنمية على السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والرئاسية؟

رسول طوسون: لقد صرح حزب العدالة والتنمية بأنه إلى جانب تطوير العلاقات مع الاتحاد الأوروبي. من هذه الزاوية ليس لدى تركيا أية مشكلة. لكن سير هذه العلاقات بصورة سليمة مرتبط بالاتحاد الأوروبي أكثر من تركيا. إذ توجد داخل الاتحاد الأوروبي أوساط مؤثرة تعارض عضوية تركيا فيه. وبرأيي ان الجانب التركي سيقوم بما عليه في هذا المجال وفي هذه المرحلة بصورة أسهل، لكن المشكلة لدى الاتحاد الأوروبي. إن الاتحاد الأوروبي لم يهضم بعد بأي شكل أن تكون تركيا عضواً فيه، ويستمر في التلاعب

على تركيا. فلم يظهر تجاه تركيا السهولة التي أظهرها تجاه دول أخرى مرشحة للعضوية. إن ما يفعله الاتحاد الأوروبي، كما الولايات المتحدة، يتناقض مع ما يقولانه.

سمير صالحة : لا اظن ان وصول حزب العدالة والتنمية بطريقة ديموقراطية الى قيادة البلاد من خلال السيطرة على المناصب الرئاسية الثلاث يزعج احداً في اوروبا بل على العكس سيسهل هذا الأمر موضوع الحوار والتسريع في حسم العديد من القضايا العالقة بين الجانبين. كما سيتحمل العدالة والتنمية مباشرة مسؤولية عدم التقدم في موضوع دخول تركيا الى النادي الأوروبي، لأنه المحاور والمفاوض وحامل كل الصلاحيات في ذلك واي تراجع او تاخير سينعكس سلباً على حزب العدالة والتنمية. اما اذا كانت اوروبا هي المترددة والمتخوفة، فعليها ان تقول كلمتها النهائية دون تسويف او مراوغة، فالملف الأوروبي طال اكثر من اللزوم، وتركيا باتت تستحق ان يتعامل معها الاتحاد الأوروبي بوضوح وصراحة كاملة. الجانب التركي والجانب الأوروبي وجهاً لوجه دون وسيط او عراقيل او حجج، والمطلوب خلال السنوات الثلاث المقبلة دفع عملية الحوار نحو المسار الايجابي اذا لم تكن اوروبا تحاول المماطلة والتطويل. العدالة والتنمية سيكون قادراً على تحمل مسؤولية اعطاء القرارات والمفاوضات دون تردد، وهي فرصة تاريخية امام الجانبين لحسم هذه القضية وقد لا تسنح مرة اخرى. من هنا ينبغي عدم التفريط بها، لانها ستنعكس سلباً على الطرفين ❑

ملف العدد

الخطـــــاب الإعـــــــــلامـي

- دور الإعلام في التفريق بين الكفاح الوطني والإرهاب — فيصل المقداد
- الإعلام الغربي وقضية فلسطين — بلال الحسن
- صورة المقاومة في الإعلام الإسرائيلي — تحسين الحلبي

دور الإعلام في التفريق بين الكفاح الوطني والإرهاب

فيصل المقداد *

مقدمة

لم يسبق أن انشغل العالم في شتى أرجاء المعمورة بأمرٍ أو قضية كما هو في السنين الأخيرة من عمر البشرية.

فبعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ التي استهدفت مقر مركز التجارة العالمي في نيويورك تكونت رؤية جديدة للتاريخ من قبل البعض بدأت منذ ذاك اليوم حيث تم تقسيمه إلى حقبتين: ما قبل ١١ أيلول/سبتمبر وما بعد ١١ أيلول/سبتمبر. وأصبح هذا التاريخ مفترق طرق في حياة البشرية.

- فالآلاف من الضحايا والأبرياء.
- والآلاف من المعتقلين والملاحقين والهاربين.
- والآلاف من المشردين واللاجئين.
- والآلاف من المقالات والتحليلات والتصريحات والاجتماعات والندوات والمؤتمرات والمقابلات والمناظرات..
- احتلال دولتين إحداهما عربية شقيقة والأخرى إسلامية عزيزة علينا، وعدوان همجي على بلد عربي شقيق استمر ٣٣ يوماً ارتكبت خلاله أبشع أشكال المجازر والتدمير.
- استهداف أمة بالكامل ودين بالكامل يربو معتنقوه على مليار وثلاثمئة مليون نسمة.

كل ذاك حصل، ويحصل، تحت عنوانٍ واحد وعريض، وضد عدوٍ مجهول الهوية والمكان تمت تسميته بـ "الإرهاب".

- فما هو هذا العدو؟
- ما هو تاريخه؟
- ما هي أسبابه؟
- من هو الإرهابي الحقيقي؟
- ما الفرق بين الإرهاب والحق في مقاومة الاحتلال من وجهة نظر دينية وقانونية؟

(*) نائب وزير الخارجية في الجمهورية العربية السورية.

- النصوص الثلاثة الواردة في "الملف" قُدّمت في الأساس إلى المؤتمر الإعلامي لدعم القضية الفلسطينية الذي انعقد في دمشق في أيار/مايو ٢٠٠٧.

- لماذا اتهام العرب والمسلمين؟
- ما هو دور الإعلام الغربي في الخلط بين المفهومين وتشويه الحقائق؟
- ما هو دور الإعلام العربي والإسلامي في توضيح الفرق بين مفهوم المقاومة والإرهاب؟
- كيف نقضي على الإرهاب؟

سنحاول من خلال هذا البحث المتواضع الإضاءة باختصار على كل هذه النقاط المطروحة.

أولاً ـ ما هو الإرهاب؟

بداية لا بد من التأكيد أن المجتمع الدولي لم يتمكن حتى يومنا هذا من الاتفاق على تعريف واحد واضح ومحدد لمفهوم الإرهاب. ولكن بالمفهوم العام يعد الإرهاب "الاستخدام غير المشروع للعنف"، ويعرض حياة الأبرياء للخطر لتحقيق أهدافٍ منها ما هو معلوم والآخر سري غير معلن.

"فالإرهاب" لغة هو "التخويف" و"التفزيع" و"الترويع" وهذا لا يمكن فهمه الفهم الصحيح عبر "التجريد"، فمعناه والموقف منه، إنما يتحددان من خلال معرفة من "يزاوله" و"ضد من"، فهو مثل "السلاح" الذي لا نقف من امتلاكه واستخدامه موقفاً إيجابياً أو سلبياً إلا إذا عرفنا "في يد من".

وتعرف "الموسوعة السياسية" الإرهاب على الشكل التالي:

(الإرهاب هو استخدام العنف غير القانوني، أو التهديد به عبر أشكالٍ ومظاهر مختلفة كالاغتيال والتشويه والتعذيب والتخريب والنسف، من أجل تحقيق هدف سياسي معين مثل كسر روح المقاومة والالتزام عند الأفراد وهدم المعنويات عند الهيئات والمؤسسات، أو كوسيلة من وسائل الحصول على معلومات أو مال. وبشكلٍ عام فإن الإرهاب هو استخدام الإكراه لإخضاع طرفٍ مناوئ لمشيئة الجهة الإرهابية).

ولخص البروفسور البلغاري "رادنيوف" المعنى العالمي للإرهاب بقوله: "إنه عدو الجنس البشري".

وأما الرئيس الراحل المغفور له المرحوم حافظ الأسد فقد حدد مجموعة من الخصائص والصفات التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالإرهاب وهي "الإرهاب من أجل القتل والارتزاق، والتي تتعارض مع مصلحة المجتمع وإرادة الشعب العامة".

ونرى أن الصفات التي حددها الرئيس الراحل المرحوم حافظ الأسد تستند إلى الخصائص التالية:

١ ـ هدف الإرهاب هو القتل دون تمييز.

٢ ـ مضمون وجوهر هذا يتعارض مع الصالح العام والإرادة العامة للشعب.

٣ - إن الإرهاب هنا يبرز كوسيلة تستخدم من قبل "القلة" ضد "الكثرة" في المجتمع لتحقيق أهداف مختلفة.

إضافة لما تقدم فهناك تعاريف أخرى كثيرة فقهية وقانونية، وربما في قوانين كل دولة هناك تعريف مختلف للإرهاب، فأميركا وإسرائيل تتجاهلان إرهاب الدولة وتتحدثان عن إرهاب الأفراد فقط، أما عندنا في سورية فقد عرف المشرع السوري الإرهاب بالتالي:

"يقصد بالأعمال الإرهابية جميع الأفعال التي ترمي إلى إيجاد حالة ذعر ترتكب بوسائل كالأدوات المتفجرة والأسلحة الحربية والمواد الملتهبة والمنتجات السامة أو المحرقة والعوامل الوبائية التي من شأنها أن تحدث خطراً عاماً".

أما معاهدة منظمة المؤتمر الإسلامي لمكافحة الإرهاب فقد نصت في المادة الثانية منها على أنه: "لا يعد جريمة إرهابية كفاح الشعوب بما فيها الكفاح المسلح ضد الاحتلال والعدوان الأجنبيين والاستعمار والسيطرة الأجنبية من أجل التحرر أو تقرير المصير وفقاً لمبادئ القانون الدولي".

ثانياً ـ تاريخ الإرهاب

الإرهاب ليس أمراً جديداً، وأعمال الإرهاب قديمة قدم التاريخ نفسه، ولكنها كانت على نطاق ضيق ومحلي، وليست كما اليوم حيث أصبحت جريمة منظمة لها طابعها الخاص من حيث التنظيم والتمويل وامتدت لتشمل كافة الأرجاء على كوكبنا. وهذا الإرهاب الحديث له طبيعته وصوره وأشكاله وأسبابه ومسببوه، كما الإرهاب في الماضي الذي كان له أيضاً طبيعته وأسبابه ومسببوه، وذلك قبل ظهور الأديان السماوية.

وعندما بدأ عصر الآيديولوجيات محل عصر الديانات في أوروبا ظهر الإرهاب الحديث، وهو الإرهاب السياسي الذي بدأ ظهوره مع بداية "الثورة الفرنسية"، التي أسس مرحلتها الأولى (روبسيير) الذي كان يعتقد أن التعصب الديني هو شر كامل لوقوفه في وجه مبدأي العقل والحرية، ثم استبدله بتعصب ثوري قاد الألوف إلى منصات المقصلة، حتى وصل الأمر إلى نفسه، فقطع رأسه بالمقصلة، وكانت كلمته المشهورة أمام الجمعية التشريعية (إما أن نسحق الأعداء الداخليين والخارجيين للجمهورية، وإما أن نهلك بهلاكهم ومن ثم أن يكون الشعار الأول لسياستكم هو: بالعقل تقاد الشعوب وبالإرهاب يقاد أعداء الشعوب).

وعند تفصيل عمليات الإرهاب، فإن سرد الوقائع يشكل قائمة طويلة بالإرهابيين وتاريخهم وجرائمهم منذ حروب أوروبا ومحاكم التفتيش والحروب الصليبية والحروب الاستعمارية والنازية والفاشية، وتصفية شعوب بكاملها كشعب الهنود الحمر في أميركا وغيرهم وصولاً إلى استخدام القنابل الذرية ضد المدنيين الآمنين في اليابان، وحتى احتلال

أفغانستان والعراق والعدوان على لبنان صيف عام ٢٠٠٦. وفي العصر الحديث يمكن سرد قوائم أخرى تحمل أسماء كرجال "الجيش الجمهوري الإيرلندي والباسك والألوية الحمراء وأصحاب القمصان السود والكوكلس كلان" وحروب السيخ والهندوس والتاميل ورواندا وبوروندي وغيرها كثير.

وكما يشير الباحثون فقد عرف العالم الإرهاب في صور مختلفة منذ أقدم العصور فتحدثت البرديات المصرية القديمة عن الصراع الدموي بين الكهنة وصور الذعر والقوة التي سادت بينهم، كما حرّمت قوانين اليونان والرومان الإرهاب والجرائم السياسية العادية للأمم.

وتشير بعض المراجع إلى الأنشطة الإرهابية التي قام بها اليهود، وتحديداً طائفة "الزيلوت" ضد الإمبراطورية الرومانية عام ٦٦ ميلادية، وكانت أول منظمة إرهابية عرفها التاريخ هي منظمة "السيكاري" sicari التي شكلها بعض المتطرفين من اليهود في فلسطين الذين وفدوا إليها قبل القرن الأول من الميلاد بهدف إعادة بناء الهيكل الذي سمي المعبد الثاني.

ويرى البروفسور (يسرائيل يرتل) رئيس قسم تاريخ الشعب الإسرائيلي بالجامعة العبرية أن المراجعة الدقيقة للحقائق الثابتة في التاريخ على مدى /١٥٠٠/ سنة تكشف عن أن هذا التاريخ الطويل يضم عمليات إرهابية مختلفة قام بها اليهود، ومن ضمنه الاغتيالات. ويضيف أن اليهود قاموا بتشكيل عصابات إرهابية في أوروبا الشرقية في الفترة من القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر.

وقد ساد العنف في كل عصور التاريخ. وفي القرن العشرين كان من أشهر عمليات الإرهاب السياسي حادثة اغتيال الأمير فرنسوا فرديناند ولي عهد النمسا التي ارتكبها متطرف صربي، وكانت سبباً مباشراً لقيام الحرب العالمية الأولى.

ثالثاً ـ أسباب الإرهاب

لقد ذكر السيد الرئيس بشار الأسد في رسالة وجهها إلى مهرجان الشباب في (كراكاس) في ٢٠٠٥/٨/١١ أن "الإرهاب انتشر في العالم بسبب السياسات الظالمة والغاشمة التي اتبعتها الولايات المتحدة وإسرائيل، ونتيجة لإضعاف دور منظمة الأمم المتحدة التي كانت الأمل المرتجى لحل الخلافات الدولية حلاً عادلاً وكبح العدوان ونشر السلام في العالم".

وفي حديثه للتلفزيون الفرنسي القناة ٣، في تاريخ ٢٠٠٥/١٢/٦ قال سيادته: "إن كل التطرف يؤدي إلى التدمير، لكن أسباب هذا التطرف هي أولاً الفوضى الدولية الموجودة في العالم، الأخطاء السياسية الكبرى التي تقوم بها الدول الكبرى والتي تؤدي لتزايد الإرهاب الذي يُبنى على هذا التطرف".

فالإرهاب لا يأتي من فراغ وإن اتجاه الولايات المتحدة نحو التوسع واكتساب المزيد من

الوزن والنفوذ، مدعية لنفسها الحق في إدارة شؤون المجتمع الدولي ككل، بل وفي التدخل في أية مسألة دولية ذات شأن، ولو لم تمس مصالحها بصورة مباشرة، كل ذلك يؤدي إلى نمو الإرهاب.

إن التدخل في الشؤون الداخلية للدول وفي برامجها التعليمية والدراسية والتربوية ومحاولات طمس هويتها وثقافتها، كل ذلك يقود بالنهاية إلى التطرف والإرهاب.

وإن سعي الولايات المتحدة إلى إضفاء الصفة الدولية على أمورٍ تعد من الأمور الداخلية للدول، والاعتماد على سياسة الأحلاف العسكرية، وتنوع مصادر القوة، وتبني سياسة الردع، كل ذلك يؤدي إلى خلق أسباب الإرهاب.

إن العمل على منع الدول الأخرى من امتلاك أسباب قوتها ونهضتها وتطورها لجعلها دوماً دولاً ضعيفة تابعة لا تقوى على الوقوف بمفردها، إنما ذلك يؤدي بالنتيجة إلى العنف والتطرف والإرهاب.

إن العمل على خلق نظام دولي يخدم مصالح الولايات المتحدة بالدرجة الأولى، ولا يراعي مصالح البلدان الفقيرة والشعوب الضعيفة والأزمة الأخلاقية التي يعيشها النظام الدولي، كل هذا بالنتيجة يؤدي إلى الإرهاب.

إن ازدواجية المعايير التي تنتهجها الولايات المتحدة في تعاملها مع القضايا الدولية وخاصة في منطقتنا وعدم تطبيق قرارات الشرعية الدولية والقانون الدولي واللجوء إلى الانتقائية عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، كل ذلك يؤدي إلى الفوضى الدولية وإلى تشجيع العنف.

إذا مما لا شك فيه أن سياسة إدارة الرئيس بوش هي التي توفر الأسباب اللازمة للتطرف والإرهاب، والتي تعود على الولايات المتحدة بمزيد من الكراهية الشعبية لها في العالمين العربي والإسلامي. والمشكلة الكبرى تكمن في عجز الشعوب عن خوض الصراع بوسائل وأدوات وأساليب مجدية، الأمر الذي يشدد الميل إلى "البديل البائس" وهو الإرهاب الذي لا يضرب "حيث يجب أن يضرب" وإنما "حيث يستطيع أن يضرب".

إن كل ما فعلته الولايات المتحدة لا يتعدى زرع المزيد من الإحباط في نفوس الشعوب، ونزع مزيدٍ من "الأسلحة" من أياديها، فلم يبق لديها من وسائل تخوض بها الصراع سوى تلك الوسائل التي منها يتألف "الإرهاب" عملاً وفكراً.

وهذه الدولة العظمى لا تملك من المصالح إلا ما يرغمها على أن تظل إلى أجل غير مسمى أسيرة للتناقض الواعي بين مصلحتها في محاربة "الإرهاب" ومصلحتها الموضوعية في مد "الإرهاب" بمزيد من أسباب الحياة والنماء، فهي في سعيها للقضاء عليه مثل من يحاول استئصال الشجرة عبر قطعه بعض فروعها وغصونها.

إذاً يمكننا القول إن للإرهاب أسباباً ودوافع كثيرة منها سياسية وتاريخية ونفسية

واجتماعية واقتصادية وشخصية وغير ذلك، ومنها أيضاً البؤس وخيبة الأمل والشعور بالظلم واليأس التي تدفع بالإنسان لارتكاب أي عمل.

إضافة إلى تقدم، فهناك أيضاً عوامل أخرى متعددة تساعد في انتشار الإرهاب، لكون هذا العصر أصبح عصر العالمية المتزايدة، ولكنه أيضاً عصر التفتت المتزايد.

فالتفتت يعصف بالتضامن الاجتماعي ويدفع الجماعات المتطرفة إلى تعميق معارضتها، كما أن العالمية تؤثر في قدرة الحكومات على حفظ النظام.

وإن اتساع نطاق ثورة الاتصالات، والتطور التكنولوجي المذهل، وخصخصة الاقتصاد العالمي، وصعوبة مراقبة الحدود بين الدول بشكل محكم، كل هذه التطورات أسهمت في توفير المناخ المواتي للقيام بأعمال إرهابية.

ومن المنطق أن نعترف أيضاً بأن الإيديولوجيات التكفيرية التي تدعو إلى العنف والكراهية هي أحد العوامل الأساسية المنتجة للإرهاب.

نتيجة لذلك كله أصبح الإرهاب خطراً عالمياً، فالإرهابيون يزيد نشاطهم في الظروف الدولية المفتوحة، إلا أن ذلك لا يعني أن القيود الدولية تحد من الأنشطة الإرهابية. فليس هناك أي منطقة أو أية دولة أو أي شعب أو أي شخص في مأمنٍ من الإرهاب لأن النشاط الإرهابي قد انتشر على المستوى الدولي.

فالإرهابيون لهم شبكات تحالفاتهم واتصالاتهم وتمويلهم، واكتسبوا مهارات في الهروب من خلال الثغرات الموجودة في النظام الدولي. وإن اتخاذ إجراءات فردية، بل وثنائية لا يكفي لمواجهة التهديد الإرهابي، إذ لا بد من تعاونٍ وتنسيق دوليان واتباع نهج عالمي يفرق بين الإرهاب وحق الشعوب في مقاومة الاحتلال والتصدي لكافة أشكال العدوان.

وفي خطاب للسيد الرئيس بشار الأسد على مدرج جامعة دمشق في ٢٠٠٥/١١/١١ قال: "دعمنا الشرعية الدولية ولم ندعم الفوضى الدولية، الشرعية الدولية هي ميثاق الأمم المتحدة، أما الفوضى الدولية فهي ارتكاز القرارات على بعض المصالح وبعض المزاجات لبعض المسؤولين في هذا العالم وعلى هذه الدول وعلى هذه القوى وعلى كل إنسان في هذه المنطقة وفي العالم أن يعرف أن عصر الوصاية الذي كان موجوداً في بدايات القرن الماضي قد انتهى، والآن المنطقة أمام خيارين لا ثالث لهما، إما المقاومة والصمود أو الفوضى، لا يوجد خيار آخر، والمقاومة هي التي تمنع الفوضى، والمقاومة لها ثمن، والفوضى لها ثمن لكن ثمن المقاومة والصمود أقل بكثير من ثمن الفوضى".

رابعاً ـ من هو الإرهابي؟

في عالمنا الحديث، ومن دون تبرير للإرهاب، نرى أن سياسات الولايات المتحدة إزاء جوانب عديدة في الحياة الدولية هي المصدر الأول للإرهاب في العالم إلى جانب إسرائيل

بالتأكيد. إسرائيل هي التي أدخلت الإرهاب إلى هذه المنطقة وحتى قبل الإعلان عن قيامها عام ١٩٤٨ من خلال المنظمات الإرهابية المعروفة التي كانت تمارس مختلف فنون القتل والترويع والاغتيال ضد الفلسطينيين بهدف طردهم وترحيلهم من أراضيهم وبيوتهم.
كما أنها منذ قيامها تمارس الإرهاب المفتوح ضد لبنان وداخل فلسطين المحتلة وضد الدول العربية، وقامت مخابراتها بممارسة الإرهاب على الساحة الدولية، وخاصة في أوروبا تحت شعار مكافحة الإرهاب.
فالإرهاب هو تكوين نفسي وثقافي عند الإسرائيلي، وتجدر الإشارة هنا إلى الفيلم الإسرائيلي (روح وحدة شاكيد) وهي الوحدة التي كان يقودها بنيامين بن أليعازر، الوزير الإسرائيلي الحالي، التي قتلت الأسرى المصريين عام ١٩٦٧، لندرك كيف أن الشخصية اليهودية تتسم بالعدوان والاستعلاء والإرهاب نتيجة المذلة والانكماش التي عاشوها في أوروبا. وقد ترجم / فلاديمير جابوتنسكي / الأب الروحي للأحزاب اليمينية في إسرائيل هذا النموذج النظري في المجال العسكري بصك مصطلح الجدار الحديدي الذي يجب أن يبنى لعزل العرب عن مخالطة اليهود المهاجرين أو التجاسر عليهم. وقام هذا الإرهابي في عام ١٩٢٠ باعتباره قائداً لعصابات / الهاغانا / بتطبيق حي للمصطلح عندما انتهز فرصة عيد شعبي كان يحتفل به المسلمون والمسيحيون بإقامة الصلوات والمهرجانات، وفتحت قواته النار على جموع المصلين ليسقط مئات من القتلى والجرحى.
واليوم نرى كيف تبني إسرائيل جدار الفصل العنصري خلافاً لأحكام القانون الدولي وعلى حساب الأراضي الفلسطينية ووحدة الشعب الفلسطيني في الوقت الذي انهار فيه جدار برلين وكل جدران الفصل العنصري في العالم.
وكان / تيودور هرتزل / قد جعل من الاضطهاد الذي عاناه اليهود في الشتات حافزاً معنوياً لخوض الصراع المقبل ضد العرب، قوامه الحقد على البشرية جمعاء.
ولقد صرح في هذا الشأن بقوله: "ما هي قوتنا الدافعة" إنها بؤس اليهود.
وبشّر هرتزل بأن: "هذه الأمة اليهودية سوف تبقى، أما ما عداها فسوف يزول، بل ويجب القضاء عليه لأنه غير أهلٍ للبقاء، وحتى تبقى الأمة اليهودية ويزول ما عداها فلا بد من أن تقام الدولة اليهودية حتى وإن جانبت إقامتها جادة الحق، وذلك لأن القوة فوق الحق".
وبعد اغتصاب فلسطين وضع اليهود برنامجاً تربوياً يهدف إلى تنمية الإرهاب في نفوس الشبيبة الإسرائيلية وعقولها، ويهدف هذا البرنامج التربوي إلى تنشيط الذاكرة اليهودية بما حدث لآبائهم وأجدادهم في الشتات لتظل الروح اليهودية في حال استنفار دائم ضد الغير وحماية الدولة بكل الوسائل، بما في ذلك الوسائل الإرهابية. ولا يوجد طفل في إسرائيل إلا ويحفظ عن ظهر قلب: "لأنك شعب مقدس للرب إلهك، ولقد اختارك الرب لتكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الأخرى على وجه الأرض".

فكل تلميـذ في إسـرائيل يتـربى على أفكارٍ لا تقل خطورة عن تلك الأفكار التي في "بروتوكولات حكماء صهيون".

طبعاً ليس هذا استعراضاً لتاريخ الإرهاب الصهيوني، لأن هذا الأمر كتبت عنه مجلدات، بل إلقاء ومضة على الذهنية التي تحكم سلوك الصهيوني وعقله.

أما الولايات المتحدة فتدخلها بشؤون العالم ليس بجديد، وإنما هذا السلوك قديم منذ الثورة الأميركية عام ١٧٧١، والتي تلاها الامتداد الأميركي في قارة أميركا الشمالية حتى وصلت إلى ما وراء القارة الأميركية في بدايات القرن العشرين لتصل إلى مفهوم العالمية بالتدخل (Globalisation of Intervention).

ويعتبر مبدأ / مونرو / في عام ١٨٢٣، الذي يحرم أوروبا من التدخل في العالم الجديد تحت مفهوم (أميركا للأميركيين) هو أول مبدأ يعطي للولايات المتحدة حق احتكار التدخل في هذا العالم الجديد.

تلا ذلك إعلان الرئيس الرقم ٢٥ للولايات المتحدة / تيودور روزفلت / ـ وهو غير الرئيس فرانكلين روزفلت ـ في عام ١٩٠٤ الذي وسع من مبدأ / مونرو / حتى عينت الولايات المتحدة نفسها بمثابة رجل شرطة له حق التدخل الفردي في أميركا اللاتينية حتى الحرب العالمية الثانية.

ثم توسع مبدأ التدخل عند الولايات المتحدة مع إدارة / ترومان / الذي أعلن أن سياسة الولايات المتحدة تدعم الشعوب التي تقاوم محاولات السيطرة عليها بقوة مسلحة أو بضغوط خارجية، وكان المقصود الاتحاد السوفياتي حينها.

ومع بدء محاربة الشيوعية حدثت تدخلات كثيرة ضد الأنظمة الماركسية، إذ بدأ يحكم التدخل الخارجي للولايات المتحدة هدف محاربة الشيوعية، كما فعل / جونسون / في / الدومينيكان / عام ١٩٦٥.

وبعد انهيار المعسكر الشيوعي أعطت الولايات المتحدة لنفسها الحق بالتدخل في كل مكان بالعالم، تارة لمكافحة الإرهاب، وتارة أخرى لنشر الديموقراطية، وتارة ثالثة لحماية حقوق الإنسان، ورابعة لخلق شرق أوسط جديد، وخامسة لحماية مصالحها الحيوية، وسادسة لحماية رعاياها، وسابعاً القيام بضربات استباقية إلى ما هنالك...

خامساً ـ اتهام العرب والمسلمين

كما أسلفنا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١، فقد صبت أميركا جام غضبها وقوتها على العرب والمسلمين دولاً وحركات وأفراداً، وذلك على خلفية اتهامها أفراداً عرباً ومسلمين بالوقوف وراء ذاك الهجوم. وبحسب الولايات المتحدة وحلفائها الأساسيين فإن الإرهاب "إسلامي" من ألفه إلى يائه، ومن هنا جاءت ذريعتها لاحتلال كل

من أفغانستان والعراق وتدمير هذين البلدين. وأصبح العربي والمسلم في وعي الإنسان الغربي من خلال دعاية إعلامية منهجية ومخططة هو ذاك "الإرهابي" الذي لا حرفة له سوى القتل والتدمير، وتولدت أزمة ثقة وشكوك بسبعة ملايين مسلم من مختلف الأعراق يعيشون في الولايات المتحدة ويحملون جنسيتها.

وقد فند السيد الرئيس هذه المسألة بوضوح في مقابلته مع التلفزيون الروسي في ٢٠٠٥/١١/١٢ عندما قال:

(طبعاً لا يوجد إرهاب إسلامي، لأن الإرهاب ينفصل عن الإسلام، إنه إرهاب فقط، ولكن درجت التسمية على وصفه بالإرهاب الإسلامي. هذا النوع من الإرهاب خطير كان يستهدفنا في السبعينات والثمانينات، وفي ذلك الوقت قمنا بحملة على مستوى بعض الدول الأوروبية الغربية لكي نقنع تلك الدول بأن احتضان بعض قيادات التطرف والإرهاب في أوروبا سيرتد عليهم في وقت من الأوقات وقد عانينا منه، وبدأوا يضربون في عدد من الدول العربية في نهاية الثمانينات وفي التسعينات، ورأينا النتائج الخطيرة والكبيرة في نيويورك وفي لندن وفي مدريد).

ومن هذا يتبين أن الإرهاب ليس له دين معين أو جنس أو جنسية أو منطقة جغرافية محددة. وأية محاولة لربطه بدين معين هو أمر مرفوض.

فعندما يتعلق الأمر بتبرير سياسته لا يشعر الغرب بأي حرجٍ. ففي الوقت الذي كان الإسلاميون يقاتلون في الثمانينات في أفغانستان ـ بوسائل فظيعة جداً ـ ضد ما سمي "الاحتلال السوفياتي" كانوا ينالون أعلى درجات الثناء والإعجاب من الغرب ومن معظم وسائل الإعلام هناك، وكان أولئك المقاتلون ذوي اللحى الطويلة يحصلون من الأجهزة الأمنية الغربية على كل ما يحتاجون من دعمٍ عسكري ومادي، بما في ذلك الصواريخ.

آنذاك لم يكن هذا القتال يوصف بأنه (إرهاب) إلا من دول المعسكر الشيوعي وبعض الشيوعيين في الغرب.

أما بالنسبة للديموقراطيات الغربية فقد كان القتال ضد قوات (الاحتلال السوفياتية) نضالاً في سبيل الحرية. ولكن من الناحية الأخرى عندما يدافع مقاتلو حزب الله في جنوب لبنان عن أرضهم ضد الإحتلال الإسرائيلي (يوصفون بأنهم إرهابيون)، وعندما تقاوم مجموعة فلسطينية الاحتلال الإسرائيلي لا يسأل أحد عن الأسباب.

إن العالم الغربي مع القيم التي يتغنى بها سيحظى باحترام الشعوب العربية والإسلامية لو جعل هذه القيم تنطبق على الجميع على قدم المساواة، على البيض والسود، وعلى المسلمين والمسيحيين واليهود. وليس مقنعاً على الإطلاق التوجه الغربي وخاصة الولايات المتحدة إدانة ما يقوم به الفلسطينيون دفاعاً عن حقهم واستقلالهم، وفي الوقت نفسه السكوت عن إرهاب الدولة الإسرائيلية أو التقليل من أهميته.

سادساً ـ التفريق بين الإرهاب والمقاومة

ومن هنا ننتقل إلى الموضوع الأبرز والأهم وهو الفرق بين الإرهاب والحق في الكفاح الوطني ومقاومة الاحتلال.

إن النصوص والأعراف الدولية والإنسانية وأحكام الشريعة الإسلامية كلها تؤكد التباين بين المقاومة والجهاد من جهة، والإرهاب من جهة ثانية، وذلك في مختلف الجوانب القانونية والسياسية والاجتماعية، وبالوسائل التي تستخدم في الحالتين والأهداف المرجوة.

ومع الإقرار العالمي بحق تقرير المصير في مداولات الأمم المتحدة وفي الاتفاقيات الدولية المعنية بحقوق الإنسان، وعلى رأسها "العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية" و"العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية" لعام ١٩٦٦، وبتحوله من مجرد مبدأ سياسي إلى حق قانوني، فقد أصبح من المحتم القول بأنه يقع على عاتق كل دولة واجب الامتناع عن الإتيان بأي عمل قسري يحرم الشعوب غير المستقلة من حقها في تقرير مصيرها، سواء أكانت خاضعة للاحتلال أم للاستعمار.

وقد ميزت الأمم المتحدة بين الإرهاب بوصفه جريمة دولية، والكفاح المسلح بوصفه نشاطاً من أنشطة حركات التحرر الوطني المشروعة، وهو بلا شك اختلاف جوهري في الطبيعة والمقاصد.

وفي هذا السياق اعترفت الجمعية العامة للأمم المتحدة مراراً بحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف مثل قرارها الرقم (٣٢٣٦) لعام ١٩٧٤ وقرارها الرقم (١٧/٣٩) لعام ١٩٨٤ وقرارها الرقم ١٤٩/٤٩ لعام ١٩٩٥ وبحقه في استرجاع حقوقه بالوسائل المتاحة كافة بما في ذلك الكفاح المسلح.

كما أن القانون الدولي ومنذ قيام الأمم المتحدة قد حظر اللجوء إلى القوة المسلحة أو التهديد بها في إطار العلاقات الدولية، غير أنه أجاز اللجوء إلى القوة بأشكالها المختلفة في حالات الدفاع الشرعي ضد الاحتلال، بوصفها وسيلة لممارسة حق تقرير المصير، والوصول إلى الاستقلال الوطني، وهذا ما أكدت عليه المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة.

وقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقديم دول العالم المساعدات للشعوب التي تناضل في سبيل تقرير المصير، وأن تساعد جهود الأمم المتحدة في هذا المضمار، حيث يمكن هذه الشعوب أن تتمتع بدعم خارجي في الكفاح المسلح الذي تخوضه ضد دولة استعمارية أو عنصري أو ضد الاحتلال الأجنبي دون أن تحتج هذه الأخيرة بأن هذا الدعم يعد من قبيل التدخل في شؤونها الداخلية وذلك وفق قرار الجمعية العامة الرقم (٣٠٧٠) لعام ١٩٧٣.

وإزاء هذه الجهود المبذولة من الأمم المتحدة لحصر مفهوم الإرهاب وعدم خلطه بحق المقاومة ومشروعيتها، كانت الولايات المتحدة غير متعاونة لإنجاح هذه الجهود، وذلك

بسعيها إلى تغييب المعايير وإحلال الانتقائية محلها، لكي تنفرد بعد ذلك في تصنيف أعمال العنف وفق ما تشاء، وتصاعد اتجاه توسيع مفهوم الإرهاب لديها ليشمل أعمال المقاومة والجهاد والكفاح المسلح المشروعة، ولا سيما بعد توقيع اتفاقية أوسلو لعام ١٩٩٣، وإثر انعقاد مؤتمر شرم الشيخ عام ١٩٩٦ وضغط أميركا بهدف إدانة أعمال المقاومة المسلحة الفلسطينية تحت اسم "الإرهاب".

وتناقش الجمعية العامة منذ حوالى خمس سنوات مشروع اتفاقية دولية شاملة حول الإرهاب الدولي وذلك في إطار البند المعنون "التدابير الرامية للقضاء على الإرهاب الدولي" في اللجنة السادسة (اللجنة القانونية)، وقد بدا واضحاً منذ بدء النقاش وجود خلافات شديدة حول عدة نقاط أبرزها وضع تعريف قانوني للإرهاب والتمييز بينه وبين حق الشعوب في مقاومة الاحتلال وفي تقرير مصيرها وإرهاب الدولة. وقد قدمت سورية منفردة أو بالتعاون مع وفود أخرى وفي إطار منظمة المؤتمر الإسلامي أيضاً عدة مقترحات وأوراق عمل تتصل بهذه المواضيع ومواضيع فنية أخرى.

ورغم أن اللجنة المختصة قد اتفقت على معظم المواد الواردة في مشروع الاتفاقية الشاملة، إلا أن النقطة الخلافية الأبرز التي بقيت هي تلك المتعلقة بالمادة ١٨ التي تتناول موضوع التمييز بين الإرهاب وحق الشعوب في تقرير مصيرها ومقاومة الاحتلال، وذلك لأن الولايات المتحدة التي تدعي أنها تقود العمل الدولي في مقاومة الإرهاب، تعارض بشدة الصياغة المطروحة.

وجاءت أحداث الهجوم على نيويورك في ١١ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ لتحدث هزة في النظرية الأمنية الأميركية السائدة، الأمر الذي شجع الإدارة الأميركية على تغيير سلوكها بشكل سريع وكبير بلجوئها إلى لغة العنف والتهديد والعدوان والاحتلال والحصار العسكري والاقتصادي للآخرين، وإعلان تقسيم العالم إلى معسكرين: "إما مع أميركا وإما مع الإرهاب".

وقد استغل اللوبي الصهيوني بنفوذه العالمي والسياسي والاقتصادي والإعلامي هذه الحادثة لتشجيع التطرف اليميني في الإدارة الأميركية، وتحريض العالم الغربي على كل ما هو عربي وإسلامي. وسرعان ما رأينا كيف أن الغرب عموماً تنكر لكل تراثه الفكري الذي أسسه لحق مقاومة الطغيان، وشعارات الحرية والعدالة والمساواة التي نادى بها روسو وفولتير وغيرهم من الفلاسفة في أوروبا قبل قرون عدة، وكذلك لمبادئ / ويلسون / التي وضعها عام ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى والتي يمكن تلخيصها بحق الشعوب في تقرير مصيرها وضرورة استتباب الحرية والسلام في العالم، والتي أثارت فرحة عارمة في أوساط الشعوب العربية حينئذٍ لأن بلدانها كانت محتلة. ووفقاً لما قرره القانون الدولي وفقهاؤه، ووفقاً للحق الطبيعي في الدفاع عن النفس والمال والأملاك

والأعراض والحريات، فإن من حق الشعوب التي تتعرض للاحتلال والاستعمار والعدوان والطغيان المسنود بالقوة، اللجوء إلى المقاومة المسلحة بوصفها مقاومة مشروعة.

وفي هذه الحالة تنطبق اتفاقيات الحماية الدولية المختلفة على المقاتلين من أجل الحرية ضد الاستعمار والاحتلال أو الاضطهاد، وبذلك تتمتع الفئات التي تمارس هذا الحق في المقاومة المشروعة بمركزٍ قانوني، حسب هذه الاتفاقيات، بما يتيح لها التصدي للاستعمار والاحتلال.

وقد أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها الرقم (٣٢٤٦) الصادر في ١٩٧٤/٢/١٤ على شرعية حق الشعوب في الكفاح المسلح في سبيل تحررها من الاحتلال، وذهب إلى: "أن أي محاولة لقمع الكفاح المسلح ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية هي مخالفة لميثاق الأمم المتحدة ولإعلان مبادئ القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الدولية والتعاون بين الدول، وللإعلان العالمي لحقوق الإنسان".

وأكدت الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب الصادرة في عام ١٩٩٨ في المادة الثانية أنه: (لا تعُد جريمة حالات الكفاح بمختلف الوسائل، بما في ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبي والعدوان من أجل التحرر وتقرير المصير).

وقد اعترف القانون الدولي بضرورة احترام الوحدة الإقليمية للدول وحقها في أن تعيش باستقلالها وكرامتها، وعلى هذا الأساس اعترف بالمقاومة الوطنية، وأكد في أحكامه أن الاحتلال القائم على الحرب لا يشكل ذريعة مقبولة لضم الأراضي المحتلة إلى إقليم الدولة القائمة بالاحتلال، وعلى هذا الأساس فإن المقاومة الوطنية المسلحة يمكن أن تكون أو تنطلق من خارج الأراضي المحتلة، وليس فقط من داخلها.

وإيماناً من سورية بحق الشعوب في مقاومة الاحتلال، ومن إدانتها للإرهاب، فقد أعلن السيد الرئيس الراحل المرحوم حافظ الأسد في أواخر أيار/مايو عام ١٩٨٦ من العاصمة اليونانية (أثينا) مبادرته الشهيرة لمكافحة الإرهاب الدولي، موضحاً موقف سورية حيال هذا الإرهاب ومؤكداً أن سورية ترفض الإرهاب وتدينه وتقاومه، ولكننا نميز بوضوح بين الإرهاب وأعمال المقاومة الوطنية ضد الاحتلال، والتي نؤيدها لأنها حق لكل شعبٍ احتلت أرضه واغتصبت حقوقه، وخاصة عندما يمارس ذلك على ساحة نضاله الحقيقي.

وطالب السيد الرئيس في كلمته بالاتفاق على حدود الإرهاب، وحدود المقاومة والتحرير وعقد مؤتمر دولي للتفريق بين الأمرين.

وكانت تلك المبادرة الأولى من نوعها قد جاءت لتضع المجتمع الدولي أمام مسؤولياته التاريخية لوضع حدود فاصلة وواضحة بين الإرهاب الدولي المنظم الذي أصبح سياسة رسمية لدولٍ، وبين النضال الوطني المشروع الذي تخوضه شعوب عانت وتعاني من الاستعمار والقهر والتمييز العنصري والاحتلال.

كما أن السيد الرئيس بشار الأسد أكد في مقابلة مع مجلة (دير شبيغل) الألمانية في ٢٠٠٥/٨/٣٠ في معرض الحديث عن العراق أن هناك أعمالاً إرهابية تودي بحياة أبرياء، وهذا ترفضه سورية تماماً، ولكن في المقابل توجد حركات مقاومة، وهذا شيء آخر، إنه شيء طبيعي جداً.

وفي أحد خطاباته قال السيد الرئيس بشار الأسد: "الفرق بين المقاومة والإرهاب واضح بسيط، هو كالفرق بين صاحب الحق ومغتصب هذا الحق".

ومما لا شك فيه أن الموقف الدولي من موضوع الإرهاب المنظم والرسمي لا يرضي اولئك الذين يرفعون شعار "مكافحة الإرهاب" ويتاجرون به على الساحة الدولية لتبرير إرهابهم وعدوانهم ضد حركات التحرر والشعوب التي تناضل في سبيل حريتها واستقلالها.

وهذه الدول تشن دوماً حملات سياسية وإعلامية ترتكز على تزييف المفاهيم وتزوير الحقائق لمآربها، لا سيما في منطقتنا التي تعيش عدداً من البؤر الملتهبة التي تتداخل عناصرها، وتسعى في المحصلة إلى تغيير الوجه السياسي والثقافي والبشري للمنطقة، وإعادة رسم خارطتها من جديد، بما يستجيب للمهام والوظائف المستجدة لهذه المنطقة، وبما يخدم استراتيجيات ومصالح بعض القوى الأجنبية وفي مقدمتها إسرائيل، لا سيما عندما ندرك أن تطورات الأحداث أثبتت أن إسرائيل كانت أبرز الفاعلين فيها وأكبر المستفيدين منها.

سابعاً ـ دور الإعلام والدعاية الإعلامية في تشويه الحقائق

إن الدعاية ليست بحديثة العهد وهي قديمة قدم الإنسان نفسه، والدعاية هي من أقدم النشاطات الإعلامية التي ميزت الدولة الحديثة بمختلف أشكالها ومضامينها، وبالأخص في الدعاية السياسية.

وتعد الدعاية الإعلامية فناً من فنون الترويج لفكرة أو رأي أو مذهب، وقد أضحت في هذا الزمن معقدة ومتطورة ومؤثرة، خاصة بانتشار وسائل الإعلام المتنوعة والتقدم الهائل في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تساهم مساهمة مباشرة في انتشار الدعاية بأساليبها ومضامينها المختلفة.

وتستهدف الدعاية الناجحة مخاطبة العواطف والمشاعر دون أن تهمل الجانب العقلي، وتسعى بذلك لاستغلال ملكتي العقل والعاطفة، ولكن دور العقل يأتي في المرتبة الثانية وهدفها من ذلك إحداث تغيير سريع وفوري في مواقف وسلوك الجماعات المستهدفة مما يؤدي للجوء إلى المثيرات النفسية أكثر من اللجوء إلى القضايا التي تستدعي المناقشة وإعمال الفكر والتأني قبل اتخاذ الموقف.

ويرجع تاريخ الدعاية إلى أيام اليونان، وأولى وسائلها الخطابة باعتراف افلاطون الذي

عدها أكبر مؤثر في ميدان الدعاية السياسية، وتظهر الدعاية في الشعر عند اليونان والرومان وهم الذين اتخذوا من الشعر الحماسي في كل من (الإلياذة والأوديسا) وسيلة لإثارة الجماهير وإلهاب المشاعر.

والدعاية لها أشكال متعددة وتلجأ بعض الحكومات إلى استئجار شركات علاقات عامة تستخدم بدورها الإعلام ليقوم لها بأعمال الدعاية التي تخدم مصالحها الحيوية مستندة إلى الكذب واستراتيجية التضليل، وخير مثال على ذلك هو احتلال العراق الذي قام على مجموعة من الأكاذيب، إذ كانت الولايات المتحدة من خلال أجهزة التضليل الرسمية تعمل على تسويغ الاحتلال وجعله شرعياً وخلق أكاذيب جديدة لتسويغ استمراره.

وإن الدعاية السوداء التي تبث المعلومات الخاطئة لمحطات الأخبار الغربية والأميركية ليصبح التحذير من الإرهاب حقيقياً، هدفها جعل الشعب الأميركي يتصور أن مجموعات الإرهاب هي عدو للولايات المتحدة، وتعمل أيضاً على جعل صورة رموز هذه المجموعات ماثلة وجاهزة في أذهان ووجدان الأميركان باستمرار، وتقوم هذه المحطات التلفزيونية الأميركية بذات الوقت برفض عرض الأعمال التي تحتوي على نقد إدارة / بوش /.

هذا بالإضافة إلى أن العديد من الموظفين الأميركيين العاملين في الشركات الإعلامية تم فصلهم لكونهم اتهموا الصحافة بالكذب واستخدام الدعاية السوداء، وقد تم استخدام العقوبات الاقتصادية ضد أساتذة الجامعات والفنانين من أصل افريقي لإظهارهم آراء مناوئة لإدارة /بوش/.

وبعد أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ قامت الولايات المتحدة، ومن أجل كسب معركة العقول والقلوب في المنطقة العربية، بإنشاء محطة / سوا / التي بدأت بثها في آذار/مارس ٢٠٠٢ انطلاقاً من عدد من دول الخليج لشرح السياسات الأميركية ونشر القيم الثقافية الأميركية في مجتمعات المنطقة، وقد أعقب هذه الخطوة إطلاق محطة "الحرة" الفضائية الموجهة للمنطقة العربية والتي جاءت نتيجة إدراك الإدارة الأميركية لأهمية السلاح الإعلامي المتلفز خلال احتلال أفغانستان والعراق، كما تم إحداث إدارة جديدة في الخارجية الأميركية باسم (إدارة الدبلوماسية العامة) لتلميع صورة أميركا.

وإذا كان / غوبلز / وزير إعلام هتلر، يعد في التاريخ مؤسس مدرسة إعلامية وهو القائل (أكذب الكذبة مئة مرة تصدقها)، فإن المحافظين الجدد أو صقور الإدارة الأمريكية يحتشدون جميعاً ضمن هذه المدرسة، بل لقد تفوقوا على معلمهم، وبات في داخل كل منهم (غوبلز) ثانٍ يمارس مهام الدعاية الكاذبة تلقائياً.

فالتطور الأميركي للدعاية السياسية لم يقتصر على تعدد "الجهابذة" فقط، وإنما أصبح الميدان في غاية التعقيد والتشعب وتداخلت السياسة مع الإعلام بصورة كاملة، فمن جهة تحول وتوغل الإعلام ليصبح لاعباً أساسياً في الملعب السياسي، ومن جهة ثانية أصبح

الأداء السياسي المعلن يبدو كأنه فقرة إعلامية. كان من مؤشرات اهتمام إدارة / بوش / بالدعاية الإعلامية هي كثرة المراكز الإعلامية المتخصصة التي يتم إنشاؤها داخل مختلف الإدارات وبغرض التعامل مع العالم العربي والإسلامي بصفة رئيسية. وبالإضافة إلى النشاط الإعلامي المعروف لوزارة الخارجية أنشأ وزير الدفاع السابق / دونالد رامسفيلد / مكتب التأثير الاستراتيجي الذي اشتهر باسم / مكتب التضليل الإعلامي/، ويرمي إلى الترويج لوجهة النظر الأميركية وقمع المشاعر المعادية للولايات المتحدة وبالأخص في العالم الإسلامي.

ولكي نفهم توجهات الإعلام الأميركي ينبغي الإشارة إلى حجم السيطرة والتأثير اليهودي في هذا المجال، فالشركات الإعلامية الكبرى الثلاث: والت ديزني، وفاكوم، وتايم وارنر، والصحف الأميركية الكبرى: نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، وول ستيرت جورنال، وكذلك الشبكات التلفزيونية الرئيسية: سي بي إس - إم بي سي - إيه بي سي - فوكس - سي إن إن، والمجلات الكبرى: التايم - النيوزويك، وكبرى شركات إنتاج الأفلام: كولومبيا، متروجولدون ماير، وورنر برانرز، بارا مونت، يونيفرسال، وسينتشري فوكس، كل هذه المؤسسات الأميركية الضخمة يملكها أو يديرها أو يسيطر عليها اليهود.

وباختصار، تشير الأبحاث المختصة إلى أن (٥٥١) شخصاً يسيطرون على الإعلام الأميركي أغلبهم من اليهود ومؤيديهم، الأمر الذي يتيح لهم دوماً إيجاد مناخ سياسي عام في الولايات المتحدة يتم من خلاله تنفيذ مخططاتهم بصورة تلقائية ودون تدخل مباشر في كل حين.

وكما أن للدعاية أشكالها فلها أساليبها أيضاً ومنها: النكتة، والتكرار، والاستضعاف، والاستعطاف، والترهيب، وأسلوب الشعارات، وأسلوب جس نبض الرأي العام، والصورة الكاريكاتيرية، والأسلوب العلمي، وأسلوب الاحتواء، وكذلك الأسلوب الحديث لتمرير الدعاية، وذلك من خلال خلق عدو وهمي للأمة يحاول أن يكون مصدر خطر في أي لحظة، وهنا يصبح من السهل إصدار مختلف أنواع الإشاعات بشكل مُهَوّل وفي أي وقت.

وللدلالة على تأثير الإعلام الصهيوني في الولايات المتحدة، من المناسب أن نشير إلى ما ذكره الرئيس الأميركي السابق / جيمي كارتر / في كتابه المعنون: (فلسطين: سلام لا فصل عنصري Palestine, peace not aparthied) الذي صدر في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦، وردود الفعل الصهيوني على ذلك.

فقد تضمن كتاب / كارتر / وصفاً للقمع الوحشي والاضطهاد الذي يخضع له أهل فلسطين المحتلة، وذلك إلى جانب سياسة فصل عنصري قاسٍ بين الفلسطينيين والمستوطنين اليهود في الضفة الغربية أقسى مما كان يعانيه الأفارقة السود في جنوب أفريقيا.

وبعد صدور هذا الكتاب جُوبه بحملة صهيونية ضارية واتهمه اليمين المسيحي المتصهين بالكفر لأنه يعمل ضد إرادة الرب، وتعرض لحملة تجريح من اللوبي والإعلام الصهيوني واتهموه بالكذب والتعصب ومعاداة السامية والجبن وغير ذلك من الأوصاف التي يصعب ذكرها.

والأمر نفسه حصل قبل ذلك مع روجيه غارودي عندما نشر كتابه: الأساطير، وكشف سطوة اللوبي الصهيوني على الصحف ومنابر الفكر ومراكز صنع القرار في الولايات المتحدة، فقامت عليه القيامة واتهم بأنه "رفضي" وأنه ينكر المحرقة ومعادٍ للسامية، وأقيمت الدعاوى ضده في عدة بلدان غربية.

وكي يخفف من هذه الحملة ضده اضطر إلى أن يكتب أنه أمضى ٣٣ شهراً في مقاومة النازية وأنه حصل على وسامين بعدالحرب لدوره في المقاومة.

من زاوية أخرى، وبما أن الحدث الذي حرك سياسة العالم (من ليس معنا فهو ضدنا) قد وقع في عقر دار ذاك العملاق، فقد انعكس هذا كما اسلفنا على العرب والمسلمين، وتزايد الضغط الإعلامي الذي تمارسه المنظمات واللوبيات المعادية للعرب والمسلمين كتبنيها لعدد كبير من الأقلام التي طالما اتهمت مسلمي أميركا والعالم بالتطرف، الأمر الذي أوجب على المسلمين إعادة رسم صورتهم لدى المجتمع الأميركي، ولكن ما زالت هذه المساعي تفتقر للاستثمار الكافي فيها، حيث يعتبر العرب والمسلمون من أقل الجماعات إنفاقاً على الإعلام والدعاية رغم الانتقادات التي تتعرض لها صورتهم في الولايات المتحدة الأميركية والغرب عموماً. ويشير بعض المحللين إلى أن التغطية الإعلامية الأميركية للشؤون العربية والإسلامية تعتمد على نظريتين أساسيتين:

١ ـ الوصفية: ويتم من خلالها فهم العالم والحكم عليه بالمدى الذي يلتزم به، أو يقلد الممارسات والقيم الثقافية والاجتماعية الأميركية.

٢ ـ الانتقائية: حيث يجري انتقاء صور نمطية من المجمعات العربية والإسلامية تظهرها بالمجتمعات التقليدية المتخلفة ومن الضروري عصرنتها، وهذا التوجه يكشف عن عنصرية ثقافية تقوم على رفض فكرة التعددية الثقافية في العالم، وإن ميل المجتمعات العربية والإسلامية إلى التمسك بقيمها الثقافية وخصائصها الحضارية والتاريخية، والقلق من الهيمنة الثقافية الغربية أدى إلى ظهور إحساس بوجود صراع حضاري، والغرب الذي يعتبر أن ثقافته فريدة، ينظر إلى أي ثقافة عربية وإسلامية بمثابة تهديد للثقافة الغربية، ممهدين بذلك الطريق لظهور نظرية صراع الحضارات وتحولها إلى مادة نقاش حاد منذ نهاية الحرب الباردة وأصبحت أكثر وضوحاً في التغطية الإعلامية الأميركية لثلاثة أسباب:

١ ـ حررت نهاية الحرب الباردة وسائل الإعلام الأميركية من عبء معاداة الشيوعية،

ونتيجة لذلك وجدت وسائل الإعلام هذه بيئة أكثر حرية للتعبير عن مشاعر وأفكار كانت مكبوتة خلال فترة الحرب الباردة.

٢ ـ الفراغ الآيديولوجي الذي نتج من نهاية الحرب الباردة حيث برزت فرصة سانحة لاستبدال العدو القديم (الشيوعية) بالعدو الجديد (الإسلام).

٣ ـ تحول بعض الحركات الإسلامية الشرق أوسطية، التي كان بعضها مدعوماً من قبل الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة بهدف مواجهة الشيوعية، ضد راعيها السابق، بعد أن أدركت أن الولايات المتحدة كانت تستخدمها كلعبة في الصراع الدولي في حقبة الحرب الباردة، وبذلك، أصبحت الولايات المتحدة الهدف الجديد لهذه الحركات.

هذه العوامل تشكل الخلفية الأساسية لفكرة صراع الحضارات التي روجت لها الصحافة الأميركية في فترة ما بعد الحرب الباردة، كما أنها تشكل الحاضنة لتغطيتها الإخبارية التي يطغى عليها البعد الثقافي في تناول أوضاع المنطقة العربية واتهام العرب بالتمسك بموروثات ثقافية تشكل بيئة مناسبة لنمو المنظمات المتطرفة وتكاثرها، على حد زعم الصحفي الأميركي الصهيوني المعروف، توماس فريدمان، خلال الندوة الإعلامية التي انعقدت في دبي في نيسان/ابريل ٢٠٠٥ وشهدت سجالات ساخنة.

وجدير ذكره أن "مصداقية" هذا الإعلام قد اهتزت كثيراً خلال الاحتلال الأميركي للعراق. فقد تخلت وسائل الإعلام عن دورها التقليدي في البحث والتقصي لتقدم إطاراً دعائياً للاحتلال العسكري. وتأكلت هذه الصورة في فضيحة صحيفة "نيويورك تايمز" عندما تبين أن مراسلاً يدعى جاسون بلير، كان يلفق قصصاً عن أماكن لم يسبق أن زارها إطلاقاً، هذا إضافة للصفعة التي تلقتها وسائل الإعلام هذه عندما وافقت هيئة الاتصالات الإتحادية على أن تخفف من القواعد التي تحظر شركة إعلام واحدة بمفردها من أن تسيطر على نسبة هائلة من الموجات الفضائية الأميركية.

ثامناً: دور الإعلام في التفريق بين المقاومة والجهاد من جهة والإرهاب من جهة أخرى

لا بد من الاعتراف بداية بأن أسباب عدم نجاح معركتنا مع الإعلام الغربي سببه الرئيسي عجز الإعلام العربي والإسلامي عن الانطلاق عالمياً والانغلاق على الذات، فمن يتابع الإعلام العربي والإسلامي يَرَى أن أحد أهم أهدافه إقناع المتلقي العربي والإسلامي بعدالة القضيتين العربية والإسلامية، علماً بأن هذا المتلقي مقتنع سلفاً بهذه العدالة. إذاً هناك مشكلة في الشريحة المستهدفة إعلامياً.

فإذا كانت وسائل الإعلام تحدد مسارات الرأي العام العالمي ومواقفه من الدول والشعوب شئنا أو أبينا فقد شاهدنا كيف تستعين الدول الكبرى بالإعلام وهي تعد لعمل عسكري

ضخم من أجل تهيئة الرأي العام الداخلي والخارجي لقبول ذلك العمل وتأييده كما حصل في أفغانستان والعراق.

ويكمن الحل في أن نرصد باهتمام مواقف وسائل الإعلام الغربية ونفتح معها حواراً صبوراً طويل النفس، وأن تتيح لأجهزتنا الإعلامية مداخل الاطلاع على ما تريد حتى لا يدفع بها انغلاقنا على النفس لتصورات واهمة واجتهادات خاطئة.

إن خطة التحرك الإعلامي الخارجي التي عملت جامعة الدول العربية على تحديثها وتطويرها والتي رصدت لها حوالى ٦ ملايين دولار بهدف الارتقاء بالإعلام العربي وتسخيره لخدمة المجتمعات والقضايا العربية في الغرب، وإيضاح الرؤية العربية للكثير من الأمور العالمية ووجهة نظر المواطن العربي فيها تحتاج إلى متابعة مستمرة. إن هذه الخطة يجب استثمارها على النحو الأمثل بالارتقاء برجال الإعلام العرب إلى مستوى نظرائهم في الغرب ولبناء أساطيل إعلامية تقف في وجه الإعلام الغربي لتبث روح الأمل والتفاؤل في نفسية المواطن العربي، وتصحح للعالم الصورة الصحيحة والصادقة لما يحصل، وأن يعرف العالم ما هو موقف الطرف العربي والإسلامي ورؤيته وتحليله وأن لا تؤخذ المعلومات من طرف واحد فقط.

فبلد مثل العراق مثلاً تحول إلى بؤرة للإرهاب الدولي وأصبح قاعدة صراع لجميع المنظمات الإرهابية وكل ذلك سببه الاحتلال الأميركي لأراضي هذا البلد، إذ قبل الاحتلال لم يكن هناك مستقر للمنظمات الإرهابية في العراق، إذاً هي حصيلة حصاد الاحتلال الأميركي، ولكن رغم ذلك فإن الإعلام الأميركي يروج في الرأي العام الغربي والأميركي أن هذه المنظمات الإرهابية هي سبب كل المآسي في العراق وليس الاحتلال، وأن الطائرات الأميركية وقنابلها محبة للسلام والدبابات الأميركية معتنقة للديموقراطية ومصنوعة من مبادئ حقوق الإنسان ومن وسائل حرية التعبير. لذلك فإن مجابهتها هو إرهاب وكفر بكل القيم البشرية..!!

وللأسف فإن بعض الإعلام العربي والإسلامي يردد آلياً المصطلحات الغربية دون تمحيص وتدقيق وتأكد من الأهداف الخبيثة لاتهام العرب والمسلمين بالإرهاب.

فأول هذه المصطلحات بدأت بكلمات غير مرعبة (كالمتشددين الإسلاميين) ثم تبعتها كلمة (الأصوليين) وكلما تقبل المجتمع مصطلحاً وتعود عليه من خلال وسائل الإعلام زجت بمصطلح آخر جديد ومن ثم كلمة (المتطرفين المسلمين) وأخيراً وصلت إلى كشف المستور من خلال إعلانها أن المسلمين والعرب إرهابيون.

وبدلاً من أن يبادر العرب والمسلمون إلى إنشاء مؤسسات إعلامية تخدم أهدافهم وقضاياهم العادلة، نجحت الدوائر الغربية المعروفة في الولايات المتحدة بإنشاء مؤسسات إعلامية لتعميق الفرقة والانقسام بينهم والترويج لسياساتهم، وفي كثير من الأحيان تأمين

تغطية عربية لسياساتهم العدوانية. وفي الوقت الذي لا نريد فيه الغوص في تحليل هذه الظاهرة، فإن أقل ما يقال فيها هو أنها أجهزة إعلام غربية تنطق بلغة عربية.

ولا بد في نهاية هذا الجانب من القول إن بعض الرسميين العرب لم يدرك إلى هذا اليوم الدور الأساسي للإعلام في رسم سياسات الدول والتسويق لها. ولذلك يأتي مجموع الميزانيات المخصصة للعمل الإعلامي في الدول العربية ضعيفاً جداً.

تاسعاً ـ كيف نقضي على الإرهاب؟

إن القضاء على التطرف والإرهاب لا يتم بممارسة النشاط الدعائي خاصة إذا كان مصدر الرسالة الدعائية وحاملها غير جديرين بالثقة.

كما لا يتم بوسائل أمنية وعسكرية تضاعف درجة الكراهية بين الطرفين، بل يتم بمعالجة أسباب التطرف وجذوره.

وحتى لا تتحقق نبوءة هانتنغتون ونصل إلى مرحلة الصدام الحضاري فإن على الإعلام الأميركي أن يضطلع بدوره التثقيفي والمعنوي بصدق وأمانة وموضوعية، وذلك عن طريق مساعدة حكومته ومواطنيه على فهم حقيقة المشكلة بدلاً من تأييد التفسير المبسط الذي تروج له بعض التيارات الفكرية والسياسية في الولايات المتحدة، وعلى الإعلام العربي والإسلامي أن يؤدي دوراً حيوياً وبارزاً في هذا الصدد.

فالتطرف هو في منشأه الفكري والاجتماعي رد فعل على فعل مضاد يشكل في منطلقه خطراً فكرياً أو وجودياً يستشعره الطرف المنفعل ويحاول مقاومته بأشكال مختلفة، والأولى بالإعلام الأميركي لفت النظر إلى هذه الحقيقة بدلاً من تمجيد الذات، كما هي وسائل الإعلام العربية، والانزلاق بالتالي إلى فخ صراع الحضارات.

وتجدر الإشارة في هذا المكان إلى ما ذكره السيد الرئيس بشار الأسد في مقابلة مع التلفزيون الروسي في ٢٠٠٥/١١/١٢ حيث قال: مكافحة الإرهاب هي في البداية مكافحة فكرية، لأن الإرهاب هو فكر قبل أن يكون مجرد منظمات، فمكافحة الجهل تتم بالحوار، وبالمواقف السياسية العادلة، لأن الكثير من الإرهابيين يتخذون ذريعة إما قضية دينية أو قضية سياسية، عليك أن تتعامل مع الموضوع سياسياً. هكذا نتعامل مع الإرهاب وليس بالإدانة. الإدانة لا تلغي الإرهاب، أدنا وكل بلدان العالم أدانت ١١ أيلول/سبتمبر ولكن الإرهاب استمر بعد ١١ أيلول/سبتمبر. فإذاً يجب أن نحقق شبكة من التعاون الدولي، وسورية لديها خبرة ولديها رغبة كبيرة بهذا النوع من التعاون.

ومكافحة الإرهاب تقتضي إقامة السلام العادل والشامل وتطبيق قرارات الشرعية الدولية ونشر ثقافة التسامح والحوار على كافة الأصعدة (محلية وإقليمية ودولية) والأخذ بعين الاعتبار ميثاق الأمم المتحدة، والمضي على نهج التحديث والتطوير والإصلاح في كافة

الميادين، والتقارب بين الثقافات، ورفض منطق صراع الحضارات، ومحاربة كل أيديولوجية عنصرية أو تدعو للكراهية.

وجدير ذكره أن البلدان العربية قد اعتمدت ما عرف بـ "الاستراتيجية العربية لمكافحة الإرهاب" من قبل مجلس وزراء الداخلية العرب في دورة انعقاده الخامسة عشرة وبموجب قراره الرقم (٢٨٦) عام ١٩٩٧، وهذه الاستراتيجية لها منطلقاتها وأهدافها الواضحة إضافة إلى المرتكزات والآليات ووافقت عليها كافة البلدان العربية. كما اعتمدت الدول العربية في عام ١٩٩٨ "التفاقية لمكافحة الإرهاب" التي وضعت أسساً دقيقة وآليات محددة لمكافحة الإرهاب.

ولا بد في هذا الفصل من التنويه إلى أن ضحايا العنف والإرهاب المنسوب إلى الإسلام لا يمثلون نسبة تذكر أمام ضحايا الاعتداءات والاحتلال والحروب التي تقوم بها كل من أميركا وإسرائيل.

وبالطبع فإننا ـ العرب والمسلمين ـ نتحمل مسؤولية كبرى في فهم ظاهرة العنف والتطرف والتصدي لها. ونتحمل نتائجها أيضاً أكثر من غيرنا. والمنطق والضرورة تقتضيان أن نبادر إلى التفكير والعمل والحوار لأجل ترشيد مجتمعاتنا، وتصحيح مسارها نحو أهدافها وأولوياتها، ولا يعفينا من المسؤولية كل ما يقوم به غيرنا من صناعة للتطرف والإرهاب وتشجيعه والاستثمار فيه. فلا يقلع شوكنا إلا نحن.

الخاتمة

بعد هذا العرض يمكننا الاستخلاص أن العنف والتطرف ليسا وليدي اللحظة والزمان، بل صاحبا كل الأفكار والجماعات والدول في التاريخ والجغرافيا، وفي كل حقبة كانت له طبيعته وأسبابه ومسببوه ولم يكن حكراً على دين أو شعبٍ أو جماعة أو بلدٍ معين. ولكن الإغراق الإعلامي جعل من عملية يزعم أنه قام بها تسعة عشر مسلماً حرباً شاملة على ألف وثلاثمئة مليون مسلم، ويريد أن يجعل من السلوك الهمجي والبدائي المتوحش في أبي غريب والعراق وأفغانستان وغوانتانامو ولبنان حالات فردية لا تتحملها دول ولا ثقافات.

إن وصف أي عمل بأنه إرهابي هو مسألة نسبية جداً تختلف من بلد لآخر وبحسب مقتضيات المصالح والعلاقات، وقبل أن ننعت أي عمل بالإرهابي يجب الوقوف أولاً عند عوامل ثلاثة أساسية وهي: من يقف خلف العمل، وضد من، وما هو الهدف...

ولا بد من التأكيد أنه ليس العرب ولا المسلمون هم الذين ألقوا قنابل ذرية على هيروشيما وناغازاكي، ولا أبادوا شعوباً بأكملها، ولا استعبدوا أمماً وشعوباً ودولاً في حالة مبالغ فيها من السخرية والامتهان والاسترقاق إلى درجة لا يمكن الإحاطة ببشاعتها وتداعياتها التي ما زالت منذ مئات السنين تلقي بآثارها وكوارثها على العالم.

العرب والمسلمون لم يسخروا علومهم وحضارتهم ومواردهم في التدمير والقتل والتلوث والمرض والأوبئة والاستنزاف الذي يهدد الكون والبشر والمحيطات والبحار وجوف الأرض والهواء.

إن إسرائيل والولايات المتحدة كلتاهما تنتج الإرهاب وتسعى في الوقت نفسه إلى محاربته والاستثمار فيه، وبعض من هذا الإرهاب تجري رياحه بما تشتهي سفينتهما المشتركة.

مشكلة العالم مع الولايات المتحدة هي تعاملها مع هذا العالم على أساس أن "القوة هي الحق" أو كما يقال بالإنكليزية Might is Right وقد أضحت، على قول شاعرنا العظيم أبو الطيب المتنبي هي "الخصم وهي الحكم".

وإن من يظن أن أميركا صادقة في تطوير الأوضاع الديموقراطية في منطقتنا ونشر الحريات هو مخطئ، وما يجري على الساحة العراقية والساحة الفلسطينية خير دليل ❑

المصادر

(١) الإنطلاقة الواثقة، مجلد عن كلمات ومقابلات السيد الرئيس بشار الأسد.
(٢) مجلة السياسة الدولية، العدد ١٢٧، كانون الثاني/يناير ١٩٩٧:
- مقال للدكتور بطرس بطرس غالي بعنوان: الأمم المتحدة ومواجهة الإرهاب.
- مقال للدكتور أسامة الغزالي حرب، بعنوان: آفاق السياسة الخارجية الأميركية.
- مقال للدكتور ممدوح الشوفي، بعنوان: الأمن القومي والعلاقات الدولية.
(٣) وثيقة مفهوم الإرهاب والمقاومة، (الأردن، مركز دراسات الشرق الأوسط، تموز/يوليو ٢٠٠٣).
(٤) موقع صحيفة الخليج الإلكتروني، مقال بعنوان: خطاب من الأب بيير إلى روجيه جارودي عن جرائم الصهيونية، بقلم كامل زهيري.
(٥) مجلة ميديالوجيا، الجمعية الدولية والجمعية السورية للعلاقات العامة، العدد الأول تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥.
(٦) مجلة ميديالوجيا، الجمعية الدولية والجمعية السورية للعلاقات العامة، العدد الثاني، شباط/فبراير ٢٠٠٦.
(٧) مجلة ميديالوجيا، الجمعية الدولية والجمعية السورية للعلاقات العامة، العدد الثالث، نيسان/ابريل ٢٠٠٦.
(٨) موقع Tharwaproiect الإلكتروني، دراسة بعنوان: أقصر الطرق: كل ما لا ترضى عنه الولايات المتحدة "إرهاب"، بقلم جواد البشيتي.
(٩) موقع صحيفة الراية القطرية الإلكتروني، مقال للدكتور حسام الخطيب بعنوان: كتابان حاسمان في آخر العام يشعلان الرأي العام في أميركا.
(١٠) موقع صحيفة الشرق الإلكتروني، مقال للدكتور محيي الدين عبد الحليم، بعنوان: مأزق جيمي كارتر مع اللوبي الصهيوني والعجز العربي.
(١١) صحيفة الخليج، مقال بعنوان: أميركا والتمييز ضد السود، بقلم رضى السماك، ٢٠٠٧/٣/١٦.
(١٢) موقع صحيفة الرياض الإلكتروني، مقال بعنوان: الجذور والمقدمات التي مهدت لولادة العصر الأميركي والنظام العالمي الجديد، بقلم راكان المجالي.
(١٣) صحيفة الثورة، من هوالإرهابي الحقيقي؟ مقال للدكتور إبراهيم زعير، ١٩٩٦/٣/٢٣.
(١٤) صحيفة النهار، التمييز بين الإرهاب والمقاومة في القانون الدولي، بقلم شفيق المصري ١٩٩٥/٤/٢٠.
(١٥) موقع Arabiancreativity الإلكتروني، مقال بعنوان: في يوم الكذب السياسي العالمي، بقلم بريهان قمق.
(١٦) تاريخ الإرهاب للصحفي السويدي كوم، جريدة القدس، ١٩٩٧/٩/٢٠.
(١٧) قراءة في كتاب قراصنة وأباطرة، جريدة تشرين، ١٩٩٨/١٠/٢٠.
(١٨) الإرهاب والإرهابيون، الشرق الأوسط، ١٩٩٦/٤/٦.
(١٩) الإرهاب بين صياغة القانون وغياب الإصرار، جريدة النهار، ١٩٩٦/٧/٢٠.
(٢٠) ما هو الفرق بين الإرهاب والدفاع المقاوم، تشرين، ١٩٩٧/٨/٢٣.
(٢١) موقع التقوى الإلكتروني، نشأة الإرهاب ومساره العالمي، بقلم د. سوهان المصري.
(٢٢) موقع البيان الإلكتروني، عرض كتاب عن ودرو ويلسون، تأليف باربرا فينبيرغ.
(٢٤) موجز التقرير النهائي للمؤتمر الدولي لمكافحة الإرهاب المنعقد في الرياض ما بين ٥ - ٢٠٠٥/٢/٨.
(٢٦) موقع الزمان الإلكتروني، مقال بعنوان: الإرهاب ونظرية امتلاك الحقيقة، بقلم د. عبدالله الصائغ.
(٢٧) كتاب الإرهاب جرائم بلا حدود، للمحامي أسعد نعامة، صادر عام ٢٠٠٦.
(٢٨) عدة مقالات متفرقة أخرى.

الخطاب الإعلامي الغربي: "فلسطين نموذجاً"

بلال الحسن *

من الشائع عربياً القول، إن الإعلام الغربي معاد للقضية الوطنية العربية بشتى تجلياتها، وبخاصة قضية الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وحديثاً في ما يتعلق بالإسلام وفهمه والموقف منه. ما تركز عليه هذه الورقة، هو أن هذه النظرة ليست دقيقة، وهي تحتاج إلى إعادة نظر. ليس من أجل القول بأن الإعلام الغربي مؤيد للقضايا العربية، بل من أجل التدقيق، ومن أجل وضع أسس موضوعية لنقاش هذه المسألة وتقويمها بشكل يجعل النقاش حولها نقاشاً مفيداً. وهنا لا بد من التذكير بجملة من المبادئ العامة الموجهة.

أولاً: لا بد من مغادرة منطق التعميم. إذ لا يجوز الحديث هكذا عن إعلام أوروبي يضم في داخله تيارات شتى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. والتعميم يجب أن يرفض حتى في إطار كل بلد غربي على حدة، حيث نستطيع أن نعثر دائماً على مواقف معادية للعرب ولفلسطين، كما نستطيع أن نعثر على مواقف مؤيدة.

ثانياً: لا بد من أن نطرح سؤالاً أساسياً عن العلاقة بين السياسة والإعلام، لنحدد هل نحن أمام إعلام أوروبي مؤيد أو معارض، أم نحن أمام سياسات لدول وأحزاب، مؤيدة أو معارضة، وتجد صداها وتطبيقها في الإعلام؟ إن هذا السؤال مهم للغاية، وهو يغيب عن البحث والنقاش في معظم الأحوال. وأهمية هذا السؤال أنه يحدد نطاق البحث، ويميز بين الموقف السياسي الإعلامي للأحزاب والحكومات، والموقف الوجداني الشعبي، ثم يحاول أن يستطلع الحقائق من خلال التركيز على هذا التمييز.

ثالثاً: إن خطأ التعميم، كذلك خطأ الفصل بين السياسة والإعلام، يضعنا، بشكل دائم، في معاداة مع الآخر الأوروبي، وهو موقف خاطئ سياسياً وفكرياً وحضارياً.

في ضوء هذه المنطلقات نتقدم نحو الموضوع.

لقد ارتبط الصراع العربي ـ الإسرائيلي زمنياً مع انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكان من تجليات تلك الحرب قيام النازية وقيام المحرقة التي مست باليهود بشكل خاص، وبروز اللاسامية في أكثر من بلد أوروبي. ونتج من ذلك إحساس أوروبي عام بهزة ضميرية،

(*) كاتب فلسطيني.

تبلورت فيها فكرة المسؤولية الأوروبية عن اضطهاد اليهود، والمسؤولية الأوروبية عن ضرورة مساعدتهم في إيجاد حل لمأساتهم، وتركز الاتجاه هنا في دعمهم لتأسيس دولة لهم في فلسطين حسبما يطالب اليهود أنفسهم. ونشأ انطلاقاً من هذا الوضع مزاج أوروبي عام يدعم قيام دولة إسرائيل، ويعادي نضالات العرب والفلسطينيين ضد اليهود في فلسطين، واستمر هذا الموقف الأوروبي لسنوات طويلة، عبرت عنه الحكومات والأحزاب والنقابات وتيارات الرأي العام. كان هذا الموقف ظالماً ولكنه أصبح أمراً واقعاً وشائعاً، وأصبح هو العلامة المميزة لما يمكن وصفه بأنه معاداة أوروبا للقضايا الوطنية العربية.

شهدت هذه المرحلة تغيرات كثيرة عربية وأوروبية. عربياً... بدأت الحركة الوطنية العربية تعبر عن نفسها. ثورة مصر عام ١٩٥٢. كسر احتكار السلاح من خلال سوريا ومصر (صفقات الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٦). انتصار الثورة الجزائرية عام ١٩٦٤. انطلاق الثورة الفلسطينية عام ١٩٦٥، انتصار ثورة اليمن الجنوبي عام ١٩٦٧. وشهدت هذه المرحلة أيضاً رد فعل استعماري أوروبي بلغ ذروة تجلياته في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦. كانت دولتا فرنسا وبريطانيا آنذاك دولتين استعماريتين في لحظة أفولهما، وكانت مغامرتهما في حرب السويس آخر مغامرة استعمارية لهما، وقد تم نسج المغامرة بالتعاون مع دولة إسرائيل، وكان شعارها الأساسي هو التصدي للديكتاتورية القادمة من مصر والمتمثلة في شخص جمال عبد الناصر.

وشهدت هذه المرحلة أيضاً تغيرات كثيرة تفاعلت مع بعضها.

■ شهدت نمو القوة الاستعمارية الأميركية التي تسعى لإزاحة فرنسا وبريطانيا واحتلال مكانهما في قيادة الغرب الرأسمالي. وقد تصدت هذه القوة الناشئة للعدوان الثلاثي، ليس حرصاً على مصر، بل رفضاً للخروج الفرنسي ـ البريطاني عن الإرادة الأميركية.

■ وشهدت نمو الحركة الاستقلالية في كل بلدان العالم الثالث (آسيا وإفريقيا)، وتفاعل الحركة الوطنية العربية معها، ثم نشوء تكتل دول عدم الإنحياز.

وشهدنا في ظل هذه التحولات، بداية تغير في مواقف الجمهور الغربي من القضايا الوطنية العربية. نشأ تيار في أوساط المثقفين في فرنسا يدافع عن استقلال الجزائر ويرفض سياسة فرنسا الاستعمارية تجاهها. ونشأ تيار داخل الديبلوماسية الأميركية يحذر من سياسة تأييد إسرائيل وتأثيره على مصالح أميركا العربية، وعرف هذا التيار باسم (المستعربون في وزارة الخارجية)، ووجه بحرب قاسية لكم الأفواه نجحت في الوصول إلى ما تريد. إلا أن هذه المواقف لم تكن من العمق بحيث تحدث تغييراً في الوجدان الشعبي العام، ولا في مواقف الدول والأحزاب والنقابات. واستمر المشهد الإعلامي على حاله إلى أن وقعت حرب عام ١٩٦٧ وما شهدته من نصر إسرائيلي كاسح. وهنا تجدد الاندفاع الغربي الشعبي في إظهار التأييد لإسرائيل ضد العرب، وترافق هذا

التأييد مع حالة من الإعجاب الأوروبي بإسرائيل، وترافق أيضاً مع تعاظم النفوذ الأميركي على الساحة الأوروبية سياسياً وثقافياً. ووقع هذا التعاظم في النفوذ الثقافي الأميركي على أرض ثقافية أوروبية لا تنظر بإعجاب إلى الثقافة الأميركية الوافدة، إن لم نقل إنها تنظر إليه بتعال وعدوانية. (ظهر مؤخراً في فرنسا كتاب "العدو الأميركي" وصفاً لهذه الحالة التاريخية). ومثل كل حدث تاريخي كبير، برزت من داخل هذه التطورات حركة مضادة عبرت عنها فرنسا في موعدين متقاربين، وعبر شخصية ذات ملامح تاريخية هي شخصية الجنرال ديغول. في عام ١٩٦٤ أدرك ديغول مسار حركة الشعوب الاستقلالية، فوافق على استقلال الجزائر. وفي عام ١٩٦٧ استند إلى أن إسرائيل بدأت العدوان على العرب، واتخذ قرار وقف بيع الأسلحة إلى إسرائيل عقاباً لها، وهو الذي كان يعرف أكثر من غيره أن قرار الحرب كان آنذاك قراراً أميركياً. ولقد كان هذا القرار مخاضاً لقرار أكثر أهمية يعلن استقلال السياسة الفرنسية عن السياسة الأميركية. وعبر هذا التوجه عن نفسه بقرارين استراتيجيين آخرين: قرار الانسحاب من الحلف الأطلسي (عسكرياً)، وقرار إنتاج القنبلة الذرية. وفي مناخ هذا كله نشأ ما تمت تسميته (إعلامياً فقط) بـ (سياسة فرنسا العربية)، التي بقيت دائماً موضع تساؤل: هل هي موجودة أم لا؟

ارتبط هذا التغير في السياسة الفرنسية، والذي هو تغير على مستوى الدولة والأحزاب الحاكمة والإعلام المرتبط بهما، بتغير آخر في الوجدان الشعبي الفرنسي. لقد كان العالم يعيش آنذاك ظاهرة الثورة الطلابية العالمية المتمردة على قيم الرأسمالية والبورجوازية وسياساتهما المحلية والعالمية، وكانت فرنسا تعيش ظاهرة الحركة الطلابية عام ١٩٦٨. وبرزت في أوساط الحركة الطلابية الفرنسية ظاهرة التأييد الشعبي للثورة الفلسطينية، حتى أن ارتداء الكوفية الفلسطينية كان رمز الانتماء لتلك الحركة. ولكن هذا التغير في السياسة الرسمية تجاه إسرائيل وقضايا عربية أخرى، وهذا التغير في الوجدان الشعبي الذي يركز على دعم الثورة الفلسطينية، بقي محكوماً بقاعدة أساسية لم تتغير على مدى السنين، وأساس هذه القاعدة: تأييد وجود دولة إسرائيل، مع تأييد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. لقد أوجد هذا التغير قاعدة توازن بين تأييد إسرائيل وتأييد الشعب الفلسطيني، وكان حرياً بهذا الموقف أن يتطور بعد ذلك ليصبح موقفاً أوروبياً رسمياً عاماً. وكان مسار التطور كما يلي:

تطور الموقف الأوروبي

- أدت حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ إلى بروز موقف أوروبي رسمي، يدعو إلى معالجة المشكلة حسب قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، أي بمعالجة مشكلة الحدود بين إسرائيل والدول العربية التي احتلت أراضيها (مصر والأردن وسوريا)، من دون نظر للمسألة

الفلسطينية إلا على أساس أنها مشكلة لاجئين.

- ولكن في ١٩٧١/٥/١١ اجتمع وزراء خارجية الجماعة الأوروبية. برز لأول مرة الحديث عن الشعب الفلسطيني بصيغة (السكان المعنيين). وكان ذلك في خطاب (موريس شومان) وزير خارجية فرنسا، والذي حمل اسم (وثيقة باريس). وحملت تلك الوثيقة دعوة إلى عودة اللاجئين حسب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩٤، وتدويل القدس والأماكن المقدسة، ويتم تدعيم ذلك بإجراء استفتاء بين السكان المعنيين. (يديعوت أحرونوت ١٩٧١/٥/٢١).

- تطور الموقف الأوروبي بعد حرب ١٩٧٣، وبعد حظر النفط العربي، وتم ذلك من خلال بيان وزراء دول المجموعة في (١٩٧٣/١١/٦)، الذي أشار إلى موقفين: الحرص على وجود وأمن وتطور دولة إسرائيل، والحرص بالمقابل على ضرورة أخذ الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بعين الاعتبار، ولكن من دون تحديد ماهية هذه الحقوق المشروعة.

- وبرزت أول محاولة لتحديد الحقوق المشروعة، في الكلمة التي ألقاها ممثل إيطاليا باسم المجموعة الأوروبية في الجمعية العامة للأمم المتحدة (في ١٩٧٥/١٢/٣٠)، وأشار فيها إلى "حق الشعب الفلسطيني في التعبير عن هويته الوطنية".

- ثم صدر عن المجموعة الأوروبية (بيان لندن) في حزيران/يونيو ١٩٧٧، ونص على "أن الدول التسع مقتنعة بأن حل النزاع العربي - الإسرائيلي لن يصبح ممكناً إلا إذا استطاع الشعب الفلسطيني أن يترجم حقه المشروع في التعبير عن هويته الوطنية إلى واقع، وذلك سيؤدي بالضرورة إلى إقامة وطن للشعب الفلسطيني".

- ولكن الخطوة الأوروبية الأكثر وضوحاً لم تبرز إلا في (بيان البندقية) الأوروبي الذي صدر في (١٩٨٠/٦/١٣) الذي أعلن أنه "يجب تمكين الشعب الفلسطيني من حقه في تقرير المصير بصورة كاملة، عن طريق عمل ملائم، يجيء في إطار سلام شامل".

- وكان من أبرز تطبيقات بيان البندقية ما عبر عنه الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران أثناء زيارته لإسرائيل في (آذار/مارس ١٩٨٢)، فقد خاطب الكنيست الإسرائيلي قائلاً إنه "لا يجوز أن يطلب من الفلسطينيين التنازل عن الهوية والأرض، فلهم الحق في إقامة دولة لهم في المناطق المحتلة، بشرط أن يحترموا حقوق الدول الأخرى، ويتبعوا الحوار بدلاً من العنف". (دافار ١٩٨٢/٣/١٠).

كان هذا هو المسار الأوروبي الرسمي تجاه القضية الفلسطينية، ومع أنه كان مساراً بطيئاً إلا أنه كان مساراً إيجابياً، فأين موقع الإعلام من هذه القضايا؟ إن أصحاب هذه المواقف قادة دول وقادة أحزاب، ولهم بالضرورة صحفهم ومنابرهم الإعلامية، ومن المؤكد أن صحفهم ومنابرهم تؤيد وتروج لمواقفهم هذه. وهناك أيضاً معارضون لأولئك المسؤولين ومعارضون لأحزابهم، ولهم هم أيضاً صحفهم ومنابرهم الإعلامية، ومن المؤكد أن

صحفهم ومنابرهم عارضت هذا التوجه، توجه الاقتراب من العرب والابتعاد، ولو قليلاً، عن إسرائيل. وهذا يعني أن الإعلام الأوروبي ليس نبتاً مستقلاً يعمل لحسابه الخاص، إنما هو صدى للمواقف السياسية للقوى التي يمثلها. وهو منقسم بين مؤيد للعرب والفلسطينيين، وبين معاد للعرب والفلسطينيين، وليس هناك "طبعة" واحدة عنوانها: الإعلام الأوروبي المعادي. على أن نفهم أن جوهر الموقف الأوروبي يتمثل دائماً بالثنائية القائلة بتأييد وجود دولة إسرائيل وبضرورة إعطاء الفلسطينيين حقوقهم بالمقابل. أي ليس هناك وجود لموقف أوروبي يؤيد الفلسطينيين ضد إسرائيل.

عامل آخر لا بد من إدراك فعاليته وتأثيره، وهو أن المواقف الأوروبية ما كان لها أن تتغير إلا بتأثير المواقف العربية ـ الفلسطينية الضاغطة أو الفاعلة. إن وجود الثورة الفلسطينية كان عامل ضغط وتنبيه وتأثير على الحكومات الأوروبية دفعها لإدخال تعديل على مواقفها. كذلك فإن حرب عام ١٩٧٣ ونتائجها الإيجابية على الجبهتين المصرية والسورية، كان لها تأثير قوي في إحداث تغيير في النظرة العالمية للصراع العربي ـ الإسرائيلي.

ولا بد من أن نلاحظ هنا، وجود تمايز أو اختلاف بين المواقف الأوروبية والمواقف الأميركية، ولا بد من فهم دقيق لمعنى هذا التمايز، ولمعنى هذا الاختلاف، حتى لا نقع في الأخطاء. إن التمايز أو الاختلاف الأوروبي ـ الأميركي لا يعني التناقض أو العداء، فالطرفان حليفان في إطار الرأسمالية العالمية، وكذلك في إطار اقتسام المصالح ومواقع النفوذ في العالم. وحين يبلور الأوروبيون، فرادى أو كمجموعة، مواقف مختلفة عن المواقف الأميركية، ضاغطة عليها أو بعيدة عنها، فإن الدافع إليها ليس الإعجاب بالعرب والإيمان بهم أو بقضيتهم. الدافع الفعلي هو الانزعاج الأوروبي من الدفع الأميركي الدائم باتجاه تهميش الدور الأوروبي في الشرق الأوسط، والسعي الأميركي لاحتكار النفوذ والثروات والصفقات، بينما يعتبر الأوروبيون أن الشرق الأوسط هو بشكل طبيعي، جغرافي وتاريخي، يجب أن يكون منطقة نفوذ لهم لا لغيرهم. وحين تتحالف إسرائيل مع الولايات المتحدة الأميركية من أجل إبعاد أوروبا عن لعب أي دور سياسي في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، يشعرون بالإهانة، لأن التحدي يأتيهم من دولة صغيرة، ولأن هذه الدولة الصغيرة استفادت من مساعداتهم وقروضهم وتعويضاتهم (ألمانيا) في بناء نفسها. أما حين تمارس إسرائيل موقفها هذا من أجل إبعاد أوروبا بطريقة وقحة متعالية، فإن دول أوروبا تشعر بالإهانة، وكذلك يشعر بالإهانة المواطن الأوروبي نفسه، وينشأ تيار جماهيري متأثر بهذه الأجواء، وقد يعبر عنها أحياناً بأسلوب لا ترتاح إليه إسرائيل، أو اللوبيات اليهودية في العواصم الأوروبية.

مسألة أخرى لا بد من الوقوف عندها، وهو أن المواقف الأوروبية تتغير وتتبدل حسب تغير وتبدل الظروف العالمية، وحين تنشأ مواقف أميركية حاسمة، وحين تحقق هذه المواقف

الأميركية شيئاً من النجاح، فإن المواقف الأوروبية لا تلبث أن تتأثر بذلك، ولا تلبث أن تنحاز أو ترضخ لنتائج المواقف الأميركية الجديدة.

وقد شهدنا في ربع القرن الأخير تبدلين أوروبيين بارزين، عبرا عن التحاق أوروبا بالسياسة الأميركية والسير في ركابها.

تبلور التحول الأوروبي الأول في الثمانينات عندما تسلم رونالد ريغان الحكم في الولايات المتحدة الأميركية، وتسلمت تاتشر الحكم في بريطانيا، ونشأ بينهما تحالف قوي. كان بروز هاتين الشخصيتين مؤشراً لبروز سياسة عالمية جديدة من نوع جديد حملت تعبيرات "الخير" و"الشر" في إطار الحرب الباردة والصراع الغربي مع الاتحاد السوفياتي، وعبرت عن نزعة عدوانية حملت اسم "حرب النجوم". ولكن بروزهما كان يعبر عن دلالة أعمق تمثلت في منهج اقتصادي جديد يطلق العنان لما يسمى "الرأسمالية الشريرة" التي لا تؤمن بالضمان الاجتماعي ولا بالضمان الصحي، ولا بحق الإضراب (النقابات) ولا بحق زيادة الأجور، وتعتبر صراع الأفراد الاجتماعي من أجل الحياة تتمة طبيعية لصراع البقاء بين الدول، ويسقط في عملية الصراع هذه كل من لا يستطيع الصمود، فصراع الطبيعة، حيث البقاء للأقوى، يسود أيضاً في المجتمع حيث من يسقط هو الإنسان الضعيف الذي لا حاجة لبقائه حياً. وقد أدى هذا الوضع إلى بروز قوة سياسية أميركية ضاغطة، نجحت في إجبار أوروبا على أن تتخلى عن الكثير من سياساتها المستقلة، وباتجاه الالتحاق بالسياسة الأميركية التحاقاً ذيلياً. وكان هذا الالتحاق الذيلي يعبر عن نفسه بصورة تدريجية، فمع بروز الصراعات في دول أوروبا الشرقية كانت دول أوروبا الغربية تساند الضغط الأميركي على تلك الدول لانتزاعها من المعسكر الاشتراكي وتسهيل انتقالها إلى المعسكر الرأسمالي. أما حين انهار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩٠ فقد شعرت الدول الأوروبية بالامتنان لأميركا لأنها لم تعد تواجه خطر التهديد العسكري السوفياتي، وزاد هذا من درجة التحاقها بسياسة الولايات المتحدة الأميركية. وكان التعبير الأبرز عن هذا الالتحاق التحالف الدولي العريض الذي نشأ اثناء حرب الخليج الثانية، حيث وُجدت قوى الدول الغربية كلها داخل حلف كبير داعم لحرب أميركا ضد العراق، وبسبب احتلال الكويت.

أما التبادل الأوروبي الثاني، فقد تبلور في التسعينات التي شهدت ولادة "النظام العالمي الجديد"، ولا يزال هذا التبدل قائماً معنا حتى الآن، وهو يخوض معركة واحدة متعددة الأبعاد تشمل إيران والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين. وتشكل فرنسا النموذج الصافي لهذا التبدل، وهو تبدل تم في عهد الرئيس جاك شيراك.

لقد بدأ شيراك حكمه وهو يتمتع بعلاقات جيدة وقوية مع فلسطين وسوريا والعراق، وهي سياسة أزعجت كلاً من أميركا وإسرائيل، قبل أن تنتقل للضفة الأخرى وتصبح مصدر

إزعاج للعرب. في فلسطين تسجل الأحداث أن شيراك قام عام ١٩٩٦ بزيارة إلى إسرائيل، وشهدت تلك الزيارة جولة في مدينة القدس، تشاجر أثناءها مع رجال الأمن الإسرائيليين أمام عدسات التلفزيون، لأن رجال الأمن كانوا يحاولون منع الاحتكاك بينه وبين أفراد الجمهور الفلسطيني الذين تجمعوا لتحيته. ولم تكن إسرائيل بالطبع راضية عن ذلك كله.
وفي عام ٢٠٠٣ قام وزير الخارجية الفرنسي دومينيك دو فيلبان بزيارة إلى إسرائيل والسلطة الفلسطينية، وأصر على مقابلة الرئيس ياسر عرفات المحاصر من قبل حكومة شارون، وكان من نتائج ذلك أن شارون رفض استقبال دو فيلبان. وفي عام ٢٠٠٤ طالب وزير الخارجية الفرنسي ميشال بارنييه وزير الخارجية الإسرائيلي "بوضع حد لحالة القمع الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية". وبدأت إسرائيل في هذه الأثناء تتهم فرنسا باللاسامية، وأثار الاتهام غضباً فرنسياً، ودعا شارون اليهود إلى الهجرة من فرنسا فراراً من تصاعد اللاسامية، ورد شيراك باعتبار شارون "شخصاً غير مرغوب فيه" في فرنسا.
في سوريا ولبنان، وفي ظل التوترات والمصادمات مع إسرائيل، كانت فرنسا تدعم الموقف السوري ـ اللبناني، وعندما قامت إسرائيل بالاعتداء على لبنان، وشنت عملية "عناقيد الغضب" في ١٩٩٦/٤/٢٦، التي شهدت مجزرة قانا، وقع تدخل دولي أدى إلى اتفاق حمل اسم (تفاهم نيسان)، وتضمن هذا الاتفاق تكوين لجنة للمراقبة تضم سوريا كدولة ضامنة لتنفيذ هذا التفاهم. وكانت سوريا هي التي أصرت على ضرورة أن تتمثل فرنسا في هذه اللجنة، وقد تم ذلك بالفعل، وعبر هذا الموقف عن درجة العلاقة التي كانت قائمة بين فرنسا وسوريا.
وفي العراق، أقامت فرنسا علاقات استراتيجية مع بغداد، وكان لشيراك علاقة صداقة وثيقة مع صدام حسين منذ عام ١٩٧٤. وبعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ حصلت فرنسا على عقود كبيرة في النفط وفي المبادلات التجارية المكثفة. وكان يقف وراء تمتين العلاقة الاقتصادية الفرنسية ـ العراقية لوبي فرنسي واسع النفوذ يتكون من الشركات الأربع التي يطلق عليها السياسيون لقب (عصابة الأربعة)، وهي: شركة داسو، شركة طومسون، شركة ماترا، شركة ايرو سبيسيال. وكانت اللغة الفرنسية السائدة آنذاك دفاعاً عن هذه العلاقة تقول: إن صدام حسين يدافع عن سيادة بلاده وعظمتها، ويمكن نعته بلقب ديغول العراق. كما أن علمانية النظام العراقي تشكل سداً في وجه الخمينية. وفي مناخ هذه العلاقة جاء عام ٢٠٠٣، وبرز التوجه الأميركي لغزو العراق، وبرز بالمقابل الموقف الفرنسي في مجلس الأمن الذي عارض حرب العراق، وكان ذلك ذروة التعبير عن الخلاف الفرنسي ـ الأميركي بصدد التعامل مع القضايا العربية.
شكل مجموع هذه المواقف ما سمي إعلامياً باسم (سياسة فرنسا العربية)، مع أن هذه التسمية كانت على مدى عهود طويلة مثار تساؤل عما إذا كانت موجودة أو لا. من ذلك

مثلا ما أعلنه فرنسوا ميتران عام ١٩٩١ بصوت وزير خارجيته رولان دوما حين قال: إن هذه السياسة (العربية) ليست سوى وهم. وبعده قال فيدرين وزير الخارجية: إن الحديث عن سياسة عربية لفرنسا هو أضغاث أحلام في غيبة أمن قومي عربي مشترك. وحالياً يقول المرشح للرئاسة الفرنسية نيكولا ساركوزي: ليس هناك توجه عربي موحد حتى يمكن الكلام على سياسة عربية واحدة تجاه العرب.

الموقف الأوروبي يتبدل

دفع التغير الكبير الذي شهده العالم عند انهيار الاتحاد السوفياتي، إلى ولادة النظام العالمي الجديد. كان النظام العالمي الجديد يعني انتصار الغرب في الحرب الباردة، وكانت أوروبا تعتبر نفسها جزءاً أساسياً من تلك الحرب، وتعتبر نفسها بالتالي جزءاً أساسياً من الانتصار، وكان ذلك يعني في التطبيق أنها شريكة مع الولايات المتحدة في جني مكتسبات هذا النصر. ولكن الولايات المتحدة ترجمت النصر الغربي على الاتحاد السوفياتي بأنه يعني بدء سيادة القطب الواحد، أي القطب الأميركي، وكان ذلك يعني في التطبيق تنحية الدول الأوروبية عن المشاركة في اتخاذ القرارات ذات المساس بالوضع العالمي، ونشأت آنذاك حالة معارضة أوروبية تزعمتها فرنسا، بينما انشقت بريطانيا عن أوروبا وأعلنت التحاقها بالقطب الأميركي. واتخذت ألمانيا موقفاً معترضاً اتخذ شكل مطالبتها بالانضمام إلى مجلس الأمن. وقامت حالة من التخلخل داخل الحكومات الأوروبية، إذ أعلن اليمين الأوروبي حين كان يصل إلى السلطة التحاقه بالقطب الأميركي (إسبانيا ـ ايطاليا ـ المانيا ـ دول أوروبا الشرقية)، بينما كان اليسار الأوروبي عند وصوله إلى السلطة يعلن تململه وإصراره على المشاركة في اتخاذ القرارات العالمية (إسبانيا ـ إيطاليا ـ المانيا).

وعندما وقعت أحداث ٢٠٠١/٩/١١ في نيويورك وواشنطن، وبرزت "القاعدة" في صدارة الإعلام العالمي، ترافق هذا الحدث الدراماتيكي مع التغير العميق الذي طرأ على السياسة الأميركية، عبر سيطرة "المحافظين الجدد" على السلطة، وعبر تبني الرئاسة الأميركية لمنهجهم ومنطقهم، وهو منهج أعلن استراتيجية "الحرب الوقائية"، واستراتيجية السعي لتغيير دول العالم من خلال سياسة "الفوضى البناءة"، واستندت هذه الخلفية إلى مفهوم "حرب الحضارات"، وهنا ولد أيضاً شعار "الحرب ضد الإسلام"، ثم جرى تهذيب الشعار بالحديث عن "الحرب ضد الإسلام المتطرف". ومع أن المناخ الأوروبي العام لم يقبل شعار حرب الحضارات، ولم يقبل فكرة الحرب ضد الإسلام، إلا أن وجود نشاط مدمر للإسلام المتطرف في أوروبا (تفجيرات اسبانيا وفرنسا)، مع وجود جاليات عربية ـ إسلامية في مختلف دول أوروبا، أدى إلى بروز جدل واسع حول أسلوب التعامل الأوروبي مع الإسلام

ومع الجاليات العربية الإسلامية، وأدى الإعلام هنا دوراً بارزاً في مناقشة هذه القضية بطريقة استفزازية وغير مريحة. وتفاعلت هذه الأحداث كلها وأنتجت حالة من التباعد، وحالة من التناقض أحياناً، بين أوروبا والولايات المتحدة الأميركية. وقد مال البعض لتصوير هذا التناقض وهذا التباعد على أنه انحياز أوروبي نحو العرب، ولكن هذا التصوير كان خاطئاً وسطحياً، لأنه لم يلحظ أن الدافع الرئيسي لهذا التناقض كان ينحصر في المطالبة الأوروبية، وبخاصة فرنسا، في الإصرار على المشاركة في اتخاذ القرار العالمي عبر مجلس الأمن، الذي حولته السياسة الأميركية إلى منبر لإصدار الأوامر للآخرين. كان كل طرف يسعى إلى أن تكون له حصة في القرار الدولي، وحصة بالتالي في ميدان النفوذ العالمي، وفي ميدان المكتسبات التي تولد من رحم ذلك النفوذ.

استمرت حالة التجاذب بين الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا سنوات قليلة (من ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٤)، ثم حدث تحول نوعي مارست فيه أوروبا التحاقاً ذيلياً بالسياسة الأميركية، وكان الموقف الفرنسي هو الأبرز في هذا المجال، وانعكس ذلك على الموقف الفرنسي من فلسطين ولبنان وسوريا والعراق.

يتحدث كتاب (شيراك العرب) عن هذه المسألة ويقول مؤلفاه إن الرئيس الفرنسي جاك شيراك، ومنذ عام ٢٠٠٤، سار على خطى الرئيس الأميركي جورج بوش في كل ما يتعلق بالنزاع العربي ـ الإسرائيلي، فقاطع حكومة حماس بعد نجاحها بالانتخابات، وبدأ يتقرب بشكل واضح من إسرائيل. وبعد انسحاب إسرائيل من قطاع غزة استقبلت باريس شارون بحفاوة، وبدأ الإعلان عن أن تحسين علاقات فرنسا بإسرائيل هو تمهيد لأداء دور فرنسي في سياسة الشرق الأوسط. ثم تحول الموقف الفرنسي إلى تأييد السياسة الأميركية في العراق، وإلى تأييد السياسة الأميركية إزاء الملف النووي الإيراني. ويرد المؤلفان هذا التحول في الموقف الفرنسي إلى تذبذب شيراك وتناقضاته وطبعه غير المستقر. ولكن الصحافي الفرنسي إريك رولو يرفض هذا التحليل الشخصي والمبسط، ويقول في مناقشة للكتاب إن هذا التغير الفرنسي يعود إلى ثلاثة أسباب:

١ ـ عدم قدرة شيراك على مواصلة معارضة الأطراف الأطلسية في فرنسا، والموجودة حتى داخل حزبه.

٢ ـ التأييد المتواطئ لكافة الدول العربية تقريباً، لسياسة الولايات المتحدة.

٣ ـ الموقف الأوروبي المؤيد بازدياد لأميركا، وبخاصة بلدان أوروبا الشرقية التي انضمت إلى الاتحاد الأوروبي.

لبنان وسوريا

كان من أبرز علامات التحول في السياسة الفرنسية والتحاقها بالسياسة الأميركية،

موقفها المستجد من سوريا ولبنان، والذي شهد تراجعاً بارزاً في علاقات باريس مع دمشق. وقد أصبح القرار ١٥٥٩ الصادر عن مجلس الأمن في ٢٠٠٤/٩/٢ هو العنوان الأبرز لهذا التراجع. وكان الموضوع الفلسطيني بارزا هو أيضاً داخل هذه السياسة، ومن خلال إعطاء دور استراتيجي لإسرائيل في كامل منطقة الشرق الأوسط. يروي كتاب (التحول الكبير: بغداد - بيروت) إن اليوت ابراهمز قدم بعد هذا التقارب الأميركي - الفرنسي تحليلاً يقول "بات من الممكن الآن التفكير بشرق أوسط جديد، تكون فيه سوريا ضعيفة، تفك ارتباطها مع إيران، وتوقع اتفاقا مع إسرائيل، يليه قيام تحالف استراتيجي بين إسرائيل وتركيا يحمي هذا الوضع".

الإعلام والمتغيرات

التحق الإعلام الأوروبي بالمعركة السياسية الدائرة وعبر عنها. بدأ الإعلام الموالي للحكومات، أو للأحزاب الحاكمة، أو للشركات ذات المصلحة، بالدفاع عن السياسات الجديدة والترويج لها. وحافظ الإعلام بشكل عام على الموقف الأوروبي التقليدي الداعم لدولة إسرائيل والمنادي في الوقت نفسه بضرورة إنشاء دولة فلسطينية تنهي معاناة الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي. ونشأ داخل هذا الإعلام موقفان جديدان تجاه الوضع الفلسطيني: موقف يرفض ويدين العمليات الانتحارية الفلسطينية، ويعتبرها جزءاً من الإرهاب العالمي. وموقف ثاني يدين نجاح حركة حماس في الانتخابات الفلسطينية، ويدين الحكومة التي شكلتها، ويدعم الحصار المالي الذي فرض عليها وعلى الشعب الفلسطيني. ثم نشأ موقف إعلامي آخر ضد "الإسلام المتطرف" ما لبث أن امتد إلى مناقشة الموقف من الجاليات العربية - الإسلامية، متبنياً فكرة "الاندماج" التي تنطوي على دعوة لتخلي المهاجرين عن جذورهم وخلفياتهم الدينية والثقافية من أجل قبولهم كمواطنين في دول أوروبا. وبرزت قضية "الحجاب" كعنوان أساسي في هذا السجال السلبي والمعادي.

ونشأ بالمقابل، داخل الإعلام نفسه، تيار نقدي للسياسة الإسرائيلية، وهو تيار نقدي بشكل خاص لحكومة أرييل شارون، الذي أعاد احتلال أراضي الحكم الذاتي الفلسطيني، وكرس أعمال الاغتيال والقتل وتدمير البيوت والاغتيالات ومنع الفلسطينيين من العمل. وردت حكومة إسرائيل وصحفها وإعلامها باتهامات تعميمية لأوروبا باللاسامية.

ونشأ في داخل هذا السجال الإعلامي، تحول بارز في الوجدان الشعبي الأوروبي، كان من أبرز ملامحه استطلاع الرأي الذي أجري على مستوى أوروبا، وانتهى إلى القول بأن أغلبية المواطنين (٥٨ في المئة - ٦٢ في المئة) يعتبرون دولة إسرائيل أكثر الدول تهديداً للسلام في العالم. ولفت النظر في بريطانيا اتساع نطاق الحملة الداعية لمقاطعة إسرائيل

أكاديمياً، وهي حملة بدأتها حفنة من الأساتذة الجامعيين اليهود، ثم انضم إليها حشد كبير من الأساتذة الجامعيين أصبح عددهم بالآلاف. ويمكن اعتبار هذا التحول الشعبي الأوروبي في النظرة إلى إسرائيل، تحولاً فريداً من نوعه، إذ إنه يتم بعد أكثر من نصف قرن من التأييد شبه المطلق لإسرائيل والإعجاب بها. ويلفت النظر هنا إسهام عدد ملحوظ من النخبة اليهودية في بلورة هذه المواقف والتعبير عنها، وجزء نهم اشتهر بتأييده لإسرائيل وللحركة الصهيونية. وحين ردت إسرائيل (إعلامياً) على هؤلاء متهمة إياهم باللاسامية، ردوا عليها بغضب، ومن خلال صحف اشتهرت بتأييدها لإسرائيل (اللوموند).

وقد تجند كتاب أوروبيون يهود للتصدي لهذه الحملة، وكان منهم الفيلسوف الفرنسي (آلان فينكل كروت) الذي تبنى علناً آراء ضد العرب والمسلمين قريبة من العنصرية. ومن أقواله أن "المثقف العربي لا يمكن أن يكون ديموقراطياً إلا إذا تخلى نهائياً عن المطالبة بحق العودة للشعب الفلسطيني"، وهو وقع بياناً ضد السود أدان فيه "العنصرية التي تطال البيض". وأجرى مقابلة مع صحيفة هآرتس الإسرائيلية (١٩/١١/٢٠٠٦) تحدث فيها عن انفجار أحداث الضواحي الباريسية وقال: "المشكل هو أن معظم هؤلاء الشباب هم سود وعرب وهويتهم إسلامية... لذا من الواضح أن هذا التمرد ذو طابع إثني - ديني". ودافع عن مآسي الاستعمار في إفريقيا قائلاً: "في فرنسا... نقوم بتغيير مناهج التعليم عن التاريخ الاستعماري وتاريخ العبودية والرق. إن تعليم التاريخ الاستعماري أصبح سلبياً بشكل حصري، ولم نعد ندرس أن المشروع الاستعماري قدم التربية والحضارة للمتوحشين". وقد رد على هذه المواقف الصحافي اليهودي (دون دانييل) مدير مجلة (لا نوفيل اوبزرفاتور) وقال: "إن ما تفوه به جدير بزعيم من اليمين المتطرف، لا أن يخرج من فم زعيم سابق لليسار الفرنسي". ذلك أن آلان فينكل كروت هو من زعماء حركة الطلاب عام ١٩٦٨، مع برنار هاليفي وألكسندر ألدر وسواهم ممن يطلق عليهم في أوروبا وصف (الفلاسفة الجدد)، بعد أن تحولوا عن اليسار ليصبحوا منظرين لليمين ومدافعين عن الصهيونية وإسرائيل.

ومن المواقف الإعلامية البارزة في أوروبا السجال الذي نشأ في أوساط اليهود، إذ مال قطاع واسع من الطائفة اليهودية في فرنسا إلى مساندة سياسة حكومة إسرائيل، حكومة أرييل شارون، والدفاع عنها، وشاركهم في هذه المساندة كتاب يهود وغير يهود، وهدفهم منع أي انتقاد لسياسة حكومة شارون، وحجتهم الأساسية اتهام كل من ينتقد إسرائيل باللاسامية. وقد تصدى للرد على هذه الحملة مجموعة من الكتاب اليهود البارزين، ثم جمعوا ردودهم في كتاب حمل اسم (معاداة السامية - المساومة غير المقبولة)، وصدر الكتاب عام ٢٠٠٣.

وصدرت أيضاً كتب تعالج موقف الإعلام الفرنسي من قضايا الإسلام والمسلمين، أبرزها كتاب (الإسلام في الخطاب الإعلامي الفرنسي)، الصادر عام ٢٠٠٥، للباحث الجزائري (رابح صادق)، ويدرس الكتاب تعاطي مجلتي (إكسبرس) اليمينية و(لا نوفيل اوبزرفاتور) اليسارية، مع قضية الإسلام والمسلمين في فرنسا، خلال فترة تمتد من عامي ١٩٨١ - ١٩٩٤. ويبرز كيف أن هذه المعالجة بمجملها تعكس "قوالب ذهنية غربية راسخة منذ القرون الوسطى". ولا بأس من أن نلقي نظرة سريعة على ما يعنيه ذلك.

منابع الذاكرة الجمعية الغربية

من المفيد أن نسأل هنا عن مكونات الذاكرة الجمعية الغربية، الموجودة خلف الذهن الصحافي والإعلامي، والموجهة له بالعمق.

نستطيع تاريخياً، أن نسجل على مدى عقود طويلة من الزمن، واقعة المواجهة بين الشرق والغرب على ضفتي المتوسط، ونستطيع تاريخياً، أن نسجل أن واقعة المواجهة هذه، راسخة في العقل الأوروبي، ولكن تختلف في كل مرة موضوعاتها وتبريراتها.

في بدايات الاحتكاك، وحتى في مرحلة الحروب الصليبية، كانت المواجهة مشوبة بالإعجاب الغربي بالعرب والمسلمين، ومشوبة أيضاً بالرغبة في التقليد. وقد استمر هذا الإعجاب عبر الأندلس إلى مرحلة زمنية متقدمة، وأدت الأندلس دور الحاضن لحوار الحضارات، والمكان الذي يقصده أبناء الملوك وكبار رجال الكنيسة للدرس والتعلم والحصول على التدريب الإداري. وحتى في أيام الدولة العثمانية كانت صورة الإعجاب والتقليد لا تزال قائمة، ورسخت في أذهان الأوروبيين في هذه المرحلة، صورة الإسلام والمسلمين كصورة عثمانية. في هذه المرحلة (المراحل) كان الدين هو موضوع المواجهة.

مع عصر النهضة الأوروبية، وعصر الكشوفات العلمية والجغرافية، بدأ المثال الغربي يخرج من المثال الديني إلى المثال الروماني والإغريقي، وجرى في إطار ذلك الخروج نحو اليونان وأرسطو، أي نحو البحث عن أصول أوروبية للإعجاب والتقليد، وبدأت في هذه المرحلة فكرة نقد الشرق الإسلامي، وبرزت نظرية (الاستبداد الشرقي)، وظهرت في هذه المرحلة أيضاً فكرة الاعتدال الغربي مقابل فكرة روح العبودية الشرقية.

ومع الحضارة الغربية الحديثة، برزت أفكار نشر الحضارة والتمدن (الاستعمار)، وبرزت إلى المقدمة فكرة (التقدم) وبخاصة مع فلسفة هيجل، حيث لدى المتقدمين من البشر رسالة نحو غير المتقدمين (رسالة الرجل الأبيض).

في بعض هذه المراحل، كان الأوروبيون ينظرون إلى المسلمين، من خلال عقلية المواجهة، كأعداء. والآن برزت نظرية الإسلام والإرهاب، فتم تبنيها بسرعة ومن دون متاعب فكرية، بسبب ما تقدمه الذاكرة الجمعية التاريخية من دعم. وما يقال الآن عن الإسلام والإرهاب

ليس جديداً، إنما تعاد صياغته فقط. ولمزيد من التوضيح يمكن أن نذكر، أنه منذ القرن السابع عشر، ظهرت كتب اعتبرت كمراجع أساسية، وهي تتحدث عن الإسلام كدين عنف وصراع واعتداء، أبرزها كتاب ميشال بودييه (michel baudeir) الذي عاش بين عامي (١٥٨٩ ـ ١٦٤٥)، وألف عام ١٦٣٢ كتاباً باسم "دين الأتراك، مع ميلاد وموت وحياة رسولهم محمد، وأعمال الخلفاء الأربعة الأول الذين تبعوه، مع تاريخ نكبات الغزاة في أوروبا خلال القرون الثلاثة الأولى". ومنها أيضاً كتاب بول ريكو (ricaut) المطبوع عام ١٦٧٠ بعنوان "تاريخ الوضع الحالي للإمبراطورية العثمانية، يحتوي على الحكم السياسية للأتراك، والنقاط الأساسية للدين المحمدي، طوائفهم، روافضهم، وكل أشكال الأديان في الشرق. انضباطهم العسكري، مع سبر دقيق لقوتهم في البحر والبر، ومصادر دخل الدولة". ومنها كتب تافرنييه (tavrnier) وشاردان وبورنييه، التي شكلت المصادر الأساسية لكتابات لاحقة لكل من مونتسكيو وماركس وكارل فيدفو غيل (wittwogel).

تطور الأمر مع بروز الفيلسوف "مونتسكيو" في القرن الثامن عشر، فهو الذي صاغ اساساً نظرياً لعنف الإسلام وعدوانيته، من خلال ما سمّاه "الاستبداد الشرقي"، وقد مهد لذلك في كتاب "الرسائل الفارسية"، ثم صاغ نظريته بشكل أوضح في كتابه "روح القوانين"، حيث المجتمع الإسلامي هو مجتمع لا ملكية فيه، وفيه دائماً سيد واحد فقط وكل من حوله مجموعة من الأتباع، والنتيجة أن من لا يملكون هم عبيد لمن يملك، وأتباع السيد الذي يملك هم عبيد له، وهذا هو جوهر فكرة الاستبداد الشرقي.

واللافت للنظر هنا أمران، الأول ان الكتابة عن الاستبداد الشرقي تمت في مرحلة كان فيها استبداد الملوك في أوروبا على اشده، وقد جرى القفز عن ذلك والتركيز على فكرة "الاستبداد الشرقي". الأمر الثاني أن كتاباً أوروبيين عديدين كتبوا ضد نظرية "الاستبداد الشرقي"، وربما كان من أبرزهم "فولتير" الذي كتب دحضاً لهذه النظرية في كتابه "القاموس الفلسفي"، وكذلك المستشرق الفرنسي "أنغويتيل دوبيرون" (Anquetil Duperron) الذي عاش بعض الوقت في الهند وفارس (١٧٣١ ـ ١٨٠٥)، وألف كتاب "التشريع الشرقي" (la legislation orientale) في عام ١٧٧٥، وهو كتاب يشبه الموسوعة، وفكرته الرئيسية اعادة التعريف بالشرق انطلاقاً من نقد نظرية الاستبداد الشرقي التي كانت رائجة في عصره، ومسيطرة على فكر عصر الأنوار. وهو ينقد ثلاث فرضيات: الأولى أنه لا يوجد تشريع في الشرق فينقد ذلك مصدري التشريعات الشرقية. والثانية أنه لا يوجد ملكية في الشرق ويورد وقائع الملكية واشكالها ونظمها. والثالثة تأكيده أن الذين كتبوا، ومنهم مونتسكيو، لا يعرفون الشرق. ولكن هذه الكتابات هزمت وانتصرت نظرية مونتسكيو، لماذا؟ لأنها التقت مع القرار السياسي وعبرت عنه، وهو القرار الداعي آنذك للتوسع الاستعماري الغربي، والباحث عن تبريرات فكرية ونظرية لذلك العمل

الاستراتيجي الخطير. لقد كانت نظرية مونتسكيو هذه من القوة والسيادة، بحيث تم تبنيها بعد ذلك من قبل كارل ماركس وهو أكبر ناقد للنظرية الرأسمالية في العصر الحديث، مستنداً إلى المصادر نفسها التي استند إليها مونتسكيو، وبنى على أساسها رأيه في فائدة الاستعمار لقيامه بعملية تحديث في البلدان المستعمرة التي تعاني من "الاستبداد الشرقي" مثل الجزائر. وسار لينين من بعده على النهج نفسه، إلى أن انعقد مؤتمر شعوب الشرق بعد انتصار الثورة الروسية، وبرز في المؤتمر قادة آسيويون وهنود، تحدثوا ضد الدور الاستعماري الغربي، وأبرزوا إيجابيات حركة التحرر الوطني ضد الاستعمار، فأحدث لينين تغيير في نظرته إلى المسألة. ولكن آخرين تابعوا النهج نفسه، فقام كارل فيدفوغل، وهو ماركسي مرتد، كان يعمل في "الكومنترن" (القيادة المركزية العالمية للحركة الشيوعية) في موسكو في قسم قضايا الشرق، ثم غادر روسيا وانحاز إلى الأميركيين، وألف كتاباً مرجعياً في الاستبداد الشرقي.

بعد هذه المرحلة نجد مرحلة أخرى من كتب الرحلات التي تشكل مصدراً آخر من مصادر تشكيل الذاكرة الجمعية الغربية من رموزها شاتوبريان الذي ألف كتاب "الرحلة من باريس إلى القدس"، وافتتحه بقوله إنه ذاهب إلى القدس كفارس، ربما كآخر حاج صليبي، كآخر الفرسان الذين يتقمصون الروح القديمة. وعندما وصل إلى اليونان (كانت اليونان تحسب من الشرق حتى وقت متأخر) بدأ يتحدث فوراً عن الاستبداد الشرقي، وقبل أن تطأ قدماه أرضاً مسلمة.

وحتى المسيحية الشرقية الأرثوذكسية، كانت كتابات الرحالة تضفي عليها سمات الاسلام الشرقية نفسها، فالرحالة (يوجين بورييه) يذهب إلى اسطنبول، ويقيم عند عائلة أرمنية مسيحية ارثوذكسية، ويصفهم بالكرم والنظافة، ولكنه يقول بعد ذلك: مع كل أسف، فهم متأثرون بالتعصب المحمدي، واسوأ من ذلك هو معتقداتهم.

وتستمر عملية شحن الذاكرة الجمعية الغربية حتى يومنا هذا. في أواخر الستينات ينشر المستشرق الأميركي "برنارد لويس" كتابه (عودة الإسلام)، وهو كتاب يقول: انتبهوا، الإسلام لم يمت، والقومية العربية والاشتراكية والعلمانية، مجرد قشرة داخلها الإسلام. وهو يحلل خطابات المسؤولين مبرزاً ما فيها من رموز اسلامية، كما يحلل رموز الفلسطينيين، مشيراً إلى الأسماء التي يطلقونها على الفرق الفدائية (القسام، الأقصى)، ويشير إلى اسماء كتائب جيش التحرير (حطين، القادسية، عين جالوت)، ويشير إلى استخدام الفلسطينيين الدائم لاسم صلاح الدين كرمز، وإلى اطلاق صفة الشهيد على موتاهم.

إن هذه الذاكرة الجمعية هي التي تشكل الخلفية الذهنية للأوروبي وللأميركي حين يكتب عن القضية الفلسطينية، المرتبطة دائماً بدعم العالم الإسلامي لها. وهي أيضاً التي تشكل

عقلية المواطن الأوروبي والأميركي في نظرته إلى القضية الفلسطينية وإلى أي قضية أخرى تخص العالم الإسلامي. ودليلنا إلى ذلك دراسة أعدها المستشرق "جاك بيرك" في مطلع السبعينات، بطلب من وزارة التربية، عن صورة الإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، وما يتعلمه أو لا يتعلمه الطفل في فرنسا عن الآخر المسلم، فقدم في تقريره صورة شديدة السلبية، ونصح بضرورة العمل على تغييرها.

وفي هذا السياق نشير إلى ما نشره "جاك شاهين" (الأميركي من أصل عربي) في كتاب له بعنوان (العرب الأشرار في السينما... كيف تشوه هوليوود شعباً). يشمل الكتاب جرداً دقيقاً لكامل أفلام القرن الماضي الأميركية، ويبرز الصورة النمطية السلبية للعرب التي استخدمتها صناعة السينما الأميركية، وهي كما يلي: (متوحشون بلا قلب، غير متحضرين، متعصبون دينياً، مهووسون بالمال، مختلفون ثقافياً، يميلون لترويع أبناء الغرب المتحضرين، المسيحيين منهم واليهود على وجه الخصوص). وتم أيضاً في هذه الأفلام وعلى مدى قرن الربط بين الإسلام وظلم المرأة، وبين الإسلام والجهاد، وبين الإسلام والإرهاب، واستخلص نتيجة مفادها: أن تكون عربياً يعني أن تكون مسلماً، وذلك يعني أن تكون ارهابياً وهذه هي الصورة السائدة عن الاسلام في الأفلام. ويذكر المؤلف أن استوديوهات هوليوود الكبرى تعرضت لضغوط كي تتوقف عن تقديم صورة سلبية للمرأة، والسود، والأقليات الأخرى، بينما لم تتعرض لضغوط بسبب تقديمها صورة سلبية للعرب (إلا مؤخراً).

وقال "ديفيد مالك" من مركز أبحاث معهد الشرق الأوسط في واشنطن: إن كتاب شاهين مخيف، لأن الأفلام والتلفزيون يشكلان الرأي العام الأميركي.

وقال "ريتشارد شيكل" الناقد السينمائي في مجلة تايم الأميركية: تحولت هوليوود إلى العرب ليؤدوا دور الشرير في الأفلام بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة، ولم يكن لدى العرب منظمات تحتج عندما قدمت هوليوود هذه الصورة النمطية السلبية، إلى أن ظهرت منظمة "عصبة مناهضة التمييز" العربية.

هذه الذاكرة الجمعية التي تكونت عبر العصور، عبر الدين، والكتب، والنظريات الفلسفية، وقرن كامل من الأفلام، هل يمكن معالجتها بالإعلام وحده؟ وأي نوع من الإعلام هذا الذي نحتاج إليه؟

المواجهة الإعلامية... كيف؟

سمعنا طوال الخمسين سنة الماضية، نقداً مراً للذات، تحت عنوان التقصير الإعلامي في مواجهة الإعلام المضاد في الغرب وفي الولايات المتحدة الأميركية. وكنا نقول ونكرر القول، بأن اللوبي اليهودي هناك يقف وراء هذا النوع من الإعلام، ونطالب بإنشاء لوبي عربي

مضاد ونلوم السفراء العرب ومكاتب الجامعة العربية التي لا تفعل شيئاً لإنشاء مثل هذا اللوبي لكي يقوم بالعمل الإعلامي المطلوب، أو لكسلهم في تكثيف الاتصالات مع الساسة الأميركيين ونواب الكونغرس بالذات لنشرح لهم ما خفي عليهم من حقائق القضية الفلسطينية والقضايا العربية الأخرى. وينطوي هذا الموقف في رأيي على أخطاء جسيمة لا بد من التوقف عندها ولو بسرعة.

- اللوبي اليهودي:

يجري الحديث عن اللوبي اليهودي وكأنه قوة خفية تحرك سياسة الولايات المتحدة، وهذا خطأ كبير، فاللوبي اليهودي لا يحرك سياسة الولايات المتحدة، إنما العكس هو الصحيح. هناك سياسة أميركية واضحة ومعلنة تجاه إسرائيل، واللوبي اليهودي يعبر عن السياسة ويرعاها وينشطها، أي إنه يعبر عن المصلحة الأميركية تجاه إسرائيل ويرعى استمرار هذه المصلحة.

وقد نجح اليهود في تكوين هذا اللوبي لأنهم يهود أميركيون، وليس لأنهم قوة خفية جاءت من الخارج، أو تسللت خلسة إلى أروقة السياسة الأميركية، وحين يقع تعارض في المصالح التكتيكية بين الولايات المتحدة وإسرائيل، فإننا نجد اللوبي نفسه يضغط على إسرائيل كي تنسجم مع التكتيك الأميركي. لنتذكر ما حدث عند مؤتمر مدريد عام ١٩٩١، ألم تضغط الولايات المتحدة على اسحق شامير لكي ينسجم مع التكتيك الأميركي الداعي إلى عقد المؤتمر؟ ولنتذكر ما حدث عند مناقشة ضمانات القروض الأميركية لتمويل كلفة استيعاب المهاجرين الروس إلى إسرائيل، ألم توقف الولايات المتحدة تقديم هذه الضمانات إلى حكومة شامير، لأنها رفضت التعهد بعدم الصرف من هذه القروض على المستوطنات؟ وفي الأزمة الفلسطينية بعد اندلاع الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠، ألم تضغط الولايات المتحدة على أرييل شارون ليوقف عمليات العنف ضد الفلسطينيين، قبل أن يغير الرئيس الأميركي موقفه ويبدأ سياسة ضغط على الفلسطينيين والعرب بواسطة اسرائيل؟ إن اللوبي اليهودي مصلحة أميركية، ومن خلال مواطنين اميركيين يهود، ولا يمكنه أن يعوض بنشاط من الخارج يقوم به السفراء أو تقوم به بعثات إعلامية متباعدة.

- رجال الكونغرس:

يجري الحديث العربي دائماً عن تقصير الاعلام العربي بالاتصال برجال الكونغرس الأميركي، لشرح حقائق الموقف لهم بصدد القضية الفلسطينية أو القضايا العربية الأخرى، وتعبر هذه الصورة عن اعتقاد خفي بأن أساس المشكلة هو الجهل بها، وأن رجال الكونغرس هم رجال جهلة بالقضية الفلسطينية، يحتاجون إلى من يتصل بهم ويشرح لهم، فإذا تم الاتصال والشرح فإن مواقفهم لا بد أن تتبدل من اسرائيل أو من سواها من القضايا، وربما أصبحوا مناصرين للقضية الفلسطينية وللقضايا العربية. وبما

أن رجال الكونغرس ليسوا مجموعة من الأغبياء، بل من الرجال الواسعي المعرفة بالشؤون السياسية اللازمة لبلدهم، وبما أن أسلوب عملهم (مكتب، ومساعدون، ومستشارون لكل عضو كونغرس) يمكنهم من الحصول على المعلومات بشأن القضايا التي يريدون مناقشتها، فإن البحث عن سبب آخر لمواقفهم المعادية للفلسطينيين والعرب، يكون أفضل وأجدى.

في ضوء هذه الصورة نقول، إن بناء لوبي عربي يواجه اللوبي اليهودي، ما كان له أن يتم في السنوات السابقة بعمل من الخارج يتولاه السفراء العرب. وإن تغيير مواقف رجال الكونغرس ليس مهمة اعلامية يقوم بها رجال اعلام عرب من خلال اتصال فردي مع هذا العضو أو ذاك، ولا بد لهذه العملية المترابطة أن تنبع من داخل الولايات المتحدة لا من خارجها، وبواسطة الأجيال الجديدة من العرب الأميركيين، لا بواسطة السفراء أو الزوار في رحلات يتم تنظيمها لهم.

وبعامل الزمن وحده، توجد الآن في الولايات المتحدة جالية عربية وإسلامية يقترب عددها من سبعة ملايين نسمة، ونسبة لا بأس بها من هذه الجالية اصبحت من الجيل الثالث أو الرابع، أي إنهم اميركيون مولداً ونشأة، وهم لذلك جزء من نسيج الحياة الأميركية الاجتماعية والثقافية والسياسية، ويمكن بإرادتهم ومن خلالهم وبواسطتهم، بناء لوبي عربي يؤثر في السياسة الأميركية الداخلية من خلال عملية الانتخابات، بحيث يطلبون مقابل أصواتهم مواقف محددة بشأن القضية الفلسطينية والقضايا العربية الأخرى، من المرشحين الذين سينتخبونهم. وعلى أساس هذه العلاقات فقط يمكن أن ينشأ اللوبي، وأن يصبح مصلحة أميركية، وأن يتولى مهمة مواجهة اللوبي اليهودي، ويكون رجال الكونغرس المحتاجين إلى الصوت الانتخابي العربي، أو الناجحين بسببه، أعضاء فاعلين في هذا اللوبي ويعبرون عن مطالبه. والجهد العربي هنا، جهد حكوماتنا وشعوبنا، هو دعم أبناء الجاليات العربية في الولايات المتحدة، ومدهم بالمال والمنشورات والمعلومات، كي يستطيعوا القيام بمهمتهم.

ونجد الظاهرة نفسها في أوروبا، فالجاليات العربية في أوروبا وصلت الآن بحكم الزمن، إلى الجيل الرابع والخامس، وبدأوا يصبحون عنصراً فاعلاً في الانتخابات الفرنسية مثلاً، ونشهد حالياً تسابقاً بين المرشحين (ساركوزي، رويال، بايرو) على كسب ود أبناء الجالية من خلال مواقف خاصة بهم، ومن خلال اختيار مندوبين منهم يترشحون على قوائم الأحزاب الفرنسية. وتنمو داخل هذه الأجيال قيادات شابة جديدة، تختلف نوعياً عن القيادات التقليدية التي احتلت واجهة تمثيل الجالية حتى الآن، ولهذه القيادات الشابة تصوراتها وخططها للعمل داخل الساحة السياسية الفرنسية، وليس مجرد تقديم مطالب للرعاية كالمدارس أو المساجد وسواها. ولا تحظى هذه الظاهرة الجديدة في أوساط الجالية

العربية، بأي اهتمام رسمي عربي، وبينما يملك اليهود في فرنسا ٢٠ مؤسسة اعلامية بين تلفزيون وإذاعة ومجلات وصحف، لا يملك أبناء الجالية أي مؤسسات اعلامية يعتد بها.

وهكذا فإن مجال عمل واسع موجود هنا لمن يريد أن يعمل وأن يؤثر في الإعلام، وفي السياسة الغربية، ولكن شرط ذلك هو اكتشاف الجديد في أوضاع الجاليات، واستنباط وسائل العمل الجديدة المناسبة لمساعدتهم كي يقوموا بالعمل الفعال، نيابة عن السفراء والبعثات الإعلامية وليس العكس.

تقول ناشطة عربية في المهجر، إن خطة المواجهة للإعلام المعادي في الولايات المتحدة والغرب، يجب أن لا تقتصر على العمل من تحت (مع المواطن)، بل تحتاج أيضاً إلى العمل (من فوق)، عن طريق تكوين لوبي عربي، وكونغرس مؤيد للعرب، بعد أن بدأ الصوت العربي يؤثر في الانتخابات حسب الصورة التي برزت في الانتخابات الأميركية الأخيرة، ويحتاج تحقيق هذا الأمر إلى حشد طاقات العالم العربي والإسلامي، جماعات وأفراداً، خلف مسلمي أميركا وأوروبا، ليؤدوا هذا الدور.

الفعل السياسي:

ولا يعني هذا أن نلقي عبء العمل كله على عاتق جالياتنا العربية. ثمة عمل آخر مطلوب منا كحكومات وكشعوب. فما دام الموقف السياسي الأميركي والغربي، يؤثر في حركة الإعلام ويقودها، فإن عملاً سياسياً عربياً مطلوب منا بالمقابل، ليشكل أداة تأثير وضغط على الموقف الدولي. والعمل السياسي المقصود هنا ليس موقفاً واحداً محدداً، وإنما هو مسيرة حياة متواصلة. فوجود عمل نضالي فلسطيني فاعل دائماً، ووجود نشاط شعبي عربي ضاغط دائماً، ووجود سياسة رسمية عربية مطالبة وضاغطة دائماً، هي مكونات لا بد منها، لكي تكون مادة مشكلة لمضمون الإعلام. فالإعلام ليس مسألة تقنية فنية انما هو تعبير عن نضالات وسياسات قائمة، وسيساعدنا في هذه المهمة أننا نمثل قضية عادلة، وإننا أبناء تراث ثقافي عميق وعريق.

المهمة الثقافية:

وهناك مهمة أساسية أخرى من نوع مختلف، مطلوبة منا كعرب وكمسلمين، وهي مهمة ثقافية بعيدة المدى. فإزاء ما ذكرناه من تراث الذاكرة الجمعية الغربية، فإن مضامين هذه الذاكرة تحتاج منا إلى أمرين: أولاً أن نطلع عليها ونستوعبها، وثانياً: أن نرد عليها بإبراز الصورة الحقيقية والواقعية لثقافتنا العربية والإسلامية. وهذا جهد بحثي مديد يفترض أن تضطلع به جامعاتنا ومؤسساتنا البحثية وجهود كتابنا ومفكرينا. فما بني في الغرب على مدى قرون لتكوين صورة خاطئة عن العرب والاسلام، لا يمكن مواجهته بعمل اعلامي سريع، وهو يحتاج إلى عمل ثقافي يحفر في الفكر والذاكرة، ويجادل ويساجل ويحاور على مدى سنوات وربما عقود، ولكنها مهمة مطلوب منا أن نبدأ بها ولو بخطة أولى واحدة.

ويختلف هذا المنهج الذي نقترحه للعمل، عن المنهج الذي تمت مناقشته في اطار الجامعة العربية، والذي تركز حول انشاء محطة إعلام تلفزيونية عربية تخاطب العالم بلغة أجنبية، ولا ندري ماذا ستكون هذه اللغة، الإنكليزية أو الفرنسية أو الروسية أو الصينية أو الألمانية. وكذلك إرسال وفود إعلامية الى الخارج تتصل بالإعلاميين والسياسيين لتشرح لهم (باعتبار أنهم لا يعرفون!!). وكذلك تخصيص مبالغ من المال لتنفق في نشر مقالات كإعلانات في الصحف العالمية. إن كل هذه الوسائل في رأيي غير مجدية، وستكون نتيجتها هدراً للجهد والمال لا غير.

اقتراح أخير:

إننا نحتاج إلى إعلام (تلفزيوني أو غير تلفزيوني) تتولى إنشاءه جالياتنا العربية في الخارج، ليخاطب جمهوراً غربياً بلغته، وبالأسلوب والمضمون الذي يختاره أبناء الجاليات. ونحن نحتاج في الداخل، أي في بلادنا العربية، إلى إعلام منفتح، محاور، عميق، يطرح على المواطن العربي كل ما يقال ضد العرب والإسلام في الخارج، ويرد عليه بالحقائق والوقائع، ذلك أننا نحتاج إلى إعلام داخلي يحمي المواطن العربي ويحصنه ضد الإعلام الخارجي ❑

المصادر

- كتاب (شيراك العرب)، تأليف ايريك أيشيمان وكريستوف بولتانسكي، صحافيان في جريدة ليبراسيون، عام ٢٠٠٦.
- مقال العلاقات الفرنسية ـ العربية، بقلم عاصم السيد، موقع الإسلام اليوم، ٢٠٠٣/٦/١٢.
- مقال لبدرا باخوس الفغالي، الديار اللبنانية، كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤.
- فرنسا وإيران، مقابلة مع الدكتور جواد بشارة، الحوار المتمدن، ٢٠٠٧/١/١٠، أجرى الحوار عزالدين اللواح.
- كتاب (معاداة السامية ـ المساومة غير المقبولة)، مجموعة من المؤلفين، ٢٠٠٣.
- كتاب (الإسلام في الخطاب الإعلامي)، صدر في باريس وبيروت، عام ٢٠٠٥، تأليف الجزائري رابح صادق.
- آلان فرانكل كروت، تصريحات لجريدة هآرتس، ٢٠٠٥/١١/١٩.
- مناقشة لكتاب شيراك العرب، لوموند دبلوماتيك.

صورة المقاومة في الإعلام الإسرائيلي

حسين الحلبي *

واجه الإعلام الصهيوني منذ ظهور وسائله الأولى وتحديد أساليب عمله وخطابه الإعلامي بعد صدور كتاب هرتزل دولة اليهود عام ١٨٩٦ وانعقاد أول مؤتمر صهيوني عالمي عام ١٨٩٧ سلسلة تحديات وصعوبات لم يستطع التغلب على بعضها في مجرى نشاطه التاريخي ومراحل عمله المتعددة. وبالاستناد إلى الأهداف السياسية المرحلية والاستراتيجية التي حددتها قيادة الحركة الصهيونية وضع قادة الحركة استراتيجيتهم الإعلامية وبرنامج عملها المرحلي وكان من أبرز مهامه وأكثرها إلحاحاً سياسياً وإعلامياً تهجير أكبر عدد من اليهود إلى فلسطين وبكل طريقة ممكنة وربط الحركة الصهيونية بالمصالح السياسية لقوى الاستعمار التقليدية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين..

وفي تلك المرحلة التي امتدت عشرين عاماً ١٨٩٧ حتى عام١٩١٧ لم يستطيع الإعلام الصهيوني ووسائل دعايته المنتشرة في أوروبا والولايات المتحدة تحقيق أي نجاح في دفع اليهود في تلك الدول وهم العنصر البشري الأساسي في المشروع الصهيوني إلى الهجرة إلى فلسطين مثلما لم يستطع تحقيق أي نجاح في استمالة الرأي العام لمصلحة مشروعه.

وكان المظهر الأول لنجاح الحركة الصهيونية قد جاء في عام ١٩١٧ نفسه بصدور تصريح بلفور الشهير والوعد الرسمي الذي قعطته بريطانيا لقادة الحركة الصهيونية بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين.

لكن هذا الوعد الذي شكل أول نقطة انعطاف هامة دولية ومحلية في علاقات الحركة الصهيونية بالدول الاستعمارية وبمشروعها الاستعماري الاستيطاني لم يكن وليد نشاط إعلامي صهيوني ناجح بقدر ما كان وليد علاقات سياسية وتبادل مصالح بين حركة استعمارية صهيونية ناشئة كانت تبحث عمن يتبنى دورها وقوة استعمارية كبرى أصبحت صاحبة القرار في معظم أرجاء الوطن العربي..

وعلى الرغم مما توافر لوسائل الإعلام والدعاية الصهيونية من دعم وانتشار دولي بعد

(*) باحث مختص في الشؤون الإسرائيلية.

الانتداب البريطاني على فلسطين وبداية تنفيذ المشروع الصهيوني على أرض فلسطين، إلا أن الإعلام الصهيوني ظل عاجزاً عن إقناع قواه البشرية اليهودية بالهجرة واستعمار فلسطين.. فقد أشارت جميع الإحصاءات المحايدة والموضوعية إلى عدم ازدياد عدد اليهود داخل فلسطين منذ الهجرة الأولى عام ١٩١٩ التي تشكلت من يهود روس ويهود من أوروبا الشرقية حتى عام ١٩٣١ إلا بنسبة قليلة جداً، وتشير إحصائية ظهرت في موقع ميديل إيست ويب تحت عنوان "سكان فلسطين في العهد العثماني والانتداب البريطاني" إلى أن نسبة اليهود الذي وصلوا إلى فلسطين ما بين عام ١٩٣٠ وعام ١٩٣٩ لا تزيد على ثلاثين إلى أربعين ألفاً، علماً بأن عدد اليهود في أوروبا في ذلك الوقت كان يزيد على أربعة أو خمسة ملايين، ومع ذلك لم يبد الكثيرون منهم الرغبة بالهجرة إلى فلسطين.

وتؤكد الإحصاءات المحايدة وجود ما يزيد على ٦٦٠ ألفاً من الفلسطينيين في عام ١٩٢٢ بموجب تقارير بريطانية ووجود ٨٣ ألفاً من اليهود بموجب إحصاء أجرته سلطة الانتداب في عام ١٩٢٢ ويبلغ عدد العرب الفلسطينيين بموجب إحصاءات بريطانية ودولية حتى عام ١٩٣٩ ٩٠٠ ألف مقابل ٢٠٠ ألف من اليهود بسبب ازدياد عدد اليهود الذين تم تهجيرهم من دول أوروبا الشرقية بسبب أوضاعها السياسية والاقتصادية السيئة وخصوصاً رومانيا ودول الاتحاد السوفياتي. فلم يكن النشاط الإعلامي الصهيوني رغم سعة انتشاره بين يهودالعالم هو الذي يؤدي الدور الرئيسي والمركزي في دفع اليهود إلى الهجرة بقدر ما كانت الظروف الاقتصادية والسياسية السيئة التي عانت بعض دول أوروبا هي التي تؤدي الدور الأساسي واستغلال قادة الحركة الصهيونية لهذه الظروف بمساعدة قادة أوروبيين كان من بينهم قادة النازية الألمانية قبيل الحرب العالمية الثانية.

ولم تتمكن الحركة الصهيونية من دفع عشرات ومئات الآلاف من اليهود إلى فلسطين بعدَ الحرب العالمية الثانية ونتائجها المدمرة على شعوب أوروبا إلا بعد اتفاقها مع قوات الحلفاء على عدم إعادة اليهود الأوروبيين الذين هجروا مدنهم وقراهم وممتلكاتهم أثناء الحرب إلى الدول التي كانوا يعيشون فيها.

وهذا ما أشارت إليه مراكز بحث كثيرة ويهود أميركيون كان من بينهم إسرائيل شاحاك وبيني موريس والبروفيسور (نورتن ميز فينكسي) الذي ذكر في أكثر من مناسبة ودراسة أن وايزمان وبن غوريون اتفقا مع الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ على إعطاء الحركة صلاحية إدارة شؤون اليهود الأوروبيين الذين تم حشدهم في مخيمات اللاجئين في النمسا وقرب حدود إيطاليا للعمل على تهجيرهم إلى فلسطين بكل وسائل الإكراه والقوة... بل إن شمعون بيريس السياسي الإسرائيلي الشهير كان قد اعترف في جلسة للبرلمان الإسرائيلي قبل أعوام قليلة بمناسبة ميلاد هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية بأن الحركة الصهيونية لم تستطع خلال ثلاثين عاماً من مؤتمرها الأول إلا

تجنيد ٥٠٠٠ يهودي فقط.. ومنذ قيام دولة إسرائيل بعد حرب عام ١٩٤٨ حددت القيادة الإسرائيلية للإعلام الإسرائيلي والصهيوني ثلاثة اتجاهات يتعين عليه تحقيق الأهداف الإسرائيلية والصهيونية المطلوبة فيها...

١ ـ الإعلام الموجه إلى الجمهور الإسرائيلي ويهود العالم من أجل تحقيق صمود وتعزيز قوة جبهة إسرائيل الداخلية والثقة بينها وبين الحكومة وقادة إسرائيل، وتحقيق التضامن المادي والسياسي الدائم بين يهود العالم وإسرائيل لزيادة المهاجرين إليها...

٢ ـ الإعلام الموجه إلى جمهور الرأي العام العالمي ومؤسساته في مختلف أنحاء العالم من أجل دعم شرعية الدولة اليهودية والدفاع عن سياساتها وضمان استمرار وجودها..

٣ ـ الإعلام الموجه إلى الجمهور العربي وشن حملات الحرب النفسية الإسرائيلية ضده من أجل إرهابه وزعزعة الثقة بنفسه وبقدراته الثورية وبمستقبله.

وهذا تماماً ما يؤكده (ناحمان شاي) أهم شخصية إسرائيلية سياسية وعسكرية عملت في الإعلام الإسرائيلي والصهيوني منذ سنوات كثيرة حين كان ناطقاً رسمياً باسم الجيش الإسرائيلي ورئيساً لهيئة عليا للتوجيه الإعلامي أثناء أزمات وحروب إسرائيل. يقول (شاي) في ندوة أقامتها لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست في كانون الثاني / يناير ٢٠٠٧ للبحث في الأداء الإعلامي الإسرائيلي أثناء حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦ ضد القوات حزب الله (أرفق لكم جزءاً من تسجيلها كما بثتها قناة البرلمان الإسرائيلية بالعبرية)...

"إن المعركة من أجل تحقيق أهدافنا الإعلامية ومن أجل إقناع جمهورنا تجري على قدم وساق وتستعين بوسائل وآراء وتنشر معتقدات موجهة نحو أوسع نطاق من الجمهور المؤلف من ثلاثة أنواع أو اتجاهات:

الأول نحو جمهورنا الإسرائيلي، والثاني نحو الجمهور العربي والفلسطيني أي جمهور العدو والثالث نحو جمهور الرأي العام العالمي وخصوصاً الولايات المتحدة وأوروبا".

وسوف يركز هذا البحث على نفس العنوان الذي وضع له وهو: "الإعلام الإسرائيلي أثناء الحرب العدوانية على لبنان وصورة المقاومة في الإعلام الإسرائيلي" أي الإعلام الإسرائيلي وأداؤه تجاه جمهور الجبهة الخلفية الإسرائيلية بشكل رئيسي وتجاه الجمهور العربي والرأي العام العالمي أثناء الحرب العدوانية على قوات حزب الله في لبنان.

أصبح من المؤكد وجود اعتراف متزايد منذ أول حرب واسعة جرت في المنطقة العربية وهي حرب الخليج الأولى ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ ضد العراق بأن الإعلام وتأثيراته المتنوعة على اتجاهات الحرب وسيرها تحول إلى سلاح رئيسي وبالغ الأهمية في أي حرب مقبلة... فقد كانت حرب الخليج الأولى أول حرب نجحت وسائل الإعلام المرئية عبر القنوات الفضائية بعرض الكثير من مجرياتها ومعاركها على المشاهدين في مختلف أرجاء العالم وكأنهم أصبحوا في نفس منطقة الحدث وحرارته وتأثيراته بشكل حي ومباشر.

فالتطور المتسارع نوعاً وكماً في وسائل الاتصالات وما نتج منها من ابتكارات واختراعات والثورة التكنولوجية في عالم الرقميات والانترنت والأقمار الصناعية وضع أمام البشرية قنوات فضائية مع نهاية الثمانينات وبداية التسعينات جعلتها قادرة على رؤية مساحة مهمة من أحداث هذا العالم وحروبه الحديثة في أي بقعة كانت وبشكل (حي) مباشر وهكذا ازداد مصطلح توسع الدور الذي يقوم به البث والعرض الحي وفرضت عبارة (لايف) بسبب ما توفرهالجمهور المشاهدين من أخبار سياسية وتطورات لحظة بلحظة وكانت وسائل الإعلام الأميركية والأوروبية من بين أوائل من وظف هذه الثورة في الاتصالات ووفر لها مهمة الناقل والمحلل لأحداث وحروب كثيرة في هذا العالم. فقد أصبحت القناة الفضائية (سي إن إن) وما تعرضه على مدار ٢٤ ساعة يومياً شاشة تزود المشاهد في كل منطقة تتوافر فيها وسائل الاستقبال بكل ما ترغب بنقله من أرض الحرب في الخليج وتؤثر على قناعاته واهتماماته... وشكل هذا الانتقال الإعلامي من دور الكلمة المسموعة عبر الإذاعة إلى دور الصورة التي يشاهدها الجمهور بشكل واقعي في لحظة وقوع الحدث ثورة حولت الصورة إلى أهم مؤثر إعلامي تحمله وسائل الإعلام المرئية إلى كل الأرجاء وتحول هذا العالم إلى قرية صغيرة بموجب ما يجمع عليه الكثيرون في هذا العصر.

ففي حرب الخليج عام ١٩٩١ لم يكن هناك سوى قناتين فضائيتين أميركيتين تنقلان بشكل حي ومباشر أحداث الحرب على مدار الساعة، إضافة إلى بعض القنوات الأوروبية. وقبيل الغزو الأميركي للعراق في ٢٠٠٣ وأثناءه أصبح عدد القنوات الفضائية التي نقلت مجريات وأحداث العدوان الأميركي ساعة بساعة وبشكل مباشر (حي) بالعشرات، وكانت المئات بل الآلاف من القنوات الفضائية الأخرى تنقل عن تلك القنوات بشكل يومي وحي أيضاً، ما وفر لمعظم أفراد البشرية مشاهدة وقائع الحرب بمآسيها ومظاهر العدوان، وما سببه من دمار وقتل ومظاهر التحدي والمقاومة ومواقف البطولة والتصدي صورة بصورة..

وتحول التنافس الإعلامي للتأثير على وعي ورأي المشاهدين أو كسب تعاطفهم إلى حالة لم تعهد لها البشرية مثيلاً لا بسبب الانتماءات السياسية المختلفة لمؤسسات القنوات الفضائية وتنافسها فحسب بل وبسبب رغبه الإعلاميين أنفسهم وقنواتهم بتحقيق السبق الإعلامي أيضاً. ومع تطور وانتشار الإنترنت والكومبيوترات المحمولة أصبح الصحفيون ورجال الإعلام والتصوير قادرين على توظيف الكاميرات والكومبيوتر معاً وعلى إرسال معلوماتهم بشكل فوري بالاستعانة بتكنولوجيا صحون الأقمار التي يمكن حملها وكذلك عن طريق الهواتف التي تنقل الصورة. وأصبح في مقدورهم نقل ما يرغبون مباشرة وبشكل (حي) من التلال أو الخنادق ومن بين صفوف المقاتلين ومجريات عملياتهم.

ويؤكد مارفين كالب، من مركز شوريشتاين سنتر في جامعة هارفارد الأميركية في دراسة

نشرها في شباط/فبراير ٢٠٠٧ أن وسائل الاتصالات الحديثة المتطورة جعلت وسائل الإعلام تنتج أثناء حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦ أول "مشاهد حية لأول حرب حية في التاريخ" وفي الوقت نفسه يقول ناحمان شاي، في مداخلة أمام جلسة الخارجية والأمن التابعة للكنيست حول الأداء الإعلامي الإسرائيلي في حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦:

"إن تطور وسائل الاتصالات وأجهزة الهاتف النقال وتكنولوجيات الرقميات (ديجتال) خلق عالماً إعلامياً جديداً، عالماً نتمتع بميزاته، لكننا نخشى علاقاته ووزنه، فالمعركة انتقلت إلى ساحة إعلامية يسعى كل طرف داخلها إلى تحقيق انتصاره الإعلامي. في إقناع الجمهور بأنه الطرف المنتصر ودولة إسرائيل لا يمكن أن تسمح لنفسها بخسارة أي معركة إعلامية ولا تسمح بأن ينافسها أي طرف على كسب وعي ورأي جمهورها الإسرائيلي. فأهمية الحرب الإعلامية في إسرائيل هي نفس أهمية الحرب التي تجري في ميدان القتال بيننا وبين الأعداء. ونحن لا يمكن أن نسمح لجبهتنا الخلفية بالتعرض للهجمات ولا نقدم للجمهور في داخلها ما يجعله يدرك ويستوعب ضرورة الصمود أمام الأخطار. فنحن لا نستطيع المحافظة على استمرار صمودنا إذا لم نخلق لدى عدونا إحساساً بالخوف لكي نتمكن من ردعه عن الاعتداء علينا مثلما لا نستطيع ضمان استمرار وجودنا إذا لم نحقق لأنفسنا تأييداً وتفهماً وشرعية لكل ما نقوم به من عمليات عسكرية أمام الساحة الدولية فهذه جميعها ضرورات أساسية لوجود إسرائيل".

لقد حدد العقل الإعلامي الإسرائيلي من خلال هذا النص الذي ألقاه شاي في جلسة رسمية أمام لجنة برلمانية مكلفة باستخلاص دروس وعبر وأسباب فشل الإعلام الإسرائيلي أثناء حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦ أهم نقاط ضعف هذا الكيان الإسرائيلي وطبيعة العوامل التي تربط نسيجه. فالتركيبة البشرية الإسرائيلية وطبيعة مصالحها من هذا الكيان لا تمكنها من الصمود والبقاء في جبهتها الخلفية إذا استمرت غارات عسكرية عليها وعجز الإعلام الإسرائيلي عن إقناعها بقدرة الجيش الإسرائيلي على إيقافها. وإذا ما لجأ الجيش إلى الإفراد في استخدام القوة العسكرية من أجل ردع المقاومة وإرهابها فسوف يتسبب بزيادة الدمار والضحايا في الجبهة المقابلة (جبهة لبنان)، وانتقال المشاهد والصور الحية لهذا الدمار وإلى العالم من خلال وسائل الإعلام الحديثة سيدفع الرأي العام العالمي إلى التنديد بما تقوم به إسرائيل العدوانية إلى زعزعة مقومات شرعيتها الدولية. وهذه المعضلة الإسرائيلية ما بين ضرورة ارتكاب المجازر الوحشية ضد العرب لتحقيق سياسة الردع وما بين قدرة وسائل الإعلام الحية على فضح هذه السياسة الوحشية كان من المحتم أن لا تتمكن من حلها والتغلب على آثارها ومضاعفاتها في حربها العدوانية الأخيرة. وبمزيد من التفصيل لقد بدا واضحاً أن إسرائيل كانت تواجه معضلتين معقدتين المعضلة الأولى ما بين ضرورة إقناع جمهور الجبهة الخلفية بقدرة الجيش

الإسرائيلي وبالثقة بإمكاناته على تحقيق الانتصار بساعات أو أيام قليلة لكي تدفعه إلى التحمل والصمود وعدم الرحيل من قرى ومدن الشمال إلى الجنوب، وما بين عجزها عن تحقيق ذلك بسبب استمرار قصف قذائف حزب الله من ناحية وبسبب الأداء الإعلامي الذي نفذه حزب الله مترافقاً مع هذا القصف وما قبله وما بعده بمصداقية قل نظيرها في مختلف وسائل الإعلام تاريخياً من الناحية الأخرى.

وكانت المعضلة الإسرائيلية الثانية ما بين ضرورة ارتكاب إسرائيل للمجازر الوحشية ضد المدنيين لتحقيق سياسة الردع وهو ما اعتادت اللجوء إليه في مختلف حروبها، وما بين قدرة وسائل الإعلام الحيّة على نقل مشاهد حيّة لهذه الوحشية بأقسى صورها إلى جميع أنحاء العالم.. وعلى جبهة الإعلام الإسرائيلي الموجه إلى اللبنانيين وقوات حزب الله بشكل خاص وإلى الجمهور العربي بشكل عام لم تستطع الحرب النفسية الإسرائيلية تحقيق أدنى نجاح لها رغم استماتة القائمين على توجيه برامجها ودعايتها في محاولاتهم لزعزعة الثقة بين قيادة حزب الله وجماهيرها وجماهير لبنان لأسباب كثيرة أهمها:

١ ـ الثقة التي ترسخت بين قيادة حزب الله وجمهوره اللبناني من خلال سجل تاريخي نضالي طويل تمسك من خلاله بأهداف جماهير لبنان وحقق مصداقيته الحاسمة في تحرير الجنوب عام ٢٠٠٠ وإجبار قوات الاحتلال الإسرائيلية على الانسحاب منه دون قيد أو شرط...

٢ ـ مظاهر الفزع الإسرائيلية على جبهة القتال وفي الجبهة الخلفية التي كانت وسائل إعلام حزب الله من قناة المنار إلى إذاعة النور ومواقع الانترنت الأخرى امتداداً للقنوات العربية الأخرى السورية والقطرية (الجزيرة) وغيرها تعرضها فتزيد من الثقة بإمكانية هزيمة العدوان...

وهذا تماماً ما أكده بشكل ما البروفيسور (رؤبين آرليخ) الذي كان ضابطاً رفيع المستوى في أجهزة المخابرات في السابق وأصبح مديراً لمركز "موديعين نيغيد تيرور" (المركز المعلوماتي للحرب ضد الإرهاب) التابع لمركز أكبر منه يسمى "موريشيت هامود يعين" (مركز التراث المخابراتي والإعلامي) يرأس إدارته (إفرايم هاليفي) رئيس (الموساد) (جهاز التجسس والمهام الخاصة) الإسرائيلي السابق...

يقول البروفيسور آرليخ في مداخلته في جلسة لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست لمناقشة أسباب الفشل الإعلامي الإسرائيلي في حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦: "وفي حربنا ضد قوات حزب الله وجدنا أنفسنا بحاجة ملحة لنيل تعاطف من الجمهور اللبناني والدول العربية ضد حزب الله وأسقطنا لهذا السبب منشورات فوق قرى ومدن لبنانية وكنا نعرف سلفاً أنها لن تحمل تأثيرات سلبية في صفوف الجمهور اللبناني لكننا أدركنا أن توزيعها يخدم غايتنا أمام الرأي العام" (كانت المنشورات الإسرائيلية تدعو الجمهور اللبناني إلى

الرحيل وإفراغ المدن والقرى من سكانها بحجة تجنيب اللبنانيين القتل والدمار). أما الغاية التي سعى مركز (آرليخ) إلى تحقيقها فهي بموجب ما يقول: "لقد أردنا كسب تعاطف وتأييد الرأي العام العربي لأن العالم بدأ يشاهد على شاشات القنوات الفضائية العربية والأجنبية لبنانيين تحت الدمار ولبنانيين آخرين يحملوا جنسيات غربية (كندية وفرنسية واميركية) بصورة لاجئين بعد دمار بيوتهم وقراهم، وهذا ما الحق بنا أضراراً وأفشل حربنا الإعلامية". وأقرّ آرليخ في مداخلته الرسمية بأن الخطاب الإعلامي الإسرائيلي ومعلوماته كانت تتناقض مع بعضها البعض أثناء حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦، وقال معترفاً بالعجز: "وحول المعلومات الإعلامية والوسائل الإعلامية المستخدمة وجدنا أن إسرائيل لم تكن تواجه قناة (المنار) والقنوات الفضائية العربية المعادية الأخرى التي كانت تدخل كل بيت، بل كان ينبغي عليها مواجهة عشرات مواقع الإنترنت المفتوحة بلغات كثيرة تندد بإسرائيل وتعرض ما تشاء فيها من اتهامات. ولذلك كان على إسرائيل إعداد وسائط التصدي الإعلامية المطلوبة من مواقع إنترنت وفضائيات قبل فترة من تلك الحرب وليس أثناءها وبلغات كثيرة". ويحدد البروفيسور (آرليخ) في مقدمة مداخلته الرسمية طبيعة المهمة المطلوب تحقيقها تجاه الجبهة الخلفية جبهة المحافظة على صمود الجمهور الإسرائيلي قائلاً: "أفضل التركيز على ضرورة استخدام الاصطلاحات المهمة في الإعلام وفي أي حملة إعلامية نهدف من خلالها إلى كسب وعي ومشاعر الجمهور الإسرائيلي عن طريق الدعاية والتوعية والاهتمام بالتأثير من خلال الصورة المرئية فالحملة الإعلامية هدفها في النهاية خلق تأثير إيجابي على وعي ومشاعر جمهورنا الإسرائيلي وتوحيدها وعرض الصورة السلبية للعدو بالطبع... وفي ميدان المعركة الإعلامية هناك جبهة القتال والجبهة السياسية والجبهة الإعلامية لكسب تأييد ووعي جمهورنا وهذه كلها تتأثر ببعضها، فالفشل في جبهة القتال ومعاركها لا بد أن يحمل تأثيراته بشكل طبيعي على ميدان المعركة الإعلامية الموجهة لكسب وعي جمهورنا، وحين يتحقق نجاح في جبهة القتال فإنه قد لا يظهر أمام جمهورنا إذا ما كنا فاشلين في معركتنا الإعلامية على كسب وعي ومشاعر هذا الجمهور في الجبهة الخلفية". لكن أريخ وغيره من المختصين الإسرائيليين تجاهلوا في دراساتهم تسليط الضوء على بنية هذا الجمهور الإسرائيلي في الجبهة الخلفية وطبيعة بنيته النفسية والاجتماعية والقيم الأساسية التي تؤثر في سلوكه وتصرفاته وتحدد مدى قدرته على التحمل والصمود في ظروف تتطلب منه دفع ثمن قد يكون حياته وممتلكاته أو استقراره الاقتصادي والمادي...

ولا شك أن العوامل الأساسية التي تحدد مدى ودرجة صمود وتحمل شعب أو جمهور ما في جبهة المؤخرة عند تعرضها للقصف الجزئي أو شبه الشامل المستمر أو المتقطع نتيجة أي حرب، وما يرافقها من حملات إعلامية تختلف من جمهور لآخر ومن جبهة خلفية

وأخرى. ويمكن تحديد هذه العوامل بشكل موضوعي عبر العناوين العريضة التالية:
١ ـ العامل الديموغرافي والمساحة الجغرافية، وطبيعة الجوار الإقليمي.
٢ ـ عامل التطور الاقتصادي ومستوى المعيشة ودخل الفرد والرفاه والتطلعات المادية.
٣ ـ مدى الإيمان بالقدرة العسكرية على الردع وتحقيق الانتصار بأقل ثمن وبصدقية الحرب والمجابهة ومدى الاقتناع والتصديق بعدم وجود بدائل لها ولآثارها السلبية على الجبهة الداخلية.
٤ ـ طبيعة القيم العامة الاجتماعية التي تسود ومدى التوافق معها أو الالتزام بها.
٥ ـ عامل الاستقرار السياسي للحكم وطبيعة القوى المشاركة فيه والمعارضة له ومصالح الأحزاب ومدى تطابق تطورات الحرب مع مصلحة استمرار الثقة البرلمانية والشعبية بالحكومة.

وبمقاربة هذه العوامل على وضع الجبهة الخلفية لإسرائيل في أعقاب المجابهة التي بدأت في ٢٠٠٦/٧/١٢ يمكن الاستنتاج أن الجبهة الخلفية "المؤخرة" في إسرائيل ظهر فيها أكثر نقاط الضعف المؤكدة في هذه الحرب وذلك للأسباب الموضوعية التالية والمعلومات المتوافرة والصحيحة لما جرى داخلها منذ الأيام الأولى للأحداث.

من ناحية العامل الديموغرافي

١ ـ إن ٤٠ إلى ٥٠ في المئة من مساحة إسرائيل هي أراضٍ صحراوية جرداء تبدأ من جنوب يافا وأسدود وتنتهي عند ايلات يقل فيها السكان والكثافة السكنية أو السكانية. ولذلك يتجمع معظم سكان إسرائيل في الشمال والوسط بمساحة لا يزيد طولها في هذه المنطقة على ٧٠ إلى ١٢٠ كم وبعرض لا يتجاوز خمسين كيلومتراً تقريباً. ولا شك أن العلاقة القائمة بين إسرائيل والدول المجاورة لحدودها جيدة بل متينة مع دول مثل مصر والأردن، ومعادية وتحمل أهدافاً توسعية ضد دول أخرى هي سوريا وإيران. فحكومات مصر والأردن لن تشعر جبهة الجمهور في المؤخرة بأي أخطار منهما أو ضغوط مؤثرة، في حين أن هذا الجمهور نفسه سيأخذ في حسبانه احتمالات أن تقوم سوريا وإيران بدعم القوى التي تجابهها إسرائيل في لبنان وزيادة الأخطار باتجاه مشاركة محتملة أو مقبلة مهما كان شكلها وحجمها في العمليات الحربية ضد إسرائيل. لذلك تتأكد أهمية هذا العامل في إثارة حالة ضعف في جبهة المؤخرة بسبب نقطة الضعف الديموغرافية والاقليمية التي يجد الجمهور الإسرائيلي نفسه فيها.

وعلى الصعيد الشعبي سيأخذ الجمهور الإسرائيلي في جبهة المؤخرة في حساباته احتمال تزايد الضغوط الشعبية على مصر والأردن ضد مواقف حكومتيهما واحتمال تحول الأوضاع فيهما إلى اتجاه معادٍ لإسرائيل أو ضاغط عليها.

من الناحية الاقتصادية

يشبه الاقتصاد الإسرائيلي ونظامه الحر اقتصاد الدول الغربية من نواحٍ كثيرة أهمها:

١ ـ لا يمكن استمرار تعطيله لمدة تزيد على أسبوعين أو أسابيع قليلة على مستوى المصانع والشركات الكبيرة والمتوسطة.

٢ ـ إن التصدير اليومي والإنتاج اليومي والصناعة السياحية تشكل القاعدة الأساسية للدخل وللدورة التجارية والإنتاجية في البلاد ولمجمل الناتج القومي الشامل.

٣ ـ إن حقوق العمال والموظفين والتعويضات عند توقف مرافق عملهم تُشكل جزءاً إضافياً للخسارة الاقتصادية المباشرة على التصدير والإنتاج وتوقفهما.

٤ ـ إن إدخال عدد كبير من الجمهور إلى الملاجئ تحسباً من أخطار القذائف فوق مدن وقرى الجبهة المشتعلة لا يُشكل أعباءاً اقتصادية فحسب بل واجتماعية ومعنوية تزيد كلما زاد عدد الأيام التي يضطرون إلى قضائها في تلك الملاجئ ومع أطفالهم بشكلٍ خاص.

١ ـ لوحظ أن المؤسسات الحكومية بدأت تتعاقد مع عدد من الممثلين ومؤسسات الترفيه لتقديم فقرات تساعد الأطفال على التحمل واعترف رئيس بلدية نهاريا بأنه أجبر على إخراج ١٥٠٠ طفل من الملاجئ لفترة نقاهة في الخارج لأنهم ما عادوا يتحملون. وأثاروا حالة ضعف معنوية شديدة.

٢ ـ تبين أن من لم يدخل إلى الملاجئ كانت لديه خيارات أفضل للسفر إلى الخارج.. (ففي ٢٠٠٦/٧/١٨) نشر موقع "إسرائيل نيوز ـ بالعربية" نبأ يقول ما يلي: "بعد خمسة أيام على قصف جبهة المؤخرة لوحظت زيادة بنسبة ١١ في المئة في عدد الراغبين بالسفر إلى الخارج بموجب ما قاله له مدير عام شركة السياحة "آفاق" وتبين أن الإسرائيليين الذين حجزوا في فنادق في تركيا وأوروبا وأميركا ما بين ٧ إلى ٩ أيام وأسبوعين وأكثر. ٣٣ في المئة منهم من مدن وقرى الشمال الجليل الأعلى والغربي والأسفل وعكا ونهاريا و٢٢ في المئة من حيفا و١٥ في المئة من عسقلان أيضاً وثمة من سافر إلى مدن داخل إسرائيل بل وإلى مستوطنات داخل الضفة الغربية أيضاً.

٣ ـ اضطر رئيس الحكومة في ٢٠٠٦/٧/١٩ إلى عقد اجتماع مع ستين رئيس بلدية ومدينة في المنطقة المعرضة للقصف في الشمال واصطحاب كافة المدراء العاملين للوزارات معه لتسجيل كل مطالب هؤلاء الرؤساء والتعهد أمامهم بتلبيتها من أجل إنهاء أشكال التذمر والاحتجاج التي أبداها الجمهور في تلك المنطقة وهي من مظاهر عدم التحمل والصمود.

٤ ـ في ٦/٢٠ و٢٠٠٦/٦/٢١ بدأت القنوات العبرية بإعداد برنامج للاستماع إلى شكاوى الجمهور والمطالبة بسلف مالية من قيمة التعويضات عن دمار البيوت التي قصفت في جبهة المؤخرة. وظهر أن الحكومة أرادت إطالة زمن تحمل الجمهور من طريق طمأنته

بالحصول على أموال وإغرائه بالمزيد من الاحتمال.. وأجبر وزير المالية الإسرائيلي في ٢٠٠٦/٧/٢٤ على إصدار تعليماته بصرف سلف مالية لعدد كبير من العمال حتى قبل حصولهم على رواتبهم لشهر آب المقبل من أجل دفعهم إلى التحمل والصمود. وهذه المظاهر بمجملها تدل بشكل واضح على عجز الإعلام الإسرائيلي عن إقناع الجمهور الإسرائيلي والتأثير عليه للتحمل والبقاء في ظل الشروط التي سادت أثناء الحرب.

حول طبيعة القيم التي تسود في صفوف الجمهور الإسرائيلي

إن الجمهور الإسرائيلي تعود على حياة رفاهية واحتيال على مؤسسات الحكومة في الحصول على المزيد من الرفاهية والتعويضات المالية. فبعض العمال يتلقى تعويض بطالة بصفة عاطل عن العمل ومع ذلك تراه يعمل بشكل سري في أماكن أخرى..

وهذا الجمهور لم يهاجر معظم أفراده إلا لأسباب تعد الفوائد الاقتصادية والرفاهية من بين أهمها، ويعتبر المتدينون اليهود الذين يهاجرون أن إسرائيل ستوفر لهم مالاً دون عمل لأنهم والدولة متفقون على أن كل من يجعل من (توراته عمل) يجب أن يعوض مالاً ورفاهية من الحكومة.. فالمتدينون السلفيون على سبيل المثال لا يعملون كمهنيين وعمال وصناعيين بل يتفرغون للتوراة وأعمال الشريعة ويتلقون رواتب من الدولة ولا يعملون إلاّ بالتجارة والفوائد البنكية الخاصة..

أما العلمانيون فمنهم من أتى من دول غربية وما زال يحمل جنسيتها وكان أحد أهم أسباب هجرته يعود للمنفعة الاقتصادية لأن امتيازات وإغراءات وحقوق المهاجر الجديد منذ ٢٥ عاماً تقريباً ازدادت، هي حصوله على منزل بأسهل وأفضل الشروط المالية وعلى عمل براتب جيد، وجرى اعتماد صرف ٨ آلاف إلى ١٠ آلاف كمصروف فوري عند وصوله.

وهذا الجزء من الإغراءات المالية كان يدفع يهوداً من أوروبا وأميركا إلى المجيء لعدة سنوات ثم تأسيس حالة جدوى اقتصادية في إسرائيل إضافةً إلى الجدوى التي تتوافر من الجنسية الأخرى التي يحتفظ بها اليهودي حتى بعد هجرته إلى إسرائيل.. وهذا ما ظهر جلياً بشكلٍ ما عندما سمحت الدول الأوروبية الشرقية التي انضمت إلى الاتحاد الأوروبي بحق كل يهودي تعود أصوله إلى تلك الدول باستعادة جنسيتها.. ففي ذلك الوقت تحدثت القنوات العبرية قبل سنتين عن اندفاع عدد كبير من يهود بولندا وهنغاريا، وتشيكيا إلى التسجيل في سفارات هذه الدول في تل أبيب لاستعادة الجنسية..

وذكر عدد من أفراد العائلات أن بولندا أصبحت الآن دولة اتحاد أوروبي، وهذا ما يوفر لهم العمل والعيش بمستوى جيد في أي بلد أوروبي مع احتفاظهم بالجنسية الإسرائيلية وحالة الجدوى منها..

لقد كانت المنفعة الاقتصادية أهم أسباب الهجرة منذ ١٦٦ عاماً لكل مهاجر قدم منذ ذلك الوقت لأن اليهودي الأوروبي والروسي وغيره في الغرب يتمتع بحقوق متساوية وهذا لا يمنعه من استغلال جدوى اقتصادية ونفعية أخرى في إسرائيل.. ولذلك يمتاز سلم القيم التي يؤمن بها معظم الجمهور الإسرائيلي تقريباً بهذه الصفات النفعية سواء كان متديناً أو علمانياً، وهي غالباً ما تشكل له الدافع إلى الهجرة خصوصاً في العقدين الماضيين والتطورات الدولية التي توفر له حياة آمنة وسالمة في البلدان التي يعيش فيها وتجنبه الحاجة إلى الأمن.. ولذلك كان هذا العامل يدفع الجمهور إلى قلة تحمل الظروف الصعبة التي تنشأ عند قصف الجبهة الداخلية.. وتضعف القدرة على هذا التحمل أكثر فأكثر لكل من تتوافر له بدائل أخرى تغنيه عن استمرار العيش في ظروف تتضاءل فيها ضمانات الأمن الشخصي واستمرار الرفاهية..

ومن الأمثلة الصارخة التي تدل على الأثر المعنوي السلبي الذي لحق بجمهور الجبهة الخلفية في إسرائيل والمستمدة من المصادر الإسرائيلية نفسها (قنوات تلفزيون عبرية (١) و(٢) ومقابلات.. صحف ومجلات وإنترنت) يمكن ملاحظة ما يلي:

١ - وزير الدفاع بعد رابع يوم على القصف يقول: "هناك عاملان يتحكمان بالوقت الذي يمكن أن تستغرقه هذه العمليات العسكرية ضد لبنان وهما: صمود وتحمل الجبهة الخلفية، واستمرار الغطاء السياسي الدولي لما تقوم به إسرائيل في لبنان (قناة ١ العبرية، ٢٠٠٦/٦/١٧)..

٢ - قائد الشرطة العام وهو المسؤول عن كافة نشاطات الشرطة في الجبهة الخلفية وتعزيز صمود الجمهور وتأمين خدماته إلى جانب قيادة جبهة "المؤخرة" التابعة لقيادة الجيش يقول: "إن مدى تحمل وتعزيز صمود الجمهور يتوقف أيضاً على الدور الذي نقوم به وعلى دور رؤساء البلديات والكيبوتسات في طمأنة الجمهور ودفعه إلى التحمل.. ولا أستطيع تحديد فترة زمنية تقديرية لمدى صمود وتحمل الجمهور الإسرائيلي لأن ذلك من صلاحية القيادة السياسية"..

٣ - (جاكي تاباك) رئيس بلدية نهاريا لم يذهب إلى اجتماع عقده أولمرت مع ستين رئيس بلدية وكيبوتس في حيفا لدعم صمود وعمل هؤلاء الرؤساء واحتج على إهمال الحكومة. وقال له المراسل إن ما يزيد على ٤٠ في المئة من سكان نهاريا غادروا جنوباً إلى أماكن أكثر أمناً وبقي الفقراء والمهاجرون الجدد في الملاجئ.

٤ - تحدث كثيرون من سكان الملاجئ بعد سبعة أيام على القصف عن عدم وجود شروط حياة معقولة ومقبولة داخل الملاجئ في المدن المستهدفة بالقصف وقالوا: "لا وجود لمكيفات والصيف حار ولا وجود لخدمات مقبولة النوم وقضاء الحاجات.. والأطفال"..

٥ - في ٢٠٠٦/٦/٢٠ أجبر رئيس الأركان على توجيه خطاب للجيش نشره موقع يديعوت

أحرونوت جاء فيه: "إن ما يجري يُشكل امتحاناً لنا، وإن قوة قيمنا ومعنوياتنا هي التي ستنعكس على مواطني الدولة وسكانها وقدرتهم على التحمل ومواجهة الأخطار على الجبهة، وأن تحمل مجتمعنا وإيمانه بالجيش هو الذي يعزز قوتنا"..

وقال: "أنتم أيها الجنود وقادتكم فلتكن معنوياتكم عالية وكذلك تصميمكم. أدعوكم إلى التمسك بالمهمة والعمل بالروح التي يتمتع بها الجيش. إن جيشاً قوياً هو الذي يضمن شبكة الأمن واستمرار وجود إسرائيل"..

هذه العبارات يُستدل منها على وجود عدم استقرار ملحوظ في مستوى المعنوية والأداء القتالي، وعلى العلاقة الديناميكية بين معنويات الجيش وتأثيرها على مدى صمود وتحمل جمهور الجبهة الخلفية وفشل وسائل الإعلام الإسرائيلية في تعديل مستوى تحمله أو المساعدة على إعادة نوع من التوازن في صفوفه...

لقد بدا واضحاً أثناء سير الأحداث في حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦، أن الإعلام الإسرائيلي لم يعد قادراً على جذب اهتمام الجمهور الإسرائيلي وتصديق رواياته ولاحظ هذا الجمهور أن القنوات الفضائية والأرضية الإسرائيلية وكذلك الإذاعات تعمل على عرض أنباء وتحليلات لا يشعر بوجود صحة لها وهو يعيش داخل الملاجئ أو في بقية المدن التي يتعرض جوارها للقصف المستمر.

بل إن جزءاً مهماً من هذا الجمهور وخصوصاً في قرى ومدن الشمال التي كانت تتعرض يومياً للقصف من قوات حزب الله أدرك أن من مصلحته في المحافظة على حياته وخياراته بالفرار أو البقاء الاستماع إلى وسائل إعلام أخرى غير الإسرائيلية مثل قناة (المنار) لمن كان يعرف العربية وقنوات أخرى بالإنكليزية أو بلغات أخرى لإجراء مقارنة ومقاطعة للمعلومات..

ولم يكن هذا التوجه لدى جمهور قرى الشمال مجرد هواية بقدر ما كان مرتبطاً بالمحافظة على سلامته الشخصية ما دامت الدولة والجيش لم يتمكنا من ضمان سلامته حتى وهو داخل الملاجئ...

وهذا ما يشير إليه البروفيسور (أرليخ) حين يقول في مداخلته أمام لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست حول الآثار والدروس المستمدة من فشل الإعلام الإسرائيلي في حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦: "سأحاول هنا عرض صورة عن الأداء الإعلامي الإسرائيلي والأداء المماثل لحزب الله من وجهة نظري كمدير لمركز علوم المخابرات والدعاية الذي أديره وسوف اعرض هنا معطيات وأريد التأكيد على أهمية المصطلحات فأنتِ يا رئيسة الجلسة استخدمتِ عبارة "السياج الفاصل" وليس عبارة "السياج الأمني" وهذا اصطلاح غير صحيح منك...

فالاصطلاح يشير إلى ما ينطلق منه المرء بمفهوم محدد تجاه ما يشير إليه...

أولاً: لا بد من تحديد الجمهور (الهدف) فنحن أمامنا الجمهور اللبناني وفي مقدمته جمهور حزب الله ثم الجمهور العربي الإسلامي ثم دول الغرب وإسرائيل... فحزب الله يعزو أهمية كبيرة للمعركة إلى كسب وعي وتأييد الجمهور وتمكن من خلال ميزانياته من إنشاء قناة المنار وراديو ومواقع إنترنت بثماني لغات وصحف ودور نشر وكتب، ولديه أنظمة جيدة لاستخدام وسائل النشر المرئية والمواد التي يصورها بالفيديو) وطاقم تصوير ميداني لإعداد وسائل الإقناع وكسب التأييد. واستخدم حزب الله في إعلامه أيضاً وسائل أخرى مثل قنوات فضائية أخرى كانت تتحدث عن أدائه وما يقوم به... وحقق حزب الله عدداً من النجاحات في حرب لبنان الثانية هذه وهنا أريد أن أقول من وجهة نظري إن أبرز نجاحاته هي على شاشات التلفزة الإسرائيلية وفي العالم العربي والغربي كانت المقابلات العلنية مع حسن نصرالله التي تبثها المنار وتحمل تأثيرات مهمة جذبت إليها الجمهور الإسرائيلي والعربي للأسف وكان يرافقها عرض أنباء دقيقة وصحيحة عن بعض مجريات المعركة، وكانت المنار تبثها أولاً بأول ونجح بشن حرب نفسية ودعائية مؤثرة على الجبهة الخلفية كانت ترافق نشرة أنباء المنار، كما نجح حزب الله باستخدام هذه القناة والمحافظة على استمرار بثها رغم تعرضها لغارات من سلاح الجو الإسرائيلي.

وهذا النجاح سبقه إعداد جيد قبل الحرب من قبل حزب الله..

وتمكن حزب الله من إبطال شرعية ما كان يقوم به الجيش الإسرائيلي من عمليات عسكرية خلال نقله لصور وأنباء تدل على أن عمليات الجيش الإسرائيلي كانت تجري ضد المدنيين الأبرياء اللبنانيين وكان حزب الله يوجهها للرأي العام الغربي.

وما حدث هنا هو أنه كان يقاتل ضد الإسرائيليين ويقصف الشمال ونجح في الوقت نفسه في تحويل قتالنا ضده إلى حرب ضد المدنيين الأبرياء.

كما نجح حزب الله في نهاية الحرب وبشكل كبير وليس تاما تماماً بتصوير نتيجة الحرب انتصاراً إلهياً له، أما الجانب الإسرائيلي فقد اضطر إلى مواجهة عدد من الصعاب تجاه كسب وعي وتأييد جمهوره وبعضها مشاكل أساسية يومية، وكان من أهم هذه المشاكل: غياب التوجيه والصورة العامة الموحدة والصحيحة في معركة كسب مصداقية الجمهور إعلامياً.. فقد تعدد المسؤولون الذين أطلقوا تصريحات وبشكل يفتقر للتنسيق والتوجيه الموحد وهذا ما كان يحدث مقابل صورة موحدة وإعلام موحد من حزب الله".

ويرى رعنان غيسين، المستشار الإعلامي لرئيس الوزراء الإسرائيلي السابق أريل شارون أن الجيش الإسرائيلي لديه دوماً لجنة للحرب النفسية ولجنة لتحديد الدعاية، لكن هذه تستلزم ميزانيات وجهود موسعة وقال: "وفي البنتاغون والولايات المتحدة يوجد ما يسمى مسرح الإعلام (ميديا ثياتر) ولديه ميزانية ضخمة ونحن في إسرائيل لدينا التجربة والخبرة في الحرب النفسية والإعلام ولا بد من التعاون معه"..

واعتبر غيسين أن "الصراع في ساحة الإعلام هو استمرار للحرب بوسائل أخرى" وطالب بالتركيز على الأسلوب الذي تتبعه روسيا لصد الحملات الإعلامية التي تستهدفها وقال: "إن روسيا حين اتهمت بتسميم (ليفتينيكو) الجاسوس الروسي سارعت أجهزتها الرسمية والإعلامية إلى ربط (ليفتينيكو) بإسرائيل وعلاقته بها وزيارته إليها فشوشت الحملة الإعلامية الموجهة ضدها". وحدد أحد أشكال الانتصار الإعلامي بقدرة الإعلام على منع الخصم أو العدو من التجرؤ على القيام بالمقاومة... ورأى أن روسيا نجحت في صد الحملة الإعلامية التي وجهت ضدها بقضية (ليفتينيكو) حين أدخلت إلى شاشات التلفزة والأنباء قصة مضادة لاتهامها بقتل ليفتينيكو وهذا لم يستطع المسؤولون عن الإعلام الإسرائيلي امتلاك البراعة فيه... ويؤكد غيسين أنه لا يمكن تحقيق الانتصار في هذا الصراع في الميدان الإعلامي بسهولة خصوصاً لجيش مجبر برأيه على القصف ومنع العمليات المسلحة ضده رغم أنه من الصعب منع الصحافة ووسائل الإعلام في هذا العصر من نقل الصورة والخبر... والمسألة هنا لا ترتبط بموجب ما يعترف (غيسين) بأداء الناطق العسكري أو مطالبته بقول الحقيقة دوماً أو بدوره الإعلامي، بل إن معالجة مشكلة الفشل الإعلامي ينبغي أن تكون مرتبطة بإطار رؤية شاملة إلى جميع النواحي الاستراتيجية الإعلامية. والحقيقة هي أن (غيسين) كان قد بذل أثناء الحرب ضد قوات حزب الله في تموز/يوليو ٢٠٠٦ جهوداً تضليلية كثيرة لتبرير كل ما قامت به إسرائيل من قصف وحشي ضد المدنيين وزرع الفرقة بين جمهور حزب الله والجمهور العربي بشكل عام ولم ينجح، واعتبر أن إعطاءه فرصة التحدث من بعض القنوات الفضائية العربية أفضل وسيلة لممارسة هذا الإعلام التضليلي والحرب النفسية التي يتقنها. وحاولت الوزيرة الإسرائيلية السابقة من حزب الليكود (ليمو رليفنات) تحديد أسباب عدم نجاح وسائل الإعلام الإسرائيلية أثناء الحرب في كسب ثقة جمهوره الإسرائيلي بنقص عددها وقالت: "إن الوسائل الإعلامية التلفزيونية في هذا الوقت أصبحت سريعة جداً في نقلها للرسائل الإعلامية والمعلومات وخصوصاً أن الانترنت أصبح جزءاً مهماً من هذه الوسائل. فخلال دقائق يصبح كل شيء على الشاشة. ومن المستحيل الاعتقاد أننا بصحفنا وعدد قنواتنا سنتمكن من منافسة الآخرين في نقل ما نرغب فقد أصبح كل شيء مكشوفاً وبلحظات قليلة"..

واعتبرت أن الجيش الإسرائيلي ووسائله الإعلامية تأخر كثيراً في إعطاء الرد الإعلامي على ما حدث في ٢٠٠٦/٧/١٢ عند بداية عملية حزب الله وفي الأيام الأولى للحرب كان إعلام حزب الله مسيطراً.

لكن (ليمور ليفنات) نسيت أن جنوداً كثيرين من الجيش الإسرائيلي الذي كانوا يشاركون في الحرب أو الذين ينتظرون دورهم للمشاركة كان لديهم هواتف نقالة ويتبادلون الأنباء مع

الجبهة الخلفية للاطمئنان على أقاربهم أو الاستفسار عن الحالة هناك مثلما كانت عائلات هؤلاء الجنود تتصل بهم حتى أثناء وجودهم في الشمال وعلى حدود الجنوب اللبناني للاطمئنان.

وقد مال جزء من العائلات إلى الاستماع إلى الأنباء بلغات أخرى غير عبرية لمعرفة ما يجري لأبنائهم الجنود في الحرب وكانت الصورة تختلف عما كانت تبثه وسائل الإعلام الإسرائيلية من أنباء. واعتبر داني نافيه، وزير سابق من الليكود ومدير مكتب نتنياهو سابقاً أن انقساماً وتجزئة كانت تسود بين الهيئات المسؤولة عن الإعلام ودوره في تلك الحرب وقال: "إن المسؤول عن الإعلام وزارة الخارجية لم يكن يرغب بالتنازل عن صلاحياته وأسلوبه والناطق باسم الجيش الإسرائيلي كان يقول إن الدور الإعلامي من صلاحيته ولا ينبغي لأي هيئة مدنية أخرى التدخل بدوره وأسلوبه وكل هيئة كانت تتمسك بما ترغب وكانت النتيجة عدم وجود عمل منسق ومشترك".. واعتبر أن الضرورة تدعو الآن إلى إيجاد نظام تنسيق تشرف عليه هيئة واحدة يرأسها موظف مسؤول يعمل في مكتب رئيس الحكومة ويقود جميع هيئات الإعلام في وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع والمكتب الصحفي لرئيس الحكومة.

وطالب هذه الهيئة بإعداد استراتيجية إعلامية موحدة تشارك كل هيئة فيها في الميدان الذي تعمل فيه والأهداف التي تحددها هذه الهيئة العليا للإعلام، لأن غياب هذا العامل المهم والأساسي في حرب لبنان الثانية كان من بين أسباب فشل الإعلامي الإسرائيلي ومضاعفاته على الجمهور الإسرائيلي والرأي العام العالمي.

وقال شالوم كيتال، المدير العام لمحطة قناة الفضائية الإسرائيلية (الثانية) في الجلسة نفسها أنه يجد من الصواب أن تتنوع برامج وأنباء كل قناة وتختلف عن الأخرى، فمن المستحسن برأيه أن تبث القناة (١٠) العبرية ما يختلف عما تبثه القناة (٢) وكذلك عما تبثه القناة (١) الأولى الرسمية. وكشف أن الجمهور الإسرائيلي بوسعه الاستماع والاطلاع على ١٥٠ قناة اتصال من بينها ما يزيد على أربعين قناة اتصال وإنترنت وصحيفة الكترونية ومواقع جميعها بالعبرية ولا أمل برأيه أن تؤثر أي هيئة عليا إعلامية على خياراته وما يتوصل إليه بحسب اهتماماته ومصالحه.. وقال: "إننا نعيش في عهد السماء المفتوحة التي تكثفت فيها وسائل الإعلام المتنوعة ولذلك لا يمكن لأي هيئة إعلامية إسرائيلية أن تحدد للجمهور ما ترغب به وتحقق ذلك"...

لكنه رغم ذلك أضاف:

"أريد الآن تسليط الضوء على ما قامت به وسائل الإعلام أثناء الحرب من ناحية إعداد التقارير، والتعليق، والانتقاد، ومن ناحية مدى محافظتها على معنوية الجمهور الإسرائيلي وتعزيزها وهي أكثر المشاكل التي واجهتها.. فمن ناحية إعداد التقارير وعرضها أرى أن

الضرورة تدعو إلى عرض تقرير شامل بقدر الإمكان، لكن إلى جانب الحرص على عدم تجاوز قيود الرقابة، فثمة رقابة عسكرية ونحن جميعاً وقعنا على اتفاق باحترامها والالتزام بها... ومع ذلك حصلت خروقات لهذه الرقابة أثناء الحرب في معظم حالات البث الحي المباشر وما كان ينبغي أن يتم خرق كهذا. فالقناة الثانية التي أديرها بثت (٣٥٠) ساعة أخبار وريبورتاجات عن الحرب خلال الأسابيع الخمسة للحرب، وكذلك كان عدد ساعات القناة (١) والقناة (١٠) وهذا يعني وجود (١٠٠٠) ساعة بث معظمها كان حياً ومباشراً وظهرت فيه خروقات غير مقصودة لقيود الرقابة بسبب الإسراع في البث الحي"..

لكن كيتال، لم يذكر أن قناة (٢) كانت قد ذكرت في نشرة أنباء لها في السادسة مساء أثناء الحرب قدمها (غادي سوكينيك) وأراد من خلال اختيار كلماتها تضليل الجمهور الإسرائيلي حين قال: "يبدو أن عشرة أفراد من البشر قتلوا جراء قذائف وصواريخ أطلقها حزب الله على الحدود الشمالية تماماً".. وحدد عبارة (من البشر) وبالعبرية (بنيه آدام) لكي يتجنب تحديد إذا كانوا جنوداً أو مدنيين، ثم عاد (سوكينيك) نفسه وأجبر في الثامنة مساء على القول: "تبين أن القتلى العشرة كانوا جنوداً وسقطت القذائف قربهم".. ثم تبين أن عددهم (١٢).. ولم يذكر أي عدد للجرحى..

كان من الواضح أن مقص الرقيب العسكري تدخل هنا والجنود والسكان في إسرائيل علموا بما حدث لأنهم تبادلوا الرسائل والمكالمات الهاتفية فأجبر الإعلام الإسرائيلي على التطرق للنبأ بطريقة (غبية) لإخفاء صفة القتلى..

ويؤكد كيتال، أن مشاورات يومية وفي كل ساعة كانت تجري بيننا وبين المسؤولين في الرقابة والجيش حول ما يمكن نشره وبثه، لكن ظروف الحرب والبث الحي المباشر وضرورته لم تسمح في النهاية بالالتزام بكافة قواعد وقيود الرقابة لأن قنوات عربية أخرى ستنافسنا في عرض صور عن الأحداث.

وتبين "لكيتال" أنه إذا لم تسارع قناته إلى بث أي نبأ عما ما كان يحدث أثناء الحرب فسوف تصبح صيغة النبأ كما جاءت من وسائل الإعلام الأخرى أو الإنترنت هي الحقيقة، وكانت المنافسة في أقصى حالاتها في كل ساعة ودقيقة ولحظة.. واعترف أمام اللجنة الفرعية للخارجية والأمن التابعة للكنيست بحضور رئيس اللجنة الرئيسة "تسحياه نيغبي"، ورئيسة اللجنة الفرعية (عميرة دوتان) قائلاً: "إنها الحرب الأولى التي لم يكن لنا مراسلون يرافقون الجنود في الحرب، ففي كل الحروب السابقة عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ وعام ١٩٨٢ كان لدينا دوماً مراسلون إلى جانب الوحدات القتالية". وأضاف: "وتعود بعض أسباب هذه الظاهرة إلى رغبة الناطق باسم الجيش الإسرائيلي الذي يريد حصر الرسائل الإعلامية الرئيسة به إضافةً إلى أن المراسل قد لا يبعث بتقارير إلاّ بعد يومين أو ساعات طويلة والمنافسة كانت على أشدها بين وسائل الإعلام".. واعتبر أن إسرائيل حتى لو تحدثت

برسالة إعلامية واحدة فهذا لن يفيد لأن المنافسة الإعلامية ستجعل الجمهور الإسرائيلي وغير الإسرائيلي يلجأ إلى المقارنة بين وسائل مختلفة من خلال اطلاعه على وسائل الإعلام الأخرى.

وقالت كوليت افيتال، عضو الكنيست ومن قادة حزب العمل في الجلسة: "إن مسألة فشل الإعلام الإسرائيلي لا تكمن في مدى وجود التنسيق بين الحكومة وأصحاب القرار في العمل الإعلامي.. إن المسألة رهن بوجود استراتيجية معدة سلفاً داخل الحكومة وليس ممارسة الدور الإعلامي التوضيحي بعد وقوع الأحداث..

إن المشكلة الأساسية التي نعاني منها هي التأخر في عرض المعلومات والردود المطلوبة والضرورية ما بين يومين أو ثلاثة، كما أننا لا نعد سلفاً المعلومات والردود التي تجلعنا نسيطر على الوضع.. والخلل الثالث هو تخصيص وقت قليل للإذاعة الإسرائيلية باللغة العربية مقابل (١١) ساعة للغة الروسية مع أن الأفضلية ينبغي أن تتوجه نحو ما نعلنه بالعربية.. فإذاعتنا بالعربية تنقل نشرات الأنباء عند السادسة فجراً لكن هذا لا يكفي مثلما لا تكفي الإذاعات ووسائل الإعلام الإسرائيلية التي تبث باللغات الأجنبية فينبغي زيادة الاستثمار في هذه الوسائل الناطقة بلغات أخرى..

كما أننا لا نستثمر ونستغل بشكل جيد ومطلوب شخصيات سياسية إعلامية مهمة فأثناء الحرب لم نستخدم شخصيات إسرائيلية سياسية مثل (موشيه آرينز) المعروف في الولايات المتحدة والذي يتحدث الإنكليزية بطلاقة للتعليق على ما كان يجري في تموز/يوليو وآب/أغسطس للتأثير على الرأي العام العالمي بشكل خاص".

ومن الملاحظ في النهاية أن معظم ما ورد على لسان هؤلاء المختصين في جلسة رسمية مهمة ساد فيها جزء مهم من المصارحة لا يشير إلى فشل الإعلام الإسرائيلي في تلك الحرب فحسب بل وإلى عدم إمكانية تحقيق الأهداف المطلوبة منه مهما عدّل وطور في أساليبه وزاد من عدد وسائله الإعلامية.

والأسباب التي تقود إلى هذا الاحتمال الواقعي تكمن في طبيعة وجوهر وجود الكيان الإسرائيلي وطريقة إنشائه ودوره، وكذلك في طبيعة وجوهر جمهوره الاتني وتركيبته والتأثيرات الداخلية والخارجية على اتجاهاته ومستقبله ❑

منيــر إســمــاعــيل

حاوره :

محمد نورالدين

منير إسماعيل

ولد في دلهون (الشوف) سنة ١٩٢٥ وتلقى علومه في عدة مدارس ومنها كلية المقاصد الإسلامية في بيروت. وفي عام ١٩٥١، أحرز دبلوم الدراسات العليا في الآداب من جامعة القديس يوسف، ونال إجازة في التاريخ من جامعة السوربون في باريس سنة ١٩٥٢، وأنهى دورة تدريبية في معهد الدراسات العليا للعلوم الاقتصادية والاجتماعية في باريس سنة ١٩٥٨، ثم أحرز دكتوراه دولة في التاريخ بدرجة مشرّف من جامعة السوربون - باريس ١٩٧٨.
عيّن الدكتور منير إسماعيل أستاذ مادة التاريخ الحديث في الجامعة اللبنانية (وأشرف على أطروحات الدكتوراه منذ عام ١٩٧٨ حتى عام ١٩٩٣) وظل أستاذاً مشرفاً على أطروحات الدكتوراه في جامعة القديس يوسف في بيروت منذ ١٩٧٨ وما زال. انتخب أميناً عاماً للجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية، وهو يحمل وسام المؤرخ العربي من اتحاد المؤرخين العرب. شارك في ندوات تاريخية عديدة، وما زال يسهم في هذه المجالات. نشر أبحاثاً تاريخية وأدبية في مجلات وصحف عربية ولا يزال يتابع هذا العمل. وقد اشترك مع شقيقه السفير عادل إسماعيل في بعض الأعمال التاريخية الناجحة التي أغنت المكتبة التاريخية اللبنانية في تاريخ لبنان الحديث.

من مؤلفاته المطبوعة

أ - بالعربية

١ - "الصراع الدولي في المشرق العربي" بالاشتراك مع الدكتور عادل إسماعيل (سلسلة الوثائق من ١٥ جزءاً)، صدر الجزء الأول عام ١٩٩٠.
٢ - "تاريخ لبنان" بالاشتراك مع الدكتور عادل إسماعيل (سلسلة الوثائق الدبلوماسية والقنصلية من ١٥ جزءاً)، صدر الجزء الأول عام ١٩٩٠.
٣ - العرب والإسلام وأوروبا (ترجمة)، منشورات مؤسسة الحريري، بيروت، ١٩٩٣.
٤ - لبنان في تاريخه وتراثه، بالاشتراك مع نخبة من الباحثين، بيروت، مركز الحريري، ١٩٩٣.
٥ - أزمة الفكر اللبناني في كتابة تاريخ لبنان وتوثيقه، بالاشتراك مع الدكتور عادل إسماعيل، بيروت، ١٩٩٧.
٦ - فصول في الصراع على كتابة تاريخ لبنان وتوثيقه، بيروت، ٢٠٠٢.

ب - بالفرنسية:

١ - لبنان في عهد المتصرفية - الوضع الداخلي والسياسة الدولية - جزءان.
٢ - تاريخ لبنان من العهد القديم حتى اليوم، بالاشتراك مع نخبة من الباحثين (بالفرنسية)، بيروت، ٢٠٠٢.
٣ - لبنان في عهد المتصرفية (موجز بالفرنسية)، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ٢٠٠٢.

أبحاث جاهزة للنشر

١ - صيدا في دورها الاقتصادي والاجتماعي من عهد فخر الدين حتى العهد الشهابي (١٥٩٠ - ١٧١٥).
٢ - المردائيون في التاريخ والأسطورة.
٣ - مذكرات قنصل... (مصادر التاريخ اللبنانية بالاعتماد على الوثائق الدبلوماسية).
٤ - عمر ابن أبي ربيعة (دراسة في الوضع الأدبي والاجتماعي في صدر الإسلام).

حوار

في الأساسيات التاريخية للكيان اللبناني ومكوّناته

عندما قصدنا المؤرخ منير إسماعيل لإجراء هذا الحوار، كان في بالنا وتخطيطنا مجموعة من الأسئلة الراهنة التي تفتح على خلفية تاريخية. غير ان هذا الرجل المثقل بالتاريخ اللبناني وأوراقه ووثائقه، ولا سيما في العقود الثلاث الأخيرة، مع إصداره، مع شقيقه المؤرخ والسفير الدكتور عادل إسماعيل، الوثائق الأساسية لتاريخ لبنان، التي تعتبر الكنز الأغلى حتى الآن لكتابة تاريخ لبنان، ما كان له إلا الانطلاق من الماضي لفهم الحاضر. قدّم منير إسماعيل في هذا الحوار قراءته العلمية التاريخية، تاركاً للقارئ استنتاجات للحاضر، وهو ما كان عكساً لخطة الحوار الذي باتت إجاباته، رغم أسئلته، غير ممكنة القراءة إلا ككل، إلا كنصّ تاريخي، وهو ما أردنا لفت الانتباه إليه.

محمد نورالدين : في بداية هذا الحوار، اريد دكتور منير ان اسال هذا السؤال: هل كتابة تاريخ لبنان في أزمة؟

منير إسماعيل : أن يتناول المؤرخ الأحداث الباردة، إذا جاز التعبير، تلك التي ابتعدت عن ساحة الحدث أو خرجت من دائرة تأثيره المباشر، فهذه مهمة يسيرة، إذ تصبح الكتابة عندها عملية غير شائكة، وأقرب إلى الموضوعية. وعلى نقيض ذلك تعرقل الأحداث الساخنة مهمة المؤرخ، وتجعلها محفوفة بالخطر، وعرضة للزلل، ولما يمكن أن تعكسه مباشرة على المناخ الذي ربما أصبح ملبداً، أو غير قابل لمناقشة هذه القضية أو غيرها مناقشة علمية ومتجردة، لأن ذلك يتناسب والأفكار السياسية والطائفية الخاصة، حيث لا يكون ثمة سوى عين واحدة ترى ما يتوافق ومواقف "السلطان" الذي يكتب تاريخه.

فمنذ القدم والتصنيف في التاريخ أو الكتابة فيه كان يترك وراءه أسئلة ليس لها جواب لا يرقى إليه شك أو ريبة. والسؤال المحوري فيها أين هي الحقيقة في ثنايا الكثير من تلك المصنفات المشحونة بالتوتر والمأخوذة بجلبة السلطان والطبقة المهللة لانتصاراته الوهمية.

وفي كثيرها كان هذا السلطان حاضراً في التاريخ مختزلاً لأحداثه سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً بمعزل عن الشعب الذي افتقرنا حضوره وكل ما يتصل بمظاهر نشاطه

على ساحة تلك الأزمنة. إن التفتيش عن البطل يعطل عملية كتابة التاريخ. وهنا يختلط الأمر بين الأسطورة التي تدغدغ المخيلة الشعبية الحقيقة التاريخية، كما هي، لا كما يجب أن تكون.

لا يزال تاريخ لبنان غير واضح الملامح، دون أن يكون دقيق التفاصيل. فما تناهى إلينا من معلومات لم تتجاوز الحقائق العامة، حيث ظل الكثير منها في خزائن المحفوظات الوطنية والأجنبية منها، على وجه التحديد، وما تركه الأقدمون من آثار نقوش على الصخر والمعدن، لا تزال دفينة في باطن الأرض حافلة بالأسرار وأمينة عليها.

تجربتنا مع الكتب التاريخية، خصوصاً الحوليات منها غير مشجعة. فقد جمعت هذه الكتب الشيء وضده في عملية تراكمية من المعلومات المتناقضة. فهل براءة القصد كانت وراء هذا العمل، أم لغاية ما؟ وما أكثر الغايات التي ندب لها المؤرخون أنفسهم لغاية خاصة، أو لتنفيذ خدمة مصلحة من دفعهم إلى مثل هذا العمل من أهل السلطة وأربابها وقد بلغ في بعض الأحيان حد العبث واللامبالاة.

وما زال بعض المؤرخين يدرجون على ذلك حتى باتت أخبارهم ومروياتهم وتصانيفهم تخص هؤلاء وحدهم. نذكر هنا دون تعليق ما جاء في كتاب أحد كبار المؤرخين اللبنانيين عن توجهات اللبنانيين نحو أوروبة نتيجة جريان أنهر لبنان من الشرق إلى الغرب وهذا ما يدل على مفهوم هؤلاء بتاريخ لبنان:

“La chaîne occidentale s'élevant jusqu'à 3000 m d'altitude, dressée en face de la Mediterranée, captait, sur son versant ouest, les courants pluvieux et déterminait l'orientation du Liban vers l'Europe”.

كما إن جزءاً من التاريخ، وربما جزءاً قليلاً منه هو الذي وصل إلينا، فيما "تاريخ" آخر ظل مجهولاً لدينا ولم نعرف عنه ما يتعدى الاستدلال، كما يعني أيضاً أن هذا التاريخ المجتزأ الذي لا يخلو أيضاً من المحاباة لم يكن دقيقاً، وكان لا يزال عبر القرون يعيد إنتاج نفسه بكل الانحرافات والتشوهات فيه، أو إذا جاز القول، فإن كتبة التاريخ يبحرون في النصوص على أنها تمثل، لا التاريخ كله، لكن أيضاً الحقيقة كلها غير قابلة للنقاش. ولأن هذا التاريخ كان عاصفاً بالصراعات التي تمخض عنها تيارات وفرق متضاربة في مواقفها ورؤيتها السياسية والفكرية. فقد انعكس ذلك على الكتابة التاريخية التي غالباً ما أخذ بها هذا المنحى الخلافي، لتصبح بدورها في ذلك التراث المشحون بالتوتر والمفعم بالانقسام ودام الأمر على ذلك حتى تفرقت التواريخ، فأصبح لكل طائفة ولكل مذهب تاريخها الذي يعود اليه ويرى في الحقيقة الناصعة على نحو تكرّس معه التاريخ مادة صراع بدل أن يكون مادة تراث يتصل عبرها الماضي الساطع حضارة بنبض المستقبل المتوهج رؤية ونقطة التقاء في معارجه وتحدياته.

لم يكن التاريخ اللبناني، في هذه الحال، غير تاريخ طائفة اختزلته مكاناً مجتزأً دون أن يكون للطوائف الأخرى نصيب من هذا التاريخ حيث قبعت في الزاوية المهملة فيه. وإذا كانت مدرسة الكوفة التي ينتسب إليها أكثر المؤرخين منذ القرن الثاني للهجرة عرضة للنقد في العهود اللاحقة لوقوعها في فك السلطة ومؤثراتها المباشرة، فإن المدرسة المارونية في رومة كانت ضالعة، بواسطة متخرّجيها، بصورة أكثر حدة في "استنساخ" تاريخ ملائم لمشروعها ورؤية التمايز التي أصبحت بارزة في أدبيات الطائفة الزاهية بخصوصيتها إلى مدى بعيد.

وثمة ما يتفق عليه اللبنانيون اكثر مما يختلفون عليه وإن كان للجبل نبض خاص في التاريخ اللبناني فإن الإصرار على أن يكون الأول اختزالاً للثاني مما يسيء إلى وحدة الوطن والمصير. وإذا أخذنا في الاعتبار ما للمراكز الأخرى من عمق حضاري في هذا التاريخ، والذي بدأ ينطلق إلى نحو من التوازن في هذا المجال، يبقى أن نأخذ في الاعتبار أيضاً ما تمثله مرحلة المتصرفية من حضور في التاريخ اللبناني، وليس في نطاق الجبل فحسب بل في أكثر التداعيات التي شهدها بعض أطرافه.

محمد نورالدين : هل يمكن توضيح بعض الاشكاليات في كتابة هذا التاريخ في ضوء احتكاره او محاولة احتكاره من قبل فئة معينة وفي اتجاه احادي؟

منير إسماعيل : نعم بل من الضروري لفت النظر إلى بعض الإشكاليات توضيحاً لما ينطوي عليه هذا التاريخ أحياناً من لبس أو غموض أو إغفال لبعض أشخاصه وأحداثه تؤدي إلى فجوات.

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك محاولة توظيفها حركة المردائيين (المردة في التعبير اللبناني) في العهد الأموي، بما يتزامن مع بداية هجرة بعض رهبان موارنة مع أعداد من أبناء مذهبهم من وادي العاصي، وذلك في محاولة إنتاج تاريخ منفصل عن البيئة وسياقها التاريخي. هذه الموضوعية الاستثنائية إنما تندرج أساساً في العلاقات الأموية البيزنطية، وبالتالي فقد طوت صفحتها بعد اتفاق الخليفة عبد الملك والامبراطور جوستنيانوس الثاني وعودة المردة إلى بلادهم بأمر من الإمبراطور دون أن تترك وراءها ما يشير إلى "التمرد" أو بأي أثر في النسيج الاجتماعي للمرحلة. وبهذه الرؤية أخذ يتركب التاريخ اللبناني، وانطلاقاً من مشروع هذه المدرسة التي تركت بصمات واضحة في هذا التاريخ الخاص بطائفة هي الموارنة وبمكان هو جبل لبنان. وكان لا يزال مصنفوه يمارسون دورهم التوضيحي في هذا السياق مكرسين تاريخاً يعبر عن هذه الخصوصية ويلائم نظرتهم المستقبلية. وفي ضوء تلك الحقبة أصبح اقطاب هذه المدرسة، ابن القلاعي والدويهي والشدياق وحيدر الشهابي (المؤرخ) مرجعيات التاريخ اللبناني. وما انفك المؤرخون بعدهم ينسجون على أخبارهم مسلمين بها حقائق قاطعة وغير قابلة للنقاش في صحتها.

مصنفات هذه المرحلة تعكس توجهات هذه المدرسة مشحونة بأخبار وروايات تفتقر إلى الدقة إن لم نقل انها تجنح إلى الأسطرة في ابتعادها عن منطق العقل، وثمة مثال على ذلك ما أورده الدويهي مشوهاً ما أورده المؤرخ البيزنطي تيوفانوس بشأن المردائيين في قوله عن الموارنة: ذهبوا إلى أرمينية وهدموا الجدار النحاسي فيها الذي أقامه قسطنطين الرابع، ومن ثم عادوا إلى لبنان مع العلم أن "الجدار النحاسي" ليس أكثر من ترميز إلى الجنود البيزنطيين لحماية المسيحية إبان حملات المسلمين على بيزنطة ومحاصرة القسطنطينية عاصمتها.

وليس يعني مما سلف من نقد في هذا السياق رفض تلك المصنفات في التاريخ اللبناني التي يبقى فيها من المادة ما يمكننا الإفادة منها في محاولة الاقتراب من الحقيقة في بعض مناحيها، وهي بالتالي خاضعة للنقد، ذلك ان هذه المصنفات في التاريخ النابضة بميول أصحابها وأفكارهم وأيديولوجيتهم، وبمجرد التسليم أن المؤرخ ذهب في تأريخها وتبنى رؤيتها مفتقداً الموضوعية والسبيل إلى ذلك أن المؤرخ وهو يتصدى بإشكالية ما على هذه الساحة ليس على الحرص للأحداث الباردة فحسب بل الذهاب اليها بمشاعر باردة، التزاماً بقول الريحاني في هذا السياق " إن التاريخ شاهد لا قلب له" وإن أصبح طرفاً في هذه الأحداث مقاتلاً على جبهتها الساخنة.

لقد آن الأوان لنخرج بالتاريخ اللبناني من الأدلجة والأسطرة وخاصة البدعة التوافقية في كتابة التاريخ. فالحقيقة واحدة لا مجال للمساومة عليها واسترهانها وتلك الأوهام التي تصبح عبئاً على المؤرخ وتحول دون قيامه بما يعزز شخصية الوطن ويحصن وحدته.

محمد نورالدين : من اين يمكن الانطلاق في كتابة تاريخ هذه البقعة المسماة لبنان؟

منير إسماعيل : تبرز أمامنا في هذا المجال هذه الملاحظات التي أذكر بعضها على سبيل المثال:

١ ـ الظروف التي أسهمت في ظهور المعنيين واتخاذهم الدور الذي شغلوه في ذلك الوقت. هل كان ذلك قبل مجيء الصليبيين إلى هذه المنطقة، أم نتيجة له بتدبير من القوى السياسية فيها للقيام بدور جهادي ضد الصليبيين؟

٢ ـ "يمنح" المؤرخون اللبنانيون لقب "سلطان البر" إلى فخر الدين المعني، الجد أو الحفيد وهنا نطرح السؤال التالي: هل كان فخر الدين الأول شاهداً لمعركة مرج دابق بين العثمانيين والمماليك (١٥١٦)؟

من أين يمكن تلمس تبلور نواة الكيان اللبناني الحديث؟ هل من العهد المعني أم الشهابي، أم من القائم مقاميتين أم من المتصرفية؟ ومن ناحية ثالثة كيف يمكن تفسير هذه الحيوية المميزة للشعب في جبل لبنان في هذه الفترة ممثلة بأول تجربة ديموقراطية في انتخاب مجلس إدارة لأول مرة في المنطقة العربية؟

لم تشكل المقاطعات اللبنانية وغير اللبنانية نواة تاريخية لقيام الدول الحالية. ذلك أن الدول الكبرى كانت تقسم إمبراطوريتها مقاطعات لتستطيع التحكم بها في غياب الحكم المركزي الواحد. وقد اعتمدت هذه الدول على الأوضاع الجغرافية والعرقية والطائفية... لإقامة هذه المقاطعات.

أما في ما يتعلق بلبنان اليوم، فقد كان في الماضي مقسماً إلى أكثر من مقاطعة تحكمها العشيرة الأقوى فيها. فقد كانت حدود سلطة هذه العشيرة تتمدد وتتقلص حسب حدود قوة هذه العشيرة وضعف جاراتها. انطلاقاً من هذا المفهوم، وجواباً على السؤال المطروح، فإن حكم العشيرة المعنية، وكذلك الشهابية، لم يكن إحدهما مؤهلاً لقيام "كيان". فنظامها السائد، القائم على التقاليد والعادات الموروثة لا يصلح أساساً لقيلم دولة. وينسحب الأمر نفسه على القائمقاميتين.

محمد نورالدين : لنبدأ بنظام المتصرفية وانتم لكم باع طويل في التاريخ لهذه الفترة. كيف نتلمس تطور فكرة "الكيان" كجغرافيا وكفلسفة (ولا سيما في بعده الطائفي) وتشابك المصالح الدولية؟

منير إسماعيل : شكّل نظام المتصرفية، بأجهزته الإدارية والقضائية والمالية وسائر مؤسسات هذه "الدولة" المصغرة، منطلقاً لقيام دولة لبنان بعد أن ضم إليها المناطق الحيوية لتمكينها من تأمين وسائل الحياة لها.

وتجدر بنا هنا العودة إلى نشأة هذه المتصرفية، والدوافع التي أدت لذلك، والنتائج المترتبة على إنشائها، حيث يمكن اعتبارها النموذج للدولة اللبنانية الحديثة، وتتجاوز قضية الحدود لهذا الكيان اللبناني في وضعه الحالي، مع التأكيد على أن الإصرار من قبل الدول الأوروبية والباب العالي على اعتماد الطائفية أساساً للحكم وما شابه ذلك عند التطبيق من مهازل، تكاد تكون الطائفية من أسوأ مما "تميّز" به هذا العهد، كما كادت أن تقضي على معظم منجزاته.

تركت فتنة ١٨٦٠، بأحداثها الأليمة، آثاراً عميقة في نفوس اللبنانيين، وأقامت بين طوائفهم حواجز من الحقد والريبة، وأعادت طرح المسألة اللبنانية، بكل تعقيداتها ومآسيها، أمام الدول الأوروبية الكبرى والرأي العام العالمي، وأظهرت بوضوح مدى تورط المسؤولين العثمانيين وقناصل الدول الأوروبية في هذا المصير الذي يواجهه لبنان.

وفي سبيل إعادة السلام إلى الربوع اللبنانية، منحت الدول الكبرى، آنذاك (بريطانيا، فرنسا، روسيا، بروسيا و النمسا) تأييدها الكامل للحملة العسكرية الأوروبية. فسارع نابوليون الثالث، إمبراطور الفرنسيين (١٨٧٠-١٨٥٠) إلى إرسال ستة آلاف جندي فرنسي إلى لبنان، هم نصف عديدها، تطبيقاً لاتفاقية باريس (٣ آب/اغسطس ١٨٦٠) لمساعدة السلطات العثمانية على توطيد الأمن ونشر السلام في ربوعه. كما شكلت هذه الدول لجنة

"التحقيق الدولية" لإيجاد الحلول للمسألة اللبنانية. خشي الباب العالي التدخل الفرنسي في لبنان، وكانت آثار التدخل العسكري الأوروبي في هذه البلاد سنة ١٨٤٠، لا تزال حية في الأذهان، فبادر السلطان إلى إرسال وزير خارجيته فؤاد باشا، في مهمة عاجلة إلى بيروت لإعادة الأمن والنظام إلى لبنان وسورية بالقوة العثمانية وحدها، وبمعزل عن أية قوة أوروبية.

وبعد مداولات طويلة بين مندوبي الدول الأوروبية ومندوب السلطان في بيروت و الآستانة، صدر في التاسع من حزيران/يونيو ١٨٦١، فرمان إنشاء متصرفية في جبل لبنان، كحل للوضع المتردي فيه.

إن إنشاء متصرفية جبل لبنان، بدا كأنه نتيجة الأحداث الداخلية الدامية في الجبل. ولكن الدول الأوروبية حرصت على أن تكون هذه الإدارة الجديدة ضمن حدود متعرجة، حبست فيها على أسس طائفية ومذهبية، وكانت في حسابات هذه الدول، بداية لمشاريع التجزئة للولايات العربية باعتماد مبدأ الطائفية أساساً لهذه المشاريع.

كانت هذه المتصرفية خليطاً من الحكم الذاتي برأس عثماني وجهاز لبناني ورقابة أوروبية، تتيح للقناصل فرص التدخل في شؤون الجبل، و"دستور" من سبع عشرة مادة ومادة إضافية، ينظم شؤونها الإدارية والمالية والقضائية والاجتماعية...، وكان الحكم، قبل ذلك، يقوم في معظم "مؤسساته" على العرف والتقاليد المتوارثة.

وجاءت الأخبار من "دار السعادة" تحمل البشائر بتعيين داوود باشا، أول متصرف لجبل لبنان. وقد أوكل إليه تنفيذ مضمون البروتوكول الصادر في ٩ حزيران/يونيو , ١٨٦١ وهكذا وضع النظام الجديد موضع التنفيذ في ١٨ تموز/يوليو سنة ١٨٦١.

ويعنينا من هذا النظام المادة الثانية منه، التي قضت "بأن يكون للجبل كله مجلس إدارة كبير..."، إلى جانب المتصرف "يعاونه في المسائل التي يعرضها عليه"، و تعد هذه المؤسسة من أهم منجزات هذا العهد. ويبدو أن سفراء الدول الأوروبية في الآستانة، حرصوا عند وضع هذا النظام، على تصدير تجربتهم الديموقراطية إلى لبنان الجديد في بعض مظاهرها: إلغاء نظام الإقطاع وتقليص صلاحيات بعض المؤسسات الدينية... باستثناء الطائفية التي جهدوا في تعزيزها نصاً وممارسة. وكان كل هذا في يقينهم، السبيل إلى الإصلاح والتجدد. وقد تأقلم اللبنانيون مع هذه التجربة، بعد عهود طويلة من الخضوع لأنظمة قامت على العرف والتقاليد الموروثة، وتخضع لأهواء الحاكم ونزواته.

هذا المجلس، كيف تم تنظيمه؟ وما هي صلاحياته؟ وهل كان على قدر المهمة التي أنيطت به؟ أسئلة لن تكون في حجم الأجوبة عن هذا المجلس، وما قام به في ظروف كان فيها موضع تحدٍّ بين النجاح والفشل، في تجربة رائدة في الولايات العربية من السلطنة العثمانية.

حدد أعضاء هذا المجلس، في المادة الثانية من بروتوكول ٩ حزيران/يونيو ١٨٦١ باثني عشر يمثلون بالتساوي الطوائف اللبنانية الست المعترف بها (الموارنة، الأرثوذكس، الكاثوليك، الدروز، السنة والشيعة)، كما أنشئ مجلسان آخران هما مجلس وكلاء الطوائف ومجلس المحاكمة الكبير.

هذا التوزيع، الذي قضى بإعطاء عضوين لكل طائفة مهما بلغ عدد أفرادها، وضع على هذا الشكل توافقياً، بعد الحوادث الدامية التي عصفت في الجبل، حيث جعل هذه الطوائف تتساوى في الحقوق مقابل واجبات سوف تضطلع بها بالتساوي، وعلى حدٍّ سواء. وقد عدّل هذا التوزيع في بروتوكول ٦ أيلول/سبتمبر ١٨٦٤، بعد تجربة ثلاث سنوات من عمر هذه الإدارة في ظل بروتوكول ١٨٦١، وكان الموارنة، خلال هذه الفترة لا ينفكون يطالبون بتعديله، وباعتماد مبدأ الاكثرية العددية مقياساً لتوزيع الأعضاء في مجلس الإدارة. وقد تبنى هذا الطلب سفير فرنسة في الآستانة، نزولاً عند إلحاح كبار رجال الإكليروس الماروني وأعيان الطائفة المارونية، فأصبح توزيع مقاعد هذا المجلس على النحو الآتي: أربعة للموارنة وثلاثة للدروز واثنين للروم الأرثوذكس، وعضواً واحداً لكل من الروم الكاثوليك والسنة والشيعة. وظل الأمر كذلك، بين مطالبة مارونية بإعادة النظر، مرة أخرى، في هذا التعديل، ووعود "كرادلة" السياسة في استنبول، ممثلي الدول الأوروبية، حتى عام ١٩١٢ حين عيّن أوهانس باشا قيومجيان (١٩١٢– ١٩١٥) متصرفاً على جبل لبنان، فعدّل عدد أعضاء مجلس الإدارة الكبير، لأول مرة إذ أصبح ثلاثة عشر عضواً، ورفع عدد أعضاء الموارنة إلى خمسة، بإضافة عضو عن مديرية دير القمر. وبقي العدد كما كان في السابق، بالنسبة إلى بقية الطوائف. وقد ذكر الأمير شكيب إرسلان أنه نال وعداً من نورادونجيان، وزير الخارجية العثماني، بزيادة عدد الأعضاء الدروز إلى أربعة، غير أن سفراء الدول الأوروبية رفضوا هذه الزيادة.

محمد نورالدين : ما هي النظرة والآلية التي كانت تحكم عمل هذا المجلس؟

منير إسماعيل : لم يكن المجلس، بمنأى عن الإهمال، واللامبالاة، وصولاً إلى العجز عن أخذ المبادرات، وتصحيح مسار الحكم ومحاسبته. لقد تجلّى ذلك في أكثر من قضية، وقف حيالها الأعضاء وكأن الأمر لا يعنيهم تاركين الأمور على سجيتها. وظلت تعابير: "الأمر لوليه" أو "لينظر الولي في الأمر" تتحكم في تصرفات المجلس في فترات ليست بقليلة. حسبنا أن نذكر منها هذه الواقعة، وفيها أكثر من دلالة:

تم توزيع أعضاء مجلس الإدارة طائفياً على أقضية المتصرفية الستة، حسب بروتوكول ٩ حزيران/يونيو، ثم غدت سبعة في التعديل الذي حصل في بروتوكول ١٨٦٤، وكان العضو المسلم (السني) من نصيب قضاء جزين، وليس في هذا القضاء سوى قرية واحدة أهلها من السنة، بينما كان يتم انتخاب هذا العضو عن قضاء الشوف (إقليم الخروب). وظل

الوضع على هذا الحال طوال عـهد المتصـرفـيـة، على الرغم من التـعـديلات التي لحـقت "بالنظام الأساسي" لمتصرفية جبل لبنان.

محمد نورالدين : أين نجد إذاً شخصية المجلس "المستقلة"؟ وهل من تفسير لخضوعه، في أكثر من موقف، للمتصرف، ومن يمثل؟

منير إسماعيل : لا بد لنا، بادئ الأمر، من تحديد معاني بعض الكلمات، كما وردت في سياق محاضر جلسات مجلس الإدارة الكبير، وفي متون كتب التاريخ التي تحدثت عن هذه الفترة من تاريخ لبنان الحديث. إن كلمة استقلال التي نطلقها على أوضاع ومواقف، هي في الواقع ليست دقيقة الاستعمال. إن متصرفية جبل لبنان ليست جزءاً من السلطنة العثمانية. وكان المتصرفيون وأمراء الجبل من قبل، يعرفون حدود صلاحياتهم كما تحددها مواد "النظام الأساسي" أو قيود الالتزام. لقد حدث أن أبدى أعضاء مجلس الإدارة تحفظات على ما كان يعرض عليه من "مسائل" بلغت، في بعض الأحيان، حد الرفض والتحدي للسلطة المحلية متمثلة بالمتصرف، وصولاً إلى الباب العالي نفسه. ولكن أعضاء المجلس، كانوا يشفعون مواقفهم، بإعلان الخضوع والتبعية للسلطان العثماني. ويكفي اخيراً أن نقول: لا استقلال حقيقياً، قديماً وحديثاً لأي دولة أو كيان لا يتمتع، على الاقل، بحق إصدار نقد خاص به، ويبقى هذا الواقع مقياساً للاستقلال بعيداً عن كل ادعاء وغرور.

ولعل الحدود التي رسمت لمتصرفية جبل لبنان، كانت أكثر تأكيداً "لشخصية" هذه الإدارة في ظل الحكم الذاتي الذي أعطي لها. ويبدو ذلك واضحاً إذا ما قورنت بحدود الإمارة حيث كانت لا تتجاوز حدود الالتزام للأمير الحاكم. ويطرح هنا تاريخية هذه الحدود. فإذا كانت كذلك، فإننا نكون قد ألغينا تاريخية حدود لبنان الحالية.

محمد نورالدين : اشرت إلى الرابط بين انشاء المتصرفية ومخططات التجزئة في المشرق. والجميع يعرف ان جهود القوى الغربية والحركة الصهيونية لإنشاء كيان قومي لليهود في فلسطين تواكب منذ منتصف القرن التاسع عشر مع نشوء المتصرفية. في اي سياق تقرأ ظهور هذه الكيانات التجزيئية؟

منير إسماعيل : انقضى عهد التصرفية بخيره وشرّه. وكان اللبنانيون قد نسوا المؤتمرات، خلال أكثر من نصف قرن. وما إن وقعت الحرب العالمية الأولى، ودخلتها تركية إلى جانب الدول المركزية، حتى بدأت الدول الكبرى تقرر مصائر الشعوب الضعيفة في مؤتمرات واتفاقات بلغت فيها المساومة حداً من الاستهتار، لا حدود له. وترامت إلى السوريين والفلسطينيين واللبنانيين أخبار اتفاقية سايكس - بيكو (٩ - ١٦ أيار/مايو ١٩١٦)، وتوأمه وعد بلفور (٢ تشرين الثاني/اكتوبر ١٩١٧).

وقد ظهرت هذه الأطماع بشكل واضح في اجتماع الحلفاء في سان ريمو، وما أسفرت عنه

معاهدة الصلح، إذ تجاوز الحلفاء بنود اتفاق سايكس-بيكو، لتقسيم ما تبقّى من ولايات في السلطنة العثمانية. وقد حفظت هذه الاتفاقات مكاناً بارزاً في خريطتها لتنفيذ وعد بلفور. هذا الوعد الذي أعطته بريطانية لليهود لإقامة وطن قومي لهم، تطور، مع الزمن، بدعم بريطاني وأميركي، وتخاذل عربي متمادٍ ومريب، إلى دولة مستقلّة. وكان ذلك بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني لهذه الغاية.

حدثان مهمان شهدتهما هذه المنطقة يستوقفان الباحث: إنشاء متصرفية في جبل لبنان، ذات "استقلال داخلي" بإشراف أوروبي، ومن ثم إقامة دولة اسرائيل، على مراحل في فلسطين.

إن إنشاء متصرفية جبل لبنان، رغم الأسباب الداخلية المتوترة في الجبل، ضمن حدود متعرجة وملتوية حبست فيها على أسس طائفية ومذهبية، كان ذلك في حسابات الدول الأوروبية بداية التجزئة للولايات العربية، باعتماد الطائفية أساساً لهذه المشاريع، وهو الأمر الذي يلقى الترحيب لدى الشعوب في الشرق، وهي التي لا تزال حتى اليوم، تعيش هذا الهاجس.

وكانت بريطانية، من جهتها تمهّد، لحسابها هذه المرة، لإنشاء دولة يهودية في فلسطين تفصل بين مصر والدولة العثمانية، إذ كانت لا تزال تحفظ في مخططها الاستعماري مشروع احتلال مصر والاستقرار فيها تأميناً لطريق الهند.

وفي سبيل تحقيق هذا المشروع، أرسلت في عام ١٨٤٠ بعثة بريطانية برئاسة الدكتور كايث لدراسة إمكان تنفيذه، والاتصال مباشرة بسكان فلسطين لوضعهم في أجواء هذا المشروع.

وتطور البحث في هذا الموضوع، بعد أن بدئ بتنفيذ شق قناة السويس. فقد وجدت بريطانية في دولة يهودية تقام على الضفة الشرقية للقناة، وتكون حليفة لها، ما يؤمن حماية القناة وسلامتها.

وكان لقاء بين مصلحة بريطانية في هذا الوجود اليهودي في فلسطين، وبين أماني الصهيونية العالمية في إقامة دولة لهم فيها. وهكذا وجد كل فريق في الآخر ما يحقق طموحاته. إن مشاريع تجزئة الولايات العربية في السلطنة العثمانية إلى دول عنصرية وطائفية قديمة، قدم المسألة الشرقية. ولم يكن آخرها ما جاء في اتفاقية سايكس - بيكو.

لم تنفذ هذه الاتفاقية بحرفيتها، ولكن أهدافها الكبرى ظلت خارج النزاع الإقليمي بين الدولتين، بريطانية وفرنسة، وهي الأساس، أي تجزئة هذه المنطقة إلى أكثر من دولة. ولا تزال كل دولة من هذه الدول، حتى اليوم، رهينة هذا الواقع. وقد بدا أن الخروج منه لم يتعدّ نطاق الكلام.

إن المفاوضات السرية والعلنية لاتفاقية سايكس - بيكو وما تبعها من اتفاقات ومعاهدات

خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها تذكرها كتب التاريخ وتحفظها الوثائق، وفيها الكثير من الوعود المتناقضة والعهود المتعاكسة.

ويهمنا من تاريخ هذه المفاوضات، التي بتنا نعرف اليوم جميع تفاصيلها، التوقف عند بعض النتائج المهمة:

١ - هل كان العرب، في حال يسمح بإرغام الحلفاء على إلغاء ما اتفقوا عليه من تقسيم هذه البلاد ووضعها تحت الانتدابين الفرنسي والبريطاني؟ وهل كان أسلوبهم... في التعاطي مع الغرب الاستعماري الآتي، بخيله ورجله، كفيلاً بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرض والكرامة؟

٢ - كان المسؤولون العرب، في الأقطار التي طالتها هذه الاتفاقات يعرفون تماماً تفاصيلها والحدود التي رسمت لها، ونتائجها على الصعيد القومي والسياسي والاقتصادي. ويعرفون أيضاً أن الحكومة البريطانية، بمباركة ودعم أميركيين، أعطت وعداً رسمياً بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود. فكيف نفسّر مطالبتهم بالانتداب البريطاني أو الأميركي، لا فرق بين هذا وذاك.

٣ - إذا كانت هذه المواقف، كما يزعم البعض، هي من قبيل النكاية بالآخرين المؤيدين للانتداب الفرنسي، فكيف انقلب المعارضون إلى مؤيدين في ما بعد؟ أم أن هناك دوافع أخرى لهذا الانقلاب في المواقف؟

ونتساءل بعد هذا، لو تحققت طلباتنا وتراجعت فرنسة وبريطانية، إرضاء لنا، فألغتا ما اتفقتا عليه وأصبحت بريطانية الحاكمة السعيدة من الفرات إلى النيل، فهل كان هذا يلبي طموحات "الوطنيين" اللبنانيين أو مطامع الصهيونية العالمية في توسيع رقعة الانتداب البريطاني؟

إن العصبية العشائرية التي توارثناها من أيام الجاهلية الأولى، لا تزال تتحكم بتفكيرنا ونظرتنا إلى رجال السياسة، فتصرفاتهم وأخطاؤهم لها ما يبررها في نظرنا. فنحن شعب نعيش في الماضي وللماضي ونألف هذا العيش ونقدسه. وأخطاء رجال السياسة تبدأ شواذاً في نظرنا ثم ننسى نتائجها. وهكذا تصغر الأخطاء وتتلاشى ويكبر أصحابها.

إن هاجس التفتيش عن البطل يعطّل لدينا كل إرادة في التصدي للأخطاء... ثم نكتشف، بعد فوات الأوان، أن بطلنا كان قزماً.

... وإمعاناً من الدولتين، البريطانية والفرنسية، في السير بتنفيذ هذه الاتفاقات، وحرصاً على إضفاء الشرعية الدولية عليها، فقد استعجلتا إنهاء مؤتمر الصلح.

وفي ٢٨ حزيران/يونيو ١٩١٩، نشرت معاهدة فرساي وفيها ميثاق عصبة الأمم، الذي أقرّ في المادة الثانية والعشرين منه، مبدأ الانتداب على البلاد العربية منفصلة عن السلطنة العثمانية.

واستباقاً للأحداث في سورية ولبنان وفلسطين والحؤول دون تطورها بشكل لا يمكن احتواؤه، وكانت قد ترامت أصداؤها في أوروبة، اجتمع الحلفاء في سان ريمو في إيطالية (١٩٢٠) لتكريس توزيع مهام الانتداب على هذه البلاد. فكانت سورية ولبنان من نصيب فرنسة، ووضع العراق وفلسطين في عهدة بريطانية. وهكذا تجاوز الحلفاء أهم بنود اتفاقية سايكس ـ بيكو.

لم يلق عهد الانتداب الفرنسي الترحيب من جميع اللبنانيين. فقد انقسموا ما بين مؤيد ورافض. ونتج من هذه المواقف سلسلة من الثورات الداخلية، حيث وقفت فئة من اللبنانيين إلى جانب السلطات الفرنسية في مقاومة الثائرين على هذا العهد. وأعادت هذه الأحداث إلى الأذهان ذكرى الحروب الطائفية في كثير من مظاهرها السابقة.

أخبار هذه الثورات تحفل بها كتب التاريخ. وهي تدل على مواقف أصحابها أكثر مما تؤرخ لتلك الثورات. والواقع أن سلطات الانتداب استطاعت أن تسيطر على هذه الثورات، متجنبة التعقيدات التي يمكن ان تشوه سمعة فرنسة في الخارج واستقرار الحكم في لبنان ومحاذرة أن تنقلب نتائجها مباشرة على مؤسساتها الإدارية والمالية والاقتصادية.

محمد نورالدين : أي دور لفرنسا في ترسيخ النزعة الطائفية في لبنان، وكيف تقرأ تطور هذه "البذرة" التي انبتت شجرة وارفة من الظلال المقيتة على امتداد التاريخ اللبناني الحديث؟

منير إسماعيل : لم يكن الفرنسيون يجهلون العقلية اللبنانية. فقد حرصوا على الطائفية، تلك "الوديعة" الغالية التي أحاطوها بالرعاية والعناية. وكانت لهم ركيزة في سياستهم الداخلية، إذ عرفوا كيف يستغلونها في فترات حرجة في تاريخ حكمهم لبنان، ما زاد اللبنانيين فرقة وانكماشاً.

احتفظ لبنان خلال مرحلة طويلة من تاريخه بطابع "مميز" في بنيتيه الاجتماعية وتعدد طوائفه الدينية، دون سائر بلدان الشرق الأدنى. وقد أخذت الطائفية، بمضمونها السياسي، وضعاً قانونياً تسرّب إلى انظمة الحكم منذ قيام نظام القائمقاميتين في الجبل سنة ١٨٤٢، الذي شكّل كيانين طائفيين تمّ الاعتراف بهما في نص رسمي في نظام شكيب أفندي، بإدارة سلطانية في ١٥ أيّار (مايو) ١٨٤٦.

وقد ساعد على قيام هذا الوضع الطائفي تدخل الدول الكبرى السياسي، لدى الطوائف اللبنانية، عبر ممثليها الدبلوماسيين والقنصليين، والديني، عبر الإرساليات الأجنبية، الكاثوليكية والإنجيلية والأرثوذكسية، في ظل تواطؤ مريب من السلطات العثمانية. وكانت ذريعة هذا التدخل الأوروبي حماية الطوائف المسيحية وإنقاذها من الجور العثماني، وقد اتخذت اتفاقات الامتيازات الأجنبية لها سبباً ومظلة. فنشرت فرنسا حمايتها على الموارنة، ودخل الروم الأرثوذكس في عهدة قيصر روسية، وترجح الروم الكاثوليك بين الحمايتين

الفرنسية والنمساوية، وأما الدروز فانضموا تحت لواء التاج البريطاني، وأما المسلمون، ولا سيّما السنة منهم، فقد بقوا في رعاية السلطان، رئيسهم الشرعي.

وكرّس هذا التقسيم الطائفي في النظام الأساسي لمتصرفية جبل لبنان سنة ١٨٦١ (٩ حزيران/ يونيو)، وكذلك في بروتوكول ١٨٦٤ (٦ أيلول/ سبتمبر). وانتقل الجبل منذ ذلك الحين من النظام الإقطاعي إلى نظام طوائفي، نصاً وممارسة، مموهاً بتقاليد إقطاعية راسخة الجذور.

ومما ساعد الدول الأوروبية الكبرى على ترسيخ هذه البنية الطائفية تحوّل نظام الملل الذي وضع في مراحل الإصلاحات العثمانية، ولا سيّما في خطي شريف كولخانة (١٨٣٩) والخط الهمايوني (التنظيمات الخيرية ١٨٥٦) إلى نظام الأقليات الذي كان معتمداً في أوروبا، وبما كان يتضمن من مفاهيم ومقاييس غامضة، متشابكة بين العرق والدين. وما لبث هذا النظام أن اندمج في الوضع القائم في الجبل، ما أدى إلى اعتبار الطوائف اللبنانية أقليات حسب المفهوم الأوروبي.

وهكذا تحولت الطوائف اللبنانية من طبيعتها الدينية الروحية، إلى أطر سياسية ذات دور هام في نظام الحكم في البلاد.

وفي عهد الانتداب الفرنسي، جدد الاعتراف في نصوص رسمية بشخصية هذه الطوائف وتمايزها، وبدورها في مؤسسات الدولة، وبخاصة ما جاء في الدستور في المادتين التاسعة والعاشرة منه، ولعل المادة الخامسة والتسعين أكثر مواد هذا الدستور دلالة على هذا المنحى في تكريس الطائفية، ولئن أعطي هذا التكريس صفة المؤقت إلا أن هذا المؤقت ما زال قائماً حتى اليوم.

واتبعت السلطات المنتدبة هذا الدستور بقوانين وأنظمة هدفت جميعها إلى توطيد دعائم الطائفية وتعزيزها. ولعل أهم ما صدر في هذا الموضوع عن المفوض السامي الفرنسي القرار الرقم ١٤٦ بتاريخ ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨، والقرار الرقم ٥٣ بتاريخ ٢٧ نيسان/ أبريل ١٩٣٩.

وفي هذا العهد أصدر المفوّض السامي الفرنسي قراره الشهير ذا الرقم ٦٠ بتاريخ ١٣ آذار/ مارس ١٩٣٦ الذي لا تزال آثاره واضحة في الحياة السياسية في لبنان، وقد حدد عدد الطوائف في لبنان، فارتفع من ست طوائف، في عهد المتصرفية، إلى سبع عشرة طائفة، وكرّس أكثر من ذي قبل وجودها القانوني، حيث فرض على كل لبناني ضرورة انتمائه إلى إحدى الطوائف المعترف بها رسمياً. وكرّس ذلك نصاً في بطاقة الهوية.

وكان معظم اللبنانيين، في اطلالة عهد الاستقلال سنة ١٩٤٣، يطمحون إلى وضع حد لهذه البدع القانونية التي سيّست عمل الطوائف، مرة جديدة وجعلتها إحدى ركائز المجتمع المدني في البلاد، بل أهم مقومات مؤسسات الدولة. إلا أن اتفاقاً شفوياً حصل بين

مسؤولين كبيرين ، بشارة الخوري ورياض الصلح، عرف بالميثاق الوطني كرّس ما كان قائماً من ذي قبل، ولم يخفف أثره السلبي ما صدر في بيان حكومة الاستقلال الأولى من الحرص على التأكد أن ساعة إلغاء الطائفية ستكون ساعة مباركة ولكن هذه الساعة لم تدق حتى الآن، فهل سيتحوّل الأمل في ذلك إلى سراب خادع؟

البعض يرى ان الميثاق الوطني عام ١٩٤٣ كان محاولة متوازنة لتنظيم الطائفية وتهذيبها... يوم هلل الجميع لما يسمّى الميثاق، ألم نكن مخدوعين بمظاهر، ومأخوذين بعاطفة عابرة؟ وماذا في هذا الميثاق؟ إنه أغرب ما عرفنا من "اتفاقات" بلغ حداً من العبث، أضاع علينا فرصة بناء وطن على أسس صحيحة.

لقد أعاد إلينا هذا الميثاق الطائفية بأسلوب "مستحدث". ولم يخف مظاهرها الواضحة هذا الطلاء الباهت الذي قصد منه التمويه ليكون مقبولاً لدى الجميع.

إن الاعتراف المتمايز بين الطوائف لم يكن ليوحد في ما بينها، من حيث اراد واضعو الميثاق، بل رسّخ بدعاً كثيرة تروج لها أوساط معينة. ولعل التعددية "الاستعلائية" كما تطرح اليوم هي نتيجة الاعتراف الرسمي بهذا التمايز، وهو الذي لم يكن ليشكل غنى للمجتمع، بل أصبح مدعاة لتفتيته.

وكانت المساومة الغريبة على تحديد هوية الوطن، فإذا هو ذو وجه عربي، ستتكامل عروبته مع الزمن. كما فرض هذا الميثاق أيضاً تحت تأثير عقد، لا يصح أن نظل أسرى لها، أسلوباً في التعامل مع الغرب ومع الشرق في آن واحد.

مشكلتنا أننا نعيش في لبنان، كل فئة تسير في اتجاه معاكس. فئة لا تؤمن بلبنان، إلا بشروط. وفئة اخرى لا تزال مترددة في هويتها.

هل نحن فعلاً كما يقولون، شعب هازل، محكوم بالضياع؟ أم أننا لا نملك حق تقرير مصيرنا بمعزل عن الأجنبي...؟

محمد نورالدين : كيف تقرأ في هذا المجال اتفاق الطائف الذي بإجماع الجميع كان عاملاً في ترسيخ النظام الطائفي وتعميق الحساسيات الدينية والمذهبية؟

منير إسماعيل : كان اللبنانيون يتوقعون بعد انهيار الميثاق الوطني لعام ١٩٤٣ أن تنقذ وثيقة الوفاق الوطني في الطائف (١٩٨٩) البلاد من حالة النظام الطائفي، وتعيد للدولة حرمة شخصيتها وولاء اللبنانيين الكامل لها بعد الكوارث التي نزلت بالشعب اللبناني وبالبلاد عامة طوال الحرب المدمرة التي استمرت خمس عشرة سنة ابتداءً من عام ١٩٧٥، إلا أنهم فوجئوا بأن وثيقة الطائف كرّست من جديد النظام الطائفي، كما نصّت عليه أحكام دستور ١٩٢٦ وقد علّق النص الذي جاء فيها والنص الآخر الذي أقر في دستور ١٩٩٠ بالتعابير التقليدية مثال: المرحلة الانتقالية وإلى أن يحين الوقت المناسب أو بصورة مؤقتة على غرار ما جرى في السابق.

ويتذرع الطائفيون لتسويغ هذا التكرير المتجدد بأن التوافق، عبر اعتماد النظام الطائفي، ضرورة لا بد منها لأن المجتمع اللبناني غير مهيأ بعد لانقلاب جذري سلمي يطال النظام الطائفي كحالة اجتماعية، بحجة أنه متاصل في ضمير اللبنانيين وذو جذور تاريخية عميقة لا تزول بواسطة النصوص، التي تبقى على هامش الأحداث ولا تصل إلى عمق الحلول.

ويصر هؤلاء على تسويغ موقفهم بما يدلون من شواهد، منها أن الأزمات الطائفية ليست وقفاً على لبنان، وإنما تعرفها أيضاً مجتمعات أوروبية راقية متقدمة في مضمار الحضارة وذات مؤسسات ديموقراطية عريقة، ويذكر هؤلاء، تأكيداً لأطروحتهم هذه ما يجري بين الكاثوليك والبروتستانت الانكليكانيين في إيرلندا، وبين الأرثوذكس الصرب والمسلمين البوسنيين، وبين هؤلاء والكاثوليك في كرواتيا.

لكن القضية الأبلغ أهمية في الوضع الراهن هي تسييس الطوائف وربطها بشؤون الحكم، بحيث باتت في الممارسة جزءاً من النظام وحلقة أساسية فيه، واصبح رؤساء الطوائف مرجعيات ذات شأن كبير ودور أساسي في حياة المجتمع ومسيِّر أجهزة الحكم فيه، ليس لأبناء مذهبهم فقط وإنما لممثلي الدول المعتمدين في لبنان أيضاً.

ولعبة التسييس هذه جعلت الممارسة الطائفية تتعدى بمسافات حدود العمل الديني والروحي المكرسة أصلاً له. وكان من جراء ذلك انتقال الطوائف من مرتبة كيانات روحية معترف بها إلى شبه دويلات مستقلة ذات صلاحيات كاملة في بعض الشؤون ولا سيّما في الأحوال الشخصية وتمكنت من تكريس تمايزها بمجموعة من القوانين والأنظمة الإدارية. هكذا أصبح لكل طائفة مدارسها وجامعتها وبرامجها... ولها أحزابها بمجالسها التنفيذية، وهي أشبه بمجالس مليّة منها بمجالس حزبية، ولها صحف تصدر باسمها وإذاعات ومحطات تلفزة تذيع أخبارها ونشاطاتها وغير ذلك من مرافق الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ولعل أدهى ما تتمتع به هذه الطوائف من صلاحيات، الاعتراف بمحاكمها وحقها في التشريع، ذلك أن اللبناني يحاكم في شؤونه العائلية أمام محاكم طائفية، علماً بأن هذه المحاكم لا تصدر أحكامها باسم الشعب اللبناني، كما تنص على ذلك المادة العشرون من الدستور.

والطوائف اللبنانية في معظمها مرتبطة من ناحية الهيكلية الدينية بمؤسسات عليا في الخارج، هي مرجعها في أكثر من قضية. فالأحكام الصادرة عن المحاكم الكاثوليكية قابلة للاستئناف أمام محكمة الورتا في روما، كما أن دوائر التنفيذ اللبنانية مكلفة تنفيذ هذه الأحكام الصادرة عن محكمة أجنبية.

ولا ينكر دعاة الطائفية الإقرار بأن دورها سلبي في بناء الدولة وفي تركيز أركان الوطن، إلا أنها بتأصلها تاريخياً وفكرياً واجتماعياً في عمق ضمير اللبنانيين وفي تقاليد المجتمع

اللبناني وفي نسيجه أصبحت بمثابة شر لا بد منه وأن إلغاء هذه البنية، بأي شكل من الاشكال، سيخل بالتوازن القائم ويدخل البلاد في طريق المجهول.

محمد نورالدين : كيف الخروج من هذا النفق الطائفي؟

منير إسماعيل : يطرح في هذا المجال اعتماد إحدى الطريقتين:

١ ـ طريقة النظام التوتاليتاري المستبد، على غرار ما جرى في الاتحاد السوفياتي السابق. وقد نجحت هذه الطريقة في بادئ الأمر، فأقصت ليس كل ما من شأنه استغلال الدين، وإنما الأديان نفسها، وانتهت أخيراً إلى الفشل الذريع. ولم يستطع النظام السوفياتي بما كان يمثل من إيديولوجية تعتمد على قوة عسكرية جبارة، الوصول إلى نتيجة نهائية ودائمة مستمرة لهذا الحل.

ولا أحد من اللبنانيين يتصور أن مثل هذا الحل ممكن التحقيق في لبنان، البلد الصغير الذي يتمسك أبناؤه بالنظام الديموقراطي البرلماني بمؤسساته الدستورية وبالحرية المطلقة التي تبلغ ممارستهم لها حد الفوضى أحياناً.

٢ ـ طريقة الحوار الدائم المتجدد القائم على ثقافة لا طائفية وتربية وطنية سليمة. ويستلزم نجاح هذا الحوار زمناً طويلاً. وتبقى مع ذلك هذه الطريقة الأقرب منالاً والأكثر واقعية والقادرة وحدها على معالجة هذه المشكلة بروح علمية من شأنها أن تبدد لدى بعض اللبنانيين عنصر الخوف من المجهول الذي يساورهم من جراء زوالها، وتحمل الاطمئنان اليهم للمحافظة على التوازن التاريخي الدقيق، القائم في لبنان منذ أجيال عديدة. وتقوم قواعد هذا الحل على اعتبار الوضع الطائفي الراهن حقبة مرحلية في تاريخ لبنان على غرار حقبات أخرى مر فيها وزالت بزوال أسبابها.

محمد نورالدين : ماذا كان تأثير الوجود الصهيوني وإنشاء دولة اسرائيل في فلسطين على لبنان والمنطقة. هل يمكن ان يتحول هذا الكيان إلى حالة عادية وطبيعية في المنطقة كما يروج دعاة التطبيع، ام ان طبيعته في الأساس تحول دون ذلك؟

منير إسماعيل : أن يتناول الباحث الكلام عن الصهيونية، نشأتها ودورها في العالم العربي، ومدى علاقتها باستقرار الوضع في لبنان والمنطقة او اضطرابها... فهذه مهمة ليست بالأمر اليسير في هذا الحوار. ويكفي هنا أن نستعرض بشيء من الإيجاز العلاقة المتوترة بين الشرق والغرب خلال قرون طويلة، وتداعيات هذه العلاقات وأبرزها في العصر الحديث الحركة الصهيونية.

لا يزال قول الشاعر البريطاني كيبلينغ (Kipling) الشرق شرق والغرب غرب (East is East and West is West and the twain will never meet) شعار الواقع السياسي والعسكري منذ معركة بواتيه إلى الحروب الصليبية والتوسع الاستعماري في

القرن التاسع عشر، إلى احتلال فلسطين وغزو العراق وهذه الحروب لم تنته بعد. وهذا الواقع لا ينسينا الاجواء الإيجابية التي تعكسها حركة التبادل العلمي والانساني بين العالمين الشرقي والغربي بما تحمل من خير لم يبدد الأجواء القاتمة للشهوات الاستعمارية للقوى الغربية وبخاصة في العصر الحديث.

وفي سبيل معرفة تأثير الحركة الصهيونية على الاستقرار في لبنان كما ورد في السؤال، لا بد من ذكر مواقف الدول الأوروبية من اليهود الذين يعيشون منذ قرون في هذه الدول ومن ثم قراءة النصوص التوراتية التي تكشف عن مخططاتهم ونظرتهم إلى شعوب العالم، العرب وسائر الشعوب.

أ ـ عاش اليهود في معظم الدول الاوروبية في وضع "غيتو" فرضوه على أنفسهم ولم يقيموا وزناً أو أي تقدير للشعوب التي آوتهم، وأبدت كل استعداد لمساعدتهم، ولكن اليهود، وبتأثير من التراث التوراتي، كما سيأتي الكلام على ذلك تقوقعوا وعزلوا أنفسهم عن هذه المجتمعات.

هذا الواقع فرض ردة فعل لدى الشعوب الأوروبية، غلّفت بشيء من الكراهية نتج من ذلك في بعض الدول (ألمانية على سبيل المثال) مواقف عنف دموية.

وغداة إعلان وعد بلفور (١٩١٧) وجدت الشعوب الأوروبية الفرصة للتخلص من اليهود، واستغلالهم في سياستهم الاستعمارية التوسطية، بإعطائهم فلسطين وطناً قومياً لهم ثم دولة مستقلة فيه، في عمل كان رأس اهتمامهم أي تفتيت العالم العربي وتثبيت خريطة تجزئته كما تم ذلك في سان ريمو وفي مؤتمر الصلح بعد الحرب العالمية الأولى.

ب ـ إن الرجوع إلى النصوص التوراتية يجعلنا على معرفة واضحة بتفسير تصرفات اليهود، ليس في فلسطين فحسب، بل في علاقاتهم مع العالم العربي، ومنه لبنان.

بهذه العقلية، وبهذا الأسلوب التوراتي يحكمون في فلسطين، ويعملون على تشجيع الفتن في الدول المجاورة وانتظار الفرص للتوسع واستغلال موارد هذه الدول وخاصة المائية منها، وجعلها تعيش في فلك هيمنتها مدعومة بالقوى الغربية التي أوجدتها وزوّدتها بكل أنواع القوة. وبدعم وجودها ما زال لها دور في سياسة هذه الدول...

وفي الرجوع إلى النصوص التوراتية والتلمودية نتصرف بشكل لا لبس فيه على هذا الشعب ومراميه السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى عقيدته الدينية الخاصة.

وقبل كل شيء علينا القول بأن التوراة التي بين أيدينا هي كل ما نعرف من نص، في غياب أي نص آخر، بصرف النظر عن كل اعتقاد أو اجتهاد. وتبقى هذه التوراة المرجع لفهم كل ما يتعلّق بحياة اليهود السياسية والاجتماعية والدينية.

ويكاد العالم العربي يجهل ما جاء في التوراة، خصوصاً ما ورد في التلمود، وفي الشروحات التي ألحقت بهما وأصبحت جزءاً من الشريعة اليهودية.

أول ما يلفتنا في العهد القديم طغيان الأساطير والخرافات، وأحاديث العبث الجنسي... في هذه النصوص التوراتية. فقد نقل اليهود هذه الأساطير إبان هجرتهم من أور إلى أرض كنعان، وفي أيام السبي، عن الشعوب القديمة، خصوصاً في بلاد ما بين النهرين، وأورثوها العالم المسيحي والاسلامي في ما بعد على أنها حقائق ومعجزات إلهية.

ولعل مظاهر العنف، والإرهاب التي انطلقت مفاهيمه من التوراة، والدعوة التي تسوّغها الشريعة اليهودية في استغلال الشعوب، دونما فارق بين الذين التجأوا إليهم "ضيوفاً" أيام الشتات، كما يدعون في "أدبياتهم"، وتلك التي سيطروا عليها، كما هي الحال، في فلسطين اليوم، هي أخطر ما تميزت به العقلية اليهودية في تاريخها القديم والحديث، والتي جعلتهم هذه يعيشون في " غيتو" دائم، يرفضون معه الاندماج في كل مجتمع عاشوا فيه. وقبل بهذا الواقع معظم الشعوب والدول تحت تأثير ديني توراتي أو سياسي أو اقتصادي.

لقد جاء في التوراة أن بني اسرائيل عاشوا في مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكان لهم فيها دور تعدّى الأعمال التجارية إلى الشأن السياسي العام. هذه الأخبار كانت مثار شكوك كثيرة لدى العلماء، بلغ بعضها حد النفي القاطع. وهذا يحملنا على القول إذا كان هؤلاء اليهود لم يعيشوا في مصر فكيف يمكن الركون إلى أخبار خروجهم منها؟!

وفي هذه الحال كيف نرى معجزة "العصا" عندما ضرب بها موسى البحر فشق لبني اسرائيل، فما أن سلك الطريق التي شقتها عصا موسى في البحر حتى أطبقت المياه على هذا الجيش فغرق. وهنا تبدأ "حماية" الرب لشعبه المختار من أعدائه.

كانت هذه المعجزة آخر المعجزات العشر التي اجترحها موسى في مصر ليحمل الفرعون على السماح لبني إسرائيل بالخروج منها.

ويستوقفنا ما ورد في التوراة من أخبار عن المعجزات التي قام بها موسى في مصر، بعد خروجه منها إلى سيناء. ومن هذه المعجزات أن موسى ضرب النيل بعصاه فتحولت مياهه إلى دم قانٍ أتى على السمك وجميع الحيوانات المائية فيه. وتابع موسى عجائبه فلوّح بعصاه فإذا الظلام يعمّ مصر ثلاثة أيام بكاملها، لم يغادر خلالها أحد من المصريين منزله. ولم يكتف موسى بذلك فأطلق الرب بتدخل منه الضفادع والبعوض وغيرها من الحشرات لتفتك بأهل مصر. في هذه السلسلة من العجائب، وقد بلغت عشراً كما أسلفنا القول، يمكن التوقف عند عجيبة اجترحها موسى بعصاه فكادت تفوق بحالتها العجائبية كل تصوّر. وذلك عندما تحولت إلى ثعبان تلقف حيات سحرة مصر في يوم مشهود، حضره فرعون مصر بالذات، وترويها الكتب الدينية المسيحية والإسلامية.

وكان لهذه العصا دور حربي عجائبي آخر. فقد روت أخبار التوراة أن موسى في أثناء معارك اليهود، كان إذا رفع عصاه ينتصر شعبه، وإذا خفضها ينهزم. وهكذا كان موسى يتسلّى وهو يلعب بعصاه بين رفعٍ وخفضٍ، ويدفع الثمن اليهود بين نصر وهزيمة.

لقد اختار الرب بني إسرائيل ليودع هذه الوصايا أمانة في أعناقهم. ومن هنا تبدأ مشكلاتهم مع العالم كله. وقد تمسكوا عبر تاريخهم الطويل بكثير من الطوباوية بهذه الوصايا أساساً لمارستهم مع سائر "الأجناس" دون تمييز، كما تصف ذلك أدبياتهم جميع الذين عايشوهم وتعاملوا معهم.

تتحدث التوراة عن وعود الرب لبني إسرائيل عبر موسى، إذ يقول لهم: " إنك سوف تدخل مدناً عظيمة حسنة لم تبنها، وبيوتاً مملوءة بكل خير لم تملأها، وآباراً محفورة لم تحفرها، وكروماً وزيتوناً لم تغرسها".

ويبدو الرب في أكثر من موضع في التوراة كريماً وسخياً تجاه شعبه المختار مخاطباً إسرائيل بقوله: "إذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي أنت داخل إليها"، وهي أرض "الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين...، سبع أمم أكثر واقوى منك، فإذا تمكنت منهم وهزمتهم بإرادة الرب إلهك فحرمهم تحريماً (أي اقتلهم تقتيلاً)، لا تقطع لهم عهداً ولا ترأف بهم، ولا تصاهرهم...". وينصح الرب بني إسرائيل بقوله: سوف "تفترس جميع الشعوب التي يسلمها إليك الرب إلهك فلا تعطف عينك عليها".

وتبلغ حماسة الرب حداً تجاه بني إسرائيل عند اقتراب شعبه المختار من أرض الميعاد ليقول لإسرائيل: "إنك اليوم عابر نهر الأردن لتدخل وتطرد أمماً أعظم منك،... كنار آكلة هو يبيدهم وهو يذلهم أمامك".

ويبدو انصياع الرب لمصلحة اسرائيل واضحاً، فقد أوقف الشمس والقمر في كبد السماء ليتسنى ليشوع بن نون الوقت الكافي لإنزال الهزيمة بأعداء بني إسرائيل في موقعة "جبعون". ومهما قيل في التوراة، وتعددت الآراء والاجتهادات في شأنها، تبقى في نظر اليهود تعليمات إلهية تحدد إيمانهم وكذلك تصرفاتهم.

إن اليهود يعرفون جيداً عن إيمان أو عن مصلحة ما قدّره الرب لهم من أدوار، يحاولون عبر تاريخهم القديم والحديث القيام بها.

إن إنشاء الدولة العبرية اليوم على أرض فلسطين، وهو نتيجة حتمية لوصية الرب لشعبه المختار لقيام هذه الدولة. وليست مصادفة أن لا يكون لهذه الدولة حدود معينة "رسمياً"، إذا أعدنا بروح جدية وبكثير من المسؤولية هذا النص التوراتي:

"كل مكان تطأه أخماص أقدامكم انطلاقاً من البرية [سيناء] يكون لكم، ولبنان، من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي تكون حدودكم، لا يقف إنسان في وجوهكم".

في هذه النصوص كل الجواب عن الخطر الصهيوني الدائم.

محمد نورالدين : دكتور منير، خارج السياقات الراهنة للمسألة اللبنانية اريد طرح موضوع تاريخي صرف وإن كان يقع في جذور نقاشات الهوية اللبنانية لمكونات العناصر التي تشكل مجتمعاته.

يردد بعض المؤرخين أن لبنان هو صنيعة المارونية، وأنهم وحدهم هم بناة هذا الوطن. ونعرف انك قمت بدراسات تفصيلية في هذا المجال تطرح علامات استفهام حول هذه المقولة. نريد ان نسأل: من مجمل دراساتكم ما هي حقيقة دور الطائفة المارونية ولا سيما اللغط حول الجذور الانتمائية الأتنية ومسالة الهوية؟

منير إسماعيل : يختصر هاجس التقسيم - التعددية - النخبة - الفدرالية واقع المجتمع اللبناني. هذا الواقع بدأ منذ وصول أول حاكم ماروني إلى الجبل عام ١٧١٠ عند تسلّم الأمير يوسف شهاب مقاليد الحكم وفي حديث للبطريرك عريضة تختصر "الوحدانية" في الحكم عند الموارنة.

إن الإجابة عن هذا السؤال تستوجب أكثر من صفحة ولكن كان من أبرز تداعيات هذا التقسيم إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين.

في حديث أفضى به البطريرك الماروني أنطوان عريضة، إلى مبعوث الجنرال كاترو، مندوب حكومة فرنسة الحرة في سورية ولبنان، قال: "إن الطائفة المارونية في لبنان هي الأساس، وأما بقية الطوائف فضيوف عليها...".

في هذا القول أكثر من دلالة، لعل أهمها إيلاء الطائفة المارونية دوراً متميزاً في الوطن الخاص، لا يتمتع به "ضيوفها" من الطوائف الأخرى. هذا الدور يتماهى مع واقع لبنان في خصوصيته الجغرافية والتاريخية والعرقية والثقافية... كما يروّج لذلك دعاة عزل لبنان والخروج به عن محيطه.

ويطرح هذا القول من جهة ثانية فكرة "العروبة التاريخية" نقيضاً لفكرة "الخصوصية اللبنانية". والواقع أن الباحثين في تاريخ لبنان، قديمه وحديثه، لن تفوتهم الأسباب والتعليلات التي تدعم وجه نظر كل من القائلين بالنظريتين، ليظل الصراع متأججاً بين أصحابهما، وتمارس عندها تقية المؤرخين، لإي أكثر الأحيان، دوراً خطيراً، دونه تقية رجال السياسة. ونحن إذ نحاول عرض هاتين النظريتين، نتلمس دائماً الحقيقة في حدها الأدنى، ما دامت المصادر تمدنا بالمعلومات... حتى إذا سكتت أو بدا عليها الاضطراب والغموض، آثرنا معها الحذر في رواياتنا. ذلك أن مصادر هذه الحقبة دونت أخبارها بعد حدوثها بزمن بعيد، ما يعني أنها ليست بمنأى عن الخطأ أو التخمين في أحسن الحالات.

ثمة حقيقة ليس من السهل تجاهلها، وهي أن حركة نزوح القبائل العربية إلى هذه المنطقة ترقى إلى عهد مبكر من القرن الأول الميلادي حيث استقر بعضها على الساحل اللبناني أو على تخومه ومنحت أسماءها مراكز الاستيطان التي استقرت فيها، مثل جبل عامل ووادي التيم " تيم الله بني ثعلبة". ولم يتوقف هذا التحرك السكاني عبر العهود، بالغاً ذروته بعد الفتح العربي الإسلامي، الذي وصل مبكراً إلى الساحل والبقاع وترك طابعه العربي بوضوح على مساحة المنطقة.

على أن ذلك لا يعني أن هذه المنطقة، وتحديداً لبنان، كانت قفراً ومفرغة من السكان قبل هذا الوقت. فقد عمرتها منذ قرون بعيدة موجات سامية، كان لها تأثيرها في تكوين المنطقة السكاني، الذي ما انفك يتفاعل مع هذه الموجات وتلقى مؤثراتها المتفاوتة. ولعل إحداها كان لها حضور خاص في مسار التكوين القديم، ممثلة بالأنباط الذين تسربوا مجموعات إلى المنطقة بعد قضاء الرومان على دولتهم في مطلع القرن الثاني للميلاد (١٠٦ ك). وإذا كان من الصعب تبديد الغموض الذي يكتنف هذه الفترة، فإن الأنباط، من دون شك، شكلوا نواة التمركز العربي في هذه المنطقة لما تركوه من مؤثرات دينية وثقافية فيها، على أن المسألة ليست مرتبطة بحلقة أو حلقات معينة، فقد خضع التكوين السكاني في لبنان لمؤثرات إضافية، كان مصدرها الدول المتعاقبة التي امتزجت شعوبها في فترات ما بالسكان الأصليين في المنطقة ومنها لبنان.

ولكن ثمة ما يستوقف المؤرخ ويستثيره، وهو إقحام الفرس في التكوين المجتمعي للبنان، ولم يكن العرب بعد أن افتتحوا وقضوا على امبراطوريتهم بعد معركة نهاوند (٢١هـا/٦٤٢ م). فقد أشار البلاذري إلى جاليات في بعض المدن مثل بعلبك وترحيلها من مكان إلى آخر على يد والي الشام حينئذ معاوية بن أبي سفيان. وقد يكون هؤلاء الفرس من بقايا الحملة الفارسية التي قضت، لوقت قصير، على النفوذ البيزنطي في الشام ومصر، وعشية الفتوح العربية الإسلامية.

وإذا كنا غير معنيين بالتوسع في هذا التفاصيل، إلا أنه لا بد من إثارة بعض ملاحظات يمكن أن تضيء لنا الطريق بشأن الوجود الفارسي الساساني، استعان معاوية، وهو في صدد تأسيس دولته، بخبرة عدد من أبنائه في الإدارة والأمور العسكرية، وهؤلاء عرفوا بالفرس على سبيل "المواطنية" والانتماء السياسي، وليس لأنهم فرس في الأصل، فقد احتفظوا بأسمائهم العربية في الأماكن التي انتقلوا إليها.

وقد سار عبد الملك على خطى معاوية في الاعتماد عليهم، في وقت لم يكن يسمح فيه لأحد من غير العرب بالانخراط في الجيش، ما ينفي صفتهم الفارسية ويؤكد هويتهم العربية التي كانت وراء ثقة الأمويين بهم.

والملاحظة الثانية تتعلق بالأقباط الذين نجد لهم، خلافاً للفرس، صورة أكثر وضوحاً في المصادر التاريخية، وإن لم تنعكس كثيراً على طبيعة التكوين السكاني في المنطقة. لقد استعان معاوية بعدد منهم، مستفيداً من خبرتهم الملاحية في معركة ذات الصواري (٣٤ ها/ ٦٥٥ م)، على أن دورهم كان محصوراً في ما يمكن أن نسميه تقنية بالبحر أكثر مما هو في المجال العسكري. وإن كان بعض المؤرخين بالغ في أهمية هذا الدور، ليسقطوا عليه إسهامات أخرى قام بها الأنباط في المجالين الديني والثقافي، وقد جاء بعض منها مخالفاً لنص الشريعة، وخصوصاً في ما يتعلّق بإشراكهم في غنائم الحرب.

وهكذا يمكن الوصول إلى بدايات التكوين السكاني لهذه المنطقة. فثمة أخلاط من النبط والفرس والقبط إلى الروم وبقايا شعوب أخرى حملتها إليها طبيعة عملها أو مصالحها الاقتصادية، دون أن تشكل لبنة أساسية في تكوينها، فلم تكن أكثر من مجموعات صغيرة تدور في فلك الحكم الأموي الذي سبقته موجات من القبائل العربية، كما سبقت الإشارة، وكان لا يزال تحركها قائماً بين الحين والآخر، مستهدفاً الثغور بشكل خاص، ثم تطور في العهد العباسي إلى ما عرف "بنظام الرباط"، حيث تدفق على الساحل الشامي عدد من القبائل، في مهمات عسكرية للدفاع عنه ضد الخطر البيزنطي، الذي ما انفك يهدد الثغور الشامية مستغلاً فترات الاضطراب الداخلي للانقضاض عليها.

ولا بأس هنا من العودة إلى بعض المعطيات التاريخية، التي أكثر ما تتجلى لدى البلاذري، إذ هو الأكثر اهتماماً بهذه المسألة في كتابه "فتوح لبنان" فقد روى أن معاوية بعد شعوره بخطورة الفراغ السكاني على الساحل اللبناني في أعقاب الفتح، بادر إلى ترميم الحصون وانشاء المناظر وشحنها بالمقاتلة وإعطائهم القطائع، كما عمل على توزيع السكان وأغراهم بالاستقرار في الأماكن التي حددها لهم على الساحل.

واستمر الخلفاء على هذه السياسة، بالرغم من ركود موجة الفتوح، فأخذت القبائل تتكاثر، برغم انحسار الخطر البيزنطي فامتزجت بالسكان الأصليين في معظم المدن اللبنانية مثل بعلبك وصور، وهم في الغالب من الروم الذين يعودون إلى اصول يونانية.

وقد ظل الساحل اللبناني، لفترة طويلة، في أساس السياسة الدفاعية للعهد الأموي، كما ظل في هذا الحيّز من الاهتمام في العهود العباسية. كما دفعهم إلى التنبه لدوره ما اضطلع به خلال التصدي للخطر البيزنطي، ومن ثم الصليبي في ما بعد، فأجروا تعديلات على أسلوب التمركز القبلي، حين منحوا القبائل الموفدة إلى الساحل اقطاعات لتشجيعها على الاستقرار، فكانت الإمارة التنوخية النواة الأولى في حركة الاستيطان الجديدة، والتي وجد فيها العباسيون ما يغنيهم عن إرسال الجيوش النظامية لتأمين الاستقرار في المنطقة والدفاع عنها. وقد نجح التنوخيون في ضبط الأمور على الساحل اللبناني، كما في الجبل المتاخم له، وتابعوا بجدارة هذه المهمة طوال فترات الاضطراب التي شهدتها السلطة المركزية وأطرافها. كما أدت التغييرات التي حدثت في ظل الموجة الصليبية على امتداد نحو قرنين من الزمن (١٠٩٨- ١٢٩١) إلى ترسيخ هذا الحضور العربي، دون أن تؤثر فيه حركة الاستيطان الغريب، حيث ذابت في خضم الموجات العربية المتتابعة إلى هذه المنطقة.

وكان من أبرز هذه الموجات المتوالية مع الغزو الصليبي بنو معن، الذين نزلوا في جبل الشوف في أعقاب الحملة الصليبية الأولى، حيث كان لهم دور بارز في التصدي لها، فكان لوجودهم مع القبائل التي انضوت تحت لوائهم تأثير يتعدى الاستقرار باتخاذه ذلك البعد

القومي البارز. كما شهدت تلك الحقبة الصليبية هجرة الشهابيين من حوران إلى وادي التيم، مكملة عقد الهجرات العربية الجديدة، التي دفعها الغزو الصليبي إلى المجيء إلى لبنان والاستقرار فيه، مشكلة العنصر الأساسي في تكوينه السكاني.

ولا يجب أن يغيب عن بالنا في غمرة هذه التطورات، تأثير الحركات المناوئة للدولة العباسية، في تطورات الحركة الاستيطانية للمنطقة، مثل حركة القرامطة التي كان لها دور كبير في الأشواف ووادي التيم، حيث لاقت تأييداً من سكان هاتين المنطقتين، ما جعل الصليبيين يستفيدون من تشرذم القوى الاسلامية في بلاد الشام. وقد رافق هذا التمزق السياسي انحسار القوى الفاطمية في المنطقة وقيام دولة بني عمار في طرابلس ودولة بني عقيل في صور. وعلى الرغم من تشيّع هاتين الدولتين، فقد كانتا على غير وفاق مع الدول الفاطمية، وتركت إحداها (دولة بني عمّار) تأثيراً بارزاً في المنطقة، وتحديداً في المجال الثقافي.

وفي هذه الحقبة كان قيام دعوة "التوحيد" التي انتشرت بين القبائل العربية في بلاد الشام، حيث لقيت استجابة في وادي التيم قبل انتقالها إلى الأشواف. وهذه الدعوة لم تحدث حركة استيطانية جديدة، ذلك أن أصحابها الدروز، كما هو حال الشيعة، ينحدرون من أصول عربية تعود إلى قبائل أقامت في أطراف لبنان، فيما يذهب بعض المؤرخين إلى أنها كانت منذ القديم في صميمه، فمنهم من قبل بمذهب التوحيد في القرن الحادي عشر، فيما اعتنق القسم الآخر مذهب التشيّع. وهذا يعني أن كلاً من عمليتي التشيّع والتوحيد، حصلت على أرض لبنان بين سكانه المقيمين قبل انتشار الحركتين.

وإذ أصبح المماليك أسياد المنطقة، لم يغفر هؤلاء للموارنة والشيعة ما اعتبروه تعاطفاً مع الصليبيين بلغ حد المساعدة السافرة، فاستقدموا نتيجة لذلك بعض الأسر السنية وأقطعوها أراضي ما بين انطلياس وطرابلس، ومن أشهرها بنو عساف التركمان وبنو سيفا الأكراد، فدخل حينذاك لون جديد في النسيج السكاني اللبناني، مع الأخذ في الاعتبار أن هذين العنصرين لم يتركا تأثيراً حضارياً مميزاً في المجتمع الذي انصهروا فيه انصهاراً كاملاً.

كما دخلت في التكوين السكاني أُسَر أخرى في مناطق مختلفة من لبنان بدءاً من البقاع، حيث كان لآل حنش وآل حرفوش حضور على الصعيدين السياسي والاجتماعي، بلغ أحياناً خارج المنطقة التي أقاموا فيها، كما دخل آل الصغير وفروعهم في جبل عامل، حيث بسطوا نفوذهم، وأقاموا تحالفات مع قوى خارجية، كان لهم فيها تأثير قوي في الميدان العسكري. أما في جبل لبنان فقد توزع مراكز النفوذ ما عرف بالمقاطعجية، حيث أعاد الأمير حيدر شهاب (١٧٠٦ ـ ١٧٩٢) توزيعها بعد معركة عين دارة (١٧١١)، ومن أبرزهم الأمراء آل أبي اللمع (كفر سلوان) وآل الخازن (كسروان) وآل حبيش (غزير

والكفور) وآل الدحداح (الفتوح)، إلى ذلك استقرت الأسرة الجنبلاطية في الشوف، والأمراء الارسلانيون في الشويفات، بينما تقاسمت العائلات الدرزية من آل عماد وتلحوق وعبد الملك... بقية المناطق في الشوف وعالية والجرد. وكان آل حمادة الذين تسلّموا جبيل لفترة طويلة قد انسحبوا إلى الهرمل بعد معارك طويلة مع الشهابيين.

محمد نورالدين : لعل مسألة تشكل او ظهور مصطلح المردة من اكثر الاشكاليات التباسا في التاريخ اللبناني الوسيط والحديث...

منير إسماعيل : بالفعل. لقد آثرت أن اتجاوز هذه النقطة من قبل لإعطائها الموقع الذي تستحقه في النقاش.

فقد اتخذ التكوين السكاني في لبنان مساراً عبر التحولات التي أشرنا إليها، والتي تركت مؤثراتها المتفاوتة، دون أن يكون لما سمي "بالجيش المتخلف" للبيزنطيين أثر واضح في هذا المسار، حتى جاء الأب هنري لامنس اليسوعي البلجيكي الأصل (١٨٦٢-١٩٣٧) يثير هذه المسألة، بعد اثني عشر أو يزيد من القرون، حيث نحت في الجبل الطيب، الذي سمّاه الرحالة العرب جبل النسّاك والزهاد، "ملجأ" ومنطلقاً لمحاربة العرب والمسلمين دون سواهم، من قبل ومن بعد. فما هو هذا "الملجأ"؟ وما هي هذه الحروب "المردية" التي زعم أن الموارنة خاضوها بالنيابة عن غيرهم؟ كيف بدأت؟ وكيف انتهت؟

لقد تميّز جبل لبنان بفرادة طبيعية قلّما عرفتها الجبال المحيطة به، وكانت، ولا تزال عند اللبناني موضع اهتمام بلغ حد التقديس. ولكن هذا الجبل، على ما حباه الله به، لم يكن مأهولاً، وبالتالي، فإن وقتاً طويلاً سيمر قبل أن ينجذب إليه السكان أو غيرهم على الإقامة فيه وترك السواحل الغنية التي تلبي طموحهم في الاستقرار. كما أن الحصانة الجغرافية لم تكن مطروحة لدى العرب المسلمين، الذين اهتموا بتحصين السواحل دفعاً للغارات البيزنطية المفاجئة، دون أن يصدر عن سكان الجبل، خلال فترات طويلة ما يشير إلى الانتباه لمثل هذا "الملجأ" و صعوبة الوصول إليه.

لقد أمن العرب، بعد احتلالهم البقاع وتمركزهم في بعلبك ربط الداخل بالساحل وبخاصة طرابلس التي كان لها دور كبير في ذلك العهد في التصدي للأسطول البيزنطي، الذي ما انفك يهاجمها بصورة مستمرة. فكانت قاعدة بعلبك العسكرية ترفدها بالجنود والمؤن عبر الجبال اللبنانية الآمنة المطمئنة، التي لم تعرف دروبها خلال العهود العربية الأولى اضطراباً من قبل المضطهدين والمتربصين بدولة العرب والاسلام، القابعين في هذا "الملجأ" لم تحل دون اختراقه من جانب الفاتحين، بلغتهم وأسلوب حياتهم وأزيائهم وثقافتهم، وصولاً إلى الدين الذي يتغلغل في صفوف الوطنيين أنفسهم.

ليس من السهل الاقتناع بأن البيزنطيين بعد خروجهم من بلاد الشام، كان في بالهم هذا الجبل والإفادة من طبيعته الجغرافية والبشرية في علاقتهم العدائية مع الأمويين. ومع ذلك

فهو غير غائب عن أخبار تلك الفترة، إذ عندما أيقن قسطنطين الرابع (٦٦٨ـ٦٨٥) أن الحرب النظامية باتت من دون جدوى مع الجيوش الأموية، لجأ إلى أسلوب آخر لإرهاقها وتخفيف ضغطها عن القسطنطينية. فأرسل إحدى الكتائب (Tagma)، انطلاقاً من جبل اللكام تقطع الدروب وتثير الاضطرابات وتعرقل تحرك الجيوش العربية المتقدمة في كل اتجاه. وقد تمركزت في ذرى الجبل الأسود (كاوور طاغ) الذي أصبح يعرف في ما بعد، بجبل الكفرة. وبلغت في تقدمها جبل لبنان، ووصل الخيال ببعض المؤرخين اليونان إلى إيصالها حتى المدينة المنورة.

وقد عرفت عناصر هذه الكتيبة لدى المؤرخ البيزنطي تيوفانوس بالمردائيتي، وعنه أخذ المؤرخون اليونان الذين شرحوا حولياته في ما بعد، وأولئك الذين ترجموها باللغة اللاتينية قبل أن تصل إلى تلامذة المدرسة المارونية في رومة (١٥٨٤). وأهمية ما أورده تيوفانوس أنه يحسم الجدل في هذا الموضوع، لا سيّما في كشف هوية هؤلاء المردائيتي التي التبست لوقت طويل، في ما إذا كانت العبارة اسماً لهذه المجموعة أم صفة لها، مما يسهل كشف دورهم في الجيش البيزنطي في لبنان أو في موطنهم الأصلي.

إن لفظة Mardaitai تتألف من جذر هو Marda و it حرف النسبة باليونانية وai للجمع. وهذه الكلمة تعني اسماً لشعب المردة أو المرديين قياساً على العربية وليس صفة لهذا الشعب.

ولعل أول من أطلق هذه الكلمة مصحفة عن الكلمة الأساسية Mardaitai هو البطريرك أسطفان الدويهي (١٦٧٠ـ١٧٠٤). فيرقى في تفسيرها إلى الأسطورة بعيداً عن الحقيقة التاريخية في حدها الأدنى حين "يصف عصيان اللبنانيين على يوستنيانوس بالتمرد" ويتابع "عندما قتل أمير المردة أمروا عليهم سمعان ابن أخت المقتول... فمشى في اثني عشر ألفاً إلى جهة أرمينيا وهدم الجدار النحاسي (كذا)... ومنذ ذلك الحين لقب اللبنانيون بالمردة أي العصاة، لكونهم عصوا أمر يوستينيان...". وقد استغل هذا التفسير خريجو المدرسة المارونية في رومة، في وقت كان فيه اللبنانيون يجهلون تماماً هذه العلاقة بالمردائتيين.

وهكذا فإن المردة، في مرورهم بلبنان وتصرفاتهم وعلاقاتهم به، لم يندرجوا بين الموجات التي استهدفته وأقامت فيه، وذلك أن "دخولهم" إنما كان تنفيذاً لمهمة عسكرية محددة، ثم انسحبوا ككتيبة بعد انتهاء مهمتها في المنطقة... فلم يعرف عنهم حتى في المصادر اليونانية، انهم احتلوا بقعة أو تمركزوا في مدينة أو خاضوا معركة حاسمة على أرضها أو تركوا بصمات في طريقهم. وما يقال عن مجموعة أحجار في سمر جبيل يقال لها قلعة، ليس سوى زعم رفض تأكيده كل من ارنست رينان والأب لامنس والفيكونت فيليب دي طرازي.

ومن المثير، أنه في موضوع المردة وما تفرّع عنه، سال حبر كثيراً أكثر مما سال من الدماء في معارك هؤلاء. لقد دخل المردة إلى لبنان والمنطقة في عهد معاوية وعددهم اثنا عشر ألفاً مع نسائهم وأولادهم بحيث لم يتجاوز عدد المقاتلين بينهم الأربعة آلاف، كما هي العادة عندما ينقل الجنود من منطقة إلى منطقة مع عائلاتهم، وقيل أنهم كانوا فعلاً اثني عشر ألف جندي. وقد تم سحبهم في عهد عبد الملك، وعددهم اثنا عشر ألفاً. كما تذكر جميع المصادر اليونانية، جنوداً أطهاراً لم ينجبوا ولداً ولم يقتل منهم أحد في سهول وجبال اللكام وبوقا وبياس ومعدن الزاج والمصيصة. ولكن المعارك كانت محتدمة على صفحات مجلة المشرق بقيادة الأب هنري لامنس وفي كتابات اللبنانيين من رجال دين وعلمانيين في بيروت أكثر مما كانت عند سفوح جبل اللكام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً. ولا تزال هذه المعارك على أشدها دون أن تترك للعقل والمنطق دوراً في تقرير مصيرها.

وإذا عدنا إلى تيوفانوس نجد صورة مبسطة لهذه المسألة. فالمردائيتي عندما دخلوا لبنان سنة ٦٦٩ (٦٧٧)... وقد انضم اليهم الكثير من العبيد والأسرى من الوطنيين حتى صاروا ألوفاً... ولما تناهى الخبر إلى معاوية اعتراه الخوف والهلع وطلب الصلح من الامبراطور قسطنطين الرابع الذي نجح في إعادة الهدوء إلى جبهة الحدود مع الدولة الأموية لقاء إتاوة معينة. كما يتوقف عند هذا الموضوع في عهدي يوستنيانوس وعبد الملك، فيذكر أن الإمبراطور البيزنطي ذهب بعيداً في تنازله، فهدم بإعادة المردائيتي "الجدار النحاسي" الذي يحمي المسيحية من الخطر الاسلامي. ويبدو أن المؤرخ البيزنطي في إعطائه هذه الأهمية للمردة ودورهم، إنما كان يهدف إلى النيل من موقع الامبراطور الذي كان انطوى على علاقة سيئة برجال الدين، لا سيّما بعد هدمه كنيسة القسطنطينية وطلبه من البطريرك أن يصلي عليها ويبارك عمله قبل أن يسمل عينيه. وذهب هذا المؤرخ، وهو كاهن، إلى أبعد من ذلك حين تنبأ بسقوط القسطنطينية بعد هدم "الجدار" لإثارة مشاعر البيزنطيين ضد الامبراطور، ولكن العاصمة صمدت قروناً عديدة، وأخفقت حملة المؤرخ التي اتكأت على المردة لأمور تعنيه، فيما نجح لوقت ما مؤرخون من الموارنة في استغلال موضوع المردة بما يخدم مفاهيمهم السياسية والمذهبية.

محمد نورالدين : كيف تناول المؤرخون العرب هذه المسألة؟

منير إسماعيل : ثمة حقيقة، في الواقع، أن ضعف التبادل المعرفي بين العرب المسلمين وجيرانهم، أسهم في تشويش موضوع المردة وإبهامه. ولعل البلاذري كان الأكثر اهتماماً بين المؤرخين العرب بهذا الموضوع، بما يتحلى به من جدية في محاولته لتقصي أخبار "المردة" من مصادرها القريبة، معتمداً على من سماهم شيوخ إنطاكية الذين وصلت إليهم بالتواتر، مقاربة، بحدود ما، لما ذكره تيوفانوس عن المردائيتي، فوصفهم "بخيل الروم" بمعنى الفرقة العسكرية في لغة العرب أي تحديداً الفرسان كما جاء في اللسان لابن

منظور. ولم يرَ البلاذري ما يدفعه إلى التقصي أكثر من ذلك، فاكتفى بهذه العبارة التي جاءت واضحة عند تيوفانوس، ولا غرابة في ذلك في فهم بيزنطيون مثله. ويضيف البلاذري دون أن يبتعد عما جاء به تيوفانوس، الذي ربما تعرف بروايته من طريق مشايخ أهل إنطاكية، فيذكر من "ضوى إليهم (المردة) من جراجمة وأنباط وعبيد أبّاق من عبيد المسلمين" فلا تعوزه هنا المعرفة التامة بهذه المجموعات النازلة بالشام واسمائها، وهو أمر لا يفترض أن يعرفه المؤرخ البيزنطي.

ولعل هذين النصين وما يتطابق فيهما بين ما ذكره تيوفانوس عن المردائيتي والبلاذري عن "خيل الروم"، هما أقدم ما وصل إلينا في هذا الموضوع. وإذ ترجم المؤرخون اليونان بدقة ما ذكره تيوفانوس، ولم يفهموا قصد البلاذري. أما السريان فاجتهدوا على طريقتهم.

ولعدة قرون كانت الأساطير لا تزال تغمر الحقيقة التاريخية، فها هو المؤرخ ابن عساكر يجعل "جماعة من الروم" يحتلون لبنان والجولان وجبل الثلج (جبل الشيخ)... ويهاجم دمشق لينادوا عبد الملك بن يخرج من قصره، فلا يجرؤ على ذلك... حتى يبعث إليهم بالأموال ليسكتوا عن ذلك. أما المؤرخ الأسقف أغابيوس المنبجي فيأتي بالخرانقة، وهم المردائيتي، كما ينقل عن تيوفانوس حرفياً، من البحر وينزلهم في صور وصيدا، ومن هناك يذهب بهم إلى الجبل الأسود، بعد إتمام عملية يعجز عن القيام بها الجيش البيزنطي بأكمله.

ويبقى أمر المعاهدات ما يسترعي انتباه الباحث في موضوع المردة. فالصلح الذي أشارت إليه المصادر الأموية والبيزنطية، لا يندرج بالضرورة في إطار المعاهدة التي يحيط بها الشكل انطلاقاً من عدة ملاحظات:

١ - إن تيوفانوس لا يذكر مثل هذه المعاهدات بنصها الحرفي، على الرغم من اعتماده على معلومات رسمية وضعت بتصرفه.

٢ - إن الأتاوة التي وردت في متفرقات النصوص العامة تفتقر إلى الدقة، وربما المنطق، ليس عند المؤرخ البيزنطي فحسب، بل عند شارحي حولياته أيضاً دون اتفاق بينهم على تحديد قيمتها.

٣ - استمرار الحرب بين أطراف الصلح وعلى عدة جهات، مما يتعارض مع أي معاهدة واضحة تشير إلى الأتاوة.

٤ - استبعاد ما يذكره تيوفانوس من أن "المعاهدة" نظمت على نسختين، واحدة لكل فريق. ذلك أن العرب في تقاليدهم لا يقرون مثل ذلك. ولم نر مثيلاً له في المصادر التاريخية العربية، فضلاً عن أن المصادر اليونانية لم تشر إلى هذا النمط من العلاقات في صفحاتها، مما يرجح إضافة هذا النص المتعلّق بالمعاهدات في وقت متأخر.

٥ - إن ما ذكره البلاذري، وما أخذه عنه بعض المؤرخين العرب، يحتاج بدوره إلى الدقة،

ويجعلنا نميل إلى الاعتقاد أنهم بالغوا في هذه المسألة إرضاء للسلطة في هذا الموقف التخاذلي أمام البيزنطيين، ولا سيّما أن كلاً من قسطنطين ويوستنيان كان في وضع أكثر سوءاً على الصعيد الداخلي من معاوية وعبد الملك. هذا إذا لم نتوقف عند الرهائن من الروم الذين دخلوا في شرط الخليفة الأموي، وهو ما يتناقض أساساً مع الصورة المرسومة عن ضعف الخليفة وقوة الامبراطور.

في ضوء هذه المعطيات، فإن المردة لم يشكلوا هجرة من الهجرات التي حلت في المنطقة واستوطنت لبنان على التحديد، بل اقتصر دورهم، باعتراف المصادر على مهمة محددة، قاموا بتنفيذها وعادوا أدراجهم إلى بلادهم، وذا كان بعضهم أرادوا في هذا الموضوع إسقاط حالة سياسية عليها، فإن المسوغات التاريخية تعوزهم في هذا المجال لأن ثمة تناقضاً واضحاً بين المردة والموارنة لن يستطيع أحد تجاهله بعد اليوم، فقد تم سحب المردة من المنطقة، وهو أمر مسلم به لدى تيوفانوس والمؤرخين العرب، فيما بقي بعض السكان الوطنيين إذا جاز التعبير، فيها سواء من السريان أو الأنباط أو الجراجمة... أما الموارنة سواء كانوا حينذاك في موطنهم القديم (وادي العاصي) أو في الجزء الشمالي من لبنان، فقد ظلوا حكماً في منأى عن هذه العملية العابرة وعن كل ما يزعم من تهجير من قبل البيزنطيين أو العرب المسلمين خارج المنطقة. لقد عاش الموارنة في مناطق من سورية، تمتد من قورش إلى آفاميا مروراً بإنطاكية، دون أن يكونوا وحدهم من سكانها. ولم يذكر في المصادر ما يشير إلى وضع قيود عليهم في الإقامة والتنقل من جانب الإدارة الأموية، التي كانت لها سلطتها المركزية القوية ورعايتها الخاصة للمسيحيين، الموارنة منهم واليعاقبة. وما قيل عن الهجرة عن الهجرة المارونية تحت تأثير ضغط ما، يخالف المعطيات التاريخية وواقع الدولة القوية المتسامحة. وعلى الرغم من ذلك، فقد زامن المؤرخون الموارنة هجرة طائفتهم إلى لبنان مع تحرك المردة باتجاه جبل لبنان، مختارين على الأرجح هذه المناسبة لأسباب سياسية تؤدي إلى الاندماج بين المجموعتين. كما أعطوا هذه الهجرة وجهاً مذهبياً (خلقيدونياً) ودموياً، يسوغها ما أعلنوه عن ذبح خمسمئة راهب بأيدي اليعاقبة أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة، فجاء هروب الموارنة إلى لبنان الشمالي شهادة على إيمانهم وتضحياتهم ورداً على الاتهامات التي طاولتهم مدة طويلة.

وفي الإمكان هنا طرح أكثر من تساؤل دون الدخول في الأمور اللاهوتية. هل كان ما حدث، أو ما زعم بحدوثه مقبولاً لدى الخليفة الأموي معاوية، وهو المعروف بشدته في مسألة الأمن والسلطة؟ وهل من معنى للهجرة في ذلك الوقت حيث لا حدود بين الأرض لتكتسب هذه الصفة؟ كما أن اليعاقبة أقوى شأناً في المكان الذي هاجر إليه الموارنة منهم في سورية (الاسم الحالي)، وإن لم يكونوا كذلك فأي صعوبة تحول بينهم وبين ملاحقة الموارنة في موطنهم الجديد، إذا أخذ بالزعم عن الاضطهاد اليعقوبي للموارنة؟

محمد نورالدين : هل تمت هجرة الموارنة إلى لبنان دفعة واحدة أم على دفعات؟

منير إسماعيل : يبدو لنا أن هجرة الموارنة تمت على دفعات، ولعل الهجرة الكبرى، إذا صح التعبير، تمت عند عودة البيزنطيين إلى إنطاكية في حدود العام الألف الميلادي، نتيجة للخلاف السياسي والمذهبي بين الطرفين، فيكون الهروب الأساسي من البيزنطيين، وليس من المسلمين أو اليعاقبة، حيث التحق الموارنة بإخوانٍ لهم سبقوهم إلى الجزء الشمالي من لبنان، ليظلوا تحت السلطة الاسلامية وقتاً طويلاً بعد ذلك...

أما هجرة الموارنة الثانية إلى المناطق الجنوبية من جبل لبنان (كسروان والمتن والشوف...) فقد بدأت بتشجيع من الأمير فخرالدين المعني الثاني (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥) حيث أراد الأمير المعني إقامة توازن مع الإقطاع الدرزي المتماسك. وهكذا ترك الموارنة المناطق الشمالية الغنية بطبيعتها والتي أمنت لهم حياة هادئة وهانئة ليعيشوا في ما بعد حالات من الاضطرابات والفتن الطائفية لم تهدأ فترة إلا لتعود مرة أخرى أشد وأدهى، كما سبق لنا أن ذكرنا ذلك في أكثر من موضع في هذا الحوار في ظل شعار: "عود على بدء" بإنتظار: الحل الصعب في البلد الصعب ❑

دراسات ومقالات

التبصُّر الخُلُقي كمكّون لميتا ـ ستراتيجيا المقاومة

محمود حيدر*

لو كان لنا من توصيف إجمالي لمعنى المواجهة بين العدو الإسرائيلي والمقاومة، لجاز القول إنّها في أحد تعبيراتها مواجهة تستعيد الأسس الأخلاقية لمفهوم الحرب. ففي الأعم الأغلب دلّ تاريخ الحروب، وحروب منطقتنا على وجه مخصوص على احتجاب هذه الأسس لدواعٍ شتّى.

ومن معاينة إجمالية لتجربتها، وجدنا أنّ المقاومة أفلحت في تظهير العامل الأخلاقي على غير مستوى: في المواجهات العسكرية والسياسية، وفي إدارة المجتمع الأهلي، وفي إعادة الاعتبار إليه كعامل مركزي في استراتيجيات الحرب.

حين يجري الكلام على مثل هذا التظهير، فذلك لا يعني أنّ الأخلاقية هي مجرد قيمة مضافة إلى الممارسة العامّة للفعل المقاوم. إنّها تدخل دخولاً بيّناً في أصل الفعل. أي بصفة كونها فعالية سارية في الطبقات الفكرية والمعرفية والعلمية المكوِّنة لمشروع المقاومة.

تدخل الأخلاقية، إذاً، كأصل تكويني للمقاومة. وعلى هذا النحو، هي حال معرفية تتجلى في السلوك، عبر سيْريّة تربوية عادة ما تترسخ من خلال اتحاد النظر والعمل. وهنا يصح القول: إن مثل هذا الاتحاد، لم يكن ليُحصّل في الواقع، لولا الحضور المبين للتبصر الخُلقي. إذ من هذا الحضور بالذات يمكن الكلام على أصالة الأخلاق وفاعليتها في إنتاج وتوليد التبصّر الخلقي. ولسوف نتبيّن مثل هذه السيْرية، متى اتضح لنا أن الأصالة الأخلاقية لدى المقاومة الإسلامية اللبنانية، هي من مقتضيات الحقيقة الدينية. وهي مقتضيات تحتل المقام الأول لمرجعية المقاومة. إذ من داخل هذه المرجعية بالذات، سوف تتشكل ثلاثة أحياز معرفية تؤلف عمارة وجودها:

- الحيّز الأول: المعرفة الإيمانية (التوحيد).
- الحيّز الثاني: المعرفة الدينية (الشريعة وفروعها).
- الحيّز الثالث: المعرفة السياسية، المؤيِّدة بالحيّزين المعرفيّين السابقين.

مع توفّر هذه الأحياز ضمن بنيان مرصوص، تغدو الحقيقة الدينية سارية في الزمان

(*) باحث في الفكر السياسي والفلسفي، رئيس تحرير "مدارات غربية".

والمكان، وتمسي أخلاقيّاتها راسخة في مجال الظهور والتمثّل. ففي الترسيخ الجامع بين الأحياز المعرفية الثلاثة لا يعود يكفي مجرد الاقتران بين النظر والعمل، بل ينبغي أن يبلغ العمل، درجة يصبح معها عامل إمداد وتفعيل للنظر. بل ويشكّل عامل تجديد، وإبداع للمفاهيم والأفكار والإستراتيجيات، مثلما يشكّل تسديداً للممارسة، بأسبابها، وآلياتها، وطرائقها المتعددة.

على هذه الأحياز ـ المتصلة برباط وثيق في ما بينها ـ يستوي البعد الأخلاقي للمقاومة. بما هو بعدٌ مُتَّخذٌ من القرآن الكريم بواقع اختزانه حقيقة الشريعة؛ وكذلك من الميراث اللاّمتناهي للحقيقة المحمدية الممتدة عبر الزمن؛ وتالياً من السيرة التاريخية للأنبياء والرسل، والأولياء، وأئمة أهل بيت الرسول وصحابته.

أمّا الحديث عن مذهب أخلاقي للمقاومة، فلزومُه رسم خريطة إجمالية لمجالات سلوك المقاومين في الحرب، والسياسة، والاجتماع الأهلي. فالأخلاقية ـ كما سنبيِّن ـ تبقى مجرد أحكام اعتبارية مخرّجة بكلمات صمّاء، ما لم تتحيّز في حقول الممارسة. وعند التحيّز لا يعود السؤال عن معنى الأخلاق منفصلاً عن مجال العمل. حيث يتحدد المعنى من خلال الطريقة، أو المذهب، اللذين يستعملانه في الواقع. ولنا هنا أن نلاحظ طائفة من المجالات، تظهر فيها أخلاقيات المقاومة كتجلٍ لتكامل النظر والعمل، ولاتحاد النظرية والممارسة، وللموازنة بين أضلاع القدرة والعقلانية، والبعد المعنوي والحضاري لمشروع المقاومة. غير أن هذه "الحزمة المعرفية" ستؤول في الطواف الأخير الى ما يمكن أن نسميه "ميتا ـ ستراتيجيا المقاومة"، حيث يندرج التبصّر الخُلقي كقيمة عليا ضمن مراتبها المتعددة.

وللتوضيح نذكر ملاحظتين تتصلان بالمفهوم وتسوِّغان له:

الأولى: إنّ حرب المقاومة على إسرائيل، وحرب إسرائيل على المقاومة، تفارقان من وجهٍ أساسي منطق الحروب المألوفة. ذلك لأنّهما تدخلان في منطقة احتدام ذات سمة فوق سياسية. وهو ما نعني به "الاحتدام الميتا ـ ستراتيجي" إذ عندما يُستعمل هذا المفهوم، أو ما يوازيه في علم الحروب والصراعات الكبرى، سوف يتبين لمن يأخذ به، مركزية الإيمان الديني، وحضور الاعتقادات الغيبية في الزمن السياسي. وهذا يعني أن نشوء المفهوم ما كان ليتحصّل خارج نطاق الحراك العام. وبالتالي فإنّ "الميتا ـ ستراتيجيا" هي وليد موضوعي واقعي، ينمو، ويتطور ، ويتكامل، ضمن سيْريّة الالتقاء الحميم بين الإيمان الديني، ومنظومة الأفكار، والخطط التي تعكس المصالح السيادية العليا للأمة. وعلى هذا النحو من الالتقاء بين الغيبي والسياسي تتأسس وظيفة الفكر في الحقل الميتا ستراتيجي.

وهكذا فإن وظيفة الفكر، كما يقال، تتضاعف عندما تبلغ الأوضاع حافة الهاوية بين السلام والحرب. وهذا ما يحصل في مشهدية الحرب بين الأطروحتين المعاصرتين إسرائيل والمقاومة. ولكن في النهاية فإن التمييز بين الوسائل الممنوعة والمقبولة في الحرب

يفترض حكمة متعالية. ذلك أن علم الأخلاق ـ كما يقول باسكال ـ يتغير تغيراً كبيراً وفق الإيمان بخلود الروح أو فنائها(١).

وهكذا تتمكن الميتا ـ ستراتيجيا من إنشاء منطقة معرفية يمتزج فيها النظر السياسي بالتجربة الإيمانية. كان الإستراتيجيون يقولون: إن أضمن شكل من أشكال العمل والحكمة التي يمكن إدراكُها وتصورُها، وأكثرها فاعلية للانتصار على المدى الطويل، هو عمل الرجل الذي يقول الحقيقة من دون لف أو دوران، أو قيود. وإن على القائد أن يكون استراتيجياً وفيلسوفاً في الوقت نفسه. ولكن عليه ألاّ يضحّي بالحقيقة على مذبح تسيير الأمور، ومن دون فائدة مجدية للمصلحة العامة. ذلك أن كل من اعتاد إخفاء الحقيقة بغية تسهيل العمل الفوري انتهى إلى فقدان قوة تفكيره وسلامته.

هنا يتمظهر التأسيس السياسي للميتا ـ ستراتيجيا على نحو ما لوحظت إرهاصاته في تجربة المقاومة الإسلامية في لبنان. ولعل ما هو ظاهر في الصورة الإجمالية، فإنّا نجده في الارتباط بين السياسة والشريعة. لكن شرط واجبية هذا الارتباط ألاّ يؤدي في مجال الممارسة إلى الوقوع في داء الماكيافيلية. بحيث لا تتحول الشريعة الى حقل طيّع للتوظيف السياسي. فالغاية وفق سيْريّة هذا الحقل المعرفي السياسي المتّحد بالغيب، لا تسوّغ الوسيلة، إذا كانت الوسيلة غير مطابقة لسموّ الغاية ومشروعيتها.

الثانية: وتتعلق بالتعرُّف على الشطر الثاني من المفهوم الذي نحن في صدد تأصيله. أي التبصّر. فما الذي نقصد به؟

هو اللحظة التي يتوقد فيها الفكر، ويشع فيها القلب، ويحتدم فيها العمل. حتى ليصبح الفكر والقلب والعمل أمراً واحداً فاعلاً في اللحظة نفسها. عنينا اللحظة التي تستولد المعاني، الأفكار والمفاهيم الخاصة بالحقل مجال الممارسة.

والمتبصّر هو الرائي في فضاء مكتظ بالضباب. بحيث يكتسب المتبصّر إبصاره في صورة جلية وسط غبار المعارك، وأدخنة النار، وسوء الانقشاع.

على هذا المنبسط المعرفي ينعقد التبصّر ضمن سيرية عقلية تسلك خطوط التدبير المُحكم للشأن الذي تتعامل معه أو تنتجه. وعندما يكون التبصّر مربوطاً بالأخلاق، أو ناجماً عنها، فإنه سوف يترقّى ويسمو ويغدو أشد أثراً في ميادين النشاط الإنساني. وعندئذٍ يكون التبصّر الخلقي قد بلغ المقام الذي يصبح فيه حاوياً لجدلية تتكامل وتتبادل في داخلها العقلانية والأخلاقية بلا تفاوت ولا انفصال.

أما التأسيسات المكوّنة لميتا ـ ستراتيجيا التبصُّر الخُلُقي، فسنعرضها ضمن طائفة من المجالات بادئين بما انتهينا به:

مجال ملازمة الوسيلة الفاضلة للغاية الفاضلة:

الصورة هنا مركّبة، سواء في السياسة أم في الحرب. فالمقدمات الفاضلة ينبغي أن تفضي

(١) جون غيتون، **الفكر والحرب**، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٨)، ص ١١.

إلى نتائج فاضلة، خصوصاً إذا أُخذت الأسباب المشروعة، لبلوغ الأهداف المشروعة. ولقد كانت الصدقية من سمات عمل المقاومة السياسي، حيث نأت من ملابسات النزاع الداخلي، على امتداد أعوام الحقبة الأولى من حرب التحرير (١٩٨٥-٢٠٠٠). ثم سعت إلى استئناف سلوك كهذا، رغم التحولات التي طرأت على التقليد السياسي اللبناني، وقوانين تقاسم السلطة بين الطوائف. ولسوف تتعاظم أهميّة هذا المسلك في صورة أكثر فعالية في مجتمع محكوم بوضعية غير عادية، كالمجتمع السياسي في لبنان.

ولعل الطريقة التي حكمت تجربة المقاومة عند انخراط حزبها في الحياة السياسية اللبنانية، شكّلت برغم التعقيدات الجمّة التي واجهتها تحالفاته وخصوماته، لوناً جديداً حلّ على التقليد السياسي اللبناني. تجلت سيْريّات هذه الطريقة أساساً في الانصراف التام إلى ممارسة حرب التحرير، وفي العلاقة مع المحيط الجماهيري الذي تعمل المقاومة فيه، وفي التعامل مع الإنجازات التحريرية التي توّجت بانتصار ربيع العام ٢٠٠٠، وكذلك في رؤية الخصوم الداخليين بوصفهم شركاء في المواطنية الواحدة، أنّى بلغت درجات الخصومة السياسية معهم. ويمكن أن نسجّل في هذا المجال الإشارتين الآتيتين:

الأولى: في المدى القريب: حين تبصّرت قيادة المقاومة حساسية البيئة الداخلية اللبنانية بعد حرب (تموز-آب) ٢٠٠٦، فقد كان عليها أن تواجه الانتقال الصعب بين عالمين متناقضين: عالم المقاومة ضد عدو تاريخي آلت استراتيجياته الحربية الى الإخفاق، وعالم الصراع الداخلي مع خصوم سياسيين بلغ الأمر بأكثرهم حدّ المشاركة في حملة سياسية إقليمية ودولية ضد المقاومة، وسلاحها. حتى لقد ظهر بوضوح أنّ الحملة السياسية المشار إليها هي استئناف للحملة العسكرية بوسائل شتّى.

ومنذ اللحظة التي اضطُرت فيها المقاومة إلى الدخول في عالم الصراع الداخلي، راحت تتصرف على قاعدة انّ هذا الدخول هو أشبه بممر إجباري لا مناص من عبوره لإحراز ثلاثة أهداف مباشرة:

- صوناً للمقاومة من خطر التصفية السياسية.
- ومنعاً لمصادرة معنى الانتصار.
- وحفظاً للسلم الأهلي، والوحدة الوطنية من التداعي والانهيار.

الثانية: وتعود إلى ربيع العام ٢٠٠٠: فلقد كان أمراً استثنائياً في أخلاقيات الحروب، أن تتعامل المقاومة المنتصرة بكثير من التسامح، مع قرى وبلدات ومدن في جنوب لبنان استُخدمت من جانب جيش الاحتلال وأعوانه في ما يسمى "جيش لبنان الجنوبي"، كقلاع محصّنة للعدوان على المقاومة، وجماهيرها. ولو لم تكن البنية الأخلاقية للمقاومة على قدر من السعة، والرحمانية، والترسُّخ، والتقيّد الصارم بالتوجيهات القيادية، لحصلت مجازر اشدّ فظاعة مما كان يحصل في خلال الحرب الأهلية.

لاحقاً سوف تستتبع هذه القواعد الأخلاقية، ما يوازيها ويناسبها من السلوك السياسي.
وسنجد في خطب ورسائل قائد المقاومة من التوجيهات في خلال حرب صيف ٢٠٠٦، ما يشكل على هذا المستوى خطوطاً تسدّد التبصُّر الخُلُقي، ومنها:

- اجتناب خوض النزاع السياسي والإعلامي مع أي فريق أو حزب أو تيار لبناني. على النحو الذي قد يؤدي الى فوضى أمنية وظهور الانقسام الوطني.
- اجتناب الرد بالمثل على أي حادثة في الشارع يمكن أن تشق الطريق نحو تصدُّع السلم الأهلي، أو ايقاد النزاع المذهبي (كمثل اغتيال الشاب أحمد محمود).
- إبقاء النزاع الداخلي ضمن ميادين الصراع السياسي السلمي، على الرغم من نزوع كثيرين من خصوم الداخل إلى جعل المقاومة وحزبها وحلفائها خصماً صريحاً. حتى لدى أقسى لحظات الحرب التدميرية عليها.

٢ ـ مجال البصيرة الخلقية:

حين نزعت المقاومة من نظرية الممارسة السياسية الكلاسيكية مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة"، كانت تدرك أن مبدأ كهذا، يمكن أن يأتيها بمنافع مباشرة، ويؤمِّن لها مصالح قد تكون مهمة في معايير اللعبة السياسية اللبنانية. لكن الالتزام بمبدأ الوسيلة الفاضلة للغاية الفاضلة كمبدأ أخلاقي، سيكون له مؤثراته الإيجابية الكبرى على تسديد الإدراك السياسي، وتثبيت أولوية التحرير كإستراتيجية عليا. لقد كان من شأن نهج كهذا أن يُفضي إلى تأليف إجماع لبناني حول المقاومة. وهو نهج كان له الفعل التوليدي لمجتمع أهلي ومدني، وسياسي مؤيِّد للمقاومة، ومتعاطف معها، وإن بنسبٍ ودرجات تتفاوت بين فئة سياسية وأخرى، أو بين طائفة وأخرى.

ولأن البصيرة الخُلُقية استئنافٌ، وتواصلٌ، وتكاملٌ مع قبلها، فهي كذلك وبالمقدار نفسه، تأسيسٌ وتوليدٌ لما بعدها. تنمو هذه السَّيْريَّة ضمن مسار منطقي يتعقّل الظواهر والأحداث، ويرى الأشياء كما هي موجودة، ثم ليجد لها محلها المناسب في الواقع.

لنا هنا أيضاً أن نقف قليلاً على مزايا ومناشئ التبصُّر الخُلُقي:

أولاً: تبيِّن الفلسفة الأخلاقية بأطوارها وميادينها واتجاهاتها المختلفة، أنّ إحراز مَلَكة البصيرة الخُلقية، ونقلها إلى حيّز الممارسة وحقول التجربة، إنّما يدل على أن الجهة التي أحرزت هذا المقام، بلغت درجة وازنة من التحكّم بأمر نفسها، وبأمر غيرها بينما هي تمضي في إدارة حركة المواجهة.

ثانياً: إن عملية التبصُّر أينما وكيفما تأتي، فهي تتمثّل في إدراك الطبيعة الباطنية الحقّة لإرادات متعارضة معينة. ولذا فإنّ البصيرة الخُلقية المطلقة التي نستطيع أن ندركها، ولكن لا نستطيع الحصول عليها كاملة، سوف تدرك الطبيعة الداخلية الحقّة لكل الإرادات المتصارعة. ذلك يعني أن معرفة الآخر ضرورية؛ للاعتراف به كموجود سياسي، وهي

واجبة على نحو يكون التعامل مع هذا الآخر، بوصفه شريكاً في الوطن مهما بلغت خصومته لي أو خصومتي له.

ثالثاً: تتضمن البصيرة الخُلقية -بطبيعتها، وعند الذين يحصِّلونها - الرغبة في تحقيق الانسجام، قدر الإمكان، بين الإرادات المتعارضة في ميادين التفاعل، ولا سيما تلك التي يتم إدراكها في لحظة التبصّر.

رابعاً: إذا كانت البصيرة الخُلُقية تهتم مباشرة بإرادتين متعارضتين، مثل إرادتي وإرادة شريكي في المواطنة، فإنّ هذه البصيرة تتضمن الرغبة في الفعل، كما لو كنت أنا وشريكي في المواطنة كائناً واحداً، بحيث يشتمل هذا الكائن الجديد على رغباتنا معاً.

خامساً: إذا كانت البصيرة الخُلقية تعمل ضمن غايات عامة متصارعة، كما هي حال لبنان، فستبدو الصورة حينئذ، كما لو كان الفرد الذي يدرك هذه الرغبات المتعارضة، يحوي حياة كل هذه الرغبات ضمن وجوده الخاص. ومتى أتقن الفاعل روح التبصّر، فإنه يضع في اعتباره كل نتائج الفعل، وأثره على كل الغايات التي قد تتأثر به.

سادساً: ما دامت البصيرة الخُلُقية المؤيِّدة بالتوحيد، تتصرف على أساس أنّ الآخر هو شريك في الفعل الإجمالي للأمة، فمن البديهي أن يصبح هذا الآخر، بما هو آخر إيجابي، أحد مقومات معرفة الذات. بل وأحد الأعمدة الأساسية لأفعال الأنا في المحيط الذي تتحرك فيه. وعلى مبدأ "لا ينبغي أن يكون الآخر إلا على نصاب ما أنت فيه" يمكن أن تولد ممارسة سياسية من نوع جديد. عنينا بها، الممارسة التي تتعارض فيها البصيرة الخُلُقية مع كل صور الدوغمائية، المبنية على غاية أخلاقية أحادية، ولا تستطيع أن تمنح سواها من الغايات، مساحة من القبول والإصغاء.

سابعاً: بمقتضى البصيرة، الخلقية المسددة، بالحقيقة الدينية، تغادر "الأنا" أنانيتها الصمّاء، وهي إذ تفعل ذلك فمن أجل أن تصل الغير وَصْلَ الوحدة الإنسانية المشتركة. ثمّ ليحملها الإيثار والغيرية على التضحية من أجل تلك الوحدة. حيث الاستشهاد في هذه الحالة يجسد أعلى درجات القبول والتواصل مع الآخر، وبالتالي أرقى مراتب التمثيل الأخلاقي في العلاقة مع الغير.

ثامناً: إن مجال التبصّر لا ينشأ إلاّ على أرض المقاومة؛ بما هي أرض لا تحدّها مضائق الإيديولوجيا الصارمة، ولا تحبسها عن التواصل فكرة حزبية مغلقة. ذلك أن من طبيعة هذا المتسع الإنساني أن تغادر حسابات المصالح الآنية قلاعها المغلقة، وتتحول تلك الأرض إلى حقل خصيب للنمو، والاختلاف، والتعددية الخلاّقة.

٣ - مجال الصبر السياسي:

في السياسة كما في الحرب الأخيرة، ظَهَّرت المقاومة نهج التبصُّر على قاعدة اعتبار البصيرة الخُلقية مقوِّماً لاستراتيجيتها العليا. ولقد بدا بوضوح أنّ القدرة على التحكم

بالمسارات الميدانية للمواجهة، تلازمت مع القدرة على استقراء الخطوط الأساسية للزمن الذي سيلي نار الحرب.

إن حضور البصيرة الخُلقية في مستويات التكتيك والاستراتيجيا، مكّن المقاومة من مواءمة الوسائل مع الغايات، من دون أن يحصل خللٌ وسط الزحام الهائل للحرب.

الأهم في استراتيجية الصبر السياسي أن المقاومة استطاعت الإمساك بعامل الزمن. وهذا عائد أساساً إلى استيحاء المقتضى الأخلاقي للحقيقة الدينية. وهو مقتضى يقوم على مبدأ الصبر، في كل أحوال وتداعيات الممارسة الحربية والسياسية. فحين أخذت المقاومة بمبدأ الصبر، أمكنها ـ من وجه ـ ألاّ تستغرق بلذّة الانتصار الذي قد يوصل غالباً إلى حد نسيان الذات أو نسيان العدو. مثلما أمكنها من وجه ثانٍ أن تتهيأ لاحتمال الهزيمة، بما هو احتمال واقعي وممكن، في مجال صراع الإرادات.

كان للمقاومة في القاعدة الخُلقية التي أرساها كلام الإمام علي (عليه السلام) في الصبر، ما يجعل منها طريقاً يؤخذ به لصوغ منهج متكامل، في التعاطي مع تقلبات الزمن السياسي، والاجتماعي: "الصبر صبران: صبرٌ على ما تكره وصبرٌ عما تحب"(٢). ولا شك في أنّ استنتاج المنهج من كلام الإمام، يفضي إلى ما نسميه بـ"منطقة الاعتدال"، وهي المنطقة المعرفية، والسلوكية، التي يسيطر فيها ساكنُها على الزمان والمكان، والتي يتمكن فيها كذلك من إضفاء توازن دقيق على أفعاله أو انفعالاته ضمن جدلية الكراهية والحب والغضب.

التجربة الأخيرة للمقاومة أظهرت بالنظر والمعاينة، درجة عالية للتحكم باللحظة. فقد خاضت حرباً تتحرك فيها احتمالات الخسارة والربح بصورة متوازية. وضمن هذا الحيِّز يمكن ملاحظة ما يأتي:

لم تشهد حرب التحرير أن تعاملت قيادة المقاومة مع اللحظة على خط الانفعال أو ردّ الفعل. كان كل شيء في الأداء العسكري يجري وفق حسابات بالغة الدقة. لم تصوّب الصواريخ نحو التجمعات المدنية، في مقابل التدمير المنهجي والعشوائي للمدنيين الآمنين. ومثلما كان الأداء العسكري محكماً ودقيقاً ومحسوباً، كذلك كانت صورة الأداء السياسي. فخطاب المقاومة عبر إطلالات قائدها بين حين وآخر، شكّل فعلاً استثنائياً، موازياً للفعل الاستثنائي في ميادين الصمود والمواجهة. ولقد شكّل خطاب السيد حسن نصر الله الموجَّه إلى المجاهدين والأنصار، وبالتالي إلى اللبنانيين جميعاً، وكذلك إلى العرب والمسلمين والعالم، لحظة أخلاقية بامتياز: فهو خطاب يمكن قراءته من جهتين كانتا تصغيان إليه بشغف نادر:

ـ جهة " الأنا الجماعية": التي تماهت مع الكلمات المرسلة إلى درجة أنها كانت تستمع لتطمئن، وتصغي الى دلالاتها اللفظية والمعنوية لتزداد يقيناً بصدقية " الوعد الصادق".

(٢) الريشهري، محمدي، ميزان الحكمة. (بيروت، الدار الإسلامية،١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ط١، ج٥)، ص٢٦٧، استناداً إلى ما ورد عن الإمام علي(ع) في الصبر، في "نهج البلاغة".

ـ وجهة "الآخر الجماعية": التي على اختلاف مراتبها وتصنيفاتها (العدو المباشر ـ الخصم السياسي الداخلي ـ المحايدون) كانت تتلقى الخطاب باستعداد مسبق. وكان يحملها إلى ذلك همّان: الصدقية الأخلاقية لمرسل الخطاب، والشعور بأهمية المعلومات التي سيدلي بها، وبآثارها المفصلية على سياق المواجهات. ولنا هنا أن نذكر الحادثة الآتية:

لا تزال صورة تلك المرأة (المستوطِنة اليهودية) الجالسة على عتبة دارها في كريات شمونة حاضرة، بعد نشرها على الصفحة الأولى لصحيفة "يديعوت أحرونوت" بعيد حرب عناقيد الغضب، تقول: أنا أصدق "السيد" نصر الله أكثر من الحكومة الإسرائيلية ... أجابت بذلك بعدما سألها المراسل عما إذا كانت ستلتزم النزول إلى الملجأ بعد إعلان الجيش حالة طوارئ. ولكن المستوطنة أصرت على البقاء حتى يطلب السيد من المستوطنين النزول[٣].

يشكّل جواب "المستوطِنة اليهودية" ـ وإصرارها ـ تجسيداً للصورة التي راح يمثلها "الجمهور الإسرائيلي" عن شخصية الأمين العام لحزب الله. وهي صورة تراكمت جزئياتها ـ حتى التفصيلية منها ـ بفعل عوامل كثيرة تراكمت عناصرها خلال المواجهة الطويلة التي قادها "السيد نصر الله" ضد العدو الإسرائيلي[٤].

خيوط "المشكلات الأمنية والسياسية" كلها ـ كما يراها الكاتب الإسرائيلي يورام يومي ـ هي بيد "السيد نصر الله"، بل وحتى الوصول إلى "حلول" ممكنة لتلك المشكلات، مرهون بـ "كلمة فصل "يطلقها السيد نصر الله"، وخصوصاً أنّ كلامه ـ وفقاً لما هو مركز في العقل الإسرائيلي ـ ليس كلاماً عادياً، فـ "كلماته ـ حسب يورام يومي ـ تسبب القشعريرة (لدى الجمهور الإسرائيلي) في ضوء سجل مسار حزب الله"[٥].

الصورة نفسها سوف تستعاد في حرب "الوعد الصادق" ، لكن على نحو أشد وقعاً، وأعمق من ذي قبل.

٤ ـ مجال المقاومة بوصفها منطقة حوار أخلاقي:

إنّ ما يجعل ميتا ـ ستراتيجيا المقاومة حاوية على مبدأ التعدد وساعية إليه، يعود إلى أن من طبيعة تكوينها التركيب، والتأليف، والمصالحة بين الأنا والغير. ولئن كان الحيز العسكري التنفيذي قد انعقدت رايته حصراً للمقاومة الإسلامية اللبنانية خلال الطور الأطول والأكثر احتداماً من حرب التحرير، فلم يكن ذلك ليعني نفي التعدد أو إقصاءه. فالمقاومة بصفة كونها أطروحة تحريرية شاملة، فإنّها بهذه الصفة سوف يتيسُر لها، ولو من وجهة موضوعية، أن تتحرك وسط مساحة ذات مراتب سياسية، ومدنية، وثقافية، وجماهيرية متعددة. وبالتالي فكل من هذه المراتب شكلت نظائر لحرب التحرير. وذلك ضمن سَيْرِيّة متكاملة أخلت مساحات مشاركة لا حصر لها، لقوى وفعاليات المجتمع اللبناني متنوع الطوائف والمذاهب، والأيديولوجيات، والتيارات الفكرية والثقافية.

(٣) عوفر شليح، لغز (السيد) نصر الله، يديعوت احرونوت، ٢٠٠٠/٦/٨.

(٤) حسين سلامة، حزب الله، العقل الإسرائيلي، (مركز الاستشارات والبحوث، ط١، ٢٠٠٦)، ص ١١٦.

(٥) يورام يومي، محاولة السير على طريق جيد، حصة حزب الله في الحرب الحالية، يديعوت احرونوت، ٢٠٠٠/٦/١٥.

إنّ التبصُّر الخُلُقي المستفاد من الحقيقة الدينية، سوف يعزّز ميتا ـ ستراتيجية المقاومة المؤسّسة على التعدد، والتنوع، والجمع. ففي التبصّر يغدو الحرص على حضور الآخر المختلف ضمن مساحة الشراكة، مسألة تتعدى القانون الذي ينظم المواطنية، إلى كونه مسؤولية يفترضها الالتزام بالوحي الإلهي. لكن مع هذا التحويل الذي يقيمه التبصُّر الخُلُقي في مجالات التعدد، والتنوع، والجمع، لا يبقى الآخر مجرد كائن غريب تفترض شروط الزمان والمكان التعامل معه، بل يصبح مشروع كمال للذات. وهنا لا نعود نتحدث عن "آخر" ننظر إليه وينظر إلينا بريبة وحذر. بل عن الغير الذي ليس في الحقيقة إلا ما أنا فيه، وبه، وعليه من أحوال. فالغيرية هي على الأكيد ناتج "الدفع بالتي هي أحسن" وهي تالياً ذلك التقريب الخلاّق للآخر، الذي قد يتحوّل بعد قليل إلى وليٍ حميمٍ للمقرِّب. ذلك أنّ الإنسان عندما يدافع عن حقوقه الوطنية والاجتماعية، وعن كرامته وهويته، فإنّه في حقيقة أمره يدافع أولاً وآخراً عن حقوق الغير. فالغيرية بهذا المعنى هي شرط تحقق إنسانية الإنسان. وهي لا تجد تحقّقاتها إلاّ حين يبلغ الإنسان ذروة العقلانية المؤيدّة بالأخلاق، والمشبعة بها. سوف يكتب كانط في "أسس ميتا فيزيقا الأخلاق": "إنّ الكائنات العاقلة تسمى أشخاصاً لأنّ طبيعتها تقودها وتوجهها بصفتها غايات في ذاتها، أي باعتبارها شيئاً لا يمكن استخدامه كمجرد وسيلة فحسب، وبالتالي شيئاً يمثل حداً يقف في مواجهة كل ما يحلو لي من تصرفات ويكون موضع احترامي". كذلك فيلسوف الأخلاق إيمانويل ليفيناس (١٩٠٥-١٩٥٥) سوف يؤكد في "الوعي الأخلاقي" ما يقوله كانط في "الجميل". أي إنّ "الوعي الأخلاقي" هو تجربة بلا مفهوم. فالعلاقة التي تقوم بين اثنين بين "أنا" و"أنت"، هي الانفتاح أمام بُعد يوصلني إلى أعلى"، إلى الدين نفسه. ذلك أن "الآخرالأكبر" يحضر هنا بصفتة "الآخر" الذي تقوم علاقة بيني وبينه، وهو يفصح لي عن "وجه" ويفتح بعداً يوصلني إلى الأعلى. أي أنّ وجوده يتخطى بلا حدود مقاييس معرفتي. الأمر الذي يعني أنّ الآخر يعرض نفسه، وقد تخلص من الرغبة في القتل وإنكاره له عن طريق لغة اولّية أصلية تتحدث بها عيناه الهادئتان. ليس معنى هذا ـ كما يلاحظ ليفيناس ـ أنّ الآخرين يكونون تجسيداً لله، بل معناه أنهم تجليات له فحسب. تجليات يظهر فيها ذلك البعد الذي يوصلني إلى أعلى حيثُ يكتشف الله[6].

ولما كانت المقاومة منطقة تحاور، وبالتالي سَيْرِيَّة انتقال عبر التحاور من "الآخريّة" إلى "الغيريّة" فإنّها بتلك المزيّة تعد منطقة تخلُّق بامتياز. ولسوف يتمثّل لنا طور تالٍ أكثر سمواً، عندما تكون منطقتا التحاور والتخلّق متأتيتين من الوحي. وبالتالي من مصدرية الحقيقة الدينية. حيث تستمد الممارسة الأخلاقية أسسها ومعطياتها من خزائن مكارم الأخلاق وحقائقها، وكذلك من جملة المفاهيم القرآنية الأخلاقية المتمثلة بـ "الموعظة الحسنة" و"الدفع بالتي هي أحسن " و"المجادلة بالتي هي أحسن" الخ... .

(٦) جان لاكروا، اللامتناهي والحار في فلسفة ليفيناس، (القاهرة، ترجمة يحيى هويدي، راجع "أوراق فلسفية" العدد١٣، ٢٠٠٤).

وتظهر أخلاقيات الحوار القرآنية في مقام التوصية بوجوب الأخذ بأدب الإصغاء، والاستماع، واجتناب العبارات المؤذية لمشاعر الفريق المقابل، واعتماد الصبر، وكظم الغيظ، وقبول النقد مهما كان قاسياً، ووأد الفتنة وإن كان ذلك على حساب الكثير من المصالح السياسية الآنية.

٥ ـ مجال القبض على الزمن والتحكم به:

تُفضي مقولة الصبر في حقل الممارسة إلى نشوء منطقة اعتدال. ففي هذه المنطقة بالذات سوف تحرز المقاومة السيطرة على إحدى أهم استراتيجيات الحرب (الزمن) وأعقدها. فبملاحظة السيل الهائل من التقويمات النقدية لجنرالات العدو ومفكريه وقادته، خلال الحرب وبعدها، يبرز لديهم معنى ودلالة، ومرارة، انفلات عنصر المبادرة. فكانت الحرب، بحسب الرؤية الإسرائيلية، حرباً من أجل استعادة معنى الزمن، أي إعادة ضبط الزمن السياسي والأمني والسيكولوجي على إيقاع روح الغلبة الإسرائيلية.

ولم يكن كلام شمعون بيريز في الساعات الأولى لحرب تموز/يوليو ٢٠٠٦: "إسرائيل تخوض حرب حياة أو موت" سوى ترجمة "أخلاقية" للخوف من فقدان الزمن. لقد كان هذا الإحساس يعكس مستهل الجدل بين الزعامات الإسرائيلية، حول التصدع الذي أصاب منظومة القيم التي تأسست عليها الدولة اليهودية على أرض فلسطين.

ثمة دلالة أعمق، في كلمات بيريز: فلو قالها غيره من الزعامات الجديدة، لأخذنا الظن ربما بأن القائل مأخوذ برهبة المشهد. لكن بيريز هو آخر من تبقى من عجائز اللاهوت الإسرائيلي المعاصر، فكأنما أراد بهذا أن ينبّه إلى خَطْبٍ جللٍ، لا مناص واقع. بل كأنّه أدرك ما لا يدركه سواه، أنّ حربه هذه المرة لا تشبه سابقاتها في شيء، وأن من يحاربهم ليسوا كالذين مرّوا وأخذهم العدو في ضعفهم.

سوى أن قائداً " تاريخياً " مثل بيريز يأتي هذه المرة وفي هذه اللحظات الوجودية بالذات، ليستظهر الروح الإسرائيلية على أرض مواجهات كثّفها الزمن إلى حدٍّ أنّ التاريخ فيها في لحظة حياة أو موت. لقد ذهب بيريز من فوره إلى المعنى. سمع، وشاهد، وتكلم، لكنه كان يتأمل كيف تذوي الروح اليهودية الاستيطانية، بعدما حلّ الجنود في حقول المفاجآت. فإنّه ما كان سعيداً قط وهو يسمع كلاماً لضابطٍ كبير في سلاح المدرعات وهو يقول: "كيف لنا أن نقاتل عدواً لا نراه...".

ربما كان صعباً عليه وهو على حافّة القبر أن يقع تحت هذه الوطأة. لا سيما أنّه من جيل الأوائل الذين صاغوا معظم الكلمات الأولى للاهوت "الاقتدار" و"أخلاقياته". لقد كشفت سَيْريّةُ فعل المقاومة عن اختراق واضح لجدار الزمن الإسرائيلي السميك. وهي سيْريّةٌ ينظر إليها العقل الإسرائيلي كقضية ميتافيزيقية. في حين ان الأمر هنا لا يتعلق بالجغرافيا فحسب، بل أساساً بالمعنى. أي، معنى أن يستباح "اللاهوت السياسي

الإسرائيلي" في منطقة المقدّس الذي يمكث فيه منذ زمن بعيد.

٦ ـ مجال الإعارة الإلهية والنصر الإلهي:

أعِرِ الله جُمجُمَتك...

تِدْ في الأرض قَدَمك...

وانظر إلى أقصى القوم...

واعلم أنّ النصر من عند الله(٧)...

بهذه العبارات المأثورة عن الإمام علي (ع) سوف يُستهلّ أول خطاب متلفز يلقيه قائد المقاومة ، في الساعات الأولى من حرب تموز/يوليو. لقد رمى من هذه الاستعادة وَصْلَ كل مسعى في احتدامات الحرب والسياسة، بالفضاء المتسع للحقيقة الدينية. إذ بهذا الوصل ستوضع المواجهة بمراتبها، ومعارفها، وقواها المادية، والمعنوية، وفي غضون الحقل الإلهي.

في هذا الحقل لا يعود شيء من التفكير، والتدبير، والأخذ بالأسباب، بخارج عن سَرْيّات القضاء والقدر الإلهيين. وفي الحقل إيّاه، يصبح الإيمان، والفكر، والممارسة، والقضية المسلوك نحوها، والغاية منها، معارج مترابطة ارتباط الواحد مع نفسه، ثم ليتشكّل بها، ومن خلالها ما وصفناه بـ "ميتا ـ ستراتيجية" المقاومة. ومهما يكن من أمر، فلو اتخذنا من العبارات المأثورة أعلاه مثلاً، لوجدنا تأسيساً بالغاً لتلك الميتا ـ ستراتيجيا. حيث سيكون لنا أن نرى الى أعمدتها البيانية على الوجه التالي:

اولاً: التوكل: عبر إحالة الفكر، والنفس، والعقل، والقلب إلى الله . وعلى الجملة وضع القول والعمل في حضرة الله.

ثانياً: الأخذ بالأسباب: عبر توفير عوامل القدرة، في العتاد والرجال، وقوى الدعم، ووضع الخطط الكفيلة باحتواء هجومات العدو، والالتفاف على قواه. وصولاً الى اليقين بأن ما توفر من أسباب القوّة، كفيل بإحراز مقومات النصر والغلبة.

ثالثاً: تعيين الخطة الشاملة: عبر معرفة سلسلة الاحتمالات والخيارات العسكرية والسياسية التي يمكن ان يلجأ العدو إليها. ومن خلال رصد المؤثرات الجيو- استراتيجية المحلية والإقليمية والدولية التي يحتمل حصولها بعد نهاية الأعمال الحربية. ولئن كانت الإستراتيجية تستلزم فنّ الخداع وبذلك تتعارض مع الأخلاق - كما يبيّن مفكر الحرب ليدل هارت(٨) ـ فإن الإستراتيجية العليا، التي تستشعر الآماد البعيدة، وتنظر إلى أقصى القوم، تنسجم مع الأخلاق، لأنّها تتدخل كمبدأ توجيهي يحافظ به الإستراتيجي على الهدف الأصلي للجهود التي بذلها.

رابعاً:الرجوع الى الله: بعد قطع الأطوار الأربعة سوف يتوافر الإيقان الثابت، بأن عليك أن تعلم أن النصر هو من عند الله . فالعلم في هذه الحال لا يُحصَّل بالاكتساب والتلقين، بل

(٧) بحار الانوار، ج٣٢، ص ١٩٥.

(٨) ليدل هارت، الإستراتيجية وتاريخها في العالم، (بيروت، ترجمة الهيثم الأيوبي، دار الطليعة، ١٩٦٧)، ص ٢٩٩.

بالاستبصار الخُلُقي، واللَّمح الداخلي، والمعرفة الإيمانية الخالصة. وعلى هذا النحو يصبح العلم بالنصر أمراً ذاتياً يحصِّله القلب المتصل بعروة وثقى بمقام التوحيد. وبذلك يتحقق سفر المجاهدين بين المبدأ والمعاد في كل مهمة يؤدونها سواء تناهت في الصغر أم لم تَتَنَاهَ في الكِبَر.

إنّ منشأ الاستبصار الأخلاقي في هذه الأطوار المشار إليها، مردّه إلى تعلّقها تعلّقاً حميماً بالحقيقة الدينية التي ظهّرتها الكلمات العَلَويّة. ففي اللحظة التي وُضعت فيها تلك الكلمات في ميدان المواجهة، أُحيلت المقدمات والنتائج إلى الإرادة الإلهية. فمع هذه الوضعية تغدو الإحالة فعلاً أخلاقياً سوف يرقى إلى مراتبه القصوى مع تصعيد الفعل الجهادي درجة التضحية بالروح. وهي تضحية مولودة من يقين لا شبهَةَ فيه، وقوامه: أن الالتزام بحقوق الخلق هو سبيل بلوغ الحق. ولسوف تؤدي إحالة النصر إلى الله إلى إنجاز منطقة معرفية جديدة في العالم الإيديولوجي والثقافي لحركات التحرير الوطني الحديثة والمعاصرة.

إن من شأنية هذه المنطقة المعرفية، الإسهام في تفعيل وتأليف بيئة جديدة من التخليق السياسي، من عناصرها ما يلي:

أ ـ التأسيس لثقافة تفارق ميراثاً فكرياً مديداً ينسُب الانتصارات الوطنية والقومية إلى الزعيم، أو إلى التنظيم، وتالياً إلى الإرادة البشرية المحضة.

ب ـ تحويل ثقافة النصر إلى إيمان بالنصر. والفارق بين الثقافة والإيمان كالفارق بين منجز تحققه الإرادة البشرية، ونصر تكون فيه هذه الأخيرة وساطة الإرادة الإلهية إليه...

ج ـ محو الأنا من جانب القائد، هي فعلية أخلاقية ولّدها التبصّر. ثمّ لتتكثّر هذه الفعلية الأخلاقية عبر ولادات لا حصر لها في حقول التفاعل. أن تماهي القائد مع المقاتلين والأنصار سوف يدفع العلاقة بينهما إلى مستوى أرقى من الالتزام التقليدي بالأوامر القيادية. بحيث يتحول هذا النوع من الالتزام إلى تواصل رضائي تستحيل الطاعة فيه تماهياً مع أمر القائد، حتى ليستحيل المطيعون شركاء في الأمر نفسه.

د ـ إعادة إنتاج التوحيد في ميادين المواجهة من خلال نسبة كل فعل جهادي مقاوم إلى الفاعل الإلهي. ﴿*وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى*﴾[٩] إنّ هذه المزيّة الاعتقادية سوف تجعل الآخذين بها يكتشفون بالمعاينة والحضور المباشر كيف يتحول التوحيد الإلهي إلى حقل اختبار يساهم في تسديد الإيمان الديني والمسلك الأخلاقي لدى الناس أفراداً وجماعات.

هـ ـ إعادة إنتاج مفهوم القيادة على النحو الذي يمنحها صفة الدور الوسائطي لإنجاز المهمة الإلهية في التاريخ. إذ حين يأبى القائد، أو وليّ الأمر، أن ينسب إلى نفسه النصر فيحيله إلى الله، فإنّه يضع نفسه على خط أفقي مساوٍ للمجاهدين والمناصرين. حتى لتظهر الصورة على الحقيقة وكأن الجمع كلّهم شركاء في الدور الوسائطي. مثلما يشعر كل فردٍ

(٩) سورة الأنفال، آية ١٧.

منهم إنّه شريك في إبداع النصر الذي ينسبه للتوّ إلى الله، راضياً بدور الوسيط، مكتفياً به، محققاً بذلك أقصى مراتب التبصّر الخلقي بالمعاينة والاختبار والحضور.

٧ ـ مجال توليد المعنى:

كل ممارسة تتوخى إنجاز المعنى هي ممارسة أخلاقية. أي أنها فعل يتّخذ من "قبليات" الفاعل ومرتكزاته الإيمانية والأيديولوجية متّكأً له. فالحرب التي وقعت في تموز/يوليو ٢٠٠٦، هي "حرب معنى"، ومن "أجل المعنى" تقع بين عدويّن، لكل منهما حدّه الوجودي، ولكل منهما ايضاً القابلية والاستعداد لكي يقيم حده على عدوّه.

كانت المقاومة حاضرة على الدوام في معنى قتال المحتل الإسرائيلي. وهو حضور يتعلق بجوهرية تتكامل فيها وتتكثّف كل مراتب المعنى وطبقاته، الإيمانية، والدينية، والفكرية، والثقافية، والسياسية. وهذه المراتب متصلة فيما بينها، ولا تنفصل أبداً عن البناء الأخلاقي لفعاليات المقاومة، بل هي مراتب وطبقات شكلت عاملاً مؤسِّساً، ومؤلِّفاً للتبصُّر الخلقي، وبالتالي تأسيساً لما سبق وعرّفناه بـ" ميتا ـ ستراتيجيا المقاومة".

إذا كان فعل المقاومة هو في المقصد الأعلى، من أجل تثبيت وترسيخ معنى انتصار العام ٢٠٠٠، وكذلك في سبيل تعميق معنى هزيمة العدو، فإن غاية كل حرب إسرائيلية على لبنان بعد اليوم تكمن في محاولة (استعادة المعنى). ونستطيع أن نقول إنها حرب إعادة الاعتبار لأزمنة الغلبة. إذ حين جرى الكلام على الانتصار والهزيمة، والحياة والموت؛ لم يكن ذلك إلا لأن النفس السياسية الإسرائيلية بلغت حدودها القصوى من الشعور بالشك(١٠).

لكن ذلك لا يدل على أن الحروب التي خيضت ضدنا، وانقضت، هي حروب بلا معنى. فكل حروب "إسرائيل" تكتسب هذه الصفة بدرجات مختلفة. القضية بالنسبة إلى اللاهوت الإسرائيلي، أن كل حرب، كان يخوضها، صَغُرت أو كَبُرت، لا قيمة لها، ما لم تكن على رباط وثيق بلاهوت البقاء والهيمنة والإقصاء.

لكن الحرب التي لا نفتأ نستظل بها، هي استثناء على القاعدة. وانطباعها بهذه السّمة الاستثنائية عائد إلى كونها تُظهر الحد الأعلى من الدلالة على معيارية الهزيمة والنصر.

إن الهزيمة والنصر معنيان سيحددان سؤال الأخلاق وأبعاده الميتا ـ ستراتيجية بين المقاومة و"دولة إسرائيل". وعلى هذين المعنيين سوف يتأسس مناخ معرفي ونهضوي، يستمد من روح المقاومة وفعلها تفاؤل الإرادة وتفاؤل العقل ❑

(١٠) محمود حيدر، نهاية الحرب الخاطفة، حوار العرب، العدد ٢٢، ايلول/سبتمبر، ٢٠٠٦.

قضايا النهوض العربي الإسلامي وحوار الحضارات

عبدالله أبو هيف *

جاوز مفهوم حوار الحضارات إطاره الفردي والنظري إلى اندغام حوار الذات مع حوار الآخر استناداً إلى وعي التاريخ من جهة، ووعي مكانة عناصر التمثيل الثقافي من جهة أخرى، وثمة تعزيز لحوار الحضارات في اكتماله لدى الممارسة، إذ لا أهمية للحوار الفردي أو النظري وحده، ما يجعله حواراً ناقصاً، ما لم يتعمق بمعطياته الجمالية والأخلاقية والمعرفية والتاريخية والوجودية(١)، عندما تتوحد أشكال القدر مع حالات القهر في الإحساس المأساوي بالمصير الإنساني. وتحدّدت مقومات الحوار في موضوعه ومجاله ومداه وغايته وقانونه نحو إدراك منظومته القيمية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، وتوصيف فضاءاته وحالات تشكله.

وتحدد حوار الحضارات بالنظر في بنية المجتمع الدولي وتركيبه القائم على توزيع عناصر القوة ومدى تكافئها وعلاقاتها ووظيفتها وأساليب استخدامها، وتماهي هذه القوة مع سلطة المعرفة، لأن حوار الحضارات عملية فكرية تنطلق من الوعي بأهمية الحوار المستند إلى معرفة الخصوصيات والأنشطة والفاعليات لدى هذا الشعب أو ذاك، وفي هذه الدولة أو تلك، ضمن فاعلية المجتمع الدولي، ويتطلب ذلك أيضاً "التعرف على الإنجازات الثقافية والعلمية والمعرفية والنسق القيمي ونمط الحياة والسلوك والتصرف وأسلوب المعيشة والعادات والتقاليد والقيم الروحية والمعتقدات بهدف الوصول إلى رؤية مشتركة أو متقاربة تتضمن تحويل الخصوصيات السابقة لحضارات مختلفة ومتعددة باتجاه التعاون البنّاء بين الحضارات والدول والشعوب"(٢).

وتشير فضاءات الثقافة وعالميتها إلى اكتناز فضاءات المعرفة نحو مجتمع المعرفة والثقافة الرقمية، من خلال مراعاة عمليات إنتاج التدفقات الثقافية العالمية التي تتحرك في طرق غير متشابهة، وإعادة إنتاجها لا مجرد استهلاكها، وهذه التدفقات هي:

أولاً: المشاهد العرقية التي تبحث من خلال تدفقات البشر: السياح، المهاجرين، اللاجئين، المنفيين، العمال الوافدين.

(*) باحث وأستاذ الأدب المقارن في جامعات سوريا.

(١) أبو يعرب المرزوقي: مقومات الحوار السوي بين الحضارات وشروطه، في كتاب "محاضرات في حوار الحضارات"، كتاب الثقافة الإسلامية ٥، (دمشق، المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق ٢٠٠١)، ص ٥٢-٥٣.

(٢) ماجد شدود: حوار الحضارات، القيادة القومية، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٥٢.

ثانياً: المشاهد التكنولوجية: أي المصانع والإنتاج المتدفق للآلات من خلال الشركات الوطنية ومتعددة الجنسية والهيئات الحكومية.
ثالثاً: مشاهد الأسواق المالية والناتجة من التدفقات السريعة للأموال في أسواق التداول والبورصات.
رابعاً: المشاهد الإعلامية ومخزون صور المعلومات والتدفقات الإعلامية عبر الصحف والمجلات والتلفزيون والسينما.
خامساً: المشاهد الإيديولوجية المتصلة بتدفقات الصور التي ارتبطت ـ بشكل متداع ـ بالدول أو بالحركات الإيديولوجية المناهضة لها، والمشتملة على عناصر الحرية والمساواة والحقوق... الخ(٣).

ويتطلب ذلك مراعاة عناصر المحلية والعالمية التي تسهم إسهاماً كبيراً في رسم الخصوصيات الثقافية وما ينبثق منها من الطوابع القومية وتعارضاتها وتناقضاتها مع ثقافات أخرى، ومن شأن حوار الحضارات أن يخفف من وطأة هذه التعارضات والتناقضات كلما أمعنت الثقافات في رشادها وترشيدها، وكلما جعلت الخطاب الثقافي رحيباً لمجالات التبادل الثقافي، ولعلنا نشير إلى شواهد لا حصر لها عن عالمية الثقافة وقوميتها في آن واحد عند ارتقاء الكاتب من تضييق الرؤى إلى تثمير تداخلات الأطراف مع المركز نفياً للتهميش وتنويراً لأطروحات التواصل الحضاري.

وتتعلق عناصر المحلية والعالمية بمراعاة عناصر التمثيل الثقافي أيضاً من الأديان والطوائف والعادات والتقاليد والأعراف والطقوس إلى الأفكار والعقائد والإيديولوجيات، بل إن التخفيف من الأدلجة والتبشير للعقيدي والتسييس بعد ذلك هو الأنسب للتواصل الحضاري بما يفضي إلى احترام حدود الذات وحدود الآخر في الوقت نفسه، إزاء مشكلات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ولم يعد التغيير في دولة معينة من الخارج نافعاً، وليس الحوار مجدياً ضمن إملاءات شروط الهيمنة والاستعلاء والمكابرة، لأن التغيير مرهون بالتغييرات الكيفية والنوعية في سلوكيات البشر والأمم والدول من داخلها(٤).

ولعل الخلافات السياسية بين الأنظمة العربية والإسلامية والإقليمية والدولية هي التي تضاعف من أحوال التأزم في الحوار الذاتي والحوار الحضاري في الوقت نفسه، ففي المجتمع العربي تفاقمت الخلافات بين الأنظمة إلى إشكاليات ناجمة عن عناصر التمثيل الثقافي التي تستغل خداعاً وكذباً ونفاقاً إلى حدّ العدوان والحرب بين نظام وآخر، و"لو تمعنا في نصف قرن من التعاون العربي، لخلصنا إلى أن كلّ مشاكلنا ومعظم أزماتنا كان لها في الغالب جذور سياسية، فلا مفر إذن من إعادة الاعتبار للفكر السياسي النقدي الحرّ لمواجهة تحديات العولمة، فمعركة خوض غمارها ليست معركة اقتصادية ومعرفية فحسب، بل هي كذلك معرفة سياسية"(٥).

(٣) انطوني كينج (تحرير): **الثقافة والعولمة والنظام العالمي**، (القاهرة، ترجمة: عدة مترجمين، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١)، ص ٢٨ـ٢٩.

(٤) عبد المنعم سعيد: **صراع الحضارات أو العولمة: مصر والصين في عالم متغير**، (القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢)، ص ٢١٣.

(٥) الحبيب الجنحاني: **العولمة والفكر العربي المعاصر**، (القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٢)، ص ١٠٩.

ويستدعي حوار الحضارات باستمرار التسامح والانفتاح واحترام الخصوصيات والاختلاف والتخفيف من التبشير العقيدي والأدلجة ما يضرّ كثيراً أو قليلاً بوجود الآخر، ولا يتضاد مع مصالح ناشريها، "فالإمبريالية الأميركية، على سبيل المثال، لا تتحرك وفق رسالة حضارية، ولكن وفق مصالحها الخاصة التي كثيراً ما دفعتها لتقف ضد حقوق الإنسان وضد انتشار الديمقراطية، وساندت الكثير من الأنظمة الدكتاتورية وشكلت مدافعاً شرساً عن النظام الاستيطاني الصهيوني العنصري، وكانت سبباً في استمرار التخلف في العديد من بقاع العالم"(٦).

وانتقدت القطرية على نحو مبكر إزاء إضعاف النظرية القومية وتحققاتها، كما هي الحال في مؤلفي جورج طرابيشي "الدولة القطرية والنظرية القومية" (١٩٨١)، وسليمان الغويل "الدولة القومية" (١٩٨٣). ولا يخفى أن قطرية الدولة العربية توهنها على صعيد العلاقات الدولية، فالدولة القطرية تفتقر غالباً للقوة وموازينها، وتتعرض للاختراقات العسكرية والثقافية والإعلامية والاقتصادية، "في عولة الأسواق والتجارة والسلع والصناعة المدعومة بثورة الاتصالات والمعلومات والمعرفة التي تمتلكها الدول الصناعية الكبرى، إضافة إلى ازدياد الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ومنها الدول العربية، ثم فقدان هذه الدول دورها كسلطة عليا في إنجاز القرارات، وازدياد حجم مديونيتها وهيمنة القطاع الخاص والاستثمارات الأجنبية"(٧).

وإذا نظرنا في قابلية حوار الحضارات عند العرب والمسلمين وإمكانه، فإننا ندرك جذوره البعيدة في رؤى صور الآخر الغربي في الفكر العربي الإسلامي في كتب عديدة(٨)، وأفاد محمد نور الدين أفاية، في أحدث كتاب في هذا المجال، أن الغرب المتخيل ليس منتبذاً أو عدواً، إلا في حالات حربه على العرب والمسلمين. وتلخص شغله في الوقوف "عند ما أنتجه الخطاب العربي الإسلامي الوسيط من طرق لإدراك الآخر وتماثله، والتساؤل عما عبّر عنه من إرادة للمعرفة بالآخر، باعتباره اختلافاً دينياً أو خصماً حضارياً أو عدواً عسكرياً أو شريكاً تجارياً، والعمل على صوغ ما كوّنه هذا الخطاب من صور نمطية ما زالت بعض تعبيراتها تمتد إلى صلب السؤال العربي الراهن عن الذات والآخر، عن الإسلام والغرب"(٩).

وتفاقم الإحساس الحضاري في أثناء الحرب الباردة ومتوالياتها من الاستقطاب والتبعية والهيمنة إلى العولة التي ترهن حوار الحضارات بالقوة أو العنف، ما يؤدي إلى إضعاف الذات أو التغطية عليها شأن العروبة والإسلام اللتين أدغمتا في دعاوى الإرهاب ومناهضة الحداثة والموقف من التاريخ، وهذا جلي في أطروحات فوكوياما "نهاية التاريخ" وهانتنغتون "صراع الحضارات"، وتبدى صريحاً في رواية سلمان رشدي "زفرة المورا الأخيرة" (١٩٩٨ بالإنجليزية)، تطبيقاً لهذه الأطروحات، والمور هم بقايا العرب والمسلمين في إسبانيا

(٦) نور الدين الماقني: ملاحظات عامة حول إيديولوجية الهوية، في مجلة **الفصول الأربع**، (طرابلس - ليبيا)، العدد ١٠٥-١٠٦، اكتوبر ٢٠٠٣، يناير ٢٠٠٤، ص ٦١.

(٧) عبد الفتاح علي الرشدان: العولمة واتجاهات سيادة الدولة القطرية في الوطن العربي، في مجلة **شؤون عربية**، (القاهرة)، العدد ١٠٧، أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، ص ٨٤-٨٥.

(٨) انظر: عزيز العظمة، **العرب والبرابرة - المسلمون والحضارات الأخرى** (لندن، ١٩٩١)، وعلي أومليل "**في شرعية الاختلاف**" (الرباط، ١٩٩١)، وخالد زيادة "**تطور النظرة الإسلامية إلى اوروبا**" (بيروت، ١٩٨٣)، وحسن حنفي "**مقدمة في علم الاستغراب**" (القاهرة، ١٩٩١)، وعدة مؤلفين "**الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى**" (الرباط، ١٩٩٥)، ومحمد عابد الجابري "**مسألة الهوية، العروبة والإسلام... والغرب**" (بيروت، ١٩٩٥)، وحامد زيان غانم زيان "**الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية - من الحروب الصليبية**" (القاهرة، ١٩٩٣).

إثر هزيمتهم في الأندلس عام ١٤٩٢، والزفرة هي التي أطلقها أبو عبد الله الصغير متأسياً للخسارة والهزيمة واضطهاد العرب والمسلمين وإبادتهم وطردهم من إسبانيا، بينما غدت عند رشدي امتداداً أو هوة لنهاية تاريخ العرب والمسلمين وخروجهم من الحضارة أو التاريخ في نهايات القرن العشرين. وسمي ذلك عند بعض الباحثين أدلجة نهاية التاريخ، نتيجة لغلبة المثاقفة، وهي تأثير الثقافات القاهرة الغازية مثل ثقافة الغرب على ثقافات مقهورة مغزوة مثل الثقافة العربية الإسلامية، ولا يفترق ذلك عن "الصورة النمطية البشعة للإسلام في المتخيل الغربي"، و"المهم أن الغرب يبدأ موقفه المعادي حيث يبدأ موقف الصمود، وفأدلجة السوق الحرّة منزوعة الروح، ولكنها تقبل بمداعبة سحر الأديان مسلوبة المقاومة. وهذه هي مشكلتهم مع الإسلام. لقد كان الإسلام ضحية فرادته وتميزه عن البروتستانتية المدجنة، لكونه ديناً منخرطاً في الشأن العام، وليس علاقة خالصة بين الفرد وخالقه، بل هو علاقة بين الإنسان والإنسان، ورؤية للمجتمع والعالم وتدبير للنفس والمدنية.. أي بوصفه ديناً يسدّ الطريق على العلمنة، لسبب بسيط هو أنه بالمنظور الغربي نفسه ديناً علمانياً ما دام له اهتمام بالشأن الدنيوي"(١٠).

ولو عدنا إلى الأحوال التاريخية للحوار الحضاري بين العرب والغرب، لوجدنا أن الصراع هو السائد من الغرب نفسه ضد العرب من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، ومعاودته في المراحل التاريخية باللبوس الصهيوني المتحالف مع الغرب، ثم غطى هذا اللبوس الدعاوى الأميركية التي بلغ تأججها مداه الأقصى في الغزو الأميركي للعراق استناداً إلى مزاعم متبدلة من حين لآخر، والدعوة قائمة اليوم في وعي العرب للحقائق التاريخية حول الصراع مع الغرب واستمرارها بتغطيات وذرائع، ولعلنا لا نغفل عن إحدى هذه الحقائق التاريخية وهي "أن العرب ينهزمون بانقساماتهم بأكثر مما ينهزمون بقوة أعدائهم"(١١)، والحلّ هو استيعاب دروس تجارب الغزو والعدوان والاحتلال، وتبنّي أطروحات الحوار الحضاري عن قوة، لا عن ضعف، وقد أبانت مؤلفات الإسبان أنفسهم عن إسبانيا في تاريخها وعلاقات المسيحيين والمسلمين واليهود فيها أن درجة تأثير الثقافة العربية الإسلامية في تكوين الهوية الإسبانية عالية، وأن "الملامح الإسبانية ذات السياق المسيحي الإسلامي اليهودي تظهر في قوة في الوقت الذي لا يوجد "مور" أو يهود في شكل رسمي في إسبانيا". ما لا يصبح معه المنظور البرجماتي والنفعي والموضوعي هو المقياس الوحيد الصالح لفهم الواقع الإنساني، بل يغدو التاريخ إنسانياً، وسوف تُنسى التجريدات التي تخلو من الروح أو المعنى"(١٢).

وأفاد مستعربون أوروبيون، مثل الفرنسي اندريه ميكيل، بأن الصلات الحضارية بين أوروبا والعرب لا تنقطع، وأن الخلاص من دعاوى الصراع أو ما سُمي الصدام مرتهن بفهم عقلية الآخر بالتبادل(١٣). غير أن السائد هو التوكيد التاريخي منذ ما قبل الحروب

(٩) محمد نور الدين أفاية: **الغرب المتخيل، صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط**، (بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠)، ص ٣٧.

(١٠) ادريس هاني: **حوار الحضارات**، (بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠٠٢)، ص ١٢٨.

(١١) عبد العظيم رمضان: **الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية**، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣)، ص ٥٢٩.

(١٢) اميركو كاسترو: **إسبانيا في تاريخها - المسيحيون والمسلمون واليهود**، (القاهرة، ترجمة علي إبراهيم منوفي، مراجعة حامد أبو أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢)، ص٧٠٩ و٧١٣.

(١٣) اندريه ميكيل: **أوروبا في نظر العرب حتى عام الف**، في كتاب "أضواء عربية على أوروبا في القرون الوسطى" (بيروت، باريس، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، ١٩٨٣)، ص ١٠٦.

الصليبية إلى العصر الراهن هو "غزو الوطن العربي ومحاولة استعماره والتسلط عليه"(١٤).

٢ ـ حوار الحضارات والعولمة

من الواضح، أن ما آل إليه حوار الحضارات لا يخرج عن طغيان العولمة ولا سيما هيمنة قوتها على الدول الأضعف التي ترفض الإملاءات والخنوع أو أشكال الخضوع بلبوس الحوار، وقد وصفت العولمة الأميركية بهيكلة الموت عند انفرادها بتحكميات تسلطها على العالم وممارسة أنواع البطش والاستبداد لكل الرافضين لسياسة الهيمنة بذرائع انتفاء الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات ومجانبة المجتمع المدني، "حتى بات التهديد الأميركي باحتلال البلاد وتعيين مندوبين أميركيين لإدارة شؤون الشعوب الخارجة عن عصا الطاعة الأميركية أمراً ممكناً في ظل التفرد الأميركي المذلّ للعالم بأسره بعد تحلل الشيوعية"(١٥).

ويستدعي ذلك إنعاش الحوار الحضاري وتنمية تواصله بمواجهة الإشكاليات والمشكلات الذاتية من خلال تعاظم إرادات الخلاص من ضغوط الاستعمار والهيمنة وصون الذات ومصالحها بالانتقال من مجرد الاستهلاك إلى الإسهام في إنتاج العولمة نفسها دخولاً في امتلاك السلطة التي جاوزت السلاح التقليدي بأنواعه وتطوراته إلى سلطة المعرفة والتقنية، اتصالات ومعلوماتية واقتصاداً عبر الشركات متعددة الجنسية العابرة القارات والدول. ويشير ذلك إلى حوار الدول من موقع القوة والمصلحة المتبادلة عندما تنمّي سلطتها المعرفية والإنتاجية، وتدخل في مجتمع المعرفة والثقافة الرقمية الذي ينطلق من التكتلات الاقتصادية السياسية العربية الإسلامية لتصير قوة حقيقية من الداخل، و"مع قوة كهذه لا يمكن للغرب أن يقف موقف المتفرج إزاء ما يحدث في قلب العالم العربي الإسلامي (فلسطين)، بينما يسارع لإنقاذ المسلمين في أطراف العالم الإسلامي (كوسوفو) حين تتطلب مصالحه ذلك"(١٦).

وركز دعاة الحوار الحضاري عن حقّ، على أهمية الثقافة ودورها في تحريك العلاقات الدولية وتحصينها برباط السلم العالمي، تعزيزاً للهوية الإنسانية التي تتشكل في بعديها التاريخي والثقافي بالدرجة الأولى، ورهنوا مقاربة تحدي العولمة في جبهتين:

"إحدهما: التلاقح المتبادل بين الحداثة والتراث لتحقيق الشروط الموضوعية لآفاق التحديث والتطوير في عالمنا العربي والإسلامي.

ثانيتهما: التفاعل مع الثقافات العالمية في إطار الوعي باستثنائية المرحلة التي تمرّ بها أمتنا بعد احتلال العراق، وهو ما يدعونا إلى بلورة ثقافة المقاومة في مختلف الأصعدة والمجالات"(١٧).

(١٤) علي حسين الشطشاط: **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، (طرابلس، منشورات مجلس تنمية الإبداع الثقافي ـ الجماهيرية، ٢٠٠٤)، ص ٢٤٣.

(١٥) محمد مقدادي: **أميركا وهيكلة الموت**، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤)، ص ١٢.

(١٦) محمد الأرناؤوط: تعقيب على بحث الدكتورة نادية محمود مصطفى، في كتاب "محاضرات في حوار الحضارات"، مصدر سابق، ص ٢٢٠.

(١٧) حسين أحمد شحادة: حوار الثقافات وسؤال الهوية الإنسانية، في **مجلة المعارج**، (دمشق)، السنة ١٤، العدد ٥١، ٢٠٠٤، ص ١١.

ومن المؤكد أن البحث في الهوية غدا الشغل الشاغل للعديد من المفكرين والمثقفين والباحثين، ولعل كتاب "العروبة بين هوية الإسلام ومستلزمات الانبعاث" لصبري مصطفى البياتي (العراق) هو الأحدث في سلسلة كتب الباحثين الجدد عن هذه القضية الضاغطة، وأتوقف عند أطروحته، لأنها الأشمل في تناولها لقضية الهوية إزاء الحوار الحضاري. وقد دافع فيها عن العروبة، وأوضح صورتها "للمواطن العربي الذي غابت عنه الحقيقة، حقيقة الهوية، وحقيقة الذات التي يسعى إلى تحقيقها"، أي أن شغله جدالي وإشكالي يستدعي الرأي الآخر قبل كلّ شيء، ونظر في جوانبه المتعددة وهي: "عالم جديد... رؤى جديدة" و"الذات بين العروبة والإسلام" و"العقل العربي - مشكلات وتحديات" و"العرب وقرن بدأ"، وأثار أسئلة كثيرة تراعي البعد الديني، وتراه جوهرياً في مواجهة التحديات الراهنة. ومن الواضح أن الباحث شديد الاتصال بقوى العصر الجديدة مثل المعلوماتية والاتصالات، فقد عالج مسألة عصر القوميات والمعلوماتية والإيديولوجية القومية وصراع الحضارات ومستقبل المنطقة وجدل الصراعات المعاصرة، وتحدث عن إشكالية الذات بين العروبة والإسلام وعن الأمة والقومية في القرآن الكريم وإسلامية العروبة، وتصدى لبعض المشكلات والتحديات التي تواجه العقل العربي مثل البراغماتية والإجماع والتعدد والآخر والمعطيات الاقتصادية. وتوقف ملياً عند مجموعة من المسائل أهمها العرب والعولمة.

وحفلت مناقشاته بنظرات ثاقبة مثل ذكره للتغير في بنية الإيديولوجيات القومية ووظيفتها، وإن شابها بعض الغلو، إذ ختم نظرته في هذا المجال بإطلاق قابل للمناقشة حول مجتمع المعلوماتية: "أنا أستخدم الإنترنت.. إذن.. أنا موجود"(١٨)، وثمة تعارضات في تفكيره نفسه تصل إلى حدّ التناقض، فهو ينكر الماضي وإنجاز الأجداد داعياً للنظر إلى المستقبل وحده، مشيداً بهؤلاء الذين "امتنعوا عن تقليد أجدادهم والاكتفاء بذكر منجزاتهم فصنعوا يومهم وفقاً لما تطلبه غدهم"، وثمة غلو أشد في جعل البراغماتية "فلسفة أميركية المنشأ والروح"(١٩)، وكأن جوهرها غائب عن الممارسات غير الأميركية على الإطلاق، ويتبدى التناقض، بعد مثل هذه النظرات في إلحاحه على البعد الديني للهوية، بل إنه يجعله مرتكزاً للهوية، وهو إشكالي بطبيعته، لأن القومية العربية لا ترهن مفهومها للإسلام وحده بل لعناصر التمثيل الثقافي كلها أدياناً و عقائد وأعرافاً وتقاليد، أما اللغة العربية فهي بعد من الأبعاد الكثيرة التي تنطوي على خيارات صعبة وتحكميات أصعب في الرؤية المعقدة للهوية.

ولعل مناقشته لمقاومة العولمة تعبّر عن مثل هذه التعارضات أو التناقض بشكله الصريح، فالنظرات "المثالية" بعيدة من الرؤية الواقعية في مجملها كالدعوة إلى إجراء المصالحة العربية من دون معالجة أسبابها، أو الدعوة إلى تفعيل النظام الإقليمي العربي من دون مراعاة البعد الدولي ومتغيراته الكثيرة، وتنشيط الحياة الاقتصادية العربية من دون

(١٨) صبري مصطفى البياتي: **العروبة بين هوية الإسلام ومستلزمات الانبعاث**، (عمان، المؤسسة العربية الدولية للنشر والتوزيع، ٢٠٠١)، ص ٣٨.

(١٩) المصدر السابق، ص ١٢٧.

الاعتراف بحقيقة أن التبدلات الاقتصادية غير العربية هي الأقوى من التبادلات العربية - العربية، وفتح القنوات الثقافية على مصراعيها بين الأقطار العربية بعيداً من الاختلافات السياسية والإيديولوجية من دون الإقرار بأن انتقال الكتاب العربي بين الأقطار العربية دونه أهوال وأهوال، على الرغم من انتشار المعلوماتية والنشر الإلكتروني والاتصالات الجبارة. ويعبِّر هذا كلُّه عن تأزم التفكير العربي بالهوية مادام مرتهناً لتحكميات مسبقة مثل الماضوية أو البعد الديني وحدهما. ومال دعاة حوار الحضارات إلى تغليب الوسطية على التلفيقية والتوفيقية، بوصفها تتجاوز الرأيين، وتختلف عنهما، لكن بعد أن يتحاور معهما، وقارب مقام الوسطية عندهم مقام الكمال، لأنها "تجمع بين الطرفين في موقف واضح، وهذا يعني أنها حوار وموقف، فهي لا تنكفئ على ذاتها، بل تتحاور مع الأطراف الأخرى، حتى ولو كانت مضادة، وهي في الوقت نفسه لا تفقد ذاتها، ولكن تتخذ موقفاً من الأطراف الأخرى، وهذا هو السبيل الحقيقي لحل إشكالية الهوية والعالمية، فالهوية هي الخصوصية النابعة من الموقف، وهي بهذا التعريف تختلف عن التعصب، لأنها تمتلك إمكانية الانفتاح على الآخر والحوار معه"(٢٠).

بينما ركَّز الكثيرون على التسلح بوعي العولمة ونظمها المعرفية، وأن يقوم حوار الحضارات على قوة الأطراف المتفاعلة وتوازن المصالح بينها، لنفي استبداد الهيمنة، ولاختفاء "الطابع الاستعماري الذي يرافق ثورة المعلومات في مسيرة العولمة. وإذا كانت العولمة قفزاً على حدود الدول والقوميات، سعياً إلى ربط البشرية اقتصادياً وسياسياً وثقافياً بمركز قسري خارج حدود الأوطان، فإنها بذلك ترسِّخ ثقافة التبعية على حساب تغييب الذاكرة الوطنية، بتفتيت الدور المحلي ليحل محله الاتصال عبر شبكة الإنترنت، وتختزل العملية في مرسل مركزي ومستقبل عالمي، بذلك تكون العولمة هي قمة التطور الرأسمالي في ظل هيمنة دول المركز في ظل أمركة النظام العالمي للسوق"(٢١).

وقد أظهرت دراسات أميركية ضلوع الاستخبارات المركزية الأميركية في استتباع عالم الفنون والآداب لدى الشعوب الأخرى، ومنها العربية والإسلامية، إليها، كما هي الحال مع المؤلفة فرانسيس ستونر سوندرز في كتابها "الحرب الباردة الثقافية"، فعندما سقط حكم الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية، والاتحاد السوفياتي "لم يجد هذا السقوط مقاومة من الجماهير التي كانت تتشرب على مدى أكثر من أربعين عاماً وبالتدريج ثقافة معادية للشيوعية تداعب غرائز التملك والتفرد والتفوق والأنانية، فأثبت هذا في النهاية أن تغيير نمط في السلوك والفكر أقوى تأثيراً من تغيير نمط الإنتاج الذي تعوَّل عليه الماركسية"(٢٢).

وتتضاعف أهوال العولمة على العرب والمسلمين كلما تماهت مع وصفها بعولمة القهر عند حالات مجافاة العولمة في غير سياقاتها وعمليات مواجهتها عن وعي لا بنفيها أو رفضها كما أشرنا، بل الإسهام في إنتاجها وإعادة إنتاجها لا مجرد استهلاكها. ويزداد أذاها من

(٢٠) عبد الحميد إبراهيم: **الوسطية وحوار الحضارات**، في كتاب "العولمة والهوية الثقافية"، (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨)، ص ١٨١.

(٢١) مصطفى السعدني: **حوار الحضارات وتفاعلها بين الوحدة والتنوع**، في المصدر السابق، ص ٧٦٠.

(٢٢) عاصم الدسوقي: الولايات المتحدة الأميركية وتسييس الثقافة، تقديم كتاب "الحرب الثقافية الباردة. المخابرات المركزية الأميركية وعالم الفنون والآداب"، تأليف: فرانسيس ستونر سوندرز، (القاهرة، ترجمة طلعت الشايب، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢)، ص ١٦.

الداخل في مرارة انتشار الإرهاب والعنصرية والتزييف، ما يستدعي إصلاح العيوب الذاتية[٢٣] قبل الشكاوى المتوهمة عن طغيان الهيمنة وحدها، لأن هذه السياسات تخفف من الأوهام الباطلة بلبوسها الشرعي وغير الشرعي.

وسُمي ذلك الإسهام مشاركة في صنع الثقافة العالمية الجديدة للاندماج في العصر ومحاولة امتصاص المتغيرات والتحولات بعقل متغير، والمطلوب إذن للخروج من مأزق الهوية وأزمتها وللدخول في حوار الحضارات النافع، "هو خطاب عربي جديد نابع من الواقع ذاته وقائم على الممارسة الفعلية للعربي المعاصر، الآن وهنا، دون خوف أو وجل من ضياع الهوية المفترضة من قبل الصور الثابتة والمفردات غير المتغيرة، لأن مثل هذا الخوف هو الذي يشلّ الذات ويحطم الهوية، وليس أي آخر"[٢٤].

وأنتقدت أُطروحات هانتنغتون في صدام الحضارات في الغرب والشرق على حدّ سواء، إذ لا يعني الاختلاف بين الإسلام وحضارته والغرب وحضارته سبباً رئيساً للصراع واستمراريته، لأن حوار الثقافات والأديان في الإسلام يعضد عالمية الثقافة واحترام الآخر، وأظهر الغرب منذ زمن طويل، لدى الكثيرين، إمكانية الحوار بين الإسلام والغرب، وتعالت هذه الإمكانية في انتعاش المثاقفة المعكوسة على نحو مبكر في القرن الثامن عشر حتى اليوم، حين اعترف بتأثير الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة الغربية، كما تبدى ذلك في دراسات الاستشراق التي انتظمت فيما بعد في نجاعة الأدب المقارن الذي يقدّر مكانة الثقافات الأخرى وخصوصياتها، وأبدى نقاد نظرة هانتنغتون النتائج الآتية:

١ ـ إن هانتنغتون لا يؤمن بالتعددية الثقافية ولا بالهويات المستقلة عن الهوية الثقافية الغربية، ويعتبر الثقافة الإسلامية على وجه التحديد منافسة ومعادية للثقافة الغربية.

٢ ـ لا يؤمن هانتنغتون بحقّ الاختلاف الثقافي، ولا يؤمن بوجود ثقافات كونية بخلاف الثقافة الغربية، ولذلك فهو يرفض ادعاء الحضارة الإسلامية بالعالمية، ويعتبره سبباً للصراع مع الحضارة الغربية.

٣ ـ يوجه هانتنغتون اللوم إلى ثقافته، أو يعتبرها هي سبب الصراع الذي يدّعيه، ولكن يُفهم من كلامه أن أي حضارة تدعى العالمية، هي حضارة مضادة ومعادية للحضارة الغربية، ويجب الوقوف في وجهها ومحاربتها.

٤ ـ يفسر كلّ صراع مهما صغر بأنه دليل على استمرارية الصراع، وأن الحرب حرب حضارية أزلية لا تنتهي إلا بنهاية التاريخ.

٥ ـ بهذا يقضي هانتنغتون على كلّ الأمل في التقريب بين الحضارتين، ويتجاهل التقارب الحادث بينهما في الماضي والحاضر.

٦ ـ يباعد بين الحضارتين الإسلامية والغربية، ولا يعترف بدرجة قرابة تسمح بتفادي الصراع الحضاري بينهما[٢٥].

(٢٣) جلال أمين: **عولمة القهر: الولايات المتحدة والعرب والمسلمين قبل وبعد أحداث ايلول/سبتمبر ٢٠٠١**، (القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٢)، ص ١٤٨.

(٢٤) تركي الحمد: **الثقافة العربية في عصر العولمة**، (لندن، دار الساقي، ط٢، ٢٠٠١)، ص ٢١٠.

(٢٥) محمد خليفة حسن، مقدمة لكتاب "الإسلام والغرب وإمكانية الحوار" (القاهرة، تحرير كاي حافظ ترجمة صلاح محجوب إدريس، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠)، ص ٩-١٠.

وربط محمد ياسر شرف نقده لأطروحة هانتنغتون في صدام الحضارات بضرورة إعادة تنظيم العالم بناء على تنمية حوار الحضارات نبذاً للإرهاب مهما كانت صفته وأياً كان منفذّوه، وغالباً ما يتلبس الدين غطاء له، على أن أحداث سبتمبر "وما تلاها من شنّ حرب دولية على الإرهاب شاركت فيها الدول الإسلامية من دون استثناء، أظهرت من دون شك على الصعيد العملي، أن السياسات الدولية في وضع يسمح لها بعزل "الزخم الديني" الذي عدّه هانتنغتون محركاً فاعلاً خلال الفترة الراهنة في الثقافات جميعاً، وبنى عليه صدام الحضارات ليحكم أنه يشكل وقود الحروب الحضارية المقبلة، وأنه يهدد الوجود البشري بصورة أو بأخرى"(٢٦).

وانتقد حال التفكك الداخلي في ظل النظام العالمي الواحد، ومنها تفتت العالم العربي والاتحاد السوفياتي، ليبدأ تفتت جمهورياته بعد أن تنفصل وتستقلّ، والأفضل على الدوام هو التوحد والاندماج السياسي والاجتماعي والاقتصادي وليس المكافحة من أجل الاستقلال والانفصال إذ صارا إلى إضعاف ذاتي مروع بسبب هذا التفكك الداخلي الذي من شأنه أن يحدث "تفجرات اجتماعية تتخذ أشكالاً يستحيل التنبؤ بها"(٢٧).

أفادت الآراء والأفكار المطروحة أن حوار الحضارات والعولمة متقاربان في العصر الحديث بتأثير مالكي سلطة المعرفة والقوة بأشكالها المتعددة من السلاح إلى المال والاقتصاد، ومن شأن حوار الحضارات أن يقلل من توجهات المتحكمين بالعولمة المصلحية والمنفعية لدى احترام الآخر ونفي السيطرة عليه.

٣ ـ آفاق تطور الحوار الحضاري

إن التساؤل قائم وضاغط حول قابليات التواصل الحضاري بين الأمم والشعوب، وهو لا يقتصر على العلاقات بين العرب والغرب، بل مع الشرق الآسيوي، والجنوب الأفريقي والأميركي اللاتيني، وقد بات واضحاً أن الحوار ثقافي بالأساس، وأنه لا يتحدد بالدين والإحياء الروحي وحدهُ، باعتباره عنصراً من عناصر التمثيل الثقافي، وأن هذا العنصر أو ذاك لا ينقطع عن الثقافات الأخرى، أما فاعليته فتكمن في عدم التسييس، وجوهر الدين والإحياء الروحي، استناداً إلى القرآن الكريم، أن العرب يحلمون بالتعاون مع الآخر الأوروبي وسواه، "وبالتساند لتؤلف أمة وسطاً بين الشرق والغرب، ولتدعم العلاقات السليمة الكريمة بينهما، ولتنشئ بذاتها سداً منيعاً مفيداً للحضارة الإنسانية العالمية يمنع بشموخه ومتانته تيارات الطغيان، ويعدّ جسراً لاحماً بين القارات"(٢٨).

ويتنامى الحوار الحضاري كلما احتمى التنوع الثقافي وتعزز، وأُدخل في التنمية المستدامة، وهذا هو السبيل الأمثل لتشكيل إنسانية لها ظروف حياة مادية وفكرية وروحية محسنة، من خلال العمل الإجمالي المشترك الذي يستهدف الجماهير والنخبة معاً، وتربية

(٢٦) محمد ياسر شرف: إعادة تنظيم العالم، دراسة تحليلية نقدية لأطروحة صاموئيل هانتنغتون في صدام الحضارات، (دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤)، ص ٥١٨.

(٢٧) حليم بركات: **الهوية، أزمة الحداثة والوعي التقليدي**، (بيروت، دار رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٤)، ص ٣٥٨.

(٢٨) عبد الكريم اليافي: **الدين والإحياء الروحي في الوطن العربي اليوم: دلالتهما في الحوار الثقافي مع أوروبا الغربية، تباعد أم لقاء؟**، (دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤)، ص ٤١.

الراشدين والصغار معاً أيضاً، والثقافة للجميع[٢٩]، من دون تقييد أو ترهيب، بل الأخذ بالانفتاح والتسامح والتعاون والتنسيق والتكامل الذي يبتكر "ممارسة ثقافية متكاملة"[٣٠].

وينهض ذلك على التواصل المعرفي الإنساني المنفصم عن استهدافات العولمة، فثمة إهمال للثقافة العربية والإسلامية إلى حدّ القطيعة في بعض البلدان الأوروبية وأميركا، وهذا ما أوضحه كتاب صالح جواد الطعمة "في العلاقات الأدبية بين العرب والغرب"، وحلل فيه ألوان التلقي الأميركي للأدب العربي، وهي شاحبة وباهتة إزاء اهتمام الاستشراق بالعرب والأدب العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على سبيل المثال، لدى الاعتراف بالمثاقفة المعكوسة، كما هي الحال مع الحبّ الفروسي أو شعر التروبادور ونظرية أصوله العربية[٣١].

وقد نادى المفكرون العرب بإحياء العلاقات الصحية مع الولايات المتحدة، على أن العلاقات الأميركية - الإسلامية مهمة لاستقرار الوضع الدولي، والمطلوب من الإدارة الأميركية الحائرة بين مدارسها الثلاث، المعتدلين والمحافظين التقليديين والمحافظين الجدد "أن تتفهم أهمية هذه العلاقات وخطورة ترديها"[٣٢].

في المقابل، فعلّت الحضارة الروسية (والسوفياتية) والحضارة العربية الإسلامية جوهر ما فيهما، وصارت إلى تاريخ من العلاقات المتبادلة احتراماً للتنوع الثقافي وحمايته وانتشاره من "منطلق الإيمان الثابت بوحدة المجموعة البشرية، وواجب التعاضد والالتحام بين أبنائها، وبالاستناد إلى مرجعية القيم والمثل الإنسانية الرفيعة التي بلورتها المنظمة القيمية الجامعة التي تشكل على مدى طويل عبر عملية تثاقف وتأثر متبادلين"[٣٣].

والشأن الأكثر فائدة هو تفعيل دور المثقف في الحوار الحضاري ضمن تعزيز عمل المؤسسات الرسمية وغير الرسمية دعماً لمقومات المجتمع المدني الذي يُعلي من شأن سلطة الثقافة على ثقافة السلطة، نحو نفي المكابرة والتعالي والهيمنة والطغيان والجبروت... الخ، وتكمن فاعلية هذا الدور في إعلاء مكانة المنظومة القيمية الإنسانية والتقليل من الدعاوى السياسية والتسييس، وثمة دور إيجابي "في مقاومة العنف وفي التفريق بين المقاومة المشروعة والإرهاب المدان، وإرهاب الدولة المسكوت عنه الذي يكتسب شرعيته من القوة ولا شرعية ولا مسوغ له"[٣٤]. وتظهر الأبعاد الاستراتيجية للحوار الثقافي العربي مع الآخر صريحة في معطياته التاريخية ومقارباته الثقافية لحصر تأثيرات العولمة، وطُرحت أمثلة لذلك في ارتقاء علاقات التكامل والتواصل الثقافي العربي - الأيبروأميركي، واتفق المثقفون في أميركا اللاتينية مع المثقفين العرب في ذلك، طلباً للإكثار من التبادل البشري والثقافي، وتأسيساً للحوار بين الأجيال القادمة، لأن تحديات العصر الكثيرة تفرض القدرة على التصور، نحو "بذل مزيد من الجهد في التفاهم، وتبادل الخبرات والمعارف، والانفتاح على التنوع الثقافي والديني، وعلى قيم التضامن والتآزر، وهي القيم التي تدفع عملنا، وتمثل

(٢٩) لويس دولو: **العلاقات الثقافية الدولية** (بيروت، ترجمة بهيج شعبان، مراجعة هنري زغيب)، منشورات عويدات، ١٩٧٤)، ص ١٨٩.

(٣٠) **اضواء عربية على اوروبا في القرون الوسطى**، مصدر سابق، ص ٢٠٩.

(٣١) صالح جواد الطعمة: **في العلاقات الأدبية بين العرب والغرب**، (جدة، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ٢٠٠٣).

(٣٢) محمد عبد العزيز الكواري: **المعرفة الناقصة، العرب والغرب في عالم متغير**، (بيروت، رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٥)، ص ٧١.

(٣٣) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: **الحوار العربي الروسي في القرن الحادي والعشرين**، (تونس، ٢٠٠٤)، ص ١٧.

(٣٤) علي عقلة عرسان: دور المثقف في حوار الحضارات، الحوار العربي الايبرو اميركي نموذجاً، في كتاب "الحوار الثقافي العربي الايبروأميركي"، الألكسو (تونس، ٢٠٠٣)، ص ١٥١.

ثراء البشرية"(٣٥). وقد أُقرّ بأهمية التفاعل الثقافي في الحوار الحضاري لنفي التطرف والعنصرية والجهل والذرائعية، ولا ننسى جوهر الثقافة العربية هو الانفتاح والطابع الشمولي الكوني ودورها التوفيقي، والكلمات المفاتيح في بداية الألفية الثالثة هي "المساهمة في متغيرات هذا العالم ومشاركته في المنظور والتبادل والتقاسم. وبفضل عزيمتنا القوية وإصرارنا وثباتنا نستطيع أن نجعل حضورنا أكثر نجاعة وأنفع لنا وللجميع"(٣٦).

واعترف عدد من المستعربين والمستشرقين بأن حياتهم الغرب ـ شرقية مثل الألمانية أنّا ماري شيمل التي فازت بالتكريم وبالعديد من الجوائز في الشرق والغرب بوصفها عالمة وداعية إلى الحوار بين الأديان والحضارات والثقافات. وجاهرت بالقول إنها ترى الإسلام بصورة رومانية، وأجابت، في تواصل حضاري، بمقولة القديس أوغسطين: "المرء يستطيع أن يفهم شيئاً ما فقط على قدر ما يحبّه"، وهي أحبّت عالم الشرق، وتواصلت مع المسلمين بلغاتهم، وعاشت مع أسرة مسلمة متدينة، واعتقدت أنها يمكن أن تفهمهم بعض الشيء، وهي معرفة إنسانية رحيبة(٣٧).

ويفضي ذلك إلى تفاعل الأدب العربي والآداب العالمية الأخرى، وتناظر التجارب الحضارية الإبداعية التي تنفي مجرد الاستهلاك الأدبي أو استيراد سياقاته، مثلما تضيء إشكاليات النزعات الوجودية والقومية والإنسانية في مقابل النزوعات العنصرية والمكابرة... الخ، وبات جلياً أن سلطة المعرفة هي الأقوى، كما في أطروحة فوكو، وعلم اجتماع المعرفة بعد ذلك، ما يؤكد الحل الاجتماعي "لمشكلة العلاقة بين الأنا والآخر"(٣٨).

ويمتد التفاعل إلى مجالات التربية والتعليم العالي لإدغام أهداف الحوار الحضاري في عمليات التنشئة للابتعاد عن "الاستعلاء الثقافي واستنقاص الآخر"، فالتربية تظل "عنصر وقاية ضد الانحراف إلى التعصب بكلّ أشكاله، ونوعاً من التطعيم الذي يكون له مفعول على المدى البعيد ضد مخاطر السقوط في التطرف والإرهاب"(٣٩).

والمبدأ الأكثر أهمية في تفاعل الحوار الحضاري هو إدغامه في التنمية المستدامة كما أشرنا، إذ لا تفترق الثقافة عن النهج السياسي والاقتصادي في الممارسة أو التطبيق أو الإجراءات أو التدابير العملية، وقد سعت سوريا، على سبيل المثال، في علاقتها مع الاتحاد الأوروبي، لاستكمال البناء الاقتصادي السوري من ناحية، ومراعاة "التطورات التي تحدث ضمن الاتحاد الأوروبي ومشكلات بنائه المعقدة ومدى وجود سياسة أوروبية خارجية موحدة"(٤٠)، من أجل التقليل من مشقة الجوار ومقاربة التعاون المتوسطي والدولي.

وارتهن حوار الحضارات بتنمية الاقتصاد الوطني بتواصله وتعاونه مع الاقتصاد العالمي، مثلما كشفت عن ذلك ندوة صندوق النقد العربي "العولمة وإدارة الاقتصادات الوطنية" (أبو ظبي، ٢٠٠٠)، واتفق المشاركون، على أن تتبنى البلدان العربية في مجال السياسات

(٣٥) سونيا منديتيا دي بادارو: آفاق الحوار الحضاري والثقافي العربي الأميركي، في كتاب "الحوار الثقافي العربي الإيبروأميركي"، مصدر سابق، ص ٣٧٢.

(٣٦) الهادي البكوش: بين التفاعل والصراع والحوار، في كتاب "حوار الحضارات والتضامن الدولي"، جمعية البرلمانيين التونسيين، (تونس، ٢٠٠٢)، ص ٩١.

(٣٧) أنّا ماري شيمل: **الشرق والغرب، حياتي الغرب ـ شرقية**، (القاهرة، ترجمة عبد السلام حيدر، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤)، ص ٤٤٩.

(٣٨) صبري حافظ: تناظر التجارب الحضارية وتفاعل الرؤى الإبداعية وأنماط الكتابة العربية في العصر الحديث. في **المجلة العربية للثقافة**، (تونس، السنة ٢٠، العدد ٤٠، آذار / مارس ٢٠٠١)، ص ٢٢.

(٣٩) المنجي بو سنينة: مرتكزات أساسية لحوار حقيقي بين الحضارات، في **المجلة العربية للثقافة**، (تونس، السنة ٢١، العدد ٤٢، آذار /مارس ٢٠٠٢)، ص ١٢٣.

(٤٠) صالح الراشد: **سورية والاتحاد الأوروبي، المتوسطية ومشقة الجوار**، (دمشق، دار الصديق، ٢٠٠٥)، ص ١٩٣.

الاقتصادية إجراءات فاعلة لتحقيق ما يأتي:
- تأسيس وتقديم دعم سياسي للسلطات النقدية والرقابية المالية التي تدخل، وتطبّق التقاليد والمعايير واللوائح الاحترازية التي تقوّي القدرة التنافسية العالمية للاقتصادات العربية.
- الإدارة الجيدة للدين العام، المحلي والخارجي، ورصد المديونية الخارجية للقطاع الخاص.
- الترويج للاستثمار الأجنبي المباشر كأفضل نمط من التدفقات العالمية لرأس المال.
- توفير إطار عملي والحوافز للقطاع الخاص ليستثمر ويموّل مشاريع تكنولوجيا المعلومات[41].

وصار حوار العرب الحضاري مع الغرب قائماً على الرغم من المعوقات والتحديات القائمة والحاصلة، وأبانه جلياً وصريحاً وفي سبيله للتحقق كما أوضح بيان باريس للحوار الثقافي العربي الأوروبي الصادر عن المؤتمر العربي الأوروبي للحوار بين الثقافات الذي عقد تحت شعار "مرتكزات التعرّف على الآخر من أجل التعايش معاً من منطلق التسامح بين الحضارات والأديان" (باريس ١٥-١٦/ ٧/ ٢٠٠٢) ونادى المؤتمرون في البيان، وعلى أرض الواقع، إلى تعزيز حوار الحضارات، "فهم يعتبرون أن المسعى الحواري يشكل الوسيلة الفضلى لوصل الإنسان بالإنسان في مجرى التقريب بين الرؤى واستكشاف سبل التواصل والتفاهم والتعاون بين الشعوب بدعم الجوامع المشتركة بين الثقافات والحضارات، بما يمكن من تجاوز كل أشكال الهيمنة والتنميط الأحادي والإقصاء والتهميش، ذلك أن لكل ثقافة الحق في الحياة والازدهار والاحترام. لذلك كان الحوار بين الثقافات من أهم ضرورات السلم العالمي ومن أول واجبات الحفاظ على تنوع إنتاجات التجربة الإنسانية عبر التاريخ.

وبارك المؤتمرون بادرة الألكسو بإقامة هذا المنبر الحواري بين الثقافتين العربية والأوروبية، وأكدوا ما لذلك الحوار من أهمية في إحياء تقاليد تاريخية عريقة انتفع بها الجميع أمس على نحو ما يشير إليه في جلاء ما قام بين فلاسفتنا وعلمائنا وأدبائنا من صلات وثيقة وتثاقف حقيقي، في زمن تفرض فيه "العولمة" ما تفرض من تحديات.

وإن نجاعة الحوار الثقافي العربي الأوروبي تقتضي أن يكون المؤتمر منطلقاً لمسيرة حوارية طويلة النفس تدعمها البلدان العربية والأوروبية بتكثيف اللقاءات بين المثقفين وإحداث قنوات الاتصال والتعارف بينهم وتشجيع الترجمة وتبادل البعثات الدراسية والعناية باللغة العربية في أوروبا على غرار ما تلقاه الكثير من اللغات الأوروبية في البلدان العربية. وجدّد المؤتمرون تعلقهم بقيم حقوق الإنسان والحريات الأساسية، ودعوا المجموعة الدولية إلى اتخاذ التدابير الضرورية العملية العاجلة ليستتبّ سلام عادل شامل في الشرق الأوسط وفي العالم بأسره وفقاً للشرعية الدولية"[42].

(٤١) علي محمد توفيق الصادق، وعلي احمد البطل (تحرير): **العولمة وإدارة الاقتصادات الوطنية**، (ابو ظبي، ٢٠٠٠) ، ص ٣٠ - ٣١.

(٤٢) **الحوار الثقافي العربي الأوروبي: متطلباته وافاقه**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (تونس ٢٠٠٢)، ص ٤١٢ - ٤١٣.

ترتبط آفاق تطور الحوار الحضاري بوعي التاريخ والذات والآخر للتقليل من تأثير العولمة وإدغامها في مسرى الأبعاد الشاملة للتواصل الحضاري، بأبعاده الإنسانية والأخلاقية إلى جانب الأبعاد السياسية والاقتصادية نحو السلم والأمن والخلاص من الفوارق المادية والروحية الجائرة والظالمة ❑

تداعيات العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية على الوطن العربي

جاسم الحريري *

المقدمة

بعدما وطدت إسرائيل علاقاتها الديبلوماسية بالهند في الربع الاول من عقد التسعينات من القرن العشرين، ولم تترك إسرائيل لباكستان مجالاً لكي يكون لها دور مؤثر في العالم العربي والإسلامي، حيث كانت إسرائيل تمارس سياسة الاتصال غير المباشر مع باكستان للتمهيد لبناء أرضية إقليمية ودولية مناسبة لتأطير العلاقات دبلوماسياً معها لتحقيق أهداف عدة، لعل من أبرزها جعلها لاعباً غير فاعل اتجاه القضايا العربية، ومن أبرزها القضية الفلسطينية، فضلاً عن تحجيم دورها النووي في المنطقة بعد إعلان باكستان عن تجاربها النووية في عام ١٩٩٨.

وفي هذا الاتجاه، أثار اللقاء الذي وصفته إسرائيل بانه " تاريخي" بين وزير الخارجية الإسرائيلي، سيلفان شالوم، ونظيره الباكستاني، خورشيد محمود قصوري، في العاصمة التركية "استانبول" في الأول من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، ثم مصافحة أرييل شارون، رئيس وزراء إسرائيل، الرئيس الباكستاني، برويز مشرف، في أثناء حفل استقبال زعماء العالم في الامم المتحدة في الشهر نفسه الأضواء على تطور العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية، بالرغم من عدم وجود علاقات ديبلوماسية بين الطرفين، لاسيما أن تاريخ تلك العلاقات سادها العديد من الإشكاليات وعناصر الجذب والشد، حيث يطرح المختصون التساؤلات الآتية: ـ لماذا تغير موقف باكستان من إسرائيل وانتقل من الكلام السري إلى الكلام العلني بعدما كان الحديث عن العلاقات بين الطرفين من جانب الوسط السياسي الباكستاني من المحظورات؟ وماهي العوامل التي ساهمت في التأثير في العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية؟ ومن ثم ما هي انعكاسات العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية على الوطن العربي في المستقبل المنظور؟.

وفي سبيل الإجابة عن تلك التساؤلات، خصصت هذه الدراسة لاستكشاف ملامح التطور التاريخي والسياسي للعلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية قبل وبعد انتهاء الحرب الباردة،

(*) باحث في الشؤون الدولية والاستراتيجية، مركز الدراسات الدولية/جامعة بغداد.

فضلاً عن تأشير العوامل التي ساهمت في كبح العلاقات ودفعها إلى الأمام بين الطرفين، لتصل الدراسة إلى إثبات فرضيتها ومؤداها "إمكان حصول إنعكاسات سياسية وجيوسياسية "عسكرية" وأمنية جراء تطور العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية في المستقبل المنظور"، لأن هذه العلاقات سيكون لها بالتأكيد امتدادات ونتائج، ومن ضمن المناطق من المرجح أن تقع عليها تلك التأثيرات هي المنطقة العربية، ما يتطلب من الباحثين العرب مراقبة هذه التطورات، وقراءة الإفرازات الأولية التي يمكن أن تصل اليها جراء تطور العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية لتضعإستراتيجية مستقبلية أمام صانعي القرار العربي لاعادة كسب باكستان إلى جانب الصف العربي أو على الأقل تقليل حجم الخسائر السياسية التي يمكن أن يصاب بها الوطن العربي جراء تطور علاقة باكستان بإسرائيل.
وتنقسم هيكلية هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث: الأول يرصد طبيعة العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية قبل وبعد انتهاء الحرب الباردة، أما المبحث الثاني فيسلط الضوء على العوامل المؤثرة في العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية، وأخيراً يكشف المبحث الثالث إنعكاسات العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية على الوطن العربي.

المبحث الاول
طبيعة العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية
قبل وبعد انتهاء الحرب الباردة

نشطت إسرائيل قبل الحرب الباردة وبعد إنتهائها في التقرب من باكستان بعد إبداء الأخيرة رغبتها في مد جسور لتنمية علاقات متعددة الاوجه معها، وإن لم تؤطر بعلاقات دبلوماسية، لأن الطرفين يحاولان بناء مستويات مهمة من التعاون المشترك خشية من تعرض باكستان لانتقادات داخلية وإقليمية ودولية جراء علاقاتها مع إسرائيل، إلا أن الأمر لم يطل إذ أعلن الطرفان في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥ عن بدء جولة من المباحثات سعياً لرفع مستوى التعامل بينهما إلى التعامل الدبلوماسي. وسيتم استعراض تطورات تلك العلاقات والمجالات التي نشطت فيها وردود فعل الطرفين حول ذلك.

المطلب الاول
العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية قبل انتهاء الحرب الباردة

بعد صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ الذي جاء بعد إعلان اللورد بلفور مساندة بريطانيا لإقامة ما يسمى "وطن قومي يهودي" في فلسطين واحتلال الجنرال اللنبي للقدس، أعربت الجامعة الإسلامية التي كانت تقود النضال لقيام باكستان عن قلقها على سلامة أمن الاماكن المقدسة[1].

(١) ب.د كوماراسوامي، علاقات إسرائيل مع شبه القارة الهندية: رؤيتان هندية وإسرائيلية، معهد يافيت للدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٢/٧/١٠، ورد على موقع المعهد في الانترنيت: www.tau.ac.il.jcss

ويبدو أن النقد الحاد الذي وجهته الجامعة الإسلامية لإقامة ما يسمى "وطن قومي لليهود" يعود إلى جذور إسلامية قوية، حيث كانت فلسطين جزءاً من جزيرة العرب، ولذلك لم يكن من الممكن وضعها تحت حكم غير إسلامي، عدا تسليمها لغير المسلمين، إذ دعت الجامعة الإسلامية إلى إبطال الوعد، وكذلك إلى إلغاء الانتداب البريطاني على فلسطين(٢).

وقبل سنة من قيام إسرائيل عام ١٩٤٨، وبالتحديد في مطلع عام ١٩٤٧، كانت المداولات في الامم المتحدة دائرة لتحديد مستقبل فلسطين، حيث كانت باكستان آنذاك قد عارضت تقسيم فلسطين. وقد كانت كلمات وزير الخارجية الباكستاني آنذاك، ظفر الله خان، مؤثرة حول ذلك حيث قال "ان الامم المتحدة لا سلطة قانونية أو قضائية لها لتقسيم فلسطين"، فضلاً عن ذلك، قاد خان مجموعة من البلدان الإسلامية التي عارضت التقسيم، وعندما فشلت هذه المحاولة سعت باكستان إلى الحد من مساحة إسرائيل، واقترح خان عشية اقتراح الجمعية العمومية تقليص مساحة ما يسمى "الدولة اليهودية" عملياً ليقتصر على الأراضي التي كان يمتلكها اليهود، أي إعطاء اليهود ٤٠ في المئة فقط من المساحة المخصصة آنذاك لدولتهم، الامر الذي يجعل من المستحيل عملياً إقامة ما يسمى "دولة يهودية مستقلة"(٣). وقد صوتت كل من الهند وباكستان ضد المشروع الذي شكل الاساس القانوني لإقامة إسرائيل، بل إن باكستان صوتت ضد قبول إسرائيل في عضوية الامم المتحدة، وبعد أيام قليلة من قيامها طلبت هذه الاخيرة رسمياً اعتراف باكستان بها، لكن طلبها تم رفضه من قبل القيادة السياسية الباكستانية آنذاك(٤).

وقد حاولت إسرائيل الاتصال بباكستان في خلال فترة حكومة علي خان (١٩٤٨-١٩٥١) حيث أجريت لقاءات مهمة بينهما بهدف التأثير في الموقف الباكستاني من قرار تقسيم فلسطين(٥). ولم يقتصر الامر على هذه الاتصالات، بل توالت اللقاءات والمحادثات في أوائل عقد الخمسينات من القرن المنصرم في ظل حكومة خواجة نظام الدين (١٩٥١-١٩٥٣) كان أبرزها اللقاء بين الممثل الدائم لإسرائيل في الامم المتحدة ونظيره الباكستاني في ٧ نيسان /أبريل١٩٥٢ واللقاء بين الممثل الدائم لإسرائيل في الأمم المتحدة ووزير الخارجية الباكستاني آنذاك، ظفر الله خان، في نيويورك في ١٤ كانون الثاني/يناير١٩٥٣ حيث ناقشا خلاله إمكان اعتراف باكستان بإسرائيل(٦).

وقد حاولت باكستان مسك العصا من الوسط والتزام موقف براغماتي في علاقاتها مع إسرائيل من خلال تبني بعض القيادات السياسية مواقف أقل عداء لإسرائيل لا تتناسب وعدم اعتراف باكستان بها، مثل تصريح وزير الخارجية الباكستاني، ظفر الله خان، في أثناء زيارة للقاهرة في شباط /فبراير ١٩٥٢ "إن إسرائيل تعد عضواً في جسد منطقة الشرق الاوسط"، الامر الذي دعا القيادات الإسرائيلية واليهودية إلى الاهتمام بباكستان واعتبروا أن تلك التصريحات تمثل تعبيراً عن رغبة باكستانية في التقارب والتطبيع مع

(٢) المرجع نفسه.

(٣) د. أسعد عبد الرحمن، العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية - العربية، صحيفة الراي الاردنية، ٢٠٠٤/٣/٦.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) محمد فايز فرحات، تطبيع العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية: الدوافع والاشكالات، مجلة **السياسة الدولية**، العدد١٦٢، تشرين الاول/اكتوبر٢٠٠٥، ص ١٨٠.

(٦) المرجع نفسه. كذلك انظر: Procras-tion:more about Israel and pakistan K30/1/2004 from www.zackvision.com

إسرائيل(٧). وفي عام ١٩٥٣ عينت باكستان "محمد أسد" نائباً لرئيس بعثتها في الامم المتحدة، ومما يثير الانتباه أن أسد كان يهودياً ايطالياً ولد باسم ليوفولدفايس واعتنق الاسلام وهو في سن السابعة والعشرين، ومن ثم عاش في السعودية وتقدم في السلك الديبلوماسي الباكستاني، حيث كان ممثلو إسرائيل في الامم المتحدة الذين يتعاقبون يجرون اتصالات غير رسمية مع أسد منذ الخمسينات من القرن المنصرم(٨).

وبالرغم من دور باكستان في استبعاد إسرائيل عن مؤتمر باندونغ عام١٩٥٥ وعزلتها سياسياً واقتصادياً عن كتلة العالم الثالث، عادت في عام ١٩٥٦، ومع انفجار أزمة السويس التي شكلت في حينها مشكلة لباكستان التي وقفت مع الدول الغربية . وقد أعلن وزير خارجية باكستان يومئذ ان "إسرائيل وجدت لتبقى"(٩).

إلا أن موشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك اعترف أن باكستان دعمت العرب دعما عسكرياً محدوداً خلال حرب عام ١٩٧٣(١٠).

ولم تقف هذه التصريحات حجر عثرة دون استمرار التعاون الباكستاني - الإسرائيلي إذ تعاونت الاستخبارات الباكستانية مع الموساد الإسرائيلي منذ بداية الغزو السوفياتي لأفغانستان وذلك في مجال تقديم معلومات استخبارية والتدريب اللازم للمقاتلين الافغان(١١). ولم تقف إسرائيل عند حدود التعاون الاستخباري مع باكستان، بل دفعت الولايات المتحدة الأميركية لتجد لها وسائل مناسبة لتمتين العلاقات مع باكستان، وتكشف الكاتبة الباكستانية، سيماسيروفي، في مقال لها في صحيفة ويكلي اندبندنت الصادرة في لاهور الدور الأميركي في التقارب الإسرائيلي - الباكستاني في عقد الثمانينات حيث تقول "إن تشارلز ولسن عضو الكونغرس عن ولاية تكساس استطاع أن يفتح خطوط الاتصال بين الباكستانيين والإسرائيليين، حينما نجح في إتمام صفقة قدمت بموجبها إسرائيل إلى باكستان أطناناً من أسلحة المنظمات الفلسطينية التي كان الجيش الإسرائيلي استولى عليها في أثناء اجتياحه العاصمة اللبنانية(١٢).

ويبدو أن إسرائيل تهتم بباكستان كما يوضح الباحث الإسرائيلي ب. د كوماراسوامي للأسباب الآتية(١٣):

١ - تعتبر باكستان من البلدان الإسلامية المهمة والتي لها تأثير كبير في المنتديات الإسلامية مثل منظمة البلدان الإسلامية.

٢ - ابتعدت باكستان منذ استقلالها عن الدول المتطرفة في الشرق الأوسط، لكنها حافظت على صلات وثيقة مع الأنظمة الملكية المحافظة والموالية للغرب.

٣ - عملت عضوية باكستان في التحالفات العسكرية الغربية مثل السنتو على تعزيز موقعها حليفاً مهماً للغرب.

٤ - كانت مواقف باكستان حيال عدد من القضايا مثل ضرب الاردن للفلسطينيين في

(٧) المرجع نفسه.

(٨) يوسي ميليمان، رجل اعمال باكستاني زار إسرائيل، صحيفة **هارتس**، ورد على موقع الصحيفة بالانكليزية في الانترنيت: www.haaretz.co.il. ولمزيد من المعلومات حول حياة الديلوماسي الباكستاني، "محمد أسد"، انظر المقالة المهمة للكاتب الإسرائيلي، يهودا ليطاني، عدو يهودي في أسلام اباد، صحيفة **يديعوت احرونوت**، ٢٠٠٥/٩/٢٠، ورد على موقع الصحيفة بالعربية: www.arabynet.com

(٩) د. أسعد عبد الرحمن، العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية - العربية، مرجع سابق.

(١٠) المرجع نفسه.

(١١) المرجع نفسه. كذلك انظر محمد فايز فرحات، **تطبيع العلاقات الباكستانية- الإسرائيلية: الدوافع والاشكاليات**، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(١٢) لواء د. جمال مظلوم، العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية: الأبعاد العسكرية، مجلة **السياسة الدولية**، العدد١٦٢، مرجع سابق، ص ص ١٨٢ـ ١٨٣.

(١٣) ب. د كوماراسوامي، علاقات إسرائيل مع شبة القارة الهندية: رؤيتان هندية وإسرائيلية، مرجع سابق.

أيلول/سبتمبر ١٩٧٠ أو عودة مصر للجامعة العربية، تعزز المصالح الإسرائيلية في المنطقة أو تتسق معها.

٥ ـ تقدم باكستان لإسرائيل فرص الوصول لبلدان مهمة مثل إيران والسعودية.

٦ ـ تساعد العلاقات مع باكستان على تلطيف المعارضة الإسلامية لإسرائيل.

٧ ـ كان رفض الهند حتى عام ١٩٩٢ إقامة علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل يشكل حافزاً أضافياً لها للتودد إلى باكستان.

٨ ـ تقدم المخاوف المتجددة من القنبلة الإسلامية حافزاً إضافياً لإسرائيل في مسعاها للتقرب من باكستان.

كذلك باكستان فكانت تريد أن تتقرب من إسرائيل كما أوضح الباحث الإسرائيلي نفسه للأسباب الآتية(١٤):

١ ـ شرعت البلدان العربية منذ اتفاقات كامب ديفيد في التفاعل مع إسرائيل على الجبهة الديبلوماسية، وبدأت تسعى للوصول إلى تسوية تفاوضية للصراع العربي ـ الإسرائيلي ولا ترغب باكستان في أن تبقى خارج هذه العملية.

٢ ـ تقدم الاتصالات والعلاقات مع إسرائيل فرصة لباكستان لكي تؤدي دوراً نشطاً في عملية السلام في الشرق الاوسط.

٣ ـ ترى إسرائيل عاملاً حيوياً لعلاقات باكستان مع الولايات المتحدة الأميركية.

٤ ـ أفادت باكستان من تفاهمها مع إسرائيل في قضايا مثل المساعدات الاقتصادية الأميركية والتزود بالأسلحة.

٥ ـ تقدم الشكوك حول قلق إسرائيل بشأن برنامجها النووي حافزاً إضافياً لباكستان للوصول إلى تفاهم مع إسرائيل.

وهناك أسباب أخرى من وجهة نظر باكستانية تكشف أسباب باكستان للتقرب من إسرائيل وهي(١٥):

١ ـ تعزيز مكانة باكستان الإقليمية والدولية في منطقة جنوب آسيا ومحاولة إيجاد دور لها في حل أزمة الشرق الاوسط.

٢ ـ الرغبة في التعاون مع إسرائيل اقتصادياً، وتجارياً، وعسكرياً إسوة بالهند.

٣ ـ تحييد التحالف الهندي ـ الإسرائيلي وعدم انفراد الهند غريمتها بها.

٤ ـ تجميل صورة باكستان لدى الغرب عقب اتهامها بأنها مصدر الإرهاب وانتشار المدارس الإسلامية المتشددة في البلاد التي راوح عددها بين ٣٠و٤٠ الف مدرسة خلال التسعينات بعد أن كانت ٩٠٠ مدرسة عام ١٩٧١، واتهام مشرف بانه لا يقوم بما يلزم لتحجيم خطر التطرف والأصولية. ٥ ـ تحييد تل أبيب في الصراع الدائر بين اسلام أباد ونيودلهي حول كشمير وسباق التسلح النووي التقليدي بين البلدين.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) لواء د. جمال مظلوم، العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية: الأبعاد العسكرية، مرجع سابق، ص ١٨٣.

المطلب الثاني
العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية بعد انتهاء الحرب الباردة

بعد أنعقاد مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الاوسط عام ١٩٩١ واتفاقيات أوسلو في الربع الأول من عقد التسعينات من القرن الماضي، صرح السفير الإسرائيلي في نيودلهي بان "إسرائيل كانت تناقش مسألة الاعتراف بباكستان" لكن متحدثاً باسم وزارة خارجية باكستان رفض تلك الاقتراحات والمح إلى باكستان يمكنها في ظل شروط معينة النظر في هذه الخطوة(١٦).

وكشف يوسي ميليمان، مراسل صحيفة هارتس للشؤون العسكرية، أن غاد يعقوبي، سفير إسرائيل في الامم المتحدة، أجرى في السنوات ١٩٩٢ـ١٩٩٥ اتصالات ولقاءات مع السفير الباكستاني، جمشي ماركر، الذي كان رئيساً لمجلس الأمن في فترة معينة. وقد بادر يعقوبي إلى ترتيب لقاء سري بين إسحق رابين وماركر في ١٧ آذار/مارس١٩٩٣ حيث جرى اللقاء في منتصف الليل في فندق ولدرف أستوريا في نيويورك. وقال يعقوبي في شأن هذا الاتصال "رابين عبر عن الأمل في تطبيع العلاقات بين البلدين إثر إنشاء العلاقات مع الهند والصين" بينما قال ماركر من ناحيته "إن الاجواء في بلاده تسمح بإجراء علاقات مع إسرائيل في حالة حدوث تقدم حقيقي في عملية السلام"(١٧).

ويذكر ميليمان معلومات مهمة حول الدور التركي واللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة الأميركية في تقريب العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية، حيث يشير إلى لقاءات بين الطرفين في الفترة السابقة في واشنطن بين ممثلي الجانبين وعلى الاغلب بواسطة السفير التركي باكي يلكي وفي منزله، كما أن مجموعات الضغط المؤيدة لتركيا، ومن بينهم مارك سيغال رجل الاتصال بين جيمي كارتر مع الجالية اليهودية سابقاً وعضو الكونغرس السابق، تشارل ويلسون، شريك رجل الأعمال الإسرائيلي، تسفي رفياح، كانوا ضالعين في اتصالات مشابهة أيضاً(١٨).

ويذكر ميليمان تجربة أخرى في مجال آخر جرت في التسعينات بمبادرة رجل أعمال إسرائيلي، إذ حاول جلب سياح وحجاج باكستانيين إلى إسرائيل، الا أن تصاعد الموجة الاصولية في باكستان حولها إلى مركز لكراهية إسرائيل واليهود ولاسيما بعد مقتل الصحافي اليهودي الأميركي، دانيال بيرل، كمثال من أمثلة كثيرة على هذا التوجه(١٩).

وفي تشرين الاول/أكتوبر ١٩٩٥، أعلنت رئيسة الوزراء الباكستانية، بناظير بوتو، "إنه من غير الوارد الاعتراف بإسرائيل لأن القضايا الجوهرية للجولان ووضع القدس ما تزال تنتظر الحل" الا انها بعد ٤ أشهر بالضبط وبالتحديد في كانون الثاني/يناير١٩٩٦ أجرت صحيفة "يديعوت أحرونوت" واسعة الانتشار مقابلة معها حيث نددت في شدة باغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي، إسحق رابين، وقد أعربت عن تقدير باكستان لتحفظ إسرائيل

(١٦) ب. د كوماراسوامي، علاقات إسرائيل مع شبه القارة الهندية: رؤيتان هندية وإسرائيلية، مرجع سابق.

(١٧) يوسي ميليمان، رجل أعمال باكستاني زار إسرائيل، مرجع سابق .

(١٨) المرجع نفسه.

(١٩) المرجع نفسه.

في شأن الخلاف الأميركي - الباكستاني حول تزويد باكستان بطائرات F16 المقاتلة وإقرار تعديل بروان الذي يرفع جزئياً الحظر على شحن الاسلحة المتصلة بالتجارب النووية والمفروض على إسلام أباد(٢٠).

وقد اعترفت بوتو بصراحة بأن بلدها كان ينتظر اللاعبين الرئيسيين في المنطقة كي يقتربوا من إسرائيل بشكل أكثر، وأضافت تقول "عندما يفعلون ذلك ستكون باكستان قادرة على البت في الامر"(٢١). وبعد أشهر قليلة من تولي نواز شريف رئيس الوزراء الباكستاني في كانون الاول/ديسمبر١٩٩٧ الحكم زار إسرائيل مولانا أجمل قادري رئيس جمعية علماء الاسلام وهي جماعة تدافع عن تبنّي دستور مبنّي على تعاليم السنة الإسلامية، ورأى المراقبون أن تلك الزيارة لم تكن محصورة بمسألة حج المسجد الاقصى ثالث أقدس الاماكن الإسلامية، وعند عودته إلى باكستان دعا إلى الاعتراف بإسرائيل انطلاقاً من أفضل مصالح لفلسطين(٢٢).

وفي آب/أغسطس ١٩٩٧ روت وسائل الإعلام الإسرائيلية أن وفداً من الزعماء الدينيين الباكستانيين أمضوا أسبوعاً في إسرائيل، وأنه إضافة لزيارة الاماكن الإسلامية المقدسة، التقوا كذلك مع مسؤولين من وزارة الخارجية الإسرائيلية وأيدوا فكرة تشجيع السياحة الدينية من باكستان. كذلك أعلن ميرزا إسلام بيج(*)، زعيم حزب عوامي في الشهر التالي أنه لا خلافات مباشرة لباكستان مع إسرائيل ولذلك " فنحن طرف ثالث في النزاع ولا ندخل في صراع مع إسرائيل ولذلك يجب ألا نتردد في الاعتراف بها"(٢٣).

وفي التاريخ نفسه ذكرت وسائل الإعلام أخباراً مفادها أن ديبلوماسيين باكستانيين كانوا يتصلون بديبلوماسيين إسرائيليين في أثناء جلسات مؤتمر نزع السلاح في جنيف(٢٤).

وفي نهاية شهر حزيران /يونيو٢٠٠٣ زار إسرائيل رجل أعمال باكستاني قيل إنه مقرب من رئيس باكستان، الجنرال برويز مشرف، وقد وصف المراقبون شعور الإسرائيليين الذين أجروا الاتصالات معه بأن زيارته لم تكن تجارية بحتة، وأنها تهدف إلى جس النبض وتفحص إمكانية إقامة علاقات أولية بين الطرفين، حيث كانت زيارته قد تمت بالتنسيق مع شخصية من وزارة الخارجية الإسرائيلية(٢٥). وفي الوقت نفسه جدد الرئيس الباكستاني برويز مشرف التأكيد على نيته إعادة النظر في علاقات إسلام أباد مع إسرائيل مشيراً إلى أن هذا يعتمد على عملية السلام في الشرق الاوسط . وقال مشرف في ختام زيارة رسمية إلى فرنسا في الثالث من تموز/يوليو٢٠٠٣ "مطلوب من باكستان في هذه اللحظة بسبب عملية السلام هذه التي تتقدم، تحليل علاقاتها مع إسرائيل ومراجعتها بالنظر إلى مصالحنا الوطنية". وأقر مشرف أن هذه القضية تعد أمراً شائكاً في باكستان لكنه قال "إن الأحداث في الشرق الاوسط تتطلب اهتماماً" وأكد مشرف أنه سيحاول أن يطور اجماعاً وطنياً حول ما اذا كانت باكستان ستعترف بإسرائيل أم لا" مشدداً على أن

(٢٠) ب. د كوماراسوامي، علاقات إسرائيل مع شبه القارة الهندية: رؤيتان هندية وإسرائيلية، مرجع سابق.

(٢١) المرجع نفسه.

(٢٢) المرجع نفسه.

(*) ميرزا إسلام بيج، عمل رئيساً لأركان الجيش الباكستاني خلال الفترة ١٩٨٨-١٩٩١.

(٢٣) المرجع نفسه.

(٢٤) المرجع نفسه.

(٢٥) تصريحات مشرف في شأن العلاقات مع إسرائيل: حصاد مر لاتصالات سرية بين الطرفين، مجلة العصر، ٢٠٠٣/٧/١١، ورد على موقع المجلة في الانترنيت: www.alasr.ws

"التطبيق الكامل لخريطة الطريق في الشرق الاوسط سوف يحدد بالفعل لموقف الباكستان النهائي"[٢٦].

وفي الأول من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، عقد وزيرا الخارجية الإسرائيلي، سيلفان شالوم، والباكستاني، خورشيد محمود قصوري، لقاء وصفته وزارة الخارجية الإسرائيلية بأنه "تاريخي" في العاصمة التركية "إستانبول"، وهذا أول لقاء علني يعقد بين مسؤولين إسرائيليين وباكستانيين على هذا المستوى. وتم في خلال اللقاء بحث مسائل مختلفة ذات الاهتمام المشترك على الصعيدين الدولي والاقليمي، فضلاً عن مسائل ثنائية منها مواصلة الحوار بين الطرفين، وتطوير العلاقات بين إسرائيل وباكستان. وعللت وزارة الخارجية الإسرائيلية حدوث هذا اللقاء بالروح الجديدة التي تهب في المنطقة عقب تنفيذ إسرائيل خطة الانفصال وخروجها من قطاع غزة[٢٧].

وقد أعلنت باكستان من خلال وزير خارجيتها أن إسلام أباد قررت التحرك على هذا الصعيد بعد الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة، مشيراً إلى انه تم ابلاغ الرئيس الفلسطيني، محمود عباس، بهذه الخطوة ورحب بها. من جانبه وصف وزير الخارجية الإسرائيلي، سيلفان شالوم، اللقاء بأنه "تاريخي" وأعرب عن أمله في ان يكون التقارب مع باكستان نموذجاً لعلاقات افضل مع دول العالم الإسلامي[٢٨].

وأبدى شالوم شكره للرئيس الباكستاني، برويز مشرف، وقال "إنه تحرك بشجاعة على طريق دعم السلام" وقال وزير الخارجية الإسرائيلي "إنه ليس من قبيل الصدفة أن يعقد مثل هذا اللقاء في تركيا" التي وصفها "بالبلد الإسلامي الديموقراطي". ومضى شالوم بالقول "ان هذه اللقاءات ستنتهي إلى إقامة علاقات ديبلوماسية كاملة " ورأى شالوم" أن فتح السفارات مسألة وقت" كما حرص شالوم على تأكيد أن التقارب مع باكستان ليس موجهاً ضد أحد، في إشارة إلى الهند التي قال "إن لها علاقات طيبة مع تل أبيب"[٢٩].

وقد اعلنت وزارة الخارجية الإسرائيلية أن اللقاء بين شالوم وقصوري جاء بمبادرة من الرئيس الباكستاني، برويز مشرف، الذي طلب من رئيس الوزراء التركي، رجب طيب أردوغان، القيام بدور الوسيط في هذا الصدد، واعتبر المتحدث باسم وزارة الخارجية الإسرائيلية أنه لا أسباب منطقية للصراع والمواجهة مع باكستان وقال "انه في إمكان البلدين إقامة علاقات طيبة وإيجابية"[٣٠].

وشدد شالوم عقب اللقاء مع نظيره الباكستاني على "أن تطوير العلاقات مع باكستان لن يأتي على حساب العلاقات الجيدة جداً القائمة بين إسرائيل والهند" كما أكد "أن علاقات إسرائيل مع الهند ليست موجهة ضد أي دولة ثالثة ويجب ألا تكون بمثابة عقبة في طريق العلاقات بين إسرائيل وباكستان"[٣١].

ورأى شالوم "أن باكستان اجتازت عبر اللقاء مرحلة حاسمة نحو علاقات مع إسرائيل"

(٢٦) مشرف يجدد نيته إعادة النظر في الاعتراف بإسرائيل، قناة الجزيرة نت، ورد على موقع الجزيرة في الانترنيت: www.aljazeera.net

(٢٧) وزير الخارجية الإسرائيلي يجتمع في استانبول مع وزير الخارجية الباكستاني، موقع تواصل، موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية، ورد الموقع في شبكة الانترنيت: www.altawasal.net

(٢٨) إسرائيل وباكستان تتفقان على اقامة علاقات ديبلوماسية، قناة الجزيرة نت، ٢٠٠٥/٩/١.

(٢٩) المرجع نفسه.

(٣٠) المرجع نفسه.

(٣١) وزير الخارجية الإسرائيلي يجتمع في استانبول مع وزير الخارجية الباكستاني، مرجع سابق.

وقال "إن هذااللقاء يكتسي أهمية بالغة وتأمل ان يكون مقدمة لإقامة علاقات مع باكستان تشبه تلك التي تقيمها إسرائيل مع الهند وعلى المستوى نفسه أي السفراء"[٣٢]. وبالرغم من كل تلك التصريحات، فإن المتحدث باسم الرئيس الباكستاني قال في حديث إلى الإذاعة الإسرائيلية العامة "إن باكستان لن تقيم علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل الا بعد إنشاء دولة فلسطينية مستقلة"[٣٣]. وقال الجنرال شوكت سلطان "يمكننا أن نقيم علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل بعد إنشاء دولة فلسطين، وبعد مشاورات بين باكستان ودول اسلامية اخرى"[٣٤]. ونفى مسؤولون باكستانيون أن يكون اللقاء خطوة نحو الاعتراف بإسرائيل التي لم تُقِم باكستان علاقات ديبلوماسية معها طوال ستة عقود. وصرح ديبلوماسي باكستاني لوكالة فرانس برس إن اللقاء يجري على خلفية الأحداث الاخيرة بين إسرائيل والفلسطينيين للتوصل إلى تسوية سلمية في الشرق الاوسط. وأكدت باكستان دائماً أنها لن تعترف بإسرائيل ما لم يتم التوصل إلى حل دائم للقضية الفلسطينية لكنها رحبت أخيراً بانسحاب إسرائيل من قطاع غزة[٣٥].

وقد حاولت باكستان تبرير لقائها العلني مع إسرائيل وربطه بالقضية الفلسطينية، وقال وزير الخارجية الباكستاني ان بلاده "قررت بالتشاور مع الفلسطينيين والعاهل السعودي، الملك عبد الله بن عبد العزيز، اجراء محادثات مع إسرائيل بسبب ما تراه بداية لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للاراضي الفلسطينية"[٣٦].

ومن ناحيته، قال الرئيس الباكستاني "يتعين علينا مراجعة سياستنا باستمرار ويجب أن تتسق مع المناخ العالمي"، واكد "ان الخطوة الباكستانية تحظى بتاييد العاهل السعودي، الملك عبد الله، والرئيس الفلسطيني، محمود عباس"[٣٧]. ورغم أن الرئيس الفلسطيني لم يعلق علناً فقد قال نائب رئيس الوزراء الفلسطيني، نبيل شعث، "أن السلطة الفلسطينية لا تعتقد أن الوقت مناسب لمنح إسرائيل مكافآت قبل ان تبرهن على التزامها الحقيقي بالسلام". وحثت حركة حماس باكستان على اعادة النظر في قرارها"[٣٨].

وتوالت تصريحات الرئيس الباكستاني لدعم لقاء وزير خارجيته مع الوزير الإسرائيلي والذي أطره بمصافحته في منتصف شهر ايلول/سبتمبر ٢٠٠٥ رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون في حفل استقبال لزعماء العالم في الأمم المتحدة، حيث أشاد مشرف بانسحاب إسرائيل من قطاع غزة بوصفه خطوة جرئية وقال "من حق الدولة اليهودية في الوجود لا يمكن الان منازعته". وقال مشرف "هذا أمر كان من المحاظير في باكستان"[٣٩]. وأضاف "إن مباحثات استانبول جرت لأننا رأينا الخطوة الجريئة التي اتخذها رئيس الوزراء آرييل شارون في غزة وإخلاء بعض المستوطنات في الضفة الغربية". واضاف "إنه حان الوقت الذي يتعين فيه أن نظهر من جانبنا تقدماً في العلاقات". وكرر مشرف "أن تحقيق مزيد من التقدم نحو إقامة علاقات ديبلوماسية سيكون رهناً بإقامة دولة فلسطينية"

(٣٢) إسرائيل وباكستان تتفقان على اقامة العلاقات الديبلوماسية، قناة العربية، ٢٠٠٥/٩/١، ورد على موقع القناة في الانترنيت: www.alarabiya.net
(٣٣) المرجع نفسه.
(٣٤) المرجع نفسه.
(٣٥) المرجع نفسه.
(٣٦) باكستان: اتصالاتنا بإسرائيل تحظى بمباركة سعودية، ورد على الموقع التالي في الانترنيت: www.fasadalsaud.tripod.com
(٣٧) المرجع نفسه.
(٣٨) المرجع نفسه.
(٣٩) مشرف: إسلام اباد حطمت محظورات في التعامل مع تل أبيب، صحيفة الزمان، العدد ٢٢١٥، ٢٠٠٥/٩/١٧.

ووصف التقارب بأنه "منهج الخطوة خطوة" واستدرك بقوله "لقد ادرك الجميع تقريباً أن إسرائيل هناك الآن لتبقى"(٤٠).

وعن تطبيع العلاقات بين باكستان وإسرائيل، أعلن الرئيس الباكستاني أن بلاده ستتخذ خطوات باتجاه تطبيع العلاقات مع إسرائيل وصولاً إلى إرساء علاقات ديبلوماسية كاملة بين الطرفين تزامناً مع تقدم عملية السلام في الشرق الأوسط، وجاء كلام مشرف في أثناء حفل عشاء مع اعضاء المجلس اليهودي - الأميركي في نيويورك(٤١).

وبعد ثلاثة اشهر من لقاء شالوم - قصوري، وبالتحديد في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥، زار إسرائيل وفد باكستاني كبير يضم ١٧٠ شخصاً عقد لقاء مع رئيس الوزراء الإسرائيلي اريل شارون. ويرى بعض المراقبون أن زيارة الوفد الباكستاني الذي لا يحمل صفة رسمية أحد اوجه العلاقة غير الرسمية الصناعية بين إسرائيل وباكستان . وكانت ناطقة باسم وزارة الخارجية الباكستانية نفت أن تكون الحكومة قد أرسلت هذا الوفد أو مولت زيارته(٤٢).

المبحث الثاني
العوامل المؤثرة في العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية

تعرضت ولا تزال تتعرض العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية إلى مجموعة من العوامل التي قد تدفع تلك العلاقات نحو التنامي المضطرد أو قد تساهم في كبح تلك العلاقات. ويمكن استعراضها بنوع من التفصيل، وكما ياتي.

المطلب الاول
العوامل الداخلية

يوجد داخل باكستان تياران الأول يساند التطبيع مع إسرائيل والثاني ضد هذه العملية. بالنسبة إلى التيار الاول، ظلت عناصره لوقت طويل مجهولة أو أقل ظهوراً للتعبير عن آرائها لأنهم وكما يقول الباحث الإسرائيلي، كوماراسوامي، "كانوا يتهمون بالتآمر أو العمالة لإسرائيل".ولكن الذين يؤيدون الاعتراف المشروط اصبحوا في الفترة الاخيرة، اكثر ظهوراً واكثر ميلاً إلى التأكيد على مواقفهم، حيث ظهرت تصريحات إيجابية حول خطوات باكستان للتقرب من إسرائيل من روساء الوزارات والمقربين منهم ومن الديبلوماسيين والجنرالات المتقاعدين وفوق كل ذلك من القادة الدينيين(٤٣). ويرى كوماراسوامي أنه "لم يعد هناك إجماع على عدم الاعتراف بإسرائيل، وأصبح يوجد الكثير والكثير من الشخصيات التي تطالب بإجراء تغيير في السياسة، ذلك أن اتفاقات أوسلو وتزايد الاتصالات والمباحثات المباشرة مع إسرائيل من جانب مختلف البلدان العربية قد اثارا

(٤٠) المرجع نفسه.

(٤١) اتجاه لتطبيع العلاقات بين باكستان وإسرائيل، اذاعة بريطانيا باللغة العربية، ورد على موقع الاذاعة في الانترنيت www.bbcarabic.com

(٤٢) الباكستانيون زاروا إسرائيل ولم يزوروا الاراضي الفلسطينية، صحيفة الحياة، العدد ١٥٥٧٠، ٢٠٠٥/١١/٢٠، ص ٥.

(٤٣) ب. د كوماراسوامي، علاقات إسرائيل مع شبه القارة الهندية: رؤيتان هندية وإسرائيلية، مرجع سابق.

المخاوف في باكستان من أنها ستظل خارج العملية. وفي الوقت نفسه، ليست باكستان مستعدة للتحرك بسرعة إلى الأمام وأن تواجه بذلك عداء بعض البلدان المهمة في المنطقة(٤٤).

وتكشف احدى الدراسات معلومات مهمة حول امتداد الاتجاهات المؤيدة للاعتراف بإسرائيل داخل المجتمع الباكستاني، ومنها داخل قطاع التجارة ورجال الأعمال، ذلك أن هؤلاء ينظرون إلى هذه العلاقة بأنها ستفتح آفاقاً جديدة للتعامل التجاري مع منطقة الشرق الاوسط، ونظرتهم تتركز على أن تمسك باكستان بعدم الاعتراف بإسرائيل قد فقد قيمته بفعل عدد من التحولات الهيكلية في منطقة الشرق الأوسط وجنوب آسيا(٤٥). ويرى بعض المراقبين أن برويز مشرف قد استغل هذا المناخ لدعم سياسته الهادفة إلى تهميش دور المدارس الدينية والتعليم الديني في باكستان الأمر الذي قد يضعف من نفوذ التيارات الإسلامية المناهضة للتوجه الحكومي الباكستاني لتطبيع العلاقات مع إسرائيل(٤٦).

أما التيار الثاني فهو ضد التطبيع مع إسرائيل، ويرى يوسي ميليمان، مراسل صحيفة "هآرتس" للشؤون العسكرية أن "الأصولية الإسلامية تبقى الحاجز الذي يحول دون حدوث انطلاقة في العلاقات مع إسرائيل، حيث عبرت هذه التنظيمات عن غضبها الشديد من تصريحات مشرف حول إسرائيل، مؤكدة أن ذلك ضد عودة ملايين اللاجئين الفلسطينيين لمنازلهم"(٤٧). ويذكر أن مشرف قد اثار غضب الاحزاب الإسلامية القوية في بلاده عندما دعا إلى نقاش علني حول التفكير بالتطبيع مع إسرائيل حيث تعارض هذه الاحزاب هذا الأمر، كما تعارض تحالفه مع الولايات المتحدة الأميركية ومحاولاته إدخال الحداثة على مدارس تعليم القرآن وحملة القمع التي شنها على الجماعات الإسلامية، كما تعارض في شدة الاعتراف بإسرائيل(٤٨).

وقد صعدت الأحزاب الإسلامية من لهجتها ضد الخطوة الحكومية الباكستانية لعقد لقاء بين وزيري خارجية إسرائيل وباكستان، حيث ندد حزب المعارضة الإسلامي الرئيسي في باكستان بقرار بدء التعامل ديبلوماسياً مع إسرائيل وقال "إنه سيرفع أعلاماً سوداً في يوم احتجاج على هذه الخطوة". وقال شهيد شمسي، المتحدث باسم تحالف الاحزاب الإسلامية "ندين اللقاء في شدة ودعونا إلى تنظيم يوم احتجاجي في أنحاء البلاد للتعبير عن غضبنا واحتجاجنا على هذه الخطوة "(٤٩).

وهناك جملة من المحددات الداخلية التي يمكن أن تشكل عائقاً لتطبيع العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية، ويوضحها الباحث الإسرائيلي كوماراسوامي، كما يأتي(٥٠):

١ ـ تؤدي الاعتبارات والتفسيرات الإسلامية دوراً مهماً في تشكيل سياسة باكستان نحو إسرائيل، حيث كانت تعتبر نفسها وطناً للمسلمين الهنود حيث ترى نفسها نموذجاً للدولة الإسلامية.

(٤٤) المرجع نفسه.
(٤٥) محمد فايز فرحات، تطبيع العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية: الدوافع والاشكاليات، مرجع سابق، ص ١٨٠.
(٤٦) المرجع نفسه، ص ١٨١.
(٤٧) يوسي ميليمان، رجل اعمال باكستاني زار إسرائيل، مرجع سابق.
(٤٨) مشرف يجدد نيته إعادة النظر والاعتراف بإسرائيل، مرجع سابق.
(٤٩) باكستان: اتصالاتنا بإسرائيل تحظى بمباركة السعودية، مرجع سابق.
(٥٠) ب. د كوماراسوامي، علاقات إسرائيل مع شبه القارة الهندية: رؤيتان هندية وإسرائيلية، مرجع سابق.

٢ ـ تبنّى مسلمو شبه القارة الهندية قبل التقسيم وبعده موقفاً محافظاً حيال قضايا الشرق الاوسط. فمثلاً كانت مواقفهم من القضايا الإسلامية الحساسة مثل استعادة الخلافة في العشرينات، أو القضية الفلسطينية اكثر تطرفاً من مواقف المسلمين في بلدان الشرق الأوسط. ويعزى جزئياً تردد الهند الطويل في إقامة علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل إلى معارضة السكان المسلمين داخل الهند، ولما كانت باكستان دولة اسلامية فإن مشاكلها مضاعفة.

٣ ـ تعاني باكستان في شدة من عدم الاستقرار الداخلي منذ استقلالها، الأمر الذي يقود إلى تدخل العسكر في العملية السياسية. ولكي يضفي السياسيون والعسكريون شرعية على مواقفهم فهم يسعون إلى استرضاء علماء الدين من خلال الالتزام ببقاء باكستان دولة إسلامية.

٤ ـ تحتل نظريات المؤامرة مكاناً مرموقاً ومهماً في الحياة السياسية الباكستانية. وتصور إسرائيل في غالب الأمر كدولة تتعاون مع الجارة الهند. وتتآمر على كل من باكستان والعالم الإسلامي. ومع إدخال الديموقراطية في باكستان، أقحمت إسرائيل في السياسات المحلية، إذ يتهم كل حزب سياسي أعداءه بالعمالة لإسرائيل، ولذلك فإن تصوير إسرائيل بعبارات سلبية يعوق تناول العلاقة معها تناولاً عقلانياً.

المطلب الثاني
العوامل الإقليمية

تتوزع العوامل الإقليمية على متغيرات تشترك فيها عناصر عدة هي:

أولا: العلاقات الباكستانية ـ الهندية:

تمتاز العلاقات الباكستانية ـ الهندية بنوع من التوتر بسبب إشكالية قضية كشمير. وقد حاولت إسرائيل تأجيج العلاقات بين الطرفين، وقد كشفت مصادر عدة عن اتساع المحاولات الإسرائيلية بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر٢٠٠١ المدعومة أميركياً لتصعيد التوتر بين الطرفين وإشعال نيران الحرب بينهما. وتهدف هذه المحاولات بشكل أساس، إلى ضرب الأسلحة النووية الباكستانية التي لا تزال السلطات الإسرائيلية تسميها "القنبلة النووية الإسلامية" وذلك على الرغم من الدعم السوقي التعبوي غير المحدود الذي قدمته إسلام أباد لحملة الحرب الأميركية على أفغانستان[٥١].

وذكرت صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية إن الإدارة الأميركية أعطت موافقة مبدئية على بيع الهند طائرات رصد وتجسس إسرائيلية من طراز فالكون وتتعلق هذه الصفقة بثلاث طائرات رادار مزودة بأجهزة إنذار مبكر من نوع فالكون، وطائرة نقل روسية ايليوشين ٧٦ مجهزة بنظام رادار للإنذار فائق التطور (اواكس) وتقدر قيمتها بـ٢٥٠ مليون دولار[٥٢].

(٥١) مساع اميركية صهيونية لإشعال حرب رابعة بين الهند وباكستان، صحيفة الجمهورية البغدادية، العدد ١٠٧١، ٢٠٠١/١٢/٢٥.

(٥٢) المرجع نفسه.

ويرى أغلب المراقبين لهذا الملف أن لإسرائيل مصالح قوية في اندلاع حرب في شبة القارة الهندية، وخصوصاً أن هذه الحرب ستؤدي، بحسب توقعات إسرائيل إلى تعزيز مكانتها الإستراتيجية ليس فقط عبر ترسيخ موقعها على انها " قلعة الغرب" الاساسية في جنوب آسيا والشرق الاوسط كله، بل أيضاً عبر حدوث تحول نوعي في دورها على الصعيدين الإقليمي والدولي(٥٣).

بل إن إسرائيل تراهن على أن تؤدي مثل هذه الحرب إلى تطوير علاقاتها مع الهند وصولاً إلى مستوى التحالف الإستراتيجي، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى حلف إقليمي على مستوى جنوب وغرب اسيا ركائزه إسرائيل والهند وتركيا. وهذا ما أشار اليه الإسرائيليون عندما أعلنوا أن صور قمرهم الصناعي التجسسي الجديد" أفق٥" ستكون متوافرة أيضاً لأنقرة والهند، وقالت إن الوصول إلى تحقيق تحالف إستراتيجي مع هذه الدولة القوية ذات الثقل السكاني الهائل، حيث يمكن إسرائيل أن تحقق توازناً مستقبلياً مع القوة البشرية الهائلة في العالم الإسلامي، كذلك تحقيق رغبة الهند وإسرائيل المشتركة في تحجيم باكستان من قدراتها النووية، سيعني انقلاباً نهائياً في ميزان القوى يجعل من إسرائيل المتفوقة على المسلمين جميعاً(٥٤).

وبالرغم من فاعلية الدور الإسرائيلي في تأجيج العلاقات الباكستانية ـ الهندية فإن باكستان ظلت تمارس دوراً عقلانياً لمخاطبة الهند للاتفاق على حل قضية كشمير. وآخر تلك المحاولات طلب باكستان في نهاية شهر آذار/مارس ٢٠٠٦ من الهند تقديم مقترحات لحل قضية كشمير وإظهار جدية أكبر لحل النزاع في ظل رفض هندي متكرر للمقترحات الباكستانية. وجاءت المطالبة على لسان الناطقة باسم الخارجية الباكستانية، تسنيم اسلم، في رد على رفض الهند الأخير على لسان مستشار الأمن القومي، امكي نارايانان، مقترحاً قدمه الرئيس برويز مشرف تحدث فيه عن إمكانية إدارة مشتركة لكشمير. وأشارت اسلم إلى أن بلادها قدمت مقترحات عدة لحل قضية كشمير من حكم الكشميريين أنفسهم بأنفسهم إلى جعل كشمير، منطقة منزوعة السلاح والإدارة المشتركة لها. وقد تداول بعض هذه المقترحات القيادات الكشميرية، ولقي البعض الآخر استحسان قطاع واسع من الكشميريين وقادتهم(٥٥).

ويذكر أن الهند منذ حوارها مع باكستان عام٢٠٠٤ حول كشمير لم تقدم أي مقترح سوى إبداء رغبة بإبقاء الأمور على ما هي عليه أي اعتماد خط الهدنة حدوداً دولية، لكنها تكرس في الميدان الامر الواقع المتمثل بتسييج خط الهدنة(٥٦).

ويعتقد المحلل السياسي، اسم بت راي، أنه ليس ممكناً حل قضية كشمير ثنائياً بحوار باكستاني ـ هندي قائلا "إن الحكومات الباكستانية السابقة كانت تدرك ذلك، وهو ما جعلها تشعر بالحاجة إلى تدخل دولي". وأضاف بت "إن نيودلهي تسعى لكسب الوقت

(٥٣) دور صهيوني في إشعال الحرب بين الهند وباكستان، ٢٠٠٢/٦/٢، ورد على الموقع التالي في الانترنيت: www.islamtoday.net

(٥٤) المرجع نفسه.

(٥٥) باكستان تطالب الهند بجدية أكبر إزاء حوار كشمير، صحيفة العدالة، العدد٦٣٥، العراق، ٢٠٠٦/٣/٢٢، ص ١٠.

(٥٦) المرجع نفسه.

وتحافظ على التهدئة مع باكستان لتقول للمجتمع الدولي إنها دولة نووية مسؤولة وليس لديها نزاع سياسي مع دول الجوار، وإنها بذلك تستحق نظرة المجتمع الدولي هذه لا سيما بعد الاتفاق النووي الاخير مع واشنطن(٥٧).

ويعتقد بت أن زيارة الرئيس الأميركي، جورج بوش، الأخيرة لكل من الهند وباكستان زادت الامر تعقيداً، بعد تعهده لنيودلهي بعدم وجود أي نية للتوسط بقضية كشمير والاكتفاء بتشجيع البلدين على مواصلة الحوار(٥٨).

ثانيا: العلاقات الهندية ـ الإسرائيلية:

أبدت باكستان قلقاً من تنامي العلاقات الهندية ـ الإسرائيلية، وخصوصاً في المجال العسكري، وحذرت من أنها ستتخذ كل إجراء ممكن لمضاهاة أي أنظمة أسلحة متقدمة قد تبيعها تل أبيب لنيودلهي. وأوضح وزير الخارجية الباكستاني، خورشيد محمود قصوري "سنبذل قصارى جهدنا للتأكد من الحفاظ على حد من التوازن. لقد فعلنا ذلك". ودعا الولايات المتحدة الأميركية "إلى منع، إسرائيل من محاولة إدخال أنظمة أسلحة جديدة إلى جنوب آسيا، لاننا سنقوم بمضاهاتها وسنقيم قوة ردع موثوق بها"(٥٩).

وكانت باكستان قد اعربت عن قلقها من المساعدة الإسرائيلية لخصمها اللدود، الهند، وخصوصاً بعد زيارة للهند قام بها رئيس الوزراء الإسرائيلي، ارييل شارون، في الأسبوع الاول من شهر ايلول/سبتمبر٢٠٠٣، وأثارت تكهنات بعلاقات دفاعية اوثق بين البلدين من ضمنها اتفاقات دفاعية، بينها بيع أنظمة إسرائيلية للتحذير المبكر المحمولة جواً تزيد قيمتها على مليار دولار ستمكن الهند من وضع أجزاء شاسعة من باكستان تحت رقابتها، كذلك تسعى الهند لشراء أنظمة صواريخ "أرو" المضادة للصواريخ الذاتية الدفع من إسرائيل في صفقة حجمها ٢٠٥ مليار دولار، أي انها لم تحصل على موافقة الولايات المتحدة الأميركية على هذه الصفقة(٦٠).

ثالثا: العلاقات التركية ـ الإسرائيلية:

احتضنت تركيا لقاء وزير الخارجية الإسرائيلي ونظيره الباكستاني في ايلول/سبتمبر ٢٠٠٥، ويعتقد المراقبون أن ذلك له علاقة بموازنة العلاقة التركية ـ الإسرائيلية ـ الأميركية، حيث إن تركيا تحاول أن تخفف من شدة الادعاءات الأميركية حول المجازر الأرمنية في مقابل قيام تركيا بدور الوسيط أو الراعي لأي مفاوضات مشتركة بين إسرائيل ودولة إسلامية كعربون صداقة لإسرائيل والولايات المتحدة الأميركية، بالرغم أن العلاقات التركية ـ الإسرائيلية توطدت في شباط/فبراير١٩٩٦ بتوقيع الاتفاق العسكري مع إسرائيل الذي فتح آفاقاً جديدة للعلاقات التركية ـ الإسرائيلية(٦١).

ويبدو أن رئيس الوزراء التركي لم يتردد في مساعدة تل أبيب في مساعيها لاختراق العالم الإسلامي بالعلاقة مع باكستان وعبر منظمة المؤتمر الإسلامي الذي يترأسه التركي اكمل

(٥٧) المرجع نفسه.
(٥٨) المرجع نفسه.
(٥٩) قلق باكستاني من تعاون إسرائيل والهند عسكرياً، صحيفة الحياة، العدد١٤٧٨٤، ٢٠٠٣/٩/١٥.
(٦٠) المرجع نفسه.
(٦١) أسباب مساهمة حكومة اردوغان في التقريب بين إسرائيل وباكستان، ورد على الموقع التالي في الانترنيت: www.voltairenet.org

الدين احسان اوغلو. وقد يفكر أردوغان تسخيره خدمة لحساباته الإقليمية السياسية منها والاقتصادية، وهذه المرة بالتنسيق مع واشنطن التي تريد لتركيا أن تضطلع بأدوار مهمة في المنطقة في إطار ما يسمى "الشرق الاوسط الكبير"، وهو ما يتطلب تسويق تجربة حزب العدالة والتنمية الإسلامية المثيرة إلى دول المنطقة التي للولايات المتحدة الأميركية علاقات تحالفية مع العديد من أنظمتها وحكوماتها التي قد ترى في تحركات أردوغان ما يرضيها ويغطي عليها حواراتها السرية والعلنية مع إسرائيل(٦٢).

المطلب الثالث
العوامل الدولية

بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ دخلت العلاقات الباكستانية ـ الأميركية عهداً جديداً تمثل في الضغوط الأميركية لكسب باكستان في الحملة التي قادتها الولايات المتحدة الأميركية لمحاربة ما تسميه واشنطن "الإرهاب الدولي"، الا أن بعض الباحثين الآسيويين يرون أن التحرك الأميركي تجاه باكستان تدفعه عوامل أخرى يستعرضها الباحث شهيد آلام shahid alam(٦٣).

العوامل السياسية:

تطمح الولايات المتحدة الأميركية إلى توثيق التقارب بين إسرائيل وباكستان، باعتبار الاخيرة حليفاً مهماً لواشنطن في جنوب آسيا، وهذا لا يتم بالطبع من دون تبادل المصالح بين حكومتي واشنطن وإسلام اباد، حيث تعهد الرئيس جورج بوش بدعم ولاية حكم للرئيس الباكستاني، برويز مشرف، مع تعهد الأخير بتسهيل السبل لتوطيد العلاقات مع تل أبيب بالرغم من الاعتراضات من قبل الأطراف الإسلامية الباكستانية التي تعارض التطبيع مع إسرائيل.

العوامل الاقتصادية:

سعت واشنطن في اطار علاقاتها مع باكستان لتأمين مصادر اقتصادية غنية ومنها مع الأخيرة، وهذا لا يخرج من مخططاتها لضم باكستان إلى مشروعها المعروف بالشرق الأوسط الكبير، الذي يضم إسرائيل التي ستكون في موقع افضل لجعلها القوة العظمى الاكبر في الشرق الأوسط، لا بل القوة الإقليمية الوحيدة في المنطقة.

المبحث الثالث
انعكاسات العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية على الوطن العربي

ساهم الرئيس الباكستاني برويز مشرف في تنمية العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية، لا بل طالب برويز الشعب الباكستاني بالاعتراف بإسرائيل على أساس أنه "ليس هناك سبب

(٦٢) المرجع نفسه.

(٦٣) Shahid Alam, Pakistan-Israel Rapprochement: a Speculation Turns Real. the New Nation. Bangladeshs Independent News Source. 6/9/2005.

لأن نكون فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين أو كاثوليكيين أكثر من البابا"(٦٤). الا أن مشرف لم يدرك او تغافل عن ادراك انعكاسات تلك العلاقة على بلاده وعلاقاتها مع الدول الإسلامية والعربية، بالرغم من أن التيارات الإسلامية الباكستانية قالت له "يجب ان يتذكر اولئك الذين يتكلمون على اعتراف إسرائيل أن علاقاتهم لا يمكن ان تحجبهم عن انشطة الاجهزة السرية الإسرائيلية، ومنها جهاز المخابرات المعروف بالموساد الإسرائيلي، والتي تتلخص بالتجسس، ومعرفة نيات حتى البلدان التي دخلت مع إسرائيل بعلاقات رسمية لدعم السياسة الخارجية الإسرائيلية في مجال دعم قاعدتهم غير الشرعية في فلسطين"(٦٥).

واذا كانت هذه بعض الانعكاسات على باكستان، فما هي انعكاسات العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية على المنطقة العربية؟ وذلك باعتبار أن مواقف باكستان اتجاه القضية الفلسطينية بعد إعلان إسرائيل كانت تتميز بالدعم والمساندة لحقوق الشعب الفلسطيني والذي كان وراءه الضغوط الشعبية الباكستانية التي تعارض التطبيع مع إسرائيل. إذن نحن أمام مهمة استشفاف أبرز الانعكاسات ويمكن إجمالها بالعناصر الآتية:

المطلب الاول
الانعكاسات السياسية

يعدّ تطور العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية واظهارها إلى العلن تطوراً جديداً في محاولات إسرائيل لتطبيع علاقاتها مع الدول الإسلامية في قارة آسيا وهي رسالة حاولت إسرائيل صياغتها لتشجيع بلدان عربية للانتقال من اللقاءات التي تتم خلف الكواليس وبعيداً من العيون لتكون علنية في الوقت التي وصفت إسرائيل لقاء وزير خارجيتها، سليفان شالوم، مع نظيره الباكستاني، خورشيد قصوري، باستضافة تركية بأنه "تاريخي"، فهي محقة بعدما تمكنت من جر دولة اسلامية بحجم باكستان إلى دائرة التطبيع والاعتراف بإسرائيل وإن سارعت اسلام اباد إلى التقليل من شأن الخطوة واستبعدت الاعتراف بتل أبيب قبل إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وهي ذات التأكيدات التي ساقتها دول عربية في السابق قبل ان تقيم في ما بعد علاقات كاملة ودون أن ترى الدولة الفلسطينية الموعودة النور(٦٦).

ويبدو أن إسرائيل استطاعت أن تروض باكستان وتجذبها إلى باب التطبيع لتقدم دعماً معنوياً لإسرائيل وكسراً لإطار عزلتها الدولية، تحت ذرائع تشجيع تل أبيب على السلام وتقديم تنازلات لا تتم عادة إلا وفق الأجندة الإسرائيلية ومقابل أثمان عربية واسلامية فادحة(٦٧).

وهكذا، فإن التطورات الأخيرة في العلاقات الباكستانية - الإسرائيلية لها علاقة بتنفيذ

(٦٤) procrastination: Israel and Pakistan, 30/6/2003 : from www.zackvision.com

(٦٥) ibid.

(٦٦) طلعت اسماعيل، اسلام اباد في الفخ الإسرائيلي، صحيفة الخليج الإماراتية، ٢٠٠٥/٩/٤.

(٦٧) المرجع نفسه.

المشروع الأميركي "الشرق الأوسط الكبير" الذي بدأت دلالاته الاولى بعد الاحتلال الأميركي للعراق في التاسع من نيسان/أبريل٢٠٠٣، أما النهاية فهي تفكيك المنطقة العربية ثم إعادة دمجها في كيان هلامي يمتد من أفغانستان حتى موريتانيا تحت عنوان"الشرق الأوسط الكبير"، وفي رداء اسلامي فضفاض تذوب فيه الهوية الوطنية وينهمك فيه الجميع بالحروب الأهلية التي ستغمر المنطقة، بينما تركز الولايات المتحدة الأميركية جهودها على تامين مناطق النفط، وضمان التفوق الإسرائيلي والحديث عن فضائل الديموقراطية التي لن تراها شعوب المنطقة، إذا تحقق هذا المخطط، لأنها تتناقض مع مصالح اليمين الإسرائيلي المتحكم في القرار الأميركي(٦٨).

ويبدو أن اختيار العراق نقطة بداية لم يكن ضرباً من العبث، بل كان أمراً مدروساً بعناية ليس لما يمتلكه من مخزون نفطي ولا نتيجة للصراع مع النظام السابق في بغداد فحسب، ولكن لأن الطريق ممهد لتقديم "النموذج" الذي يرتدي ثوب الديموقراطية بينما يخفي في حقيقته التدمير الكامل للعراق، ولدوره كقوة عربية فاعلة في النظام الإقليمي العربي(٦٩).

وبدأت ملامح لتقسيم العراق بعد الاحتلال الأميركي من خلال تدمير مقومات الدولة من جيش وشرطة وادارة ثم فتح كل الأبواب التي تؤدي إلى فرض أمر واقع جديد يقوم على تقسيم العراق إلى ثلاث دويلات عرقية وطائفية، كردية وسنية وشيعية، وتفتح الابواب لتطورات وانقسامات بالغة الخطورة على مستقبل الخليج العربي، حيث، وكما يتفتت العراق وفق هذا المشروع إلى طوائف وأعراق، فالمطلوب ان يتفتت العالم العربي كله إلى كيانات صغيرة على أسس عرقية وطائفية لا تكون فقط هي المبرر لوجود إسرائيل حيث لم تعد في حاجة إلى هذا المبرر، بل تكون الأساس لدمجها كوحدات صغيرة ضعيفة في كيان هلامي يضم كيانات أقوى عسكرياً واقتصادياً وسياسياً مع ضمان أن يكون الجميع في خدمة الأهداف الأميركية(٧٠).

المطلب الثاني
الانعكاسات الجيوسياسية العسكرية

يرى بعض الباحثين أن الاختراق الإسرائيلي لباكستان يستهدف في شكل أساسي موقعها الجيوسياسي، وبهذا الاختراق ستتمكن تل ابيب من الوصول إلى قلب آسيا وما يحتويه من ملفات ساخنة قابلة للاستثمار الإقليمي والدولي، وخصوصاً إذا تمكنت إسرائيل من البناء على هذا التطبيع، وهي تجيد ذلك بدقة، فباكستان هي شرق إيران وجنوب الصين والأهم غرب الهند فكيف لو تمكنت إسرائيل من الانتقال من مرحلة التطبيع السياسي إلى مراحل ارقى وهو ما ستسعى إليه تل أبيب(٧١). وفي الاتجاه نفسه تشير بعض الدراسات بشأن انعكاسات التطبيع الباكستاني - الإسرائيلي إلى دور الباكستان

(٦٨) جلال عارف، التطبيع الباكستاني ومستقبل المنطقة، صحيفة البيان الإماراتية، ٢٠٠٥/٩/٤.
(٦٩) المرجع نفسه.
(٧٠) المرجع نفسه.
(٧١) د. خليل حسين، إسرائيل وباكستان بين التطبيع والاحتواء المزدوج لكشمير، موقع ميدل ايست اونلاين، ٢٠٠٥/٩/١٥.

تجاه القضايا العربية وخصوصاً بعد تحجيم دورها النووي، لأن إسرائيل تحرص على حرمان باكستان من سلاحها النووي حتى تعتمد اعتماداً كاملاً في أمنها الذي تهدده الهند على تحالف جديد يضم الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل والهند، في مقابل إلغاء دور باكستان في العالم الإسلامي وتقويض أركان هذا العالم واحداً واحداً، وهو الذي كان سنداً قوياً لقضية القدس ولحقوق الشعب الفلسطيني. وتقف في مقدم هذه الاركان باكستان وخصوصاً بصفتها دولة نووية تليها ايران ثم إندونيسيا وماليزيا، وكلها دول تستهدفها إسرائيل مستعينة بدعم الولايات المتحدة الأميركية لسياستها الخارجية اتجاهها(٧٢).

وتبعا لذلك، تهدف إسرائيل إلى فك الارتباط بين باكستان والعالم العربي وتمزيق العالم الإسلامي وتمييع الطابع الإسلامي للدولة، وهو ما أصبح سياسة أميركية عالمية تمارسها ضد السعودية وباكستان وإندونيسيا وغيرها(٧٣).

المطلب الثالث
الانعكاسات الأمنية

يشير أغلب المحللين إلى أن باكستان دولة اسلامية مهمة واستقرارها الداخلي أكثر أهمية للمنطقة العربية والإسلامية من ربطها بعلاقة هامشية مع إسرائيل البعيدة منها جغرافياً. وبعلاقة مشرف مع تل أبيب أعطى خصومه سلاحاً خطيراً بمن فيهم المعارضة التي اقامت علاقات سابقة مع إسرائيل، مثل جماعات نواز شريف وبوتو، فمشرف يخوض حرباً داخلية صعبة اقتصادية وأمنية وسياسية. إن باكستان قد تكون ساحة حرب أهلية داخلية بسبب احتمال ارتفاع اسعار النفط، مثل بقية الدول الفقيرة المستوردة للوقود وستسعى المعارضة المسلحة والمسالمة بكل ما لديها من حجج وآليات لإسقاطه بشكل اكثر حدة وجدية من قبل(٧٤).

ويرى بعض الدراسات أن سباق التسلح النووي بين باكستان والهند ودخول إسرائيل على هذا الخط يمثل أكبر التهديدات الأمنية التي تحيط بالوطن العربي، حيث بذلت باكستان جهداً كبيراً في شراء غواصات نووية صينية من طراز "هان"، ويبدو أنها تسعى جادة لتحقيق ذلك رغم العقبات التمويلية والاقتصادية(٧٥).

وفي الاتجاه نفسه، فإن لدى باكستان صواريخ نووية متحركة وأخرى ثابتة، الأمر الذي يحقق لها مرونة لا بأس بها في إطلاق هذه الصواريخ رداً على أي ضربة هندية نووية، كما أن بعض الخبراء يؤكدون إمكانية وضع باكستان لبعض صواريخها النووية فوق سفن وخصوصاً الصواريخ الباليستية المتوسطة المدى، مثل الصاروخ "شاهين"، ومداه يراوح بين ٧٥٠ ـ ٢٠٠٠ كيلومتر، والصاروخ "غاوري" ومداه ١٥٠ كيلومتراً(٧٦).

(٧٢) عبد الله الاشعل، إسرائيل وباكستان واستهداف العالم الإسلامي، صحيفة **الحياة**، العدد١٤٧١٥، ٢٠٠٣/٧/٨، ص ١٠.

(٧٣) المرجع نفسه.

(٧٤) عبد الرحمن الراشد، لماذا فعلها مشرف؟، صحيفة **الشرق الاوسط**، العدد٩٧٧٦، ٢٠٠٥/٩/٣.

(٧٥) إسرائيل والهند وباكستان وإيران، حزام ناسف حول الجسد العربي، صحيفة **الاتحاد الإماراتية**، العدد١٠٣٩٤، ٢٠٠٣/١٢/٢٠.

(٧٦) المرجع نفسه.

أما الهند، فيقول المراقبون إنها تقوم بتنفيذ ستة برامج نووية رئيسية في البحر وتشمل الحصول على غواصات نووية وتطوير قدرات صاروخية نووية. فلقد أصرت البحرية الهندية دائماً على الحصول على غواصات نووية، للتعرف على تقنية صناعة هذه الغواصات بأقل تكلفة ممكنة(٧٧). وقد نص البروتوكول العسكري الروسي الهندي الذي تم توقيعه في كانون الثاني/يناير٢٠٠٣، بواسطة وزير الدفاع الهندي ووزير الدفاع الروسي على تأجير الغواصات النووية بارز سكلوكا ب لمدة ٣ سنوات وتعديل للغواصة كالاس اس جي ان في عام ٢٠٠٥/٢٠٠٦، والمنتظر أن يمهدوا الطريق لإنجاح البرنامج عام ٢٠٠٧/٢٠٠٨، والخطة الموضوعة هي أن تسلح السفن المتطورة تكنولوجيا بقدرات إطلاق صواريخ باليستية لتكون أقل عرضة للهجمات الجوية(٧٨).

الخاتمة

ان تطور العلاقات الباكستانية ـ الإسرائيلية إلى مستوى الكشف عنها علناً من خلال اللقاء الشهير بين وزيري خارجية إسرائيل وباكستان في أيلول/سبتمبر٢٠٠٥، يفسره المراقبون المنصفون على أنه لا يمثل مادة للاستهلاك الإعلامي بقدر ما يمثل رسالة واضحة إلى الدول العربية والإسلامية بأن إسرائيل لها المقدرة على الوصول إلى أهم الاطراف التي كانت تشكل ثقلاً سياسياً وجيوسياسياً مهماً لمصلحة قضايا العرب لغرض التقليل من هذا النقد وتوظيفه في مشروع "الشرق الاوسط الكبير" الذي فتحت أذرعه الجيوبوليتكية لتضم إسرائيل وايران وتركيا وباكستان وافغانستان وموريتانيا إضافة إلى الدول العربية التقليدية. وتبعاً لذلك، فإن استمرار رصد تطور هذه العلاقات وتأثيرها يمثل تحسباً عربياً لمخاطر هذه العلاقات على الامن القومي العربي، لكن ما فائدة ذلك مادام صناع القرار في المؤسسة السياسية العربية لا يعيرون أهمية لما يحيط بالوطن العربي وما يحاك من مخططات لغرض خنقه وتطويعه لقبول الهيمنة الأميركية والإسرائيلية. لكن يبقى استمرار البحث والتحليل ودراسة أوجه مثل هذه العلاقات هي نقطة من بحر الوعي بما يجري حولنا، ومثلما يقول المثل "إن إشعال شمعة أفضل من استمرار لعن الظلام" ❑

(٧٧) المرجع نفسه.
(٧٨) المرجع نفسه.

تحليل محوسب لموقف الإدارة الأميركية إزاء مسألة الإرهاب

حسن مظفر الرزو *

حرص الرئيس الأميركي، جورج بوش (الابن)، على إلقاء كلمات حماسية لشد وعي المواطن الأميركي باتجاه يخدم سياسته المزعومة ضد الإرهاب العالمي، ولتمرير الكثير من مفردات سياسته المعادية للإسلام بصورة مبطنة أو معلنة. ولما كان الخطاب مقول صاحبه، وهو عبارة عن بناء من الأفكار والمفاهيم يحمل وجهة نظر مصوغة في بناء استدلالي، يتألف من مقدمات ونتائج، كما أنه في الوقت ذاته مقروء القارئ الذي يمارس عليه عمليات إعادة البناء عبر سلسلة محاولات تسعى إلى إنتاج وجهة نظر بواسطة الأدوات المعرفية التي يمتلكها القارئ... من أجل هذا ستبرز أمامنا أكثر من آلية لتناول النص. فهناك (أولاً) القراءة التي تقبل، أو تريد الوقوف عند حدود التلقي المباشر. وتأتي (ثانياً) القراءة التي تمارس منذ لحظتها الأولى عمليات تأويلية، فلا تتوقف عند تخوم التلقي المباشر، بل تسعى إلى تشكيل وجهة النظر التي يحملها أو يتحملها الخطاب. أما ما أردنا أن نمارسه في هذه الدراسة فهو عبارة عن قراءة تحليلية - تركيبية ترمي إلى سبر الطبقات العميقة من الخطاب السياسي المطروح من خلال توظيف تقنيات التحليل المحوسب للنصوص، لبلوغ لباب الخطاب السياسي الذي تتبناه الإدارة الأميركية إزاء إشكالية الإرهاب الذي ألصقت تهمته بالإسلام والحركات الإسلامية المعاصرة. في عبارة أخرى، فإن معالجتنا الجديدة تسعى إلى عرض المفردات، والبنى الدلالية، التي أهملتها القراءتان السابقتان، من خلال كشف وتحليل الدلالات التي يحملها الخطاب السياسي، سواء على سطحه، أو في الطبقات العميقة من تربته المفاهيمية. ونأمل أن تكون هذه المعالجات المحوسبة، خطوة أولى لإرساء معالم فقه سياسي محوسب، يحاكي ما يحرص الغربيون على ممارسته بعناية عند تناولهم لخطابات قادتنا، وصنّاع القرار في وطننا العربي، وعالمنا الإسلامي. ولكي تتوافر لدينا، من جهة أخرى، قاعدة مفاهيمية رصينة، توظف من خلالها تقنيات المعلوماتية المعاصرة، والتي تساهم في منحنا فرصاً جديدة لفهم أكثر عمقاً لما يدور في ذهن الآخر، الذي يمارس أنشطته السياسية على دائرة الحدث في مجتمعاتنا العربية.

(*) مدير المكتب الإستشاري العلمي - كلية الحدباء جامعة الموصل - العراق.

قاعدة سياسة الإدارة الأميركية إزاء الإسلام

لا يخفى علينا جميعاً بأن أحداث ١١ أيلول / سبتمبر قد أحدثت انقلاباً في دفة سياسة الإدارة الأميركية تجاه الإسلام بعدما استكملت جميع مفردات محاولة إلصاق تهمة الإرهاب بالحركات الإسلامية المعاصرة.

لقد رفع بوش راية المجابهة، وشهر سيفه في معركة بدأت شرارتها الأولى على أرضه، بيد أنه سعى إلى نقلها، وفق سيناريو صيغت مفرداته بإتقان بحيث اشتعل لهيبها في أفغانستان ثم العراق. وأخيراً طرحت على بساط السياسة الدولية مسألة في تغيير خريطة الشرق الأوسط وصهر بلدانه في بوتقة الشرق الأوسط الكبير (*Heisbourg*, 2003).

وقد رافق ركب هذه الحملة المسعورة مجموعة من السياسيين، والمفكرين، الذين حاولوا صوغ نهج جديد يعنى بتأصيل فرضية التناقض المقيم بين الغرب المتحضر، والحركات الإسلامية بحجة كونها تعتنق نهجاً سلفياً يسعى إلى تحريك عجلة التاريخ في الاتجاه المعاكس، في محاولة لإعادة أطلال تراث الأجداد بدلاً من إعادة تشكيل مفرداته وفق متطلبات العصر العولمي!.

التنقير المعلوماتي: معالجة مفاهيمية

كان الأنموذج الرياضي Mathematical Mode الآلية التي فتحت الأبواب الموصدة أمام الحركة العلمية في نهايات القرن التاسع عشر لحل المستغلقات العلمية، وفتح الأبواب أمام الإنشاءات التطبيقية التي استحدثت ماكينة العلم الحديث وآلاته بالغة التعقيد. بيد أن الأنموذج لم يصمد كثيراً أمام مطالب الإنسان عندما أوغل بسرعة في الطبقات الجيولوجية للمعرفة العلمية، وأصبح في حاجة ماسة إلى آليات جديدة تتجاوز مسألة التعقيد المقيم في البنية المعرفية للأنموذج الذي أضحى عاجزاً عن وصف المتغيرات المتشابكة على أرض الواقع.

من أجل هذا حصل تغيير حاسم في النسق المعرفي Paradigm Shift من آلية الأنموذج الرياضي إلى آلية مستحدثة ترتكز على تحليل البيانات نفسها، واستخلاص الأنماط الكامنة في بنائها المفهومي للحصول على أفضل مقاربة لما يدور على أرض الواقع التي تتسم بتعقيد متغيراتها، وتشابك العلاقات التي تربط بين متغيراتها (*Kantardzic*,2003).

وقد شجّعت تقنيات المعلومات وقدراتها الحاسوبية الغاشمة على سيادة النسق الجديدة لما توفره من قدرات لإعادة قراءة النصوص، وتفكيك عباراتها إلى عناصرها الأولية، وتنقير الأنماط الكامنة فيها، ومحاكاتها وفق أنساق جديدة. وفي ظل هذه الحركة الجديدة لحوسبة الخطاب، والمبالغة في تحليل مفردات الكلم ظهرت تقنية محوسبة جديدة أطلق عليها التنقير في البيانات، أو التنقيب النصّي.

وقد أطلق اصطلاح التنقيب النصّي Text Mining و(يعرف أيضاً بالتنقيب المعلوماتي Data Mining أو اكتشاف المعرفة Knowledge Discovery) على مجموعة عمليات محوسبة، تسعى إلى استخلاص أنماط محددة (غير تقليدية Non-Trivial)، أو تقطير موارد معرفية من النصوص المطروحة في الوثائق أو قواعد البيانات المهيكلة (*Tan*,2000).
في صورة عامة تتألف عملية التنقيب المعلوماتي من محورين أساسيين. (الأول): تنقية النص Text Refining حيث تتم خلاله تحويل النص الخام (كما هو مطروح في الموارد النصية من كتب، أو مجلات) إلى شكل وسيط يسهل تناوله بواسطة الآليات المحوسبة. و(الثاني) تقطير المعرفة Knowledge Distillation حيث تتم عملية الاستدلال على ماهية الأنماط السائدة، واستخلاص المفردات المعرفية من الشكل الوسيط، لكي نلقي مزيداً من الضوء على فحوى الخطاب المطروح ضمن النص الذي نتناوله بالدراسة والتحليل.
ويعدّ هذا النسق الجديد تلبية مباشرة لمتطلبات عصر المعلومات الذي يعاني تضخماً هائلاً في حجم البيانات، والمعلومات المطروحة في النصوص الرقمية، وقواعد البيانات المهيكلة، التي باتت تسري في جميع الكيانات العلمية، والاقتصادية، والمنظومية التي تسود مجتمعاتنا المعاصرة. وتمتاز آلية التنقيب النصّي بكونها عملية يسودها التكرار Iterative Process، ويتحدد مستوى فاعليتها في ضوء ما تحققه من اكتشاف للأنماط المنشودة أثناء عملها (*Kantardzic*,2003) وفي صورة عامة، تصبو هذه الآلية الجديدة إلى تحقيق غايتين (الأولى) التنبؤ Prediction بالقيم الكامنة داخل النص عبر تحليل الأنساق السائدة فيه، و(الثانية) الوصف Description الذي يعنى بتصوير طبيعة تأثير الأنساق على إنشاءات الفهم البشري الذي يحاول سبر خطاب هذه النصوص بآلة العقل.

مكونات آلية التنقيب النصّي

تتألف مكونات آلية التنقيب النصّي بشقّيها التنبؤي والوصفي من العمليات الآتية:
١ - **جمع النصوص**: تتوافر نصوص كثيرة جداً بالصيغة الرقمية تمثل نتاج الفكر الإنساني في مجالات متعددة. وتختلف الأنماط المفهومية السائدة في هذه النصوص في ضوء هوية الكاتب، وميدان المعالجة التي مارسها المفكر في معالجته لموضوع محدد.
في الوقت نفسه هناك الكثير من البيانات المودعة في قواعد البيانات في ميادين التجارة والأعمال، وقواعد البيانات الإحصائية التي يمكن أن توفر مناخاً مناسباً لعملية التحليل النصي. وفي كل الحالات لا تتوافر معايير واضحة عن نمط توزيع الأنساق المفاهيمية داخل هذه النصوص قبل مباشرة عملية تحليلها المحوسب. بيد أن المعرفة المسبقة قد تساهم إلى حد كبير في توجيه أنشطة التحليل، وتفسير دلالتها متى أحسن انتقاء المحددات المناسبة للمسألة في ضوء المؤشرات المتوافرة عن النصوص نفسها.

٢ ـ المعالجة الأولية للبيانات: في صورة عامة، تتألف المعالجة الأولية للبيانات من مرحلتين جوهريتين:

المرحلة الأولى: الكشف عن البيانات غير المتناغمة وإزالتها من النص. ويبرز هذا النوع من البيانات نتيجة مؤثرات خارجية تخرج عن نمط المفهومية التقليدي السائد فيه، أو نتيجة أخطاء حاصلة في تدوين النص، أو توثيقه.

المرحلة الثانية: تشفير البيانات واختيار المعايير المناسبة للأنموذج الرياضي المستخدم في تحليل بنيتها اللغوية. وتبرز في هذه المرحلة الحاجة إلى تثبيت قيم الأوزان التي نمنحها لمفردات النص، والاصطلاحات السائدة فيها بحيث لا يحدث تغيير في مستوى دلالتها إزاء كل عبارة من عبارات النص الذي نمارس عليه عملية التحليل.

٣ ـ تحديد بنية الأنموذج المقترح: تعد هذه المرحلة الجزء الأهم من عملية التحليل النصي. وتبرز فيها الحاجة إلى اختيار التقنية المناسبة، والأدوات الملائمة لممارسة عملية التحليل. وتتراوح مستويات سبر الأنموذج للنص بين معالجات سطحية تعنى بإحصاء مفردات، وقياس بعض المتغيرات الكمية، ومعالجات عميقة تتناول انطولوجيا المفردة ودلالتها في الإنشاء المفهومي الذي سعى صاحب النص لإبداعه في فقراته ليعبّر عن مفهوم في ذاته (*Hand*,etal.,2001).

في صورة عامة، تمارس هذه النماذج مجموعة من العمليات في ظل تقنيات محوسبة تختلف باختلاف طبيعة الآليات السائدة فيها. وتشمل هذه العمليات (*Berry*,etal.,2004):

* تصنيف المفردات والاصطلاحات السائدة في النص إلى مجاميع تجمع شملها صفات وخصائص مشتركة.

* تقدير تكرار ورود هذه المجاميع والمفردات التي تقع ضمن دائرتها، واقتراح أوزان مناسبة تعبّر عن مستوى أهميتها في الخطاب.

* تحديد القاسم المشترك الذي يجمع بين ورود مفردات محددة ضمن عبارات النص، وماهية القواعد الحاكمة لعملية التوظيف المفهومي لها داخل عباراته.

* التجميع العنقودي لمفردات تبدو ظاهراً متباينة، ضمن نسق جديد يلمّ شتات معانيها، ويفسر المعاني الكامنة وراء إيداعها ضمن عبارات محددة من النص.

* ولادة المفهوم المختصر الذي يركّز دلالة النص في نسق محدد من المفردات أو الاصطلاحات ضمن بناء مفهومي تحكمه مجموعة من القواعد المنطقية التي تحكم العلاقات القائمة في ما بينها.

٤ ـ تفسير مخرجات الأنموذج: وتأتي هذه المرحلة لتبرير ما أفرزه الأنموذج من مخرجات لإعادة تشكيل عملية طرح المفردات الموضوعية، والاصطلاحات، وكشف الدلالات الكامنة فيها ضمن النسق المفهومي الكلي.

المادة المنتخبة لعملية تنقيب المعلومات

آثرنا انتقاء نصوص مهمة تناقش مسائل حيوية تدور في فلك أزمات الشرق الأوسط القائمة، والترابطات المقيمة بينها وبين ظاهرة الإرهاب العالمي التي ألصقت بالحركات الإسلامية.

ناقش الرئيس الأميركي في ٦ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٥ مسألة الحرب على الإرهاب في كلمة ألقاها على الوقف الوطني للديموقراطية (National Endowment for Democracy) في واشنطن. ثم عاود مناقشة المسألة ثانية في كلمة أخرى ألقاها على جمع في Chrysler Hall بمدينة Norfolk, Virgini في الثامن والعشرين من الشهر نفسه.

وتكمن أهمية هذين الخطابين في تضمنهما تفاصيل مثيرة عن النهج الجديد للإدارة الأميركية في مواجهة ما يطلق عليه التيار الإسلامي المتطرف، إضافة إلى أن الرئيس الأميركي بدأ يعلن صراحة ماهية المجابهة الجديدة التي تحولت من دائرة معسكر الشيوعية التي لملمَت أذيال الهزيمة أمام المعسكر الغربي، باتجاه الحركات الإسلامية، والتي يبدو أن إيديولوجيتها بدأت تتعرض إلى هجمة جديدة، في سبيل تجاوز العقبة الأخيرة التي تشخص أمام سيادة الأنموذج الحضاري الأميركي الذي يخطط لابتلاع الرقعة الجغرافية والاقتصادية الكونية في كيانه العولمي القاهر!.

تفاصيل المعالجة المعلوماتية

تألفت المعالجة المعلوماتية من سلسلة عمليات تحليل وسبر لمفردات خطابين منتخبين للرئيس الأميركي حاول أن يكثف خلالهما موقف الإدارة الأميركية من مسألة الإرهاب العالمي المستشري في وقتنا الراهن، ويحدد من خلال خطابه السياسي معالم إستراتيجية الإدارة الأميركية في التعامل معه على الأرض. في صورة عامة، فإن المعالجات المحوسبة للخطابين المنتخبين قد مورست من خلالها عمليات التحليل العميق لمفردات النص، وتقطير دلالتها، والتنقير عن فحوى الخطاب الذي يكمن بين ركام المفردات التي وظفت داخل حدود الخطاب المطروح.

وفي كل الحالات، تركت عملية المعالجة للحاسب الآلي الذي وظف مجموعة من الخوارزميات البرمجية الذكية التي كثر استخدامها في السنتين المنصرمتين لتحليل النصوص في ظل ما يعرف بتقنية التنقيب المعلوماتي للنصوص والموارد المعرفية (*Acetic*,2005).

ويظهر جدول (١) وجود تقارب كبير بين مفردات هذين الخطابين، حيث تطابقت كثير من المفردات السياسية المستخدمة فيهما (الشيوعية ٦، التدمير ٥، الأيديولوجية ١٣، الإسلام

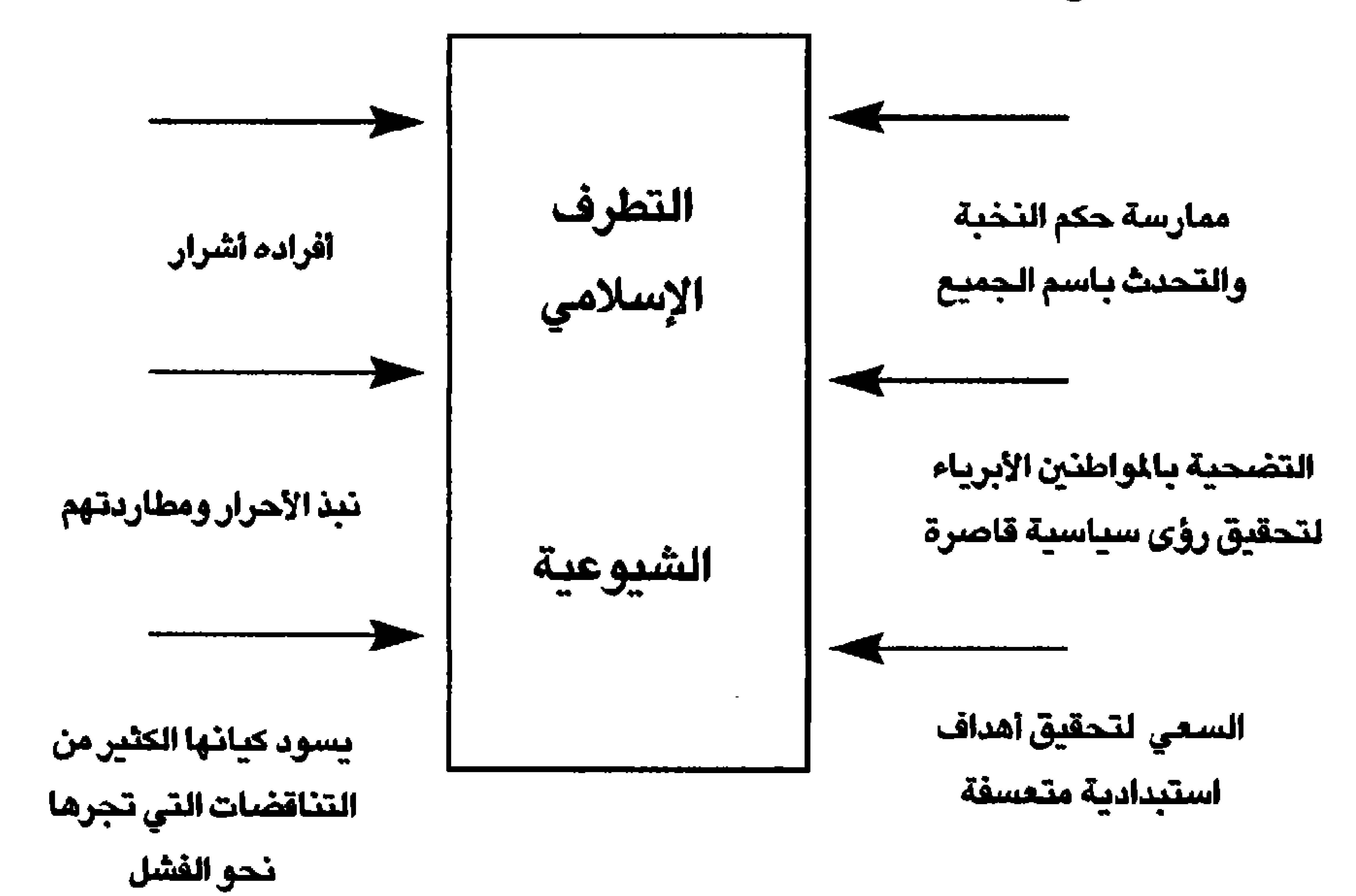
المتطرف ٦، المسلح ١١، المسلم ٨، التطرف ٩، والرجل الشرير٢). وتؤكد هذه البيانات تكرار الرئيس الأميركي لمفردات خطابه، وثباته على المفاهيم المطروحة فيهما.

جدول (١): أهم الاصطلاحات المستخدمة في الخطابين

الاصطلاح	تكرار الاصطلاح داخل النص	
	الخطاب الأول	الخطاب الثاني
تنظيم القاعدة	١٢	١٧
أميركا	٩	١٠
الشيوعية	٦	٦
الديموقراطية	١٥	١٣
التدمير	٥	٥
الأعداء	٢٦	٢٣
الحرية	١٩	١٨
الاصطلاح	تكرار الاصطلاح داخل النص	
	الخطاب الأول	الخطاب الثاني
الإيديولوجية	١٣	١٣
الإسلام المتطرف	٦	٦
المسلّح	١١	١١
المسلم	٨	٨
التطرّف	٩	٩
الإرهاب	١٣	١٤
الإرهابي	١٧	٢٥
الرجل الشرير	٢	٢

وفي الوقت نفسه، فإن المفردات الأكثر استخداماً في خطابيه تشير إلى معالجة مسألة تنظيم القاعدة، وتداعيات ظاهرة الإرهاب بمنطق إيديولوجي موازٍ للإيديولوجية الشيوعية، مع محاولة التنقير عن أوجه الشبه بينهما، وتأكيدها لتبرير الحرب الجديدة التي تمارسها الإدارة الأميركية إزاء الحركات الإسلامية بعدما اتهمتها بالإرهاب، والتطرف، ووصفتها بالرجل الشرير ـ انظر شكل (١).

شكل (١): تمثيل الإيديولوجية الإسلامية وأوجه تناظرها مع الشيوعية وفق الموقف الجديد للإدارة الأميركية



ومن جهة أخرى، فقد أعلن الرئيس الأميركي الأركان الثلاثة التي تعرّف الإيديولوجية المعادية لأميركا، بخاصة، والعالم الغربي المتحضر والإنسانية بعامة. والتي تتألف أركانها الثلاثة من: التطرف الإسلامي، والنزعة الجهادية، والفاشية الإسلامية ـ انظر شكل (٢).

شكل (٢): المرتكزات الثلاثة للإيديولوجية المعادية للولايات المتحدة الأميركية

التطرف الإسلامي

الإيديولوجية
المعادية الجديدة

النزعة الجهادية — الفاشية الإسلامية

تحليل نمط النص

اظهر التحليل المعلوماتي للنصين أن الخطابين قد سادهما النمط نفسه الذي يميل إلى الأسلوب الجدلي، كما أن بيئة النص كانت مشحونة فيهما بعنصر الرواية الذي يشد اهتمام المواطن الأميركي الذي لا يميل إلى المقايسات العقلية أو المنطقية.

ويلاحظ أن الخطاب الأول تميز بعناصر المجابهة والمواجهة، أما الثاني فمال فيه الرئيس إلى استخدام عناصر الشك والارتياب لكي يبقي قناعات المواطن الأميركي في حالة غير مستقرة لا تدع له فرصة اتخاذ قرار حاسم في ظل تأرجح اقتناعات الإدارة الأميركية نفسها في ضوء متغيرات المجابهة على أرض الواقع، والمشحونة بعدد لا يستهان به من خيبات الأمل والنكسات. ولكي يمهد الرئيس الأميركي لنهجه الجديد أقحم مشاهد(*) عدة في خطابه الأول لنقل المستمع / القارئ من حالة إلى أخرى، ولكي يمنح نفسه فرصة أكبر للإقناع. أما الخطاب الثاني فقد بلغت مشاهده تسعة مشاهد، بعدما ساهم الخطاب الأول في تذليل عقبة الاعتراض لدى المواطن الأميركي ـ انظر جدول (٢).

جدول (٢): نتائج تحليل أنماط النص في الخطابين

المتغير	خصائص نمط النص	
	الخطاب الأول	الخطاب الثاني
النمط العام للنص	يميل إلى الاسلوب الجدلي	يميل إلى الاسلوب الجدلي
بيئة النص	مشحون بعنصر الرواية	مشحون بعنصر الرواية
السمة العامة	سيادة عنصر المجابهة	سيادة عنصر الشك والارتياب
المشاهد التي يتألف منها النص	١٥ مشهداً رئيسياً	تسعة مشاهد رئيسة

تحليل أنماط ورود الاصطلاحات داخل النص:

يُساهم برنامج المعالجة الذكية للنص في دراسة وتحليل أنماط طرح فئات المفردات السائدة في النص، بحسب ورودها في بداية النص، أو وسطه، أو نهايته، مع عدد تكرار ورود ألفاظ الفئة الواحدة ما يمنحنا فرصة معاينة ما أراد الكاتب من معالجته المسألة (*Microsystems*,2003). ولكي تكون عملية التحليل أكثر وضوحاً حاولنا أن نجمع معاً أنماط ثلاث فئات ناقشها الباحث في دراسته لكي نقف على بعض مواطن التحليل الدقيقة الخاصة في هذا النهج. وقد وقع اختيارنا على: المجابهة، والإسلام، والشرق الأوسط، لما لهم من تأثيرات مباشرة على نهج الإدارة الأميركية في المنطقة ـ انظر شكل (٣).

(*) تم تقسيم النص إلى حزم Bundles تضم في عباراتها الكلمات التي تقع ضمن المرتبة نفسها، والتي تبرز بكثافة واضحة في جزء محدد من النص (سواء في بدايته، أو وسطه، أو نهايته)، وشريطة الا تكون سائدة في كامل مساحة النص. أما المشهد Episode تتألف من مجموعة حزم من العبارات التي تكاملت منطوقاً ودلالة ضمن النص المطروح.

أورد الرئيس الأميركي اصطلاحات المجابهة ٨٠ مرة توزعت بين: الحرب والهجمات والتفجيرات والمسلحين والجيش والمعارك وأسلحة الدمار الشامل، ليحدد تخوم المواجهة القائمة بين الإيديولوجية الأميركية والإيديولوجية الإسلامية المناهضة. وكانت مفردات المجابهة حاضرة في خطابيه من أول مفردة إلى آخر مفردة نطق بها، مؤكداً شدّة اهتمامه بهذه المسألة.

أما الإسلام فقد تكررت اصطلاحاته (٢٦ مرة)، وبقيت متمركزة حول الدين الإسلامي والمسلمين والسنة الذين باتوا يشكلون العقبة التي تشخص أمام الإدارة الأميركية وسياساتها في المنطقة. وعندما نحاول تتبع ورود الكلمات في خطاب بوش نجد أنه قد ترك مساحات شاغرة أمام الإسلام في معرض حديثه عن المجابهة لكي يترك لنفسه فسحة في استبعاد بعض المسلمين من المواجهة بعدما الصق تهمة الإرهاب بالإسلاميين المتشددين (أنظر القسم الثاني من شكل (٣)).

وقد أورد في حديثه اصطلاحات شرق أوسطية (٧٩ مرة) تركزت على بلدان عربية باتت ترعى الإرهاب، أو بدأت تعاني من آثاره الضارة مثل: العراق والسعودية والكويت، وإيران وسوريا وإسرائيل.

إن مراجعة المفردات المرتبطة بالأشكال الثلاثة الموجودة في شكل (٤) تظهر لنا في وضوح أن بوش قد استخدم اصطلاح الدين /الإسلام ٤١ مرة لكي يشير إلى دائرة الصراع الديني التي تجمع بين المسلمين والنصارى واليهود والكفار الملحدين، حيث تدور بينهم مختلف مستويات الصراع وأشكاله في المنطقة.

ولم يحاول أن يمنح للإرهاب أي تنوع في الهوية فقصره على الإرهابيين، وممارساتهم الإرهابية في ١٥ مرة داخل خطابيه. ويبدو أنه بقي حريصاً على هذا النوع من التوظيف اللغوي والدلالي لتضييق الفرصة أمام أية محاولة لإعادة تفسير دلالة الإرهاب بمنظور يختلف عن معالجة الإدارة الأميركية المتشددة.

أما الإيديولوجية فقد وردت اصطلاحاتها ١٣ مرة في محاولتها الجادة للمقارنة بين الإيديولوجية الشيوعية وإيديولوجية الإسلاميين المتشددين، لكي يبرر بداية عهد جديد لحرب موازية مفاهيمياً للحرب الباردة، وبآليات مستحدثة تبنّت من خلالها الإدارة الأميركية سياسة المبادرة بالمواجهة المسلحة بعيداً من آليات الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتي المنحل.

وبالطريقة نفسها، يمكن أن نقيم عدداً كبيراً من حالات المقارنة بين الفئات المتكافئة التي نريدها، لكي نستطيع أن نتلمس النسق المفهومي المستبطن في نص الخطابين، وما حاول بوش أن يؤسسه ضمن حدود نصه حول هذه المسائل الحيوية.

فعلى سبيل المثال، أظهرت عملية تحليل الضمائر التي استخدمها الرئيس الأميركي في

خطابيه ـ انظر جدول (٣) التأكيد على الذات (استخدم كلمة أنا ٣٠ مرة)، وجعل من ضمير "نحن" أكثر غلبة من الآخر المناهض (٧٦ مقابل ٥١ مرة)، ولكي يؤكد على معرفة الإدارة الشاملة بهوية القيادات الإرهابية، وخصوم الحرية والديموقراطية لم يستخدم عبارة "شخص ما" التي تشير إلى هوية مبهمة سوى مرتين.

جدول (٣): نِسَب ورود الضمائر في خطابي بوش

الضمير	الورود	نسبة الورود في الخطاب
أنا	٣٠ مرة	١٣,٦ في المئة
نحن	٧٦ مرة	٣٤,٤ في المئة
أنت	١٨ مرة	٨,١ في المئة
هم	٥١ مرة	٢٣,١ في المئة
شخص ما	٢ مرة	٠,٩ في المئة

ولكي نميط اللثام عن هوية الآخر (هم) الذي يناهض سياسة الإدارة الأميركية حاولنا تتبع السمات التي حاول بوش أن يلصقها بهم. وقد وجدنا بأن بوش حرص على استخدام هذا الضمير قبالة مجاميع وسَمَهُم بما يأتي:

* السير في الركب السيئ.
* الهرطقة.
* مهاجمة المواطن الأميركي والمصالح الأميركية في كل بقاع الأرض.
* متطرفون ومتعصبون.
* توريط الشباب المسلم وإيهامهم.
* توظيف التقنية الحديثة لزيادة قدراتهم التدميرية.
* يسعون إلى إنشاء إمبراطورية إسلامية تمتد من مدريد إلى اندونيسيا.
* يرغبون بإيقاف عجلة الحياة.

ويمكن أن نستمر بعملية التحليل العميق في كثير من فئات العبارات التي استخدمها بوش بما يعمّق فهمنا بفحوى خطابيه، وتحديد معالم الإدارة الأميركية المستبطنة، وتبرير النيات الكامنة فيهما.

الاستنتاجات

لقد وجدنا محاولة لباحث أميركي (*Peladeau*, 2001) لتحليل فرص الترشيح الرئاسي

في الولايات المتحدة بواسطة آلية التحليل الذكي للنصوص، فانقدحت في فكرنا إمكان تحليل أهم خطابين لبوش خلال عام ٢٠٠٥ حدد خلالهما ملامح سياسة الإدارة الأميركية إزاء الإرهاب الإسلامي، إضافة إلى وضعه للإيديولوجية الإسلامية قبالة الإيديولوجية الشيوعية (*Bruce St John, R.*, 2004).

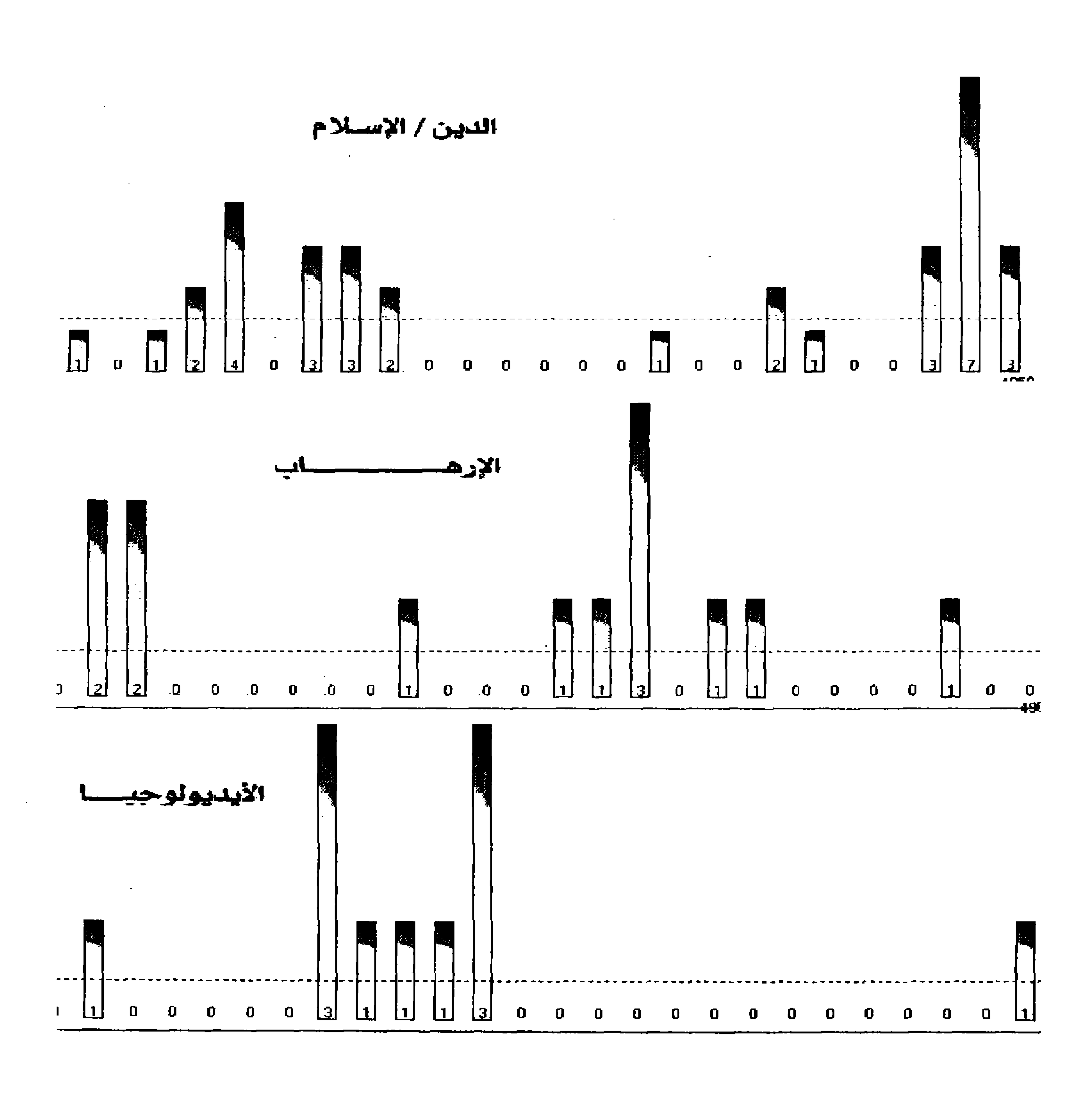
ونعتقد أن محاولتنا قد بلغت مستوى مقبولاً من تحديد المعاني الكامنة في هذين الخطابين بواسطة الذكاء المحوسب الذي وفر أدوات قد تساهم في دفعنا بسرعة باتجاه مواكبة الآخر على طريق صراع الحضارات.

بيد أن السؤال الذي بات يطرح نفسه علينا بإلحاح هو: هل ستتحول السياسة إلى سلسلة متعاقبة من عمليات التحليل الذكي للنصوص؟ أم سنهجر حرفة القراءة، ونترك للحاسوب فرصة ممارستها لكي يتنقل داخل النص بحرية، ويمنحنا في نهاية مطافه مجموعة من الإحصاءات والمترابطات الرياضية والمنطقية المعقدة.

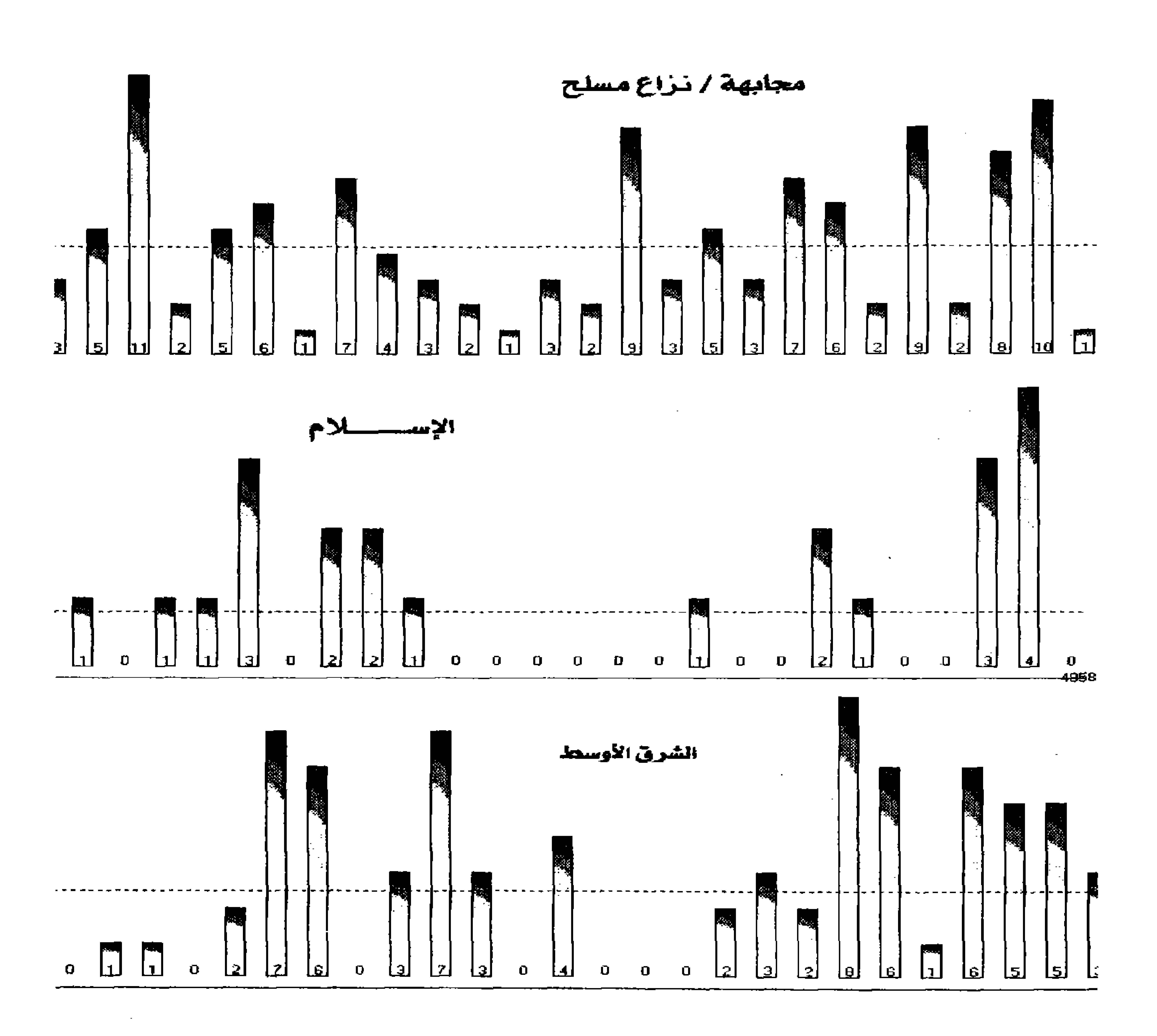
حاولنا في هذه الدراسة اقتراح نهج جديد بات خطابنا السياسي في حاجة اليه كي يبدأ ممارسته، وتقعيد القواعد لآلياته لكي يجاري ما يفعله السياسي في الغرب.

كذلك فإن الحجم الهائل من الخطابات الغثة والسمينة على مواقع الانترنيت بات في حاجة إلى قراءة، وتحليل، للوقوف على حقيقة المواجهة القائمة بين معسكرنا ومعسكر الخصم الذي يتربص بنا الدوائر. نحن في حاجة إلى سعي دائم لتجديد آليات الوعي العربي، ولا ريب أننا متفقون جميعاً بأن أعمق حالات تغييب الوعي هي تلك التي يغط فيها خطابنا السياسي العربي. ونأمل أن تساهم المعالجات المعلوماتية الذكية في إذكاء قدراته، وبث روح متجددة في آلياته المتقادمة... □

شكل (3) : أنماط ورود الاصطلاحات : المجابهة ، الإسلام ، الشرق الأوسط في خطابي بوش



شكل (4) : أنماط ورود الاصطلاحات : الدين ، الإرهاب ، والإيديولوجيا داخل خطاب بوش



المصادر

(١) Auken ,B.V., (2005), *Terrorism Speech In Washington : Bush Responds To Political Crisis With Lies And New War Threats*, WSWS, Electronic Journal, 8 October 2005.

(٢) Bruce ,R., (2004), *High Time Bush Defines the Enemy, Foreign Policy In Focus* (FPIF), August 2, 2004.

(٣) Hand, D., H. Mannila & P. Smyth,(2001), *Principles of Data Mining*, The MIT Press, USA.

(٤) Heisbourg, F., (2003), A Work in Progress: The Bush Doctrine and Its Consequences, *The Washington Quarterly*, Vol. 26:2, SPRING 2003, pp. 75-88.

(٥) Kantardzic, (2003), M., *Data Mining: Concepts, Models, Methods, and Algorithms*, John Wiley & Sons, USA.

(٦) Kodratoff ,Y., (1999), *About Knowledge Discovery in Texts: A Definition and an Example, Published in: Foundation of Intelligent Systems*, Ras & Skowron (Eds.) LNAI, 1609, Springer 1999.?

(٧) Microsystems,(2003), *Text Analysis*, Version 2.3, 2003, http:// www.megaputer.com.

(٨) Peladeau, N., (2001), *Analysis Of U.S. Presidential Candidates' Speeches Using Wordstat 3.0*, Computer Assisted Content Analysis (CATA) Workshop, 5th Annual Conference of the International Communication Association, Washington, May 2001.

(٩) Pipes ,D.,(2005), *Bush Declares War on Radical Islam*, New York Sun, October 11, 2005, Available At: http://www.danielpipes.org/article/3026.

(١٠) Sherman, M.(Editor),(2002), *Preparing and Mining Data with Microsoft SQL Server 2000 and Analysis Services*, Microsoft(r) SQL(tm) Server 2000, Stephanie Schroeder, USA.

(١١) Tan, A., (2000), *Text Mining: The State Of The Art And The Challenges*, Kent Ridge Digital Labs, 2000.

الملامح المستقبلية للعالم ودور العلوم في رسمها

باسيل بهجت الخوري *

إذا كان كل ما يحيط بنا يتغير فلن يبقى أي شئ على حقيقته"

أرسطو

مقدمة

لن تكف العلوم عن مفاجأتنا في اكتشافاتها وما تولّده من تقانات مبتكرة وأدوات جديدة تسهم في توليد بنى وطرائق جديدة للمعرفة. والعلوم، التي يعرِّفها Kevin Kelly كإجراء أو عملية تُغيِّر سبل معرفتنا للأشياء"(١)، هي أساس الثقافة وعماد المجتمع.

إن الحضارات تأتي وتزول لكن العلوم تكبر وتنمو بانتظام من خلال البناء المستمر للمخزون المتراكم عبر العصور الذي هو محرك التقدم العلمي وتطور الشعوب.

في خضم هذا التطور أصبحت الرؤية المستقبلية للعلوم واضحة المعالم حيث إن:

* التغييرات المتوقعة خلال العقود الخمسة القادمة ستفوق ما حصل من إنجازات خلال القرون الأربعة الماضية.

* هذا القرن سيكون قرن علوم الأحياء Biology، فمزيد من العلميين والمتأهلين والنتائج العلمية والقيمة المضافة الاقتصادية والاهتمام الأخلاقي بآثار العلوم وسلبياتها.

* الحاسبات ستظل المتحكمة بالسبل الجديدة للعلوم، حيث تنمو المعلومات بنسبة ٦٦ في المئة في السنة، بينما يقتصر نمو المنتجات المجسدة على ٧ في المئة؛ والتطورات الجارية على الحاسبات ستفتح آفاقاً واسعة في تطبيقاتها العلمية المتشعبة.

* سبل جديدة للمعرفة ستتولد وتنهض حيث سيكون للمعرفة الجماعية دورها الكبير، وبشكل تتزايد فيه المشاركة بالبحوث والتطوير والأوراق العلمية.

* ستولّد العلوم مستويات جديدة للتفكير: فالإنترنت مكونة من كنتيليون(٢) ترانزيستور، وتريليون أداة ربط (وصلة)، ومليون رسالة إلكترونية بالثانية. إنها تقترب من الدماغ البشري وتتضاعف كل عام في حين يبقى الأول ثابتاً. سيتحول كل شيء إلى آلة ونحن سنكون تلك الآلة.

(*) باحث سوري، نائب عميد كلية العلوم الإدارية والاقتصادية - جامعة الوادي السورية الالمانية

(١) Kevin Kelly, Speculations on the future of Science, John Brockman, Editor and Publisher, 2006 by Edge Foundation, Inc.

(٢) Quintillion: 2 عدد مؤلف من ١ و١٨ صفراً إلى يمينه حسب التعريفين الاميركي والفرنسي.

إن ما شهده العالم في خلال العقود المنصرمة من قفزات علمية وتقانية غير مرتقبة في معظمها، تجعلنا نقف حائرين أمام تفسير العلاقة التفاعلية والمعقدة جداً بين العلوم الأساسية والتقانة. إلا أن ما نستطيع تلمسه ولادة منظومة عالمية للتقانة، تتيح الانتقال من مرحلة الاختراعات المتقطعة والمنفردة، التي كانت سائدة لزمن طويل، إلى مرحلة أخرى تشهد تحولات منظومية systemic للتقانات كلها، وتقفز بنا من مجتمع الثورة الصناعية إلى مجتمع الثورة المعرفية. ويذهب بعض المفكرين[٣] أبعد من ذلك، حيث يرون بأننا لا نعيش ثورة واحدة فحسب، بل ثورات عدة متداخلة ومتفاعلة فيما بينها. الثورة الأولى هي العولمة الاقتصادية، وستقود إلى الفصل بين الاقتصادي والسياسي وتفوُّق الأول على الثاني. أما الثورة الثانية، فهي المعلوماتية التي تتسع حدودها إلى ما لا نهاية وبشكل يعقِّد عملية التحكم بها وإدارتها. أما الثورة الثالثة، فهي الجينية، التي تسير نحو تطوير الأجناس البشرية والنباتية والحيوانية، وتقلب بدورها مفاهيم الحياة والإنجاب وتحديد الأجناس الحيَّة. والثورة الرابعة قيد البزوغ هي: النانوتكنولوجيا، التي سوف تمنحنا قدرة أكبر على التحكّم بالمادة وجزيئاتها.

وبذلك، أصبح العالم أكثر سرعة في تطوره، وازدادت تشابكاته وتعقيداته عما كان عليه قبل عقود خلت. ونمت التقانات بسرعة هائلة لتتجاوز سلطة المعلومات سلطة رأس المال. إلا أن هذا التقدم يقابله استمرار عدم المساواة بين الشعوب والأفراد في حيازة التقانات، وهشاشة المنظومات المعقدة سواء من حيث كثرة أعطالها، أم من حيث الجرائم المتعلقة بأمنها.

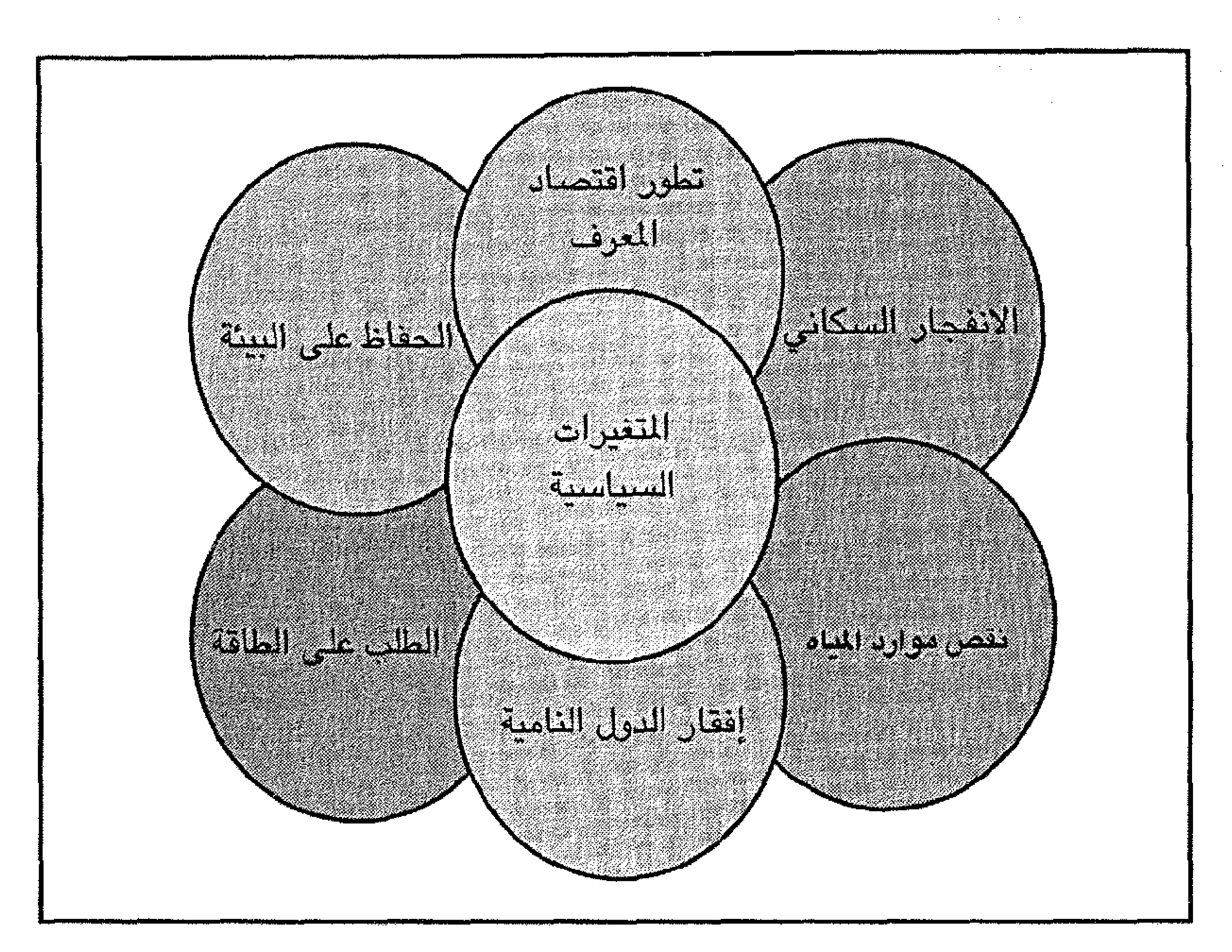
من هذه المنطلقات، تُستَهلُ الورقة باستشراف عام ومقتضب لأهم التحديات التي تواجه العالم في الربع الأول من القرن الجديد، ثم يتم استشراف عناصر العولمة الاقتصادية والعلمية والتقانية والإدارة الكونية للعالم، وتخلص الورقة إلى تبيان اتجاهات تطور بعض التقانات الأساسية في العالم وتطبيقاتها في المستقبل المنظور.

٢ ـ أهم التحديات التي تواجه العالم في القرن الجديد

تختلف التحديات التي تواجه العالم من حيث أهميتها. ونكتفي في هذه الورقة بستة منها (الشكل ١). وتؤلف المتغيرات السياسية القاسم المشترك لهذه التحديات حيث تتأرجح بين الغاية حيناً والأداة حيناً آخر.

(٣) Jean-Claude Guillebaud, le principe d'humanite, Le SeuiL, 2001.

الشكل (١)
أهم التحديات التي تواجه العالم في القرن الجديد



١ .٢ ـ الانفجار السكاني في الدول النامية

أول ما يثير الاهتمام عند استشراف المستقبل هو التزايد السكاني العالمي، المتأتي في معظمه (٩٠ في المئة) من الدول الأكثر فقراً؛ وسيصل سكان الكرة الأرضية إلى 8 lgdhn نسمة في عام ٢٠٢٥ (الشكل ٢). وتصبح الدول الأكثر سكاناً في العالم متدرجة كالآتي: الهند، والصين، وباكستان، ونيجيريا، وإثيوبيا، وإندونيسيا، والولايات المتحدة الأميركية، وزائير، وإيران،...

سيواكب هذا التزايد تمركز القسم الأعظم من شعوب العالم في المدن الكبرى وضواحيها التي سيتضاعف عدد سكانها مرتين كل ٤٥ سنة. وفيما يتوقع انخفاض معدل الولادات في البلدان المتقدمة عن معدل تجدد الأجيال، سيبقى هذا المعدل عالياً في البلدان النامية بما فيها الدول العربية، التي يتوقع أن يصبح عدد سكانها ٣٥٣ مليون نسمة عام ٢٠١٠ و٤٥٦ مليون نسمة عام ٢٠٢٥، ويزداد بذلك عدد سكان الدول العربية مقارنة بسكان العالم من ٤,٨ في المئة في عام ٢٠١٠ إلى ٥,٧ في المئة في عام ٢٠٢٥[٤].

٢ ـ ٢ ـ نقص موارد المياه

من القضايا البارزة التي تواجه العالم خلال هذا القرن هي نقص المياه حيث أشارت دراسة[٥] قادتها المنظمة العالمية للمياه Global Water Organization إلى أن ثلث سكان

(٤) UN, Population Reference Bureau, World population data sheet, 1999.

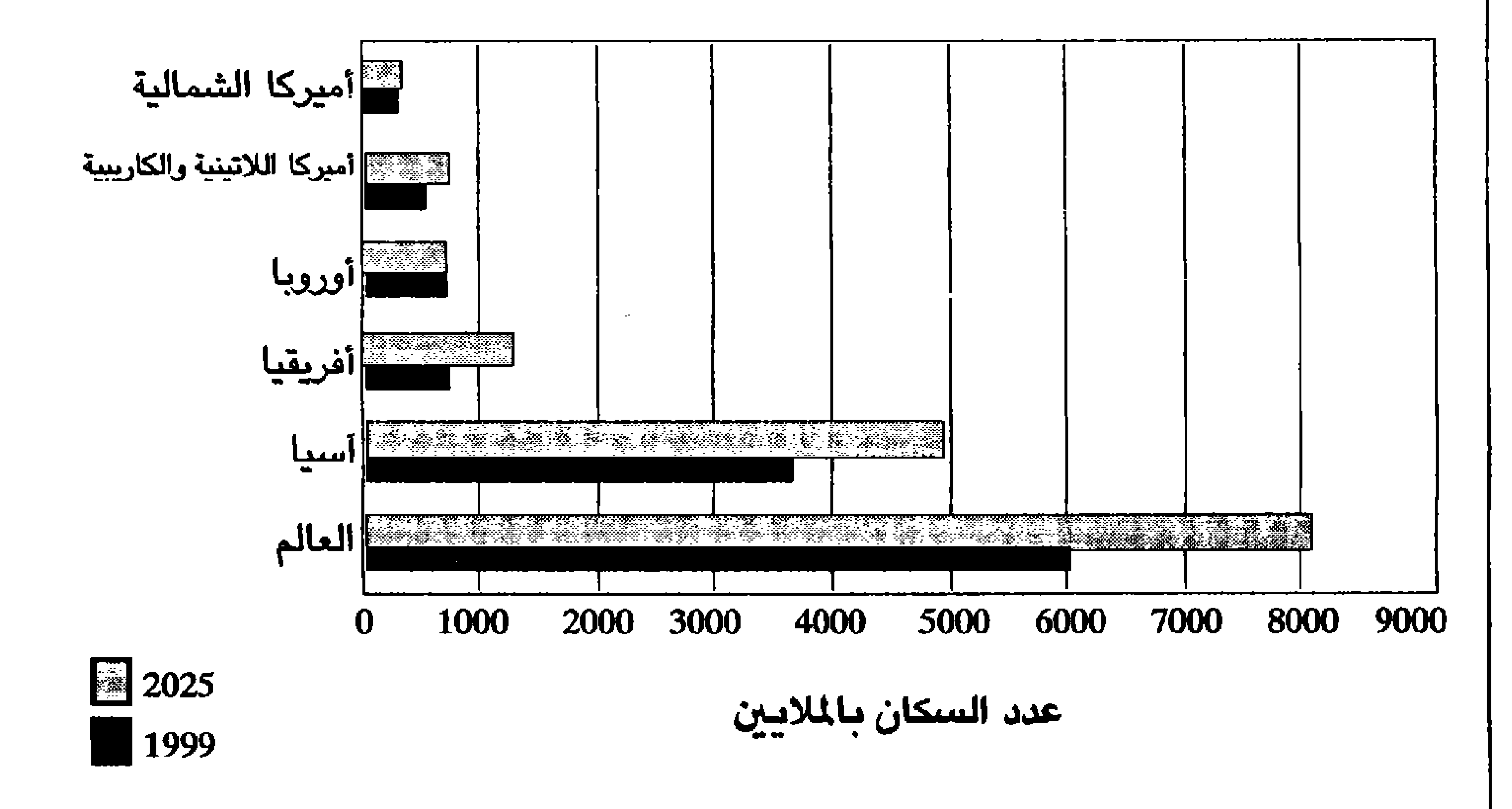
(٥) Groundwater Aquifers Dropping at Alarming Rates and conflicts Over Water Predicted, International journal of Water Resources Development, March 1999.

العالم أي ما يعادل ٢,٧ مليار نسمة سيعانون نقصاً حاداً في مياه الشرب في عام ٢٠٢٥، والدراسة التي أجرت إسقاطات للعرض والطلب على المياه للفترة الواقعة بين ١٩٩٠ و٢٠٢٥ وشملت ١١٨ دولة، توصلت إلى تقسيم هذه الدول إلى أربع فئات هي:

ـ الفئة الأولى، المؤلفة من ١٧ دولة سيصبح عدد سكانها ١,٨ مليار نسمة في عام ٢٠٢٥، وتتضمن من بينها ١١ دولة عربية هي: مصر والعراق والأردن والكويت وليبيا وعمان والمملكة العربية السعودية وسوريا وتونس والإمارات العربية المتحدة واليمن؛ ستكون هذه الفئة بحاجة ماسة للمياه في عام ٢٠٢٥ حيث أن المياه المتوافرة لديها لن تكون كافية للحفاظ على معدل الاستهلاك الفردي لعام ١٩٩٠ وذلك للاستخدامات كلها.

ـ الفئة الثانية، وتشمل ٢٤ دولة، من بينها الصومال والسودان، وبإجمالي سكاني قدره ٨٩٤ مليون نسمة في عام ٢٠٢٥؛ وتتصف هذه الفئة بأن لديها ما يكفي حاجتها من الموارد المائية الكامنة حتى عام ٢٠٢٥ شريطة أن تضاعف جهودها في عملية استخراج المياه ووضعها قيد الاستهلاك.

الشكل (٢): سكان العالم في ١٩٩٩ وإسقاطات لسنة ٢٠٢٥ موزّعة حسب المناطق



ـ أما الفئتان الثالثة والرابعة، فتتضمنان الجزائر ولبنان والمغرب وموريتانيا إضافة إلى أميركا الشمالية وأوروبا، وتنعم بموارد كافية من المياه وذلك ببذل قليل من الجهد لرفع مستواها وتحسين نوعيتها.

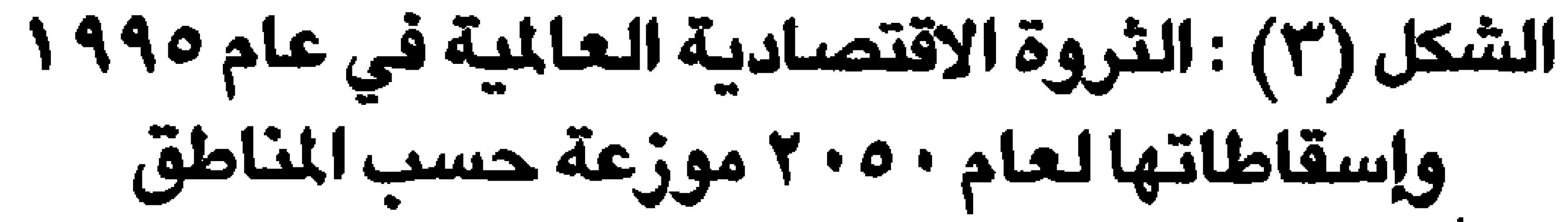
ومن الآثار السلبية للنقص الشديد للمياه صعوبة تأمين الغذاء لفقراء العالم؛ ورسمت الدراسة المشار إليها سابقاً مشهدين (سيناريوهين) لكميات المياه المطلوبة للري في عام ٢٠٢٥ وذلك بالاعتماد على الإسقاطات السكانية لمنظمة الأمم المتحدة. إذ يفترض المشهد الأول استمرار كفاية مياه الري على وضعها الحالي ما يتطلب ازدياد الحاجة من المياه اللازمة لتأمين الغذاء لسكان المعمورة في عام ٢٠٢٥ بنسبة ٦٠ في المئة من المياه المتوافرة حالياً. أما المشهد الثاني، فيفترض رفع كفاية الري بنسبة تراوح بين ١٣ و١٧ في المئة الأمر الذي يتطلب زيادة الطلب على مياه الري في شكل يؤدي إلى حرمان ٣ مليون نسمة من المياه الضرورية للحياة.

مع ذلك، فإن دولاً عدة لا تقف مكتوفة الأيدي حيال هذه القضايا المتفاقمة بل تقوم بجهود كبيرة في تأمين المياه من خلال قيام صناعة لتحلية مياه البحر التي يتركز أكثر من ٥٠ في المئة منها في منطقة الخليج العربي. ووصل عدد محطات تحلية المياه في تلك المنطقة إلى نحو ٦١ محطة بإنتاج سنوي قدره ٦٧٢ مليار جالون. وعلى الرغم من الأهمية الاستراتيجية لهذه الصناعة، حيث يتوقع أن تستثمر هذه الدول أكثر من ٣٠ مليار دولار في مشاريع التحلية حتى العام ٢٠٢٥، فإنها مازالت تعتمد على التقانات والمعدات المستوردة في إنشاء هذه المحطات والتزود بالمواد وقطع الغيار اللازمة للتشغيل.

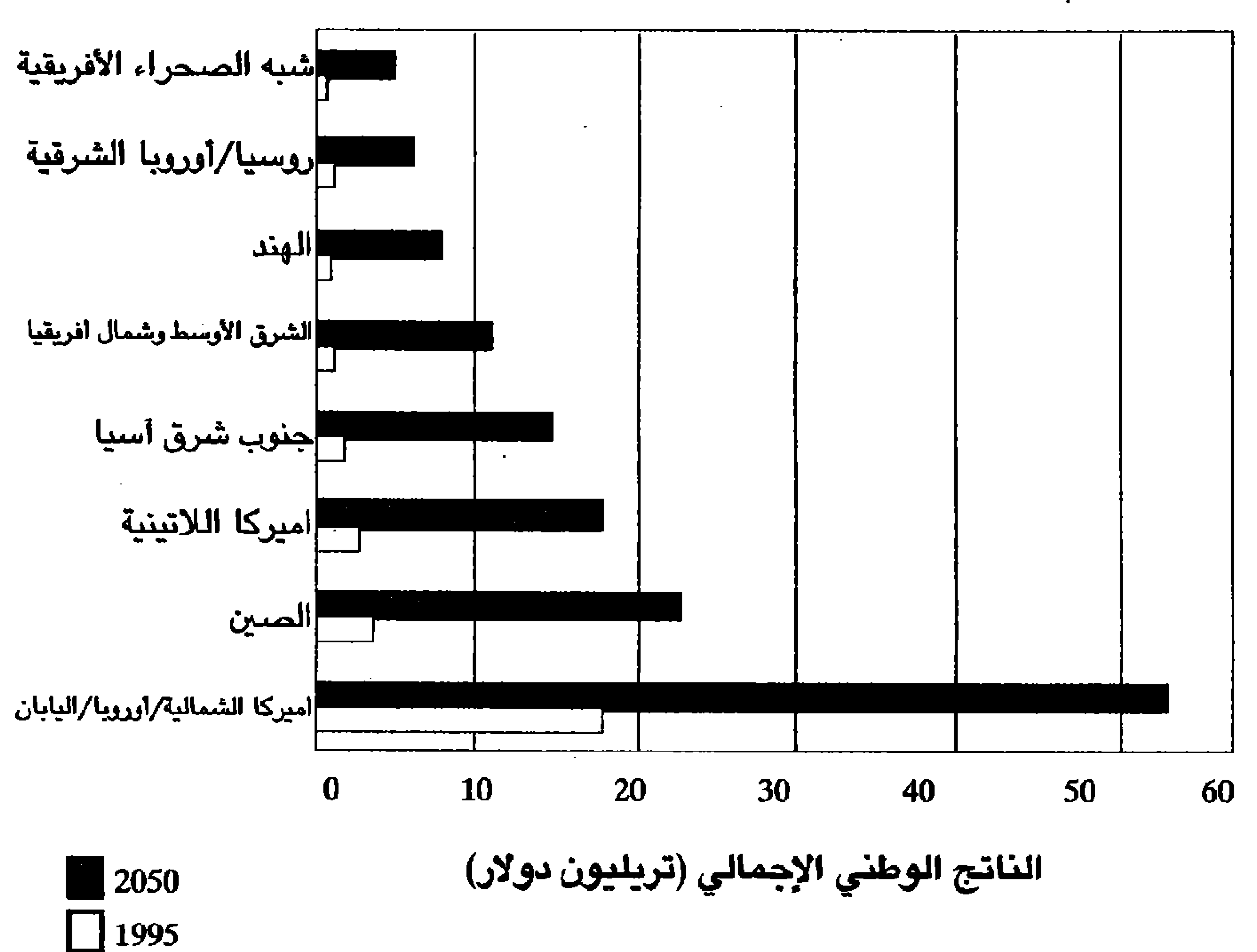
٣ - ٢ - الإفقار المتدرج للدول النامية

إن التفاوت في توزع الثروة بين أبناء المناطق المختلفة من العالم (الشكل ٣)، هو أيضاً من القضايا البارزة التي تواجهنا في هذا القرن. ونمت الأنشطة الاقتصادية العالمية بمتوسط سنوي يقارب ٣ في المئة، وتضاعفت من حيث الحجم مرتين خلال نصف قرن؛ وفي حال استمرار هذه الاتجاهات[٦]، فسيزداد نمو النشاط الاقتصادي بسرعة تزيد مرتين على التزايد السكاني وبذلك تصبح نوعية الحياة الإنسانية أكثر وفرة في عام ٢٠٥٠ إذ تقاسمت جميع شعوب العالم هذه الثروة الاقتصادية.

(٦) Economic trends, Which World?, Scenarios for the 21st century (www.mars3.gps.calltech.edu)

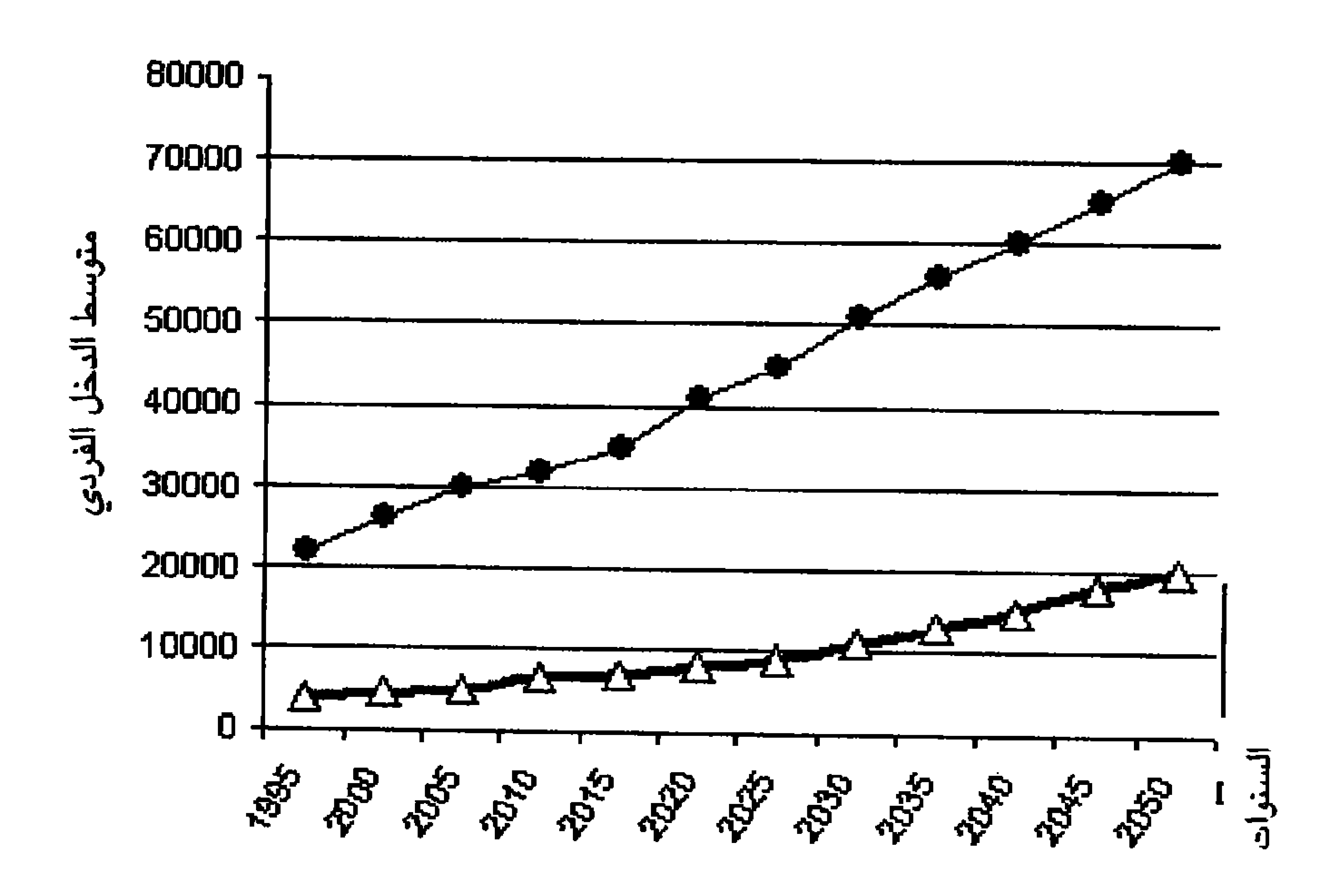


الشكل (٣) : الثروة الاقتصادية العالمية في عام ١٩٩٥ وإسقاطاتها لعام ٢٠٥٠ موزعة حسب المناطق



إلا أن الوضع غير ذلك، والثروة ليست موزعة في شكل عادل بين سكان الدول المتقدمة والنامية؛ بل أصبحت الفجوة كبيرة بين الدخل الفردي لأبناء هذه المناطق. وفي استمرار الوضع على حاله ستزداد الهوة اتساعاً كما يشير الشكل ٤:

الشكل رقم (٤) : الفجوة بين الدخل الفردي لأبناء الدول المتقدمة والنامية



مع ذلك تشير التقديرات المتفائلة إلى أنه يتوقع التغلب على المجاعة وتقليص نسبة الجياع في العالم بحلول سنة ٢٠٣٢ إلى نحو ٥,٢ في المئة من إجمالي سكان الأرض.

٢ - ٤ - تزايد الطلب على الطاقة

يزداد الاستهلاك العالمي للطاقة باستمرار، نتيجة لعوامل عدة من أهمها زيادة سكان الكرة الأرضية؛ ويُقدَّرُ أن يزداد الطلب على الطاقة الاستخراجية بين مرة ونصف وثلاث مرات حتى عام ٢٠٥٠، بينما يتوقع تضاعف الطلب العالمي على الكهرباء حتى عام ٢٠٢٧(٧).

وتتشكل المصادر الرئيسية للطاقة في العالم من النفط والفحم والغاز الطبيعي والمساقط المائية والطاقة النووية. وقد تغيرت نِسَب إسهام هذه المصادر في توليد الطاقة تبعاً للعديد من العوامل ويلاحظ تزايد الاعتماد على الطاقة النووية والغاز وذلك على حساب النفط.

(٧) C.Ngo, Quelles energies pour demain? CEA, 2000, P.3.

وتكثف الدول جهودها للاستفادة من مصادر الطاقة الجديدة (النووية) والمتجددة خاصة الطاقة الشمسية وطاقة الرياح لدورهما في سد جزء من الاحتياج العالمي للطاقة المتوقع ارتفاعه في شكل كبير وخصوصاً في الدول النامية التي ما زال ٤٠ في المئة من سكانها محرومين من الكهرباء واستهلاكهم من الطاقة ضعيف جداً مقارنة بالدول المتقدمة.

إن المقلق في الأمر تقاعس الدول المتقدمة في الإنفاق على العلوم والتقانة في مجال الطاقة؛ وأشارت تقارير عدة وعلى رأسها تلك التي أصدرها مجلس الطاقة العالمي(٨) إلى انخفاض نسبة هذا الإنفاق على المستوى العالمي وذلك منذ مطلع الثمانينات من القرن الماضي وذلك مقارنة بالإنفاق على البحث والتطوير في القطاعات الاقتصادية الأخرى ذات التقانة عالية الكثافة. ففي الولايات المتحدة الأميركية، يؤلّف قطاع الطاقة والخدمات المرتبطة به نحو ٨ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي، فيما لا يتعدى الإنفاق الحكومي على البحث والتطوير ٣ في المئة من إجمالي الإنفاق على البحث والتطوير؛ وينطبق هذا الوضع على معظم الدول المتقدمة.

٢ ـ ٥ ـ الحفاظ على البيئة

إن مسألة التلوث البيئي التي تشكل الطاقة أحد مسبباتها الرئيسية من القضايا التي تواجه القرن الجديد. وتعدّ الدول الصناعية المسؤول الرئيسي للقسم الأعظم من مشاكل التلوث. لكن في حال استمرار دول الجنوب في تقليد دول الشمال من حيث استهلاك الطاقة النفطية مثلما يحصل حالياً وامتداد ذلك لغاية عام ٢٠٢٠ فسيؤدي ارتفاع استهلاك دول الجنوب إلى مضاعفة الاستهلاك العالمي للطاقة النفطية وبالتالي مضاعفة انبعاث الغازات السامة(٩).

أشار التقرير الصادر عن برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة (يونيب) في عام ٢٠٠٢، إلى أن أوضاع البيئة شهدت في شكل عام تدهوراً مستمراً، وخصوصاً في معظم البلدان النامية، وأصبح الإنسان عاجزاً عن مواجهة كوارث الطبيعة كالأعاصير والفيضانات وظاهرة الجفاف والاحتباس الحراري. ويتوقع أن يلحق التدخل البشري من الضرر بكوكب الأرض بحلول عام ٢٠٣٢ لأن ثمة هوة ما انفكت تتسع بين الوتيرة السريعة لتدهور البيئة والرد الاجتماعي البطيء عليها. ويتوقع معدّو التقرير أن يطاول أثر العمران وبناء الطرق واستخراج المعادن وأنشطة بشرية أخرى أكثر من ٧٠ في المئة من مساحة الكرة الأرضية.

إن الاستغلال الجائر للموارد الطبيعية وعمليات التصنيع، التي أدت إلى حصول خلل في الطبيعة تتطلب من العلوم إعادة إصلاح هذا الخلل وتوفير علاقة ثابتة وكاملة تحافظ على التوازن البيئي من خلال التحكم بانبعاث الغاز السام في الجو وتلوث البحار بالنفط وتخزين النفايات النووية وتصحر بلدان الجنوب. وسيشكل هاجس استمرار الحياة على

(٨) World Energy Council, Energy Technologies for the Twenty-First Century, web site.

(٩) B.DESSUS, pas de panique en 2100 ,Revue Futuribles , juillet- aout 1994.

الأرض والصراع من أجل البقاء أحد المفاهيم الأساسية والمبادئ المنظمة لإدارة البيئة التي تصبح العلم الأساس. وإن مواجهة التحديات البيئية تفرض ازدياد الاكتشافات العلمية والتطبيقات لتطوير مصادر طاقة بديلة التي يتوقع أن ترتفع نسبة استخدام بعضها (الطاقة الشمسية وطاقة الرياح). كما يتوقع أن تعاود الطاقة النووية نموها مع بداية العقد الثاني من هذا القرن، وذلك بعد التغلب تقنياً على المشاكل البيئية والمخاطر.

إن بروز مفهوم التنمية المستدامة، الذي يعني " قدرة منظومة ما على صون ذاتها بدالّة انسياب الطاقة والمعلومات التي تخترقها وتسمح بالتالي المحافظة على بنيتها وتنظيماتها"(١٠)، أعطى بحوث الطاقة المتجددة دفعاً كبيراً. فمن هذه البحوث مازال ضرباً من الخيال كتلك التي تجرى حول وضع لوحات خلايا كهروضوئية لالتقاط الطاقة على سطح القمر ونقلها بواسطة موجات جزيئية إلى الأرض. وأخرى دخلت إلى حيز التنفيذ كالمدخنة الشمسية التي تبنى في صحراء استراليا، ويبلغ ارتفاعها ١٠٠٠ متر ويقدر انتاجها بـ٢٠٠ ميغا وات من الكهرباء تكفي لتزويد ٢٠٠٠٠٠ منزل. أما الأكثر أهمية، فيبقى البحث المخصص للبطاريات الذي لم يعد من علوم الخيال لأنه مستخدم في علوم الفضاء والمركبات الفضائية. والمعضلة مازالت في انتاج الهيدروجين، الذي يتم إنتاجه سواء باستخدام الطاقة الشمسية من طريق لوحات شمسية ذات مردود عالٍ، أو باستخدام الطاقة النووية. هذا إضافة إلى طريق ثالث ما زال جنينياً، وهو استخراج الهيدروجين من الكتلة الحيوية الناجمة من مخلفات الأغذية النباتية ومن الطحالب الضوئية التركيبية. وفي هذا الصدد، نشير إلى أن توليد الطاقة الكهربائية من الهيدروجين مازال حبيس المعامل المخبرية في عدد من الدول ولم يُنفَّذْ عملياً إلا في النرويج(١١) التي أطلقت أخيراً مشروعاً لتوليد الطاقة الكهربائية عبر الطواحين الهيدروجينية. ويعتمد هذا المشروع، الذي بدأ الآن بطاحونتين فقط، في شكل أساسي على الهواء الذي يستفاد منه من طريق أجهزة نظام تخزين الهيدروجين الذي يراهن عليه فريق العمل لاستمرارية إنتاج الطاقة الكهربائية للمستخدمين.

من ناحية أخرى، ستكون السيارات الهجينة، ذات المحرك الحراري والكهربائي، المحطة الانتقالية بين المركبات الحالية العاملة على البنزين والمازوت وتلك العاملة على بطارية الهيدروجين.

وكنتيجة عامة، إن الطاقات المتجددة ليست بدائل للطاقات الأخدودية على المدى المتوسط، لكنها مكملة لها ضمن معادلة قائمة على التكلفة والمزايا. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن أوروبا حددت إنتاجها من الطاقات المتجددة بـ ٢٠ في المئة من إجمالي إنتاجها للطاقة في عام ٢٠١٠.

أما على المدى الطويل، وعلى نسق ما حصل من تحول من الفحم إلى النفط في بداية

(١٠) Interview de Joel de Rosnay pour l'exposition "Petroles" a la Cite des Sciences et de l'Industrie par Jean-Remi Deleage, Printemps 2004.

(١١) Une eolienne testee... sans vent! Source A.F.P, 6/07/2004, http://www.norvege-fr.com.

القرن العشرين، فيمكن أن يتم التحول من الطاقة الاستخراجية إلى المتجددة في الربع الثاني من هذا القرن.

٢ ـ ٦ ـ نشوء الاقتصاد المبني على المعرفة

إن التطورات التقانية الكبيرة انتقلت باقتصاد الدول المتقدمة من الاقتصاد الصناعي الذي يقوم على تصنيع المواد الخام إلى "اقتصاد جديد" يقوم على صناعات أساسها المعرفة والمعلومات.

ومع أنه لم يتبلور مفهوم واضح للصناعة المعرفية والمعلوماتية، إلا أنها تتصف بتلك الصناعات السلعية والخدمية ذات الكثافة التقانية المتوسطة والقيمة المضافة العالية للاقتصاد، والتي يعدّ فيها الابتكار أو الجهد البشري الخلاق المصدر الرئيسي للمزايا التنافسية للمنتجين.

ولقد كان لهذه الصناعات والاستثمار فيها ـ خاصة التقانات الجديدة كالمعلومات والاتصالات ـ دور في هذا التحول نحو الاقتصاد الجديد الذي تجلت ملامحه في التغير الكبير في اتجاهات بنية التجارة الدولية، والعمل، والبيئة التنافسية، ودور التقانة في الصناعة.

ومع أن المعلوماتية دخلت في مجمل القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والخدماتية، إلا أن الحدث الأهم الذي ستكون له انعكاسات مهمة في خلال السنوات القليلة القادمة هو تطوير التجارة الإلكترونية التي مازالت في بدايتها في المنطقة العربية.

٣ ـ استشراف عناصر العولمة الاقتصادية والعلمية والتقانية

في خضم التحديات الكبرى التي تواجه العالم، تُطرحُ العولمة، التي تروج لها الدول المتقدمة، حلولاً بديلة للقضايا المتفاقمة في العالم. تتناول الفقرات الآتية بعض العناصر الأساسية للعولمة من جوانبها الاقتصادية، والعلمية والتقانية، والإدارة الكونية للعالم.

٣ ـ ١ـ العولمة الاقتصادية

إن العولمة بمختلف جوانبها لها آثارها وانعكاساتها على الاقتصاد وأسواق المال والاستثمارات الخارجية والتحول في الملكية؛ ويتم تحت غطاء العولمة فرض ضوابط صارمة تقودها منظمة التجارة العالمية موجهة من القوة الأعظم لإزالة الحواجز الجمركية، ورفع وتيرة التعاون الدولي في كل ما يخدم مصالحها. وأصبح تنظيم الاقتصاد العالمي يتم على أساس كتل إقليمية تأخذ أشكالاً مؤسسية مثل: الاتحاد الأوروبي EU واتفاق التجارة الحرة لشمال أميركا ALENA وكتلة جنوب شرق آسيا ASEAN، أو أشكالاً غير رسمية مثل تجمع التعاون الاقتصادي لدول آسيا والهادئ APEC وغيره.

هذا إضافة إلى المؤسسات متعددة الجنسية التي يتعاظم دورها في تنظيم الاقتصاد

العالمي من خلال نقل أماكن الإنتاج وتوزعها على مناطق مختلفة من العالم وذلك تبعاً لسياساتها الهادفة إلى تعزيز قدراتها على فتح أسواق جديدة في مجالي المنتجات المصنعّة والتقانات الرفيعة، وتطوير نماذج استهلاك وإنتاج متوافقة مع نموذج عالمي موحد.

والظواهر المعلنة للعولمة تؤدي في شكل تدريجي إلى تعقيد مكونات منظومة الاقتصاد العالمي وتكثيف العلاقات بين عناصرها بغية الوصول لاحقاً لمنظومة اقتصادية عالمية متجانسة وشاملة تحكمها ضوابط وأنظمة موحدة، وذلك على حساب الدول والأمم، التي تفقد التحكم التام باقتصادها وحدودها لمصلحة منظمات عابرة للدول ومتنوعة الأشكال. هذه الرغبة في القضاء على التعددية، تحت ستار الشمولية، لن تكون سهلة المنال لأن الحقائق الجغرافية والتراث التاريخي والمعارف الثقافية التي تتحلى بها الشعوب والأمم يصعب في معظم الأحيان تجاوزها والتغلب عليها ما سيترك الأبواب مفتوحة للنزاعات والصراعات.

أما بالنسبة إلى التجارة الدولية، فقد عرفت ازدهاراً كبيراً في العقود الأخيرة، إذ كان معدل نمو الصادرات والواردات نحو ٧ في المئة للفترة الواقعة ما بين ١٩٨٠ و٢٠٠٢؛ وازداد حجم الصادرات العالمية من ٣٤٨٦ مليار دولار في عام ١٩٩٠ إلى ٦٤١٤ مليار دولار في عام ٢٠٠٢، كان نصيب الدول المتقدمة نحو ٦٣ في المئة من إجمالي صادرات عام ٢٠٠٢ بينما لم يكن نصيب الدول النامية سوى ٣٢ في المئة، و٥ في المئة في دول أوروبا الشرقية(١٢)، وأزيلت في الوقت نفسه الحدود الجمركية في قارات عدّة، خصوصاً داخل الاتحاد الأوروبي بعد تطبيق السوق الواحدة في عام ١٩٩٣، وتسعى تجمعات إقليمية أخرى إلى تطبيق حرية التجارة بين أعضائها مثل: MERCOSUR، الذي أنشئ في عام ١٩٩٥ بين الأرجنتين والاورغواي والباراغواي والبرازيل والهادف إلى اتفاق حرية التبادل الاقتصادي، وتجمع التعاون الاقتصادي الآسيوي والهادئ APEC، الذي يضم ١٨ دولة عدد سكانها مليارا نسمة، والسائر في تطبيق حرية التجارة.

وتتم الاجراءات التنظيمية العالمية ضمن إطار منظمة التجارة العالمية التي حلّت مكان الاتفاق العام للتعرفة الجمركية GATT في عام ١٩٩٥، وتسهر هذه المنظمة على منظومة التجارة متعددة الأطراف تشكل المنبر الذي تناقش منه الأنظمة وتُحكَّمُ الخلافات الدولية. كان الاتفاق الذي تم بين ٢٩ دولة الأكثر غنى في العالم على إزالة الرسوم الجمركية على منتجات المعلوماتية في عام ٢٠٠٠ باكورة أعمال مؤتمرها الأول الذي انعقد في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٩٦، تحيط بهذه المنظمة أيديولوجية معلنة تقوم على الحرية الكاملة للتجارة. وتسخر إمكاناتها لإلغاء الأنظمة برّمتها، وذلك تحت شعار الكفاح ضد الحماية، وتصبح المنظمة هكذا السلطة المدنية التي تدافع عن التجارة الحرة المبنية على قوانين

(١٢) http://stats.unctad.org

مترفعة عن كل الاعتبارات الأخرى، سواء أكانت اجتماعية أم ثقافية أم طبية أم بيئية. وتأتي قوانين حماية الملكية الفكرية أداة لتنظيم التجارة، حيث تزداد المطالبة بتطبيقها لتشمل الدول كلها والابتكارات برمتها. إذ يميل الاتجاه نحو تطبيق براءات الاختراع على الكائنات الحية وذلك بعدما كانت النباتات والحيوانات غير خاضعة لمثل هذه الإجراءات. إن مسألة الحماية الفكرية للموارد الوراثية ستطاول مجالات واسعة من العمل، بدءاً من التغذية والزراعة، ومروراً بالتنوع البيولوجي والحفاظ على البيئة، وانتهاءً بالتنمية الاقتصادية والتجارة وحقوق الإنسان.

٣ - ٢ - العولمة العلمية والتقانية

تتمتع العلوم والتقانة في أيامنا الحاضرة بمنافذ اقتصادية هامة، وتخضع لإعادة نظر استراتيجية شاملة مستمدة جذورها من نهاية الحرب الباردة، وعولمة الاقتصاد، والاكتشافات الكبيرة والحاسمة في علوم وتقانات المعلومات والاتصالات والأحياء. وأصبح توافر القدرات العلمية والتقانية وتيسير تحويلها السريع إلى ابتكارات، من العناصر الأساسية التي تُبنى عليها قوة المؤسسات والدول وتقام على أساسها التحالفات وشبكات التعاون.

٣ - ٢ - ١ - أقطاب العالم في العلوم والتقانة

إن الأقطاب العلمية والتقانية المسيطرة على العالم تتمثل بالولايات المتحدة الأميركية وأوروبا واليابان؛ وكانت نسبة استثمار هذه الدول بالمعرفة[١٣] مقارنة بالناتج المحلي الإجمالي على التوالي: ٧ في المئة و٤,٧ في المئة و٤ في المئة[١٤].

وتباينت مواقف هذه الأقطاب في خلال العقد المنصرم؛ فالولايات المتحدة الأميركية أعلنت عن رغبتها في السيطرة على مجالات العلوم والتقانة برمتها معتمدة بذلك على أسواق المجالات الجديدة، وزيادة موازنتها الفدرالية المخصصة للبحث والتطوير. وبلغ إنفاقها الإجمالي ٣١٣ مليار دولار في عام ٢٠٠٥ أي ما يعادل ٤٣ في المئة من إجمالي إنفاق دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية البالغ ٧٢٦ للعام نفسه. بينما تستمر اليابان بزيادة المخصصات المالية للبحث والتطوير؛ وارتفعت منذ عام ١٩٨١ بمقدار ثلاث نقاط ضمن دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، لتصبح في عام ٢٠٠٥ نحو ١٦ في المئة من إجمالي البحث والتطوير في دول هذه المنظمة. أما الاتحاد الأوروبي، فخفضت الدول الكبرى فيه من مخصصاتها المالية للبحث والتطوير العسكري ولم تعوض ذلك برفع مخصصات البحث والتطوير المدني، فيما رفعت دول أخرى كالسويد وفنلندا مخصصات البحث والتطوير؛ وكانت نسبة إنفاق الاتحاد الأوروبي على البحث والتطوير ٣١ في المئة لعام ٢٠٠٥ (الجدول ١ والشكل ٥).

(١٣) تشمل المعرفة: التعليم العالي، والبحث والتطوير، والبرمجيات.

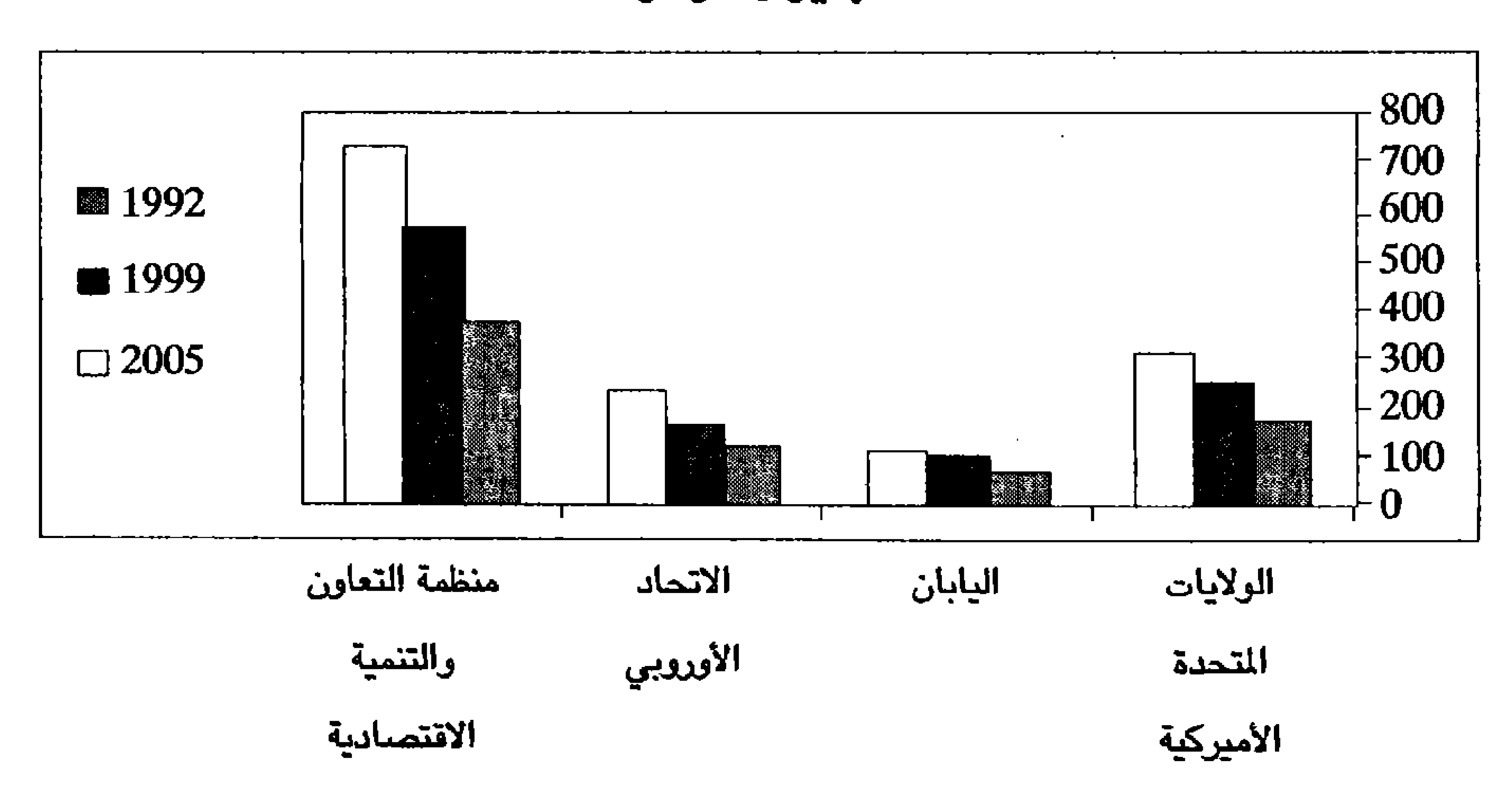
(١٤) OCDE, Compendium statistique 2004 de la science et de la technologie, Paris, 2004, P7 et suivantes.

جدول (١) مؤشرات حول تطور الإنفاق على البحث والتطوير في أهم دول العالم ومجموعاته الرئيسية

الدولة و/أو المجموعة	الإنفاق المحلي الإجمالي على البحث والتطوير (مليار دولار)			نصيب الصناعة من الإنفاق على البحث والتطوير (في المئة)		
	١٩٩٢	١٩٩٩	٢٠٠٥	١٩٩٢	١٩٩٩	٢٠٠٥
الولايات المتحدة الأميركية	١٦٥	٢٤٥	٣١٣	٥٨,٣	٦٦,٨	٦٣,٧
اليابان	٧٤	٩٥	١١٨	٧١,١	٧٢,٢	٧٤,٨
الاتحاد الأوروبي	١٢١	١٥٨	٢٢٧	٥٣	٥٦	٥٣,٤
دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية	٣٨٦	٥٥٨	٧٢٦	٥٩,٥	٦٣,١	٦٢,٢

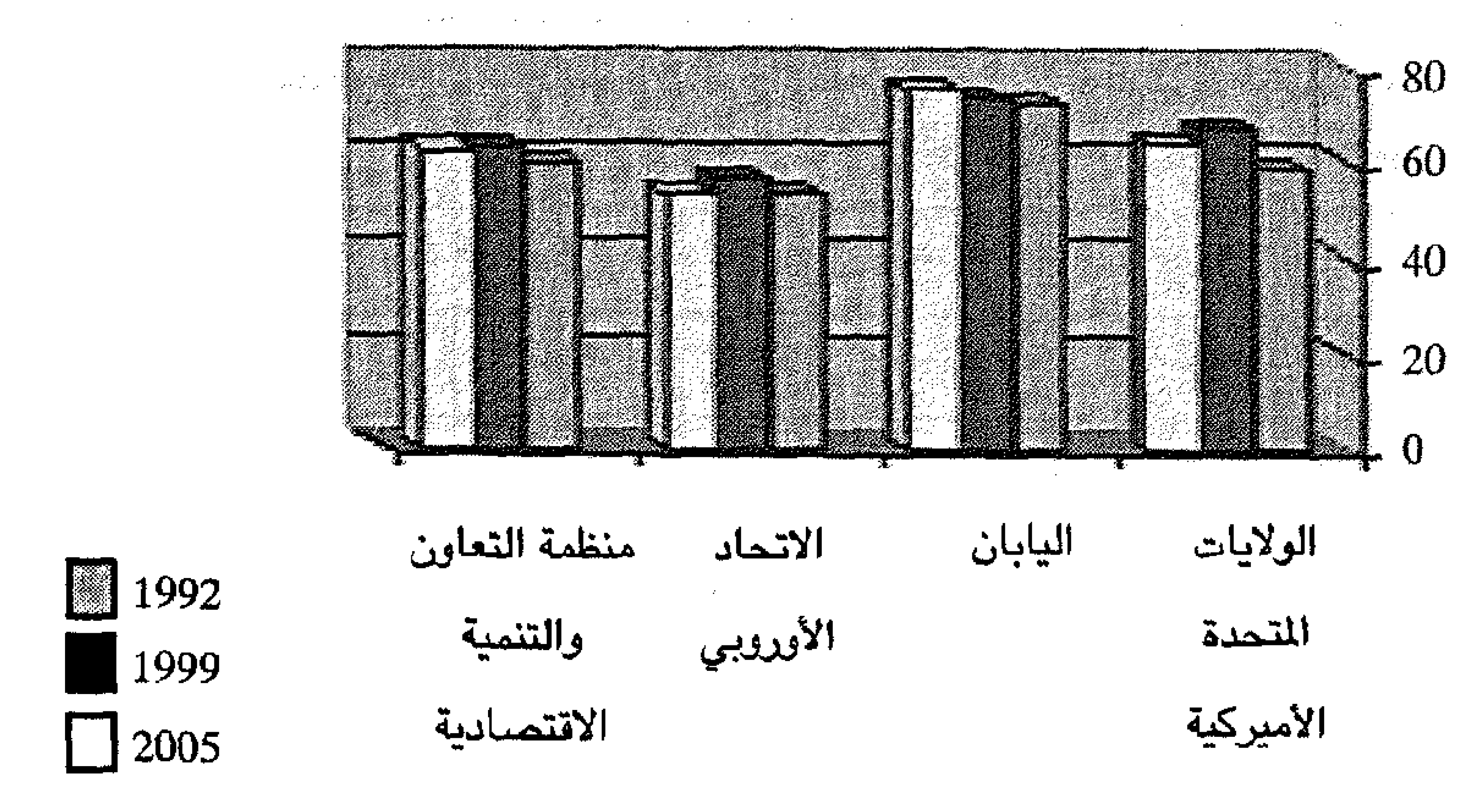
Source: OECD, Main Science and technology Indicators, November 1999, December 2006 and OCDE, Compendium statistique 2004 de la science et de la technologie, Paris, 2004,P7 et suivante.

الشكل رقم (٥) : الإنفاق المحلي الإجمالي على البحث والتطوير بليون دولار



وتتميز الصناعة في هذه الدول بأخذ دور متزايد الاتساع ورفع حجم استثماراتها في البحث والتطوير مقارنة بالاستثمار الحكومي، وتأتي الصناعة اليابانية في المقدمة، ثم صناعة الولايات المتحدة، فصناعة الاتحاد الأوروبي (الجدول ١ والشكل ٦).

الشكل رقم (٦) : نصيب الصناعة من الإنفاق على البحث والتطوير (في المئة)



عموماً، يزداد الإنفاق الإجمالي لدول العالم المتقدم على إنتاج المعارف ونشرها قياساً بالإنفاق على البحث والتطوير الذي يسهم فيه القطاع الخاص في شكل متزايد. ويتصف عقد التسعينات بتخطي حجم الإنفاق على الابتكار مثيله على البحث والتطوير، ما جعل رأس المال المخاطر مصدراً مهماً لتمويل المؤسسات الحديثة المتخصصة بالتقانة وبشكل محدد تقانة المعلومات التي جذبت وحدها ثلثي رأس المال المخاطر في الولايات المتحدة الأميركية(١٥).

أما بالنسبة إلى الباحثين المتفرغين في دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، فيشير الجدول (٢) والشكل (٧) إلى ازدياد أعدادهم المطلقة خلال الفترة ١٩٩٢ ـ ٢٠٠٥. وتأتي الولايات المتحدة الأميركية في المقدمة مع ١,٣ مليون باحث متفرغ، يليها الاتحاد الأوروبي (١,٢) ألف باحث، فاليابان ٦٧٧ ألف.

تشكل الولايات المتحدة الأميركية ملاذاً للأجانب من حملة الشهادات العلمية العليا حيث أشار أحد تقارير الاتحاد الأوروبي لعام ٢٠٠٣ إلى وجود نحو ٤٣٢ ألف شخص أجنبي من حملة الشهادات العلمية العليا وأكثر من ٥٨ ألفاً من حملة الدكتوراه(١٦).

مع ذلك تشير إسقاطات أجريت في الولايات المتحدة الأميركية(١٧) إلى توقع ارتفاع الطلب على العاملين في البحث والتطوير الصناعي بنسبة ٣٨ في المئة في عام ٢٠١٠، أي ما يقارب ٢٤٥ ألف باحث. ذلك يتوقع أن يزداد عدد الباحثين في الاتحاد الأوروبي بمقدار ٣ ملايين باحث حتى عام ٢٠٣٠ فيما لو تم الالتزام وفق ما هو مخطط له برفع الاستثمار في البحث والتطوير ليصل إلى ٣ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي في عام٢٠١٠(١٨).

(١٥) OCDE, Perspectives de la STI 2000, Paris 2000, p.5.

(١٦) Source Third European Report on S&T Indicators, 2003.

(١٧) US Department of Labor, Bureau of Labor Statistics, Web site, 2002.

(١٨) H.Morin, La science, moteur de la croissance, si on l'encourage, Le Monde, 07/07/2004.

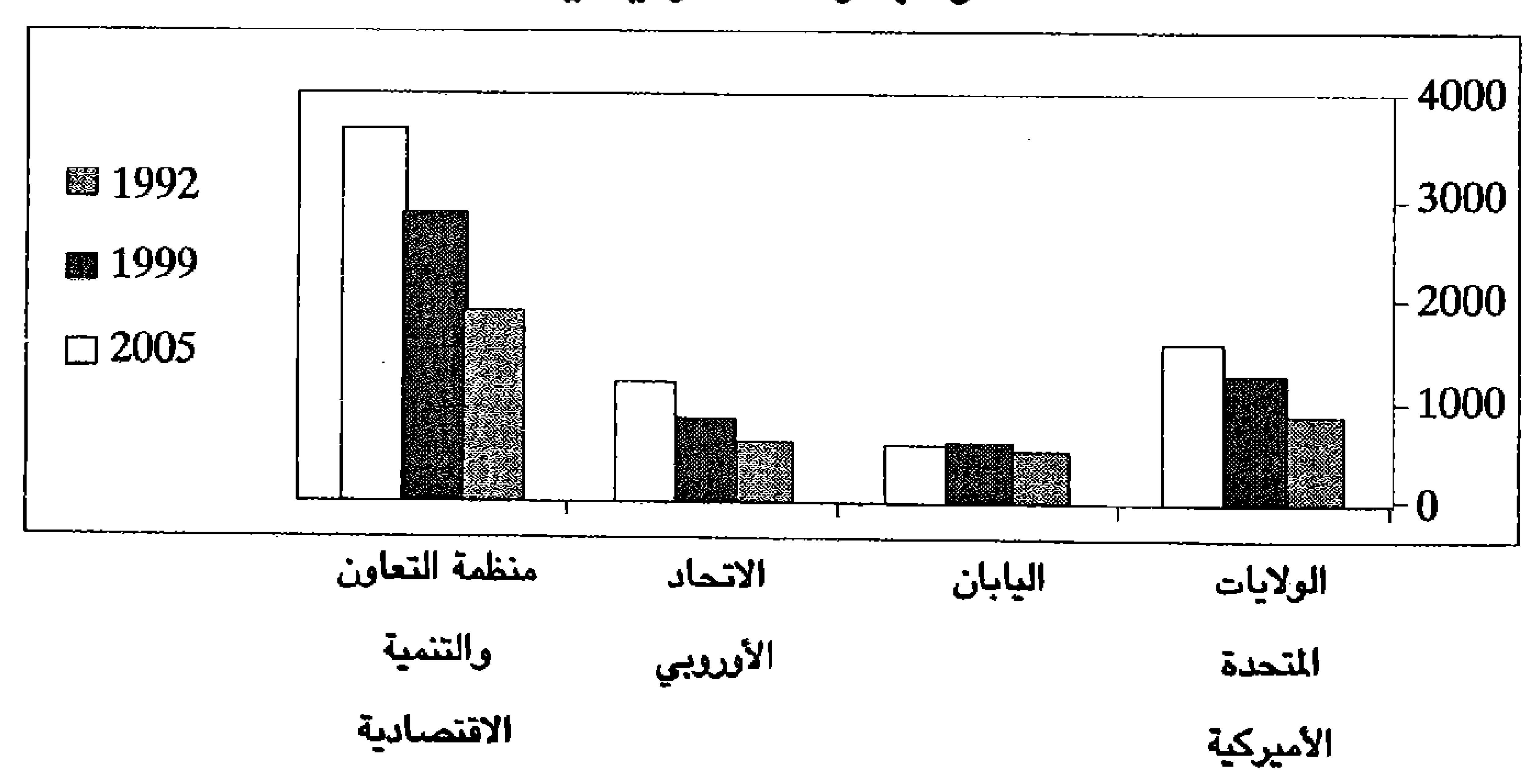
جدول (٢) مؤشرات حول تطور الباحثين في أهم دول العالم ومجموعاته الرئيسية

الدولة و/أو المجموعة	الإنفاق المحلي الإجمالي على البحث والتطوير (مليار دولار)		
	١٩٩٢	١٩٩٩	٢٠٠٥
الولايات المتحدة الأميركية	٩٦٠٥٠٠(*)	١١١٤١٠٠	١٣٣٤٦٢٨
اليابان	٦٢٢٤١٠	٦٥٨٩١٠	٦٧٧٢٠٦
الاتحاد الأوروبي	٧٦٢٤٤٠	٩٣٢٢٥٧	١٢٠٩٠٧٧
دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية	٢٣٧٥٣١٣(*)	٣٢٤٨٩٩٩	٣٥٥٠٠٧٧

(*) 1991.

Source: OECD, Main Science and technology Indicators, November 1999, and OCDE, Compendium statistique 2004 de la science et de la technologie, Paris, 2004, P7 et suivante.

الشكل رقم (7) : مؤشرات حول تطور عدد الباحثين في أهم دول العالم ومجموعاته الرئيسية



إضافة إلى هذه الأقطاب، ينبغي عدم إغفال النهوض المتصاعد لدول جنوب شرق آسيا - الصين بخاصة - التي لم يعد يروق لها الاستثمار التجاري للقوى البشرية متدنية الأجور. وجاءت الصين في المقدمة في عام ٢٠٠٥، سواء من حيث الإنفاق على البحث والتطوير ١١٥ مليار دولار، أو من حيث عدد الباحثين المتفرغين ٩٢٦ ألف[19]، ثم كوريا الجنوبية التي أنفقت في عام ٢٠٠٥، ٣١,٦ مليار دولار وكان عدد الباحثين نحو ١٨٠ ألف باحث.
أما روسيا الفدرالية، فكان إنفاقها عام ٢٠٠٥ على البحوث والتطوير ١٦,٧ مليار دولار ونحو ٤٦٥ ألف باحث. إن أعداد الباحثين الكبيرة نسبياً مقارنة بحجم الإنفاق تعيد إلى الأذهان دور الأنظمة الشيوعية التي صنفت العلميين من بين النخبة وجعلت منهم أبطالاً وطنيين، حيث ساعد ذلك على تأطير أعداد كبيرة من العلميين في "حاضنات" كالمدن العلمية في روسيا Akademgorodok وتلك الموجودة تحت الأرض وغيرها.
كما أن الانفتاح الحديث للصين، منذ ١٩٨٧، أدى إلى اتباع الحكومة سياسة تشجيعية لعودة العلميين الصينيين المهاجرين، وتطعّمت بالتالي المختبرات الصينية بالوافدين من الجامعات الأميركية المشهورة ومن غيرها. وما نجاح تايوان سوى نتيجة لاستثمارات كبيرة تمت في عقود سابقة في قطاع التعليم وأدت إلى تضاعف أعداد الخريجين ١٠ مرات خلال أربعة عقود[20]. أما بالنسبة إلى دول مثل تركيا، فكان إجمالي الإنفاق على البحوث والتطوير ٣,٧ مليار دولار في عام ٢٠٠٥ وكان نصيب إنفاق الصناعة التركية ٣٨ في المئة من هذا الإجمالي؛ وقارب عدد الباحثين ٣٨ ألفاً[21].
من طرف آخر، من اللافت أن إسرائيل أنفقت في عام ٢٠٠٢[22]، ٤,٧ في المئة من ناتجها المحلي الإجمالي للبحوث والتطوير للأغراض المدنية وأصبح إجمالي إنفاقها على البحوث والتطوير المدني ٨ مليارات دولار في عام ٢٠٠٥[23] بينما ما تنفقه الدول العربية بمجموعها مازال متواضعاً (٠,١٥ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي لعام ١٩٩٦)[24].
حيث إن التأخر العلمي والتقاني للدول العربية أصبح أمراً مقلقاً؛ وتتفاوت هذه الدول من حيث الإجراءات التي تتخذها للتخفيف من آثاره والسعي إلى تخطيه على المدى الطويل؛ ويلجأ بعضها كسوريا والمملكة العربية السعودية ومصر والأردن إلى التزود بسياسات ورؤى استراتيجية تشجّع البحث والتطوير والابتكار لفتح آفاق جديدة ترفع من منافسة مؤسساتها، وتعزز السياسات العامة في مجالات مثل الصحة والبيئة والنقل...

٣ - ٢ - ٢ - التطورات العالمية في أنشطة العلوم والتقانة

إن الدور الكبير الذي تحظى به المعرفة شجّع على تطوير الشبكات والتعاون وبالتالي عولمة العلوم والتقانة. فالمتغيرات التي طرأت على العالم، كان من نتائجها ارتفاع عمليات الاندماج والحيازة للمؤسسات الوطنية ومتعددة الجنسية، ما سمح بتحقيق وفورات الحجم الكبير في جميع القطاعات بما فيها البحث والتطوير. والممارسات التي تتبعها المجموعات

(١٩) OECD, Main Science and technology Indicator, December 2005.
(٢٠) B. DESSUS et autres, le Taipei chinois: les origines du "miracle chinois", Paris OCDE, 1995.
(٢١) OECD, Main Science and technology Indicator, December 2005.
(٢٢) OCDE, Compendium statistique 2004 de la science et de la technologie, op.cit. p. 33.
(٢٣) OECD, Main Science, op.cit.
(٢٤) UNESCO, Statistical Yearbook, several years

الصناعية الأميركية الكبرى في البحث والتطوير، أدت إلى خفض أنشطة بحوث الأساس، وبحوث التقانة، وحتى الابتكار في مراكزها الأم.

وصدرت شركات مثل IBM, GE, AT&T والمجموعات النفطية الكبرى[٢٥] أنشطتها العلمية والتقانية إلى فروعها الموزعة في شتى أنحاء العالم. وتقلّصَ دور المختبرات المركزية الرئيسية لهذه المؤسسات العملاقة، وتحول إلى وظائف ومهام أخرى (تعليم مستمر للعاملين، تنسيق بين الوحدات، تعميم الممارسات الجيدة والعملية المكتسبة داخل فروع المؤسسات مع استمرار وحدات متواضعة لمعالجة قضايا فنية طارئة). ولم يقتصر الأمر على الولايات المتحدة الأميركية فحسب، بل امتد إلى أوروبا كفرنسا حيث تحولت المجموعات الصناعية الفرنسية إلى مؤسسات متعددة الجنسية. كما استفادت شركة سابك في المملكة العربية السعودية من تجارب المؤسسات العملاقة وفتحت فرعين لمركزها البحثي والتطويري، أحدهما في الولايات المتحدة الأميركية والثاني في الهند.

كذلك برز الحرص على التكامل بين الصناعة والجامعات ومراكز البحث، إذ تطورت آليات جديدة شملت المدن العلمية والمجمعات الكبرى، حيث يوجد اليوم في الولايات المتحدة أكثر من ١٠٠٠ مركز يجمع بين الجامعات والصناعة ممتدة على أكثر من ٢٠٠ تجمع أو مدينة علمية. وتلقى السياسات الحكومية للعلوم والتقانة والابتكار في العالم المتقدم دعماً على أعلى المستويات، وترتكز على محاور رئيسة تُعنى بتعزيز البنى التحتية للعلوم والتقانة، وإعادة هيكلة الجامعات، وإنشاء مراكز النخبة.

فبعض الدول الكبرى يرفع من إسهامه في مخصصات البحث الأساسي لمواجهة التحديات الاقتصادية والبيئية وغيرها. والبعض الآخر يعيد النظر في منظومات التعليم العالي لمنحها مزيداً من الاستقلالية والتنافسية واستثمار نتائج البحث والتطوير. ويعاد النظر بالقواعد الضابطة للعلاقة بين العلوم والصناعة ورفع بعض الدول المتقدمة الغطاء عن التساوي بين الجامعات، شجع على إنشاء مراكز التميز التي يمكنها أن تصبح مرتكزات لشبكات الابتكار في القطاعات الجديدة مثل التقانة الحيوية، والنانوتكنولوجي (المنمنمات) وغيرها.

وتحذو الدول الناهضة في جنوب شرق آسيا حذو الدول المتقدمة من حيث توفير البنى والتنظيمات الكفيلة برسم سياسات العلوم والتقانة سواء أكان في الصين أم في ماليزيا، أم كوريا الجنوبية التي تطمح في خططها ورؤاها المستقبلية إلى أن تصبح دولة مبدعة تتمتع بقدرات تنافسية ومستويات معيشية مقاربة لدول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية.

وأصبحت الصين القوة الاقتصادية الثالثة في العالم من حيث الناتج المحلي الإجمالي العالمي، وقوة فاعلة على الساحة الدولية في الصناعات المتقدمة حيث صُنِّفتْ، في عام ٢٠٠٠، كثالث منتج في العالم لسلع تقانات المعلومات والاتصالات. ويتوقع أن تتبوأ المركز

(٢٥) NAS, Rapport 1999.

الأول خلال العقدين القادمين. كما يتوقع أن تصبح الصين المورّد العالمي الأول للقوى البشرية عالية الكفاءة. ويأتي ذلك ضمن الأولويات التي رسمتها خططها الخمسية بما فيها الخطة الخمسية (٢٠٠١ـ٢٠٠٥) التي ركزت على تعزيز بنيتها التحتية العلمية والتقانية، وتسخير العلوم والتقانة لرفع الإنتاجية وتحديث القطاعات الخدمية والانتاجية.

والهند، بعدد سكانها المتزايد وناتجها المحلي الإجمالي، الذي يمكن أن يقفز إلى المرتبة الثالثة في العالم عام ٢٠٥٠، تتمتع بأوجه شبه كبيرة مع جاراتها في المنطقة الآسيوية سواء من حيث ارتفاع معدل النمو أو رخص الأيدي العاملة، إلا أنها تنفرد منذ عام ١٩٩١ بنموذج يؤهلها لاندماج بالعالم بشكل يتفق مع وتيرتها واحتياجاتها.

وتتألق الهند بمنظومة علمية رفيعة تؤهل أعداداً من الباحثين ذوي الكفاءة العالية، وتضم مؤسسات تقانية رائدة مجاورة لصناعات محلية تقليدية غير منافسة ومحاطة ببيئة سكانية معظمها من المزارعين. وتسعى المراكز البحثية الغربية واليابانية والروسية للتعاون مع الهند، والتكامل يبدو كبيراً ولكن الرهانات ما زالت غامضة!.

٣ - ٢ - ٣ - الإنتاج العلمي والتقاني

من النتائج المباشرة للاستثمارات البشرية والمالية في قطاع العلوم والتقانة، إنتاج براءات الاختراع ونشر المقالات العلمية. أما النتائج غير المباشرة فهي انتاج السلع ذات التقانة المرتفعة. فيما يلي عرض سريع لهذه المؤشرات لدول مختارة وذات دلالة.

فبالنسبة إلى براءات الاختراع الممنوحة للمقيمين في الدولة (الجدول ٣)، تأتي اليابان في المقدمة، ثم الولايات المتحدة الأميركية،... أما الدول العربية، التي تدرجها إحصاءات المنظمة العالمية للحماية الفكرية، فهي قليلة جداً ولا تتعدى أصابع اليد الواحدة، والبراءات الممنوحة للمقيمين فيها ما زالت متواضعة.

جدول (٣) براءات الاختراع المودعة والمسجلة لعام ٢٠٠١ في بعض بلدان العالم

	طلبات البراءات المودعة			البراءات الممنوحة		
	للمقيمين	لغير المقيمين	المجموع	للمقيمين	لغير المقيمين	المجموع
اليابان	٣٨٨٣٩٠	١٠٨٢٣١	٤٩٦٦٢١	١٠٩٣٥	١٢٣٦٧	١٢١٧٤٢
الولايات المتحدة	١٩٠٩٠٧	١٨٤٧٥٠	٣٧٥٦٥٧	٨٧٦٠٦	٧٨٤٣٢	١٦٦٠٣٨
ألمانيا	٨٠٢٢٢	٢١٢١٧٦	٢٩٢٣٩٨	١٩٢٤٢	٢٨٩٦٥	٤٨٢٠٧
كوريا الجنوبية	٧٤٠٠١	١١٦٠٢١	١٩٠٠٢٢	٢١٨٣٣	١٢٨٤٢	٣٤٦٧٥
روسيا	٢٥٠٤٦	٨٢٦٣٢	١٠٧٦٧٨	١٣٧٧٩	٢٥١٣	١٦٢٩٢
الصين	٣٠٣٢٤	١١٨٩٧٠	١٤٩٢٩٤	٥٣٩٥	١٠٩٠١	١٦٢٩٦
اسرائيل	٢٣٧٨	٨٢٠٢٧	٨٤٤٠٥	٣٤٩	١٤٨٤	١٨٣٣
مصر	٤٦٤	٩٢٣	١٣٨٧	٥٧	٣٧٣	٤٣٠
السعودية	٤٦	٦٨٣	٧٢٦	–	١٠	١٠
سوريا				٢٨	٣٤	٦٢

Source, WIPO, IP/STAT/001/A

وعلى الرغم من أن اليابان مصنفة الأولى منذ ١٩٦٨ من حيث إيداع براءات الاختراع، فإنها المشتري الأول لها أيضاً. واقتبست اليابان مبكراً نظم الحماية الفكرية من الغرب وأصبحت تستخدمها وسيلة جذب للصناعات الآسيوية. كذلك الأمر بالنسبة إلى دول جنوب شرق آسيا مثل كوريا الجنوبية التي سبقت بعض الدول المتقدمة في أعداد البراءات المسجلة لديها.

أما بالنسبة إلى نشر العلمي للمقالات على النطاق العالمي، فيشير الجدول (٤) إلى هيمنة أميركا الشمالية وأوروبا الغربية مع ٧٠ في المئة من إجمالي المنشورات العالمية في عام ٢٠٠١، فيما نصيب النشر في الدول العربية ما زال أقل من ٠,٧ في المئة من إجمالي العالم.

جدول (٤) تطور أعداد المقالات العلمية المنشورة في العالم وتوزعها حسب المناطق / الدول

المناطق / الدول	إجمالي عدد المقالات المنشورة		النسب المئوية	
	عام ١٩٩٢	عام ٢٠٠١	عام ١٩٩٢	عام ٢٠٠١
الإجمالي العالمي	٥٤٧٦١٧	٦٤٩٧٩٥	١٠٠	١٠٠
أميركا الشمالية	٢٢٤٣٨١	٢٢٦٧٠٤	٤١	٣٤,٩
أوروبا الغربية	١٧٨٤٠٦	٢٢٩١٧٣	٣٢,٥	٣٥,٢
آسيا	٦٨٤٨٩	١١٣٥٧٥	١٢,٥	١٧,٦
أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى	٤٣٢١٤	٣٣٦٨٦	٨,٠	٥,٢
الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، موزعة كالتالي:	٨٤١٠	١١٧٧٧	١,٥	١,٨
- الدول العربية	٣٠٢٦	٤٢٩٥	٠,٥٥	٠,٦٦
	١٥٠	٩٩٥	٠,٠٣	٠,١٥
- إيران	٥٢٣٤	٦٤٨٧	٠,٩٥	٠,٩٩
الهادئ	١٣٧٧٥	١٧٧٤٣	٢,٥	٢,٧
أميركا الجنوبية والوسطى	٦٥٨٦	١٣١٤٧	١,٢	٢,٠
شبه الصحراء الأفريقية	٤٣٥٦	٣٩٩٠	٠,٨	٠,٦

Source: Institute of Scientific Information, Citation Index and Social sciences Citation Index, cited by : Science & Engineering Indicators-2004, Appendix table 5-35.

بين دول أوروبا الغربية، التي تطور النشر فيها بشكل لافت، برزت إيطاليا وإسبانيا والبرتغال واليونان؛ أما في منطقة آسيا، فقد عرفت كوريا الجنوبية وتايوان والصين واليابان تطوراً ملموساً في هذا الشأن. ويفسر ذلك جزئياً التقارب الحاصل بين المؤسسات العلمية والتقانية الإقليمية والتعاون الجاد والمستمر بين العلميين العاملين فيها.

أما إنتاج وتصدير السلع ذات الكثافة التقانية المتوسطة والمتقدمة، فهو مؤشر تقني مهم يدل على مدى اندماج العلوم بالتقانة وانصهارهما في البوتقة الاقتصادية والاجتماعية للدول وذلك كما يوضحه الجدول ٥.

جدول (٥) توزع صادرات السلع بحسب الكثافة التقانية في الدول العربية والعالم لعام ١٩٩٩ (نسب مئوية)

	الدول العربية	العـالم
الصادرات ذات المحتوى التقاني المنخفض	٣٩	٤٩
الصادرات ذات المحتوى التقاني المتوسط	٥٥	٢١
الصادرات ذات المحتوى التقاني المرتفع	٦	٣١
النسبة المئوية	١٠٠	١٠٠

Source: UNDP, Human Development Report 2001, A2.3, p.59.

إن الضعف العربي في هذا الشأن يفسر حال الصناعة التي ما زالت في معظمها تحويلية ومبنية على التقانات المستوردة والتقليدية. إن هذا الأمر انعكس على الدخل القومي الإجمالي العربي، حيث لم يتجاوز ٣٨١ مليار دولار لأهم ١١ دولة عربية(٢٦)، كان عدد سكانها ٢٢٤ مليون نسمة في عام ١٩٩٩؛ وهو أقل من كوريا الجنوبية التي كان دخلها القومي ٣٩٨ مليار دولار وعدد سكانها ٤٧ مليون نسمة للعام نفسه(٢٧).

٣ - ٣ - الإدارة الكونية للعالم

إن تفاقم المشاكل البيئية وعدم الاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية، التي تشكل المحيطات والغابات والمراعي وموارد المياه مجالات مهمة لها، سيعزز الإدارة الكونية للبيئة. وستشكل الهندسة الإجمالية (الهندسة المدنية على نطاق الكرة الأرضية) محوراً آخر لهذه البيئة. بينما ستكون البنية التحتية الاقتصادية والصناعية التقليدية مثل: الاتصالات، والإنشاءات الصناعية، والمصانع الكيماوية، والمحطات الكهربائية وغيرها جزءاً من منظومات ممتدة الفروع وخاضعة لهذه الإدارة التي ستصبح مؤطرة ضمن المؤسسات متعددة الجنسية ومن خلال الأمم المتحدة ومن كيانات أخرى مثل منظمة التجارة العالمية وغيرها من المنظمات التي ستتخطى الدول وتتجاوزها.

وستساهم التطورات العلمية والتقانية في شكل متزايد في الرقابة والتحكم بمكونات تلك المنظومات حيث سيصبح كل شيء "ذكياً"، أي قابلاً للتأثر بمحيطيه الخارجي والداخلي من خلال دمج معالجات صغرية ولواقط مندمجة في الأجهزة، أو باختراع مواد ذات ردود فعل للمتغيرات الفيزيائية كالضوء والحرارة والضجيج والرائحة والحقول الكهرمغناطيسية، أو من تزاوج هاتين الطريقتين. وستقام في العالم بنى تحتية جديدة تتمتع بالرقابة الذاتية؛ إذ تتوافر في وقتنا الحاضر لواقط مقياس في بعض الجسور والملاعب من أجل الدلالة على إجهادات البنى المعدنية، وأصبحت تُستخدمُ صور الطنين المغناطيسي المستعملة عادة

(٢٦) المملكة العربية السعودية ومصر والجزائر والمغرب والأردن ولبنان وموريتانيا والسودان وسوريا وتونس واليمن.

(٢٧) World Bank, 2001 World Development Indicators, web site.

في الفحوص الطبية للكشف عن الجوانب المخفية للمواد بما يتيح التعرف المبكر إلى مؤشرات التآكل، وبالتالي اللجوء إلى الصيانة الوقائية.
كما أن التطورات الجارية على تقانات الاستشعار من بعد ستفيد في إدارة العالم حيث ستتيح الفرصة لمعرفة وتقويم وتحليل مجريات الأمور على سطح الكرة الأرضية وفي باطنها وأعماق المحيطات؛ وستتطور الأرصاد الجوية لتصبح مفصلّة وموثوقة وواسعة لتشمل العالم بأسره. كما سيصبح العديد من الكوارث الطبيعية كالفيضانات والهزات الأرضية وانزلاق الأرض تحت السيطرة التامة أو الجزئية على الأقل.

٤ ـ اتجاهات تطور التقانات الأساسية في العالم وتطبيقاتها في المستقبل المنظور

يشهد العالم تطورات كبيرة سواء في التقانات الأساسية كالإلكترونيات، والمعلومات والاتصالات، وعلوم الأحياء، والمواد الجديدة أو في انتشار تطبيقاتها في الأتمتة وتقانة المعلومات، والصحة البشرية، والبيئة والموارد، ونشوء قيم جديدة أفرزتها تلك التطورات.

٤ ـ ١ ـ أبرز التقانات الأساسية

في ما يأتي عرض لأهم التقانات الأساسية كالإلكترونيات، والمعلومات والاتصالات، وعلوم الأحياء، والمواد الجديدة.

٤ ـ ١ ـ ١ ـ الإلكترونيات

تشكل الإلكترونيات الصغرية Microelectronics أساس مجتمع المعلومات لأن كل تقانات المعلومات والاتصالات تقوم على مكونات إلكترونية. ويتوقع أن تصبح أشباه الموصلات من القطاعات الصناعية المهمة في العالم. وتعتمد صناعة الإلكترونيات في العالم المتقدم بشكل كبير على البحوث والتطوير ولها بالتالي مخصصات مالية وبشرية عالية مقارنة بالصناعات.

يتم في الدول المتقدمة الدعم الحكومي للبحوث والتطوير في الصناعات الإلكترونية سواء بشكل مباشر (تطوير أنظمة ومعدات إلكترونية) أو غير مباشر (البحوث الأساسية في الجامعات والمعاهد). كما تبدي دول شرق وجنوب شرق آسيا اهتماماً كبيراً ببحوث صناعة الإلكترونيات، وبدأت كوريا الجنوبية مبكراً بدعم أنظمة المقاسم الهاتفية الإلكترونية، ثم بمجال شرائح السيليكون، ولاحقاً في صناعة الإلكترونيات الاستهلاكية. وتتقاسم الدولة والقطاع الخاص الإنفاق على البحث العلمي والتطوير التقاني. وهناك تجارب أخرى هامة في ماليزيا وإسرائيل.

ويعزى التطور الحاصل في صناعة الإلكترونيات على النطاق العالمي إلى التقدم المتزايد للتخصصات، سواء في المفاهيم أم في التقانات المشاركة، ويلخّص ذلك بما يلي:

* الإلكترونيات: شهدت الإلكترونيات ثورة في شبه الموصلات سمحت بالاندماج الكبير للدارات والاستهلاك الضئيل وسرعة معالجة المعلومات والطاقة الكبيرة لتخزينها؛
* البصريات: وسّعت البصريات حقول نشاطها في البصريات المتوافقة والبصريات غير الخطية وذلك بفضل الليزر كمصدر جديد للإشعاع؛
* الصوتيات: طوّرت الصوتيات الكاشفات ما فوق الصوتية وذلك باعتمادها على نمذجة الأمواج الصغرية.

أدت هذه التخصصات المساندة إلى تطبيقات عدة ، تفتح آفاقاً واسعة في:

- معالجة المعلومات (الأصوات، الصور، المعطيات) التي تزداد تعقيداً وسرعة وتستند بشكل كبير إلى الإلكترونيات الرقمية والمعلوماتية؛
- الاتصالات التي عرفت توسعاً كبيراً مع استخدام الأقمار الصناعية ونقل كم هائل من المعلومات بأشكالها المختلفة وبآن واحد للأصوات والصور والمعطيات؛
- الأتمتة والإنسالية (الروبوتية) التي أصبحت متحركة وأخذت مكان الإنسان في المهمات المتكررة والمملّة لتساعده في الوصول إلى الأماكن العصيّة: الفضاء والمحيطات، المراكز النووية، الأمن المدني، الزراعة، الهندسة المدنية،...
- الرصد والاستشعار، إن رصد الأرض والفضاء والملاحة والاستشعار الجوي وأعماق المحيطات والتوجيه (كالصواريخ وأسلحة الذكاء الصناعي)، تتبع جميعها التقدم الحاصل في هذا المجال.

ولا بد هنا من التلميح لدور علوم الخيال من حروب المستقبل، حيث إن العلميين يعملون بدأب في تحليل التحديات الأمنية وإعادة النظر بوسائل مواجهة حروب الغد. فعلى سبيل المثال، طور المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا وشركاؤه برنامجاً عن الروبوت المتحرك للأنواع الثلاثة من السلاح (البري والبحري والجوي)، إضافة لمشاريع لتطوير آليات بدون قادة.

٤ ـ ١ ـ ٢ ـ المعلومات والاتصالات

إن التطور المتسارع لتقانة المعلومات واندماجها بالاتصالات أصبح في مركز التحولات العالمية الاقتصادية والاجتماعية. ويتكون قطاع تقانة المعلومات والاتصالات من مجموعة من الصناعات وأنشطة الخدمات التي تتولى تقديم خدمات الإنترنت، وخدمات وتجهيزات الاتصالات وتقانة المعلومات، وتقانة السمعيات والمرئيات المتعددة والبث، والمكتبات ومراكز التوثيق، وموردي المعلومات التجارية، وخدمات المعلومات بواسطة الشبكات، وغيرها من الخدمات المرتبطة بالمعلومات والاتصالات.

إن هذه المكونات المبنية في أساسها على تقانات مستقلة بعضها عن بعض، بدأت بالاندماج لتشكل بمجموعها خصائص المجتمع المعلوماتي (أو المعرفي). وقاد هذا بالأصل

إلى إدخال مفهومي "البنى التحتية الوطنية للمعلومات" و"البنى التحتية العالمية للمعلومات" التي يمكن تعريفها بأنها التقانات والتنظيمات والوسائل التي تسهل عملية استخدام تقانة المعلومات والاتصالات.

ويبني المجتمع المعلوماتي تطوره على الاندماج التقاني بين الحاسبات وشبكات الاتصالات وبروتوكولات التبادل بين الأجهزة؛ ويقوم على الصناعات المعلوماتية التي تتعامل مع المعلومات بدءاً من جمعها وتحليلها وتنسيقها ثم تسويقها وبيعها للمستهلكين على هيئة بضائع أو خدمات. وتتضمن المعلوماتية تقانة المعلومات وعلوم الحاسب ونظم المعلومات وشبكات الاتصالات وتطبيقاتها المختلفة.

ويتجه العالم في هذا المضمار إلى بناء شبكة عالمية للمعلومات مؤلفة من شبكات الاتصالات (الأقمار الصناعية وكابلات الألياف البصرية والهواتف...)، وتطوير تجهيزات الاتصالات فائقة الذكاء (الحاسبات البيولوجية...)، والتوسع في بناء مصادر المعلومات (قواعد المعطيات، ووسائل التعليم والترفيه،...)، ونشر التطبيقات (التجارة الإلكترونية، الحكومات والجامعات والمكتبات الافتراضية، والعلاج من بعد باستخدام شبكات المعلومات لنقل المعلومات الطبية الدقيقة ...).

ويعكف عدد من مراكز الأبحاث في الولايات المتحدة على العمل الجاد والمتواصل لتطوير النسخة الثانية من شبكة الإنترنت الدولية والمعروفة باسم Internet 2 والتي ستكون حسبما يعد به القائمون عليها أكثر أمناً وسرعة وملاءمة لمتطلبات قطاعات الأعمال والمستخدمين. ومن المستبعد أن تكون تلك الشبكة الجديدة متاحة على المدى القريب حيث لا تزال في المختبرات العلمية التي تعمل على تطوير تقنياتها من خلال مركز الكمبيوتر الخارق في سان دييجو ومختبر الإنترنت الثانية في ساوث كارولينا.

وتراهن الدول الكبرى على تقانات الفضاء لتطوير مجتمع المعلومات، وذلك من خلال استراتيجيات تسعى فيها إلى:

- السيطرة على تدفق المعلومات
- السيطرة على قطاع الفضاء المدني ودمجه بالمكونة العسكرية
- التعامل مع الوسائل المدنية كالمنظومات الفضائية التجارية والاتصالات ومن ثم الملاحة من خلال رؤية توليفية وشاملة للأنظمة كلها.

٤ ـ ١ ـ ٣ ـ علوم الأحياء

تشكل التقانة البيولوجية التي تدعمها تطورات علم الجينات Genomics والبيولوجيا الجزيئية، خطوات في طريقها إلى إحداث ثورة حقيقية في مجال التحكم بالأمراض والتغذية وأجهزة الحوسبة التي ستتمكن في غضون عقدين من الزمن من تحليل سلاسل DNA للكشف عن عوامل الخطر التي تؤدي إلى تطوير الأمراض.

وهناك آمال عريضة ومتجددة ومحاولات لاستنبات أعضاء بشرية حية تكون جاهزة ومتوافرة لزرعها داخل الجسم وذلك من خلال توحيد جهود علماء علوم الحياة والطب وتقنيات الهندسة الوراثية وغيرها لتمكين الخلايا من النمو وتشكيل العضو المطلوب إما داخل المختبرات أو في الجسم البشري نفسه، وهو ما سيحدث ثورة كبرى في عمليات استبدال الأعضاء الحيوية في الجسم.

وفي مجال الأدوية، تجرى بحوث متعددة لإعادة اكتشاف أدوية ومواد معروفة بتوظيفها في استعمالات أخرى كاستخدام فيتامين (د) للحد من نمو خلايا سرطانية معينة أو جعل الخلايا السليمة تريح المرضى وتتغلب على مشكلة عدم الالتزام بالإرشادات العلاجية كالمضخات والعدسات البصرية وغيرها من المستحضرات اللاصقة في أجزاء الجسم المختلفة. وهناك أنشطة بحثية لا تحصى في مجال توظيف الأحياء الدقيقة في إنتاج الأدوية الناتجة من الأيض أو التحويل الحيوي أو من طريق الهندسة الوراثية. كما أن هناك توجهات في مجال المناعة وإيجاد الطعوم والأمصال والمستحضرات المناعية. هذا إضافة إلى الدعوة العالمية المتزايدة إلى العودة إلى الطبيعة والتداوي بالأعشاب والنواتج الطبيعية على أسس ومبادئ علمية وتقانية وبمستحضرات دوائية تخضع لدراسات دقيقة ومراقبة كافية ومعايير قياسية وعلى درجة عالية من النقاوة والثبات.

ومن أبرز التطورات في مجال تقنيات الطب: التصوير الطبي، والطب النووي والصور ثلاثية الأبعاد بواسطة الحاسب، استخدام تقنيات الليزر في التشخيص والمعالجة والجراحة، وتقنيات تشخيص ومعالجة أمراض القلب،...

٤ - ١ - ٤ - المواد الجديدة

تبدي معظم دول العالم المتقدم اهتماماً كبيراً بالتقانة النانوية Nanotechnology التي تعرف بأنها علم بناء الأجهزة الجزيئية ذرة فذرة. ويتوقع أن تطلق هذه التقانة في المستقبل القريب ثورة في إنتاج المواد، وبالتالي اجراء تطبيقات تسهم في زيادة درجة ذكاء أجهزة الكومبيوتر ورفع القدرات البرمجية مما يساعد في حل أكثر مشاكل العالم تحدياً.

وعموماً، يتجه العالم الصناعي بالنسبة إلى المواد الفلزية نحو تقنيات الاختزال المباشر لاستخلاص الحديد باستخدام الهيدروجين وأول أكسيد الكربون الناتجين من تهذيب الغاز الطبيعي. كما يتجه نحو استخدام تقنيات الصب المستمر وإنتاج سبائك نقية جداً وصفائح رقيقة، وتطوير طرائق الدرفلة بإدخال التحكم الآلي لرفع كفاءتها وإنتاج صفائح ذات سطوح مستوية وخالية من العيوب.

وفي مجال الألمنيوم ينحو العالم باتجاه تحسين كفاءة طريقة باير بزيادة كفاءة إذابة هيدروكسيد الصوديوم لأكسيد الألمنيوم لتقليل استهلاك المذيب وتقليل زمن الإذابة وتحسين عملية فصل المركب الحاوي للألمنيوم عن الشوائب وزيادة فاعلية ترسيب

هيدروكسيد الألمنيوم في المرحلة الثالثة من طريقة باير واستخدام هيدروكسيد الكالسيوم لمعالجة الطينة الحمراء. وكذلك تطوير طرائق لصهر الأكسيد واختزال الألمنيوم وإنتاج سبائك مع الليثيوم التي تستخدم في هياكل الطائرات وتطوير سبائك جديدة تحوي مواد خزفية وإنتاج سبائك ملائمة لظروف التشغيل من اجهادات ميكانيكية ودرجات حرارة عالية تستخدم مثلاً في القرص الدوار والمراوح والريش وأغلفة المحارق في محركات الطائرات النفاثة والتي تتعرض لاجهادات كبيرة.

وبالنسبة إلى المواد البوليميرية، فينتظر أن يستمر إحلال اللدائن محل المواد التقليدية، إذ ازداد استخدام اللدائن في قطاع الاتصالات والأقمار الصناعية. والأدوات المنزلية والتعبئة والتغليف والمواد الفيلمية وصناعة السيارات. كما يتوقع أن تتطور صناعة البوليميرات وتقنيات تصنيع البولي ايثيلين بسبب ارتفاع الطلب عليه.

وفي ما يتعلق بالمواد الخزفية فستواجه صناعة السيراميك في العالم مجموعة من المشكلات التقانية مثل قلة الوثوقية ووجود الشوائب والعيوب ووجود حاجة إلى عمليات إنهاء إضافية تزيد من التكاليف وعدم القدرة على كشف العيوب الدقيقة بالوسائل الحالية. لذلك يتوقع أن يزيد الإنفاق على البحث العلمي والتطوير التقاني في مجال المواد الخزفية، من أجل تحسين خواص المواد الخزفية وتحسين التحضير والتجهيز وتقنيات التصنيع وابتكار مواد جديدة.

يتجه العالم في هذا المجال نحو استخدام المواد المركبة في الخوذ والدروع الواقية وفي منتجات ذات العلاقة بالطيران والفضاء وغيرها من الاستخدامات.

٤ ـ ٢ ـ تطبيقات العلوم والتقانة[٢٨]

إن الاتجاهات التي بدأت تظهر ملامحها مع مطلع القرن الجديد في قطاعي علوم الأحياء والمعلومات توحي بابتكارات مهمة في قطاعات متنوعة كالروبوتية والمعلوماتية والاتصالات، والزراعة والغذاء والصحة والدواء. إلا أن الحدث الأهم هو التزاوج بين علوم الأحياء والمعلوماتية وما سينتج منه من ابتكارات جديدة (كالحاسب البيولوجي) تبشر بتطبيقات كبيرة تفيد في مواجهة العديد من التحديات العالمية. فيما يلي عرض لأهم هذه التطبيقات.

٤ ـ ٢ ـ ١ ـ الأتمتة وتقانات المعلومات

سيزداد انتشار شبكة واسعة من الألياف البصرية على النطاق العالمي وذلك إضافة إلى تقنيات أخرى كالاتصالات من طريق الأقمار الصناعية والهاتف الخلوي والرزم الهرتزية. وتشيع في الدول المتقدمة وبين الطبقات المتوسطة من العالم النامي الاتصالات الهاتفية الناطقة بشكليها المرئي أو اللامرئي، والتخاطب مع الحاسوب والحواسيب فيما بينها في كل الأوقات وبصرف النظر عن نقاط البدء والانتهاء. وستستخدم الإنساليات robotics والآلات المؤتمتة الأخرى في شكل واسع في أعمال روتينية داخل المصانع وخارجها وفي

(٢٨) تم الاستناد في بعض فقرات الدراسة إلى المراجع التالية: A.J.COATES, L'avenir hautement probable., Op.Cit. B.CAZES, Histoire des futurs. Les figures de l'avenir de saint Augustin au XXIe siecle. Paris: Ed. Seghers, 1986 - L.SCHWAB, Les previsions de la Rand: retrospective et essai d'evaluation, in revue Futuribles juillet-aout 1989 - Joel de Rosnay, L'HOMME SYMBIOTIQUE, Regards sur le 3eme millenaire, Editions du Seuil, Paris 1995.

الزراعة وأعمال التشييد والأشغال العامة وفي أعماق البحار والفضاء والمناجم،...
وستكون التجهيزات الإنسالية المتكاملة جزءاً من البرامج الفضائية ومساعدة فعالة للعناصر البشرية العاملة. وإضافة إلى الذراع التقليدية الإنسالية المستخدمة في المكوك الفضائي، سيزداد استخدام الإنسالية في تسيير آلات في الفضاء تعمل في شكل مستقل وخصوصاً في الأماكن التي يصعب على الإنسان العمل فيها.
وسيتوسع استخدام تقانة المعلومات في منهجيات استقصاء الآراء والاستشارات الانتخابية، بما فيها المحلية، في الوقت الحقيقي؛ وسيُدَّعم اتخاذ القرارات باستفتاءات تتم بواسطة الحاسوب؛ وستصبح استخدامات المعلوماتية أكثر شيوعاً بين سكان البلدان المتقدمة الذين يصبحون أسرى لها؛ وستكون هنالك مجموعات افتراضية لا تحصى قائمة على الاتصالات الإلكترونية.
وسيزداد انتشار الحكومات الإلكترونية وستتم متابعة شاملة للمعاملات بين المؤسسات وذلك على النطاق الوطني أو الدولي. وتصبح بطاقات الهوية كونية، وستحتوي على معلومات تتعلق بالجنسية والتاريخ الطبي والدراسة والأسبقية المهنية والوضع المالي والضمان الاجتماعي والوضع الائتماني، حتى الانتماء الديني أو التنظيمي للأشخاص.
وسيسّهل انتشار الحاسبات في التحكم المؤتمت وسيمكّن من المتابعة والتقويم المستمر للمنظومات الفيزيائية. وستنتشر الخدمات كاملة الأتمتة (مثل التصنيع كامل الأتمتة والرد الآلي على الهاتف) لكنها لن تعمم لأسباب عدّة كالكلفة وجاهزية التقانة ومخاطر صراعات العمل.
ستسمح القدرة على تحوير المواد على النطاق الجزيئي molecular أو الذري atomic للصناعيين بأن يصنعوا تجهيزات ومعدات حسب الطلب لأداء وظائف محددة مثل الاستشعار البيئي ومعالجة المعلومات. وستستخدم بشكل واسع تقنيات الواقع الافتراضي realite virtuelle للتأهيل والتعليم (مثل التعلم على قيادة الطائرات) والتسلية وستشكل في شكل منظومي جزءاً من المحاكاة المستخدمة في جميع أنواع أعمال الحضرية وتصميم المنتجات.
سيسمح تطوير منظومات الخبراء systemes d'experts للآلات وللمنظومات والأجهزة بالتأقلم مع الأوضاع الجديدة المفروضة عليها (قدرة التعلم). كما أن بعضاً من أشكال التعلم ابتدائي المستوى سيكون ممكناً للحاسبات والآلات وذلك على غرار ما يُجري عند الأطفال الصغار.
وسيكتمل دمج الاتصالات مع المعلومات لتنتشر مفاهيم جديدة بدأ التعامل معها مثل: العمل من بعد، التجارة الإلكترونية، التعلم من بعد، التصويت الإلكتروني...
وسيخضع الاقتصاد التطبيقي للنماذج الاقتصادية المؤتمتة التي تغدو ذات قدرات هائلة

والتي ستُدخلُ اعتبارات مرتبطة بالبيئة ونوعية الحياة في شكل كامل في الحسابات الاقتصادية، ما يخلق معضلة كبيرة في عملية القياس الاقتصادي للمعلومات والمعارف.

٤ ـ ٢ ـ ٢ ـ إدارة الصحة البشرية

إن الفهم الأوسع للوراثة البشرية في مختلف أنحاء العالم سيفتح الطريق أمام برامج واضحة لا تعتمد على الوقاية من الأمراض فحسب بل تتعداها لتشمل تعزيز القدرات الفيزيائية والفكرية للأشخاص. وسيتم تحديد العلاقات المحتملة بين جملة الأمراض والاضطرابات التي يعاني منها الإنسان بحيث تتوضح بشكل أعمق العمليات البيوكيماوية الوسيطة التي تقود إلى التعبير عن المرض أو الاضطراب، والتفاعل بينها وبين محيطها أوالتاريخ الشخصي للمريض.

كذلك سيتم الوصول إلى فهم عام للأسس الكيميائية والفيزيولوجية والوراثية للسلوك الإنساني بحيث تصبح ممارسة التدخل الهادف لمكافحة المرض وتقوية الفرد شائعة ويومية. وستصبح التقانات المؤثرة في الدماغ والفكر جاهزة وشائعة الاستعمال للتحكم بالانفعالات، والقدرة على التعلم، وحدة الحواس، والذاكرة وحالات نفسية أخرى.

سيكون لكل فرد تاريخه الطبي الذي يحفظ في شكل قانوني ويكون لصاحب العلاقة حق الدخول بحرية على ملفه من خلال بطاقة ذاكرة أو قرص طبي. وسيعمّر الكثير من الناس في الدول المتقدمة لغاية ٨٥ سنة وسيتمتعون بصحة جيدة ملؤها النشاط والحيوية.

ستتوفر أدوية حسب الطلب، كالهرمونات وأدوية التحكم بالنبضات العصبية، وستكون مضمونة وفعّالة كتلك التي يصنعها الجسم البشري والحيواني بشكل طبيعي. وستكون أجهزة التعويض، المرافقة بعلاجات طبية، موجّهة إلى تحسين جذري عند الأفراد الذين يعانون لسبب ما من نقص في قدراتهم الفيزيائية أو الفيزيولوجية.

٤ ـ ٢ ـ ٣ ـ إدارة البيئة والموارد

ستتضح للعلميين في شكل أكبر هندسة العناصر الوراثية البنيوية لنباتات وحيوانات معينة كالحشرات، وهو ما سيساعد في التحكم والتحوير في الحالة الصحية لهذه النباتات والحيوانات من أجل زيادة انتشارها أو القضاء عليها. وسيسمح التقدم في الهندسة الوراثية بتوفير أشكال جديدة وبكميات كبيرة لأجهزة عضوية صغرية لنباتات أو حيوانات معينة.

ستفتح الوراثة الزراعية الطريق أمام تنوع الأطعمة البشرية؛ وستنخفض البروتينات الحيوانية الداخلة في أغذية سكان العالم المتقدم وسيقود تطبيق سلسلة إجراءات صحية وبيئية وأخلاقية إلى إعطاء أهمية كبرى للنظام النباتي. وستتوافر أغذية تركيبية خضعت لتحويرات وراثية تتناسب مع الأذواق والحاجات الغذائية والحالة الصحية للمستهلكين.

ستكمّل الأجهزة العضوية الصغرية الحاصلة من طريق الهندسة الوراثية أشياء كثيرة

كاستخدامها في صناعة منتجات كيماوية أساسية ومواد كيماوية وعلاجية (لقاحات وأدوية معقدة التركيب). وسيشيع استعمال الأجهزة العضوية الصغرية في الزراعة واستخراج المعادن وإشباع المواد الأولية وإدارة النفايات وتنظيف البيئة. وستتوفر برامج وراثية للاستخدام اليومي ولتحسين الحيوانات المعدّة للغذاء (العجول والدجاج) والتسلية (أحصنة سريعة مخصصة للسباق) أو المرافقة (الكلاب المؤهلة لاصطحاب المكفوفين) بينما ستطبق التقانيات ذاتها في العالم النامي لتحسين حيوانات الذبح ورفع نصيبها من الموارد الغذائية.

سينخفض الاستهلاك الفردي للطاقة المرتبطة بالآلات والخدمات في الدول المتقدمة بمقدار ٦٦ في المئة من الاستهلاك الفردي لعام ١٩٩٠، بينما سيرتفع الاستهلاك في بقية العالم إلى ١٦٠ في المئة من الاستهلاك الفردي لعام ١٩٩٠، ويفسَّر ذلك بأن هنالك إشباعاً لدى أفراد العالم المتقدم في استخدام الأجهزة الكهربائية وغيرها بينما يحتاج أفراد بقية العالم لفترة أطول للوصول إلى حد الإشباع.

وسيشيع في الدول المتقدمة إعادة استخدام الموارد تحت أشكال مختلفة مثل: إعادة التدوير والاسترجاع والإصلاح. وبالتالي سينخفض استهلاك المواد البكر في شكل كبير سواء من الاستخراج المنجمي أو القطع أو النقب. كما ستتم إدارة الزراعة في شكل يضمن تجديد التربة (بمزج دقيق للعناصر المستخدمة في الانتاج). وسيستطيع المزارعون استخدام التقانات المتطورة للتوفيق بشكل أمثل بين المناخ ومعالجة التربة وانتقاء النباتات التي يرغبون في زراعتها؛ وسيمكنهم الاعتماد على تربة تركيبية مصنّعة وفق الطلب لضمان ترميم التربة وتطوير الزراعات المحمية والخارجية.

٤ ـ ٢ ـ ٤ . نشوء قضايا وقيم وممارسات جديدة

يتوقع أن تزداد مطالبة الشعوب في مختلف دول العالم بتحسين نوعية الحياة بما فيها التقاعد والشيخوخة والصحة والبيئة ووضع أنظمة وطنية شاملة للعناية بالإنسان ورفاهيته. كما سيصبح إجراء الاختبارات أو الاستشارات الوراثية شائعاً بتشجيع من المجتمع الطبي على الرغم ما يتبع ذلك من تغير في القيم الإنسانية.

ستوفر التقانات الحديثة للمعلومات والاتصالات ثقافة جماهيرية عالمية متنوعة ومتعددة العناصر وستترسخ العلاقات بمختلف أشكالها نتيجة سهولة تبادل الأفكار والمعلومات.

وسيكون للجرائم الاجتماعية ذات الدلالة علاقة بالاقتصاد والمعلوماتية، مثل التخريب الموجّه ضد المؤسسات والسرقة وبث معلومات كاذبة بغية الضرر أو التطفل على منظومات المعلوماتية المتعلقة بالملفات الطبية والتحكم بحركة الطيران أو أمن الدول.

وسيشيع العمل في المؤسسات على تطبيق معايير غير مألوفة في وقتنا الحاضر مثل: النوعية، الخدمة، استمرارية الأداء. وستدخل في تشخيص الاقتصاد معايير جديدة

للقياس كالبيئة ونوعية الحياة والتوظيف وستتولد بذلك أنماط جديدة من الأنشطة والوظائف لم تكن معروفة من قبل. وينعكس ذلك على المحاسبة القومية التي تتبنى متغيرات جديدة مثل نوعية البيئة والحوادث والكوارث الأرضية وساعات العمل الفعلي.

وستتغير العلاقة بين المنتج والمستهلك بحيث ستسيطر المنتجات تحت الطلب على قسم مهم من الأسواق؛ وسيقدّم المصنعون للزبائن تشكيلة واسعة من المنتجات غير منتهية الصنع، الأمر الذي يجعل الزبائن مشاركين مباشرين إلى جانب المختصين في تصميم العديد من المنتجات التجارية كالأثاث والسيارات والسكن.

وستتضاعف الجهود الدولية نحو تطبيق إلزامية التعليم المجاني في المرحلة الابتدائية لتشمل دول العالم بأسره مع حلول عام ٢٠١٥، ويصبح دخول الجامعات أسهل مما عليه الحال اليوم وذلك بفضل التقانات الحديثة كالتعليم من بعد والجامعات الافتراضية؛ وسينتشر التعليم المستمر في البلدان المتقدمة في شكل أكبر في المدارس والمؤسسات. وستطغى اللغة الإنكليزية على اللغات العالمية الأخرى في مجالات الأعمال والعلوم والتسلية والترفيه.

وستواجه طلبة الغد تحديات متأتية من تقانات المعلومات والاتصالات (الحاسبات، والإنترنت، والهواتف النقالة، والصالات المرئية، والتعلم الإلكتروني،...) التي تسللت منذ سنوات في بيئة وممارسات الطلبة. حيث إن المعضلة الكبرى التي تواجه الطلبة الإغراق المعلوماتي أو ما يسميه Joel de Rosnay (٢٩) "التلوث بالمعلومات"، وما يطرح على الطلبة هو كيفية النجاح في التحكم بهذه التقانات المتطورة من خلال تطبيق السبل الأكثر كفاية للبحث عن المعلومة وتخزينها واستخدامها في محاضراتهم وامتحاناتهم. وهذا التلوث المعلوماتي سببه صعوبة الحصول على المعلومة في الوقت المتاح، حيث إن هذه التقانات ليس لديها إجابة لكل شيء. ولا يمكنها إيجاد حلول سحرية لكل القضايا التي تطرح على الطلبة. إن كفاية الأدوات الجديدة تكمن في السيطرة على الوقت و"حماية المعلومات" في شكل يسمح بانتقاء وفرز المفيد منها.

وخلال زمن قريب نسبياً، سيتطور استخدام محركات البحث من جانب الطلبة لتحضير فروضهم وامتحاناتهم، وستكون في الجامعات مراكز مرتبطة بشبكات سريعة يمكن بواسطتها حضور محاضرات مرئية في شاشات ثلاثية الأبعاد وممارسة خبرات أو محاكاة في الحقيقة الافتراضية.

إن الارتباط من طريق الشبكات بين مستخدم وآخر Peer to Peer تطور في الآونة الأخيرة ليسمح بانتشار التعلم الإلكتروني وفق ما حاجة الطالب خلال الأوقات التي تناسبه.

٥ ـ خاتمة

(٢٩) Les risques de l'infopollution Un entretien de Sacha Goldman avec Joel de Rosnay. Transversales, Science, Culture, Nouvelle serie n1, Mai 2002.

إن التطورات التي تخضع لها المجتمعات هي من الأمور الحتمية لكن أنماطها ليست بالضرورة متشابهة، فالدول المتقدمة عبرت في شكل تدريجي من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي؛ ومع ذلك، تابع الإنتاج الزراعي نموه لكن لم يعد التشغيل الزراعي جوهر التنظيم الاقتصادي للمجتمع.

كذلك الأمر بالنسبة إلى المجتمعات الصناعية، حيث بدأت منذ عقود في التحول إلى مجتمعات معارف (أو معلومات، أو تعليم، بصرف النظر عن التسمية!)، وبذلك فقد الإنتاج المادي أهميته كما كانت الحال عليه في المجتمعات الصناعية، وبالتالي لم يعد للمصنع دور أساسي في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي، وحدثت تحولات عميقة في المؤسسات برمتها.

أما مجتمعات العالم النامي، فما زالت تجمع، بمقادير متفاوتة، بين خصائص المجتمع الزراعي، والصناعي، والمعرفي.

إن أهم انعكاسات هذه التطورات يكمن في انخفاض عدد القوى العاملة في المجتمعات المعرفية مقارنة بالمجتمع الصناعي. كما ستتركز وظائف مجتمعات المعارف في الأعلى (تنظيم وإدارة، بحوث وتطوير، تعليم، تمويل) وفي الأسفل (التسويق، والإعلان، والخدمات)، فيما تحل فئة مركزية من الفنيين المتخصصين بجزئيات المعرفة الجماعية محل العاملين التقليديين من عمال وموظفين وفنيين وكوادر. وتدور حول هذه الفئة باقي المجتمعات السابقة من مزارعين وعمال ومتقاعدين، وفوقها قلة من القياديين ذوي الرواتب العالية.

إن الصفات التي يتمتع بها المجتمع الصناعي من توافر مكان ثابت للعمل وأنظمة تتعلق بالدوام، والأجور والرواتب، والتقاعد،...، ستزول بالتدريج لتحل محلها قواعد جديدة تقوم على عدم أهمية المكان، ومرونة أوقات العمل، وربط الرواتب بنجاح المؤسسة، وتأخير سن التقاعد مع ارتفاع أمل الحياة ❑

تركيا والأكراد بعد انتخابات ٢٠٠٧

نظام مارديني *

دخلت تركيا الانتخابات التشريعية في ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠٧، ومن ثم الانتخابات الرئاسية على صهوة التهديدات الموجهة إلى حزب العمال الكردستاني من جهة، وإلى أكراد العراق من جهة ثانية. صحيح أن الانتخابات بشقّيها التشريعي والرئاسي، حققت انتصاراً ساحقاً لحزب العدالة والتنمية، إلا أن مشهد النصر الكردي في الإنتخابات التشريعية كان لافتاً بدلالاته التي يمكن استنباطها من هذا الإنجاز الذي يضاف إلى الرصيد السياسي لـ "العدالة والتنمية" بقيادة رجب طيب أردوغان وعبدالله غول، اللذين تميزت تصريحاتهما بالعقلانية حول الشأن الكردي. إذ خاض الأكراد هذه الانتخابات في اتجاهين: الأول عبر لائحة "العدالة والتنمية"، حيث حصلوا من خلالها على ٨٨ مقعداً من مجموع المقاعد الذي حصل عليها حزب "العدالة والتنمية" (٣٤١ مقعداً) والثاني، عبر ترشيحات فردية مستقلة حصلوا من خلالها على ٢٤ مقعداً".

العوامل المؤثرة في التحولات الكردية

ولقراءة "العودة المظفرة" للأكراد وتأثيرات ذلك الملموسة على مسارات الوضع السياسي التركي، لا بد من مقدمة ترسم ملامح المسألة الكردية في تركيا التي عانت الكثير من جراء مشكلتها الكردية، وخلال جميع المراحل التي تلت إعلان الجمهورية العام ١٩٢٣، إلا أن الأحداث الأخيرة التي بدأت في آب/أغسطس ١٩٨٤ حين أعلن حزب العمال الكردستاني العمل المسلح، كانت الأكثر تأثيراً في مجمل الحسابات التركية بكل انعكاساتها على السياستين الداخلية والخارجية. وكلفت الحرب مع الكردستاني البلاد نحو ١٠٠ مليار دولار قبل أن تتوقف في شباط/فبراير ١٩٩٩ بعد اعتقال عبدالله أوجلان.

ويبدو أن مناخ الانفراج والتفاؤل الذي خيم على المنطقة بعد الاصلاحات الديموقراطية، بدأ يساهم في إبعاد الأكراد عن أجواء الحرب والقتال التي اعتادوا عليها خلال الفترة بين العامين ١٩٩٤-١٩٩٩ وقبل ذلك منذ العام ١٩٧٠ حين كان اليسار بمختلف تياراته وميوله

(*) كاتب سوري.

يتبنى المسألة الكردية التي بات يرمز إليها حزب العمال الكردستاني الذي تأسس في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٨.

وكانت أجواء التفاؤل كافية بالنسبة للحزب الشعبي الديموقراطي الكردي التركي، الذي ينسق ويتعاون مع حزب العمال الكردستاني المحظور ويطرح مقولات سلمية جدية تشجع الحكومة على الاستمرار في الإصلاحات الديموقراطية. ولم تخف القيادات الكردية عدم ارتياحها إلى هذا المسار الإصلاحي التركي، الذي تقول عنه إنه لا يخدم المسألة الكردية ما دامت الحكومة والدولة التركية غير صادقتين وجديتين في مسارهما الحالي الذي يلبي طموح ومطالب الجماعة الكردية، وتؤكد على ضرورة الاستفادة من الوضع الراهن الناتج من احتلال الأميركيين العراق.

ولكن هذا التوجه لما يحظى بتأييد واسع من "الجماهير" الكردية التي يبدو أنها استخلصت الدروس الكافية واللازمة من تجارب الماضي الاليمة والتي دفع الأكراد ثمنها غالياً وأكثر من الأتراك. وجاءت الانتخابات البرلمانية التي جرت في ٢٠٠٢ في تركيا برهاناً عملياً على رفض الأكراد سياسات التشدد التي تحدث عنها الحزب الشعبي الديموقراطي باسم حزب العمال ولم يصوت عليه سوى أربعة في المئة تقريباً من الناخبين الأتراك في عموم تركيا التي يعيش فيها ١٥ مليون كردي. وهذه النسبة لم تكن كافية لدخول أي كردي إلى البرلمان التركي على الرغم من أنها كانت كافية لفوز مرشحي الحزب في رئاسة البلديات.

وجاءت أحداث احتلال العراق لتدفع الحكومة والدولة في تركيا إلى المزيد من الدقة في معالجة المسألة الكردية تركياً وعراقياً، وخاصة بعد أحاديث بعض الأكراد عن كيان فيدرالي أو دولة مستقلة في شمال العراق، الأمر الذي دفع أنقرة إلى المزيد من التنسيق والتعاون مع دمشق وطهران لمواجهة مثل هذه الاحتمالات بكل انعكاساتها على تركيا والجارتين سوريا وايران، حيث تعيش فيهما جماعات كردية ستتأثر بشكل أو بآخر بالوضع العراقي وباحتمالاته ومفاجآته المستقبلية.

ضمن هذا الواقع بقيت أنقرة حريصة على مواصلة حوارها مع أكراد العراق لضمان مستقبل العلاقة معهم التي لا تريد لهم الدولة التركية أن يكونوا في الخندق المعادي خلال مساعيها لحل المسألة الكردية في تركيا، وخاصة أن تركيا ساهمت إلى حد كبير في الوضع الحالي لأكراد العراق، وحمتهم الطائرات الأميركية التي كانت تنطلق يومياً من قاعدة أنجرليك جنوب تركيا لمنع الجيش العراقي منذ العام ١٩٩١ من الاقتراب منهم شمال خط العرض ٣٦.

على هذا النحو، بقيت سياسات الدولة التركية في معالجة المسألة الكردية النموذج الأهم في مواجهة المرحلة المقبلة، التي ستثبت من خلالها انقرة للجميع أن الحل الأمثل للمسألة الكردية هو أن تعيش مكونات المجتمع التركي بسلام وإخاء في أجواء ديموقراطية تضمنها

التعديلات الدستورية الجديدة، التي رحب بها الأكراد على اعتبارها الوسيلة الوحيدة لضمان حقوقهم الثقافية، ضمن الجغرافيا الحالية ولو على مراحل، بعد أن أثبتت السنوات العشر الأخيرة من القتال أن أسلوب الحرب لن يساعدهم في تحقيق أيٍّ من أهدافهم، التي لم تعد تحظى باهتمام وتأييد دول الجوار مثل سوريا وايران، بل وحتى دول أخرى في المنطقة.

حقائق لا بد منها

هكذا بدأت تتضح الصورة جلية في شمال العراق، فالهواجس باتت تقترب لتصبح حقائق، وما كان يقال من وعود للنخبة الحاكمة في تركيا: لا لدولة كردية في الشمال ولا لتجزئة أراضي العراق، لم يكن سوى مناورات من جانب زعيمي الحزبين الكردستانيين الرئيسيين، الديموقراطي والاتحاد الوطني. ورغم ما بينهما من حمامات دم وصراعات لا تنتهي إلا انهما اتفقا على تحويل الانفصال القائم عملياً إلى واقع أمام العالم بصفة عامة وتركيا بصفة خاصة.

صحيح أن انفصال شمال العراق قائم من الناحية العملية، إلا ان تركيا لا تريد أن يتحول الفراغ السياسي الناشئ في العراق في مرحلة ما بعد صدام حسين إلى مشكلة تتطلب حلاً من المجتمع الدولي. ولأن البيئة الدولية الأوروبية بوجه خاص بدت مهيأة لقبول كيان أيا كانت تسميته في شمال العراق، فإن تركيا ستجد نفسها أمام من يتحدى المجتمع الدولي، خلال أي تصعيد في شمال العراق، لا سيما بعدما اكتشفت أنها منذ انتهاء حرب الخليج الثانية وقعت في أخطاء قاتلة، حينما عولت على الحزبين الكرديين المتصارعين في شمال العراق آمالاً واسعة للحيلولة دون إقامة دولة كردية في شمال العراق، لكن على ما يبدو فإن أنقرة فقدت الثقة في كل من مسعود البرزاني وجلال الطالباني، فالإثنان لن يفوتا فرصة إعلان دولة كردية، بعد سقوط العراق أمام الاحتلال الأميركي.

الوضع إذاً، ومن وجهة النظر التركية خطير. فالقضية تعدت قيام الشمال بإشهار علم "مهاباد" كما تجاوزت بكثير تلك الخطوات التي اتخذت مثل: وثائق السفر، وتغيير المناهج الدراسية لتصبح فقط باللغة الكردية، وأختام تحمل اسم الدولة المنتظرة وكلها تؤكد الانفصال عن الحكومة المركزية في بغداد، وهو ما يعني في التحصيل النهائي تقويض كل ما قامت به طوال العقود الماضية للحيلولة دون إقامة كيان كردي مستقل!!.

وبالطبع لم يكن هذا بعيداً عن أعين حكام انقرة، إذ اكتفت دوائر صناعة القرار في تركيا، بتحذير كانت توجهه بين الحين والآخر للفصيلين الكرديين في المنطقة، من أن مثل تلك الخطوات إشارة إلى قيام كيان منفصل لن تقبله تركيا، غير أن الجواب كان يأتيها أن لا داعي للقلق، فليست هناك نية انفصال!! أمر آخر جعل صناع القرار في تركيا يترددون

في اتخاذ مواقف متشددة هو مطالبة الولايات المتحدة لهم بمزيد من الصبر. لكن الدور التركي الجديد على الحدود مع العراق، طرح وضعاً مستجداً رسمت ملامحه مواقف سياسية وتحولات داخلية تركية ومستجدات إقليمية ودولية.
فهناك تصاعد في اللهجة التركية ضد الولايات المتحدة، وهي الحليف الذي أبقى تركيا قوية من خلال سيل من المساعدات والدعم الاقتصادي والسياسي، في مواجهة الرفض الأوروبي لانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، وأيضاً في وجه "إسرائيل" التي ظلت لبعض الوقت بوابة مهمة لاستمرار تركيا بالتمتع بوضع خاص في العلاقة مع واشنطن، ومع بعض عواصم الغرب. كما أن العلاقة التركية -"الإسرائيلية" قادت إلى الإيقاع بالزعيم الكردي التاريخي أوجلان، الذي دوخ تركيا لأكثر من عقدين ونصف من الزمن، من خلال قيادته أكبر الفصائل الكردية التركية الساعية لاستقلال الأكراد، وقدم خلال السنوات الخمس والعشرين من عمر ثورته المسلحة نحو ٣٧ ألف قتيل كردي، إذ لعبت "تل أبيب" دوراً أساسياً في التعاون مع المخابرات المركزية الأميركية للإيقاع بأوجلان بعدما نجحت الضغوط الأميركية والتهديدات التركية بإجبار الدول التي تعوّد أوجلان على اللجوء إليها والتحرك من اراضيها مثل سوريا وروسيا ودول أوروبية شيوعية سابقة، على إقفال الأبواب في وجهه ومطالبته بالرحيل عنها فاضطر للتوجه إلى كينيا حيث وقع في الفخ الثلاثي في شباط /فبراير ١٩٩٩ ونقل بطريقة غير مسبوقة وهو مخدر ومقيد بطائرة خاصة إلى تركيا التي حكمت عليه أولاً بالإعدام، بعد محاكمة استغرقت أربعة أشهر عندما أدين في حزيران/يونيو من العام نفسه بالمسؤولية عن مقتل ٣٠ ألف تركي. إلا ان انقرة قررت في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢ تخفيف الحكم واستبداله بالسجن مدى الحياة استجابة لمطالب الاتحاد الأوروبي الذي ربط امكانية قبول تركيا عضواً في الاتحاد، بإلغاء حكم الإعدام من دستورها. لم تكن تركيا تعترف بأكرادها كأقلية، ولا تسمح بتدريس لغتهم الثقافية في المدارس، ولا الجامعات ولا بتداولها في الاذاعات ومحطات التلفزة، ولا بإصدار صحف كردية ولا حتى بكتابة دعوات حفل زواج أو قصائد حب باللغة الكردية.
غير أن هناك تغيراً واضحاً في تركيا وتصرفها وطريقة تعاملها مع كل القضايا المطروحة والتي رفعت بطاقات حمراء بشأنها في السابق. فهي لا تمانع الآن في أي دور لأكرادها كما أثبتت ذلك الانتخابات التي جرت في تموز/يوليو الفائت، والتي فاز فيها الأكراد بمقاعد تجاوزت المئة مقعد. وقد رد الأكراد على دخولهم الانتخابات بإيجابية إذ أقسموا جميعاً على الولاء للدولة التركية. وعلى أن لا يقود تحركهم في المستقبل إلى استقلال الأكراد، مثلما ألمحت اليه النائب السابقة ليلى زانا التي طالبت بنظام فيدرالي في تركيا، الأمر الذي استدعى رداً من أردوغان الذي جاء كلامه بلغة التهديد قائلاً: إن على زانا مراعاة كلامها قبل أن تتحدث (٢٢/٧/٢٠٠٧ **الشرق الأوسط**).

مقاعد الأكراد

فوز الأكراد في الوصول إلى البرلمان التركي، يؤكد في محتواه السياسي انتصار رؤية الثنائي أردوغان ـ غول على القوى المتطرفة في الداخل التركي، وبالتالي فإن تحليل التطور التركي على ضوء هذه الوقائع يمثل أهمية، لأن تداعيات هذا الفوز "الكردي" بخاصة من المتوقع أن ترخي بظلالها على الموقف التركي بعامة. كما أنه يفرض إعادة النظر في كثير من الإجراءات والتكهنات وقراءة الأوضاع السائدة دون تغافل هذا المتغير وانعكاساته على عدد من التوازنات الراهنة.

يمكن حصر أسباب التغير في الموقف التركي الرسمي إزاء دخول الأكراد إلى البرلمان في ثلاثة محددات رئيسية:

أولاً، تجديد حيوية حزب العدالة والتنمية من خلال عزل الاتجاهات الراديكالية المتشددة داخل الحزب وترشيحه لعناصر يسارية تشكل ثقلاً في بيئتها، ولهذا السبب فإن الاصوات العالية التي حصل عليها هذا الحزب لا تعود إلى الاسلاميين أو منتسبي الحزب، بل تعود إلى شرائح ومجموعات من عامة الشعب من ذوي الميول المتشددة بمناهضتها للإسلام السياسي.

ثانياً، ارتفاع حدة المواجهة العلمانية ـ الاسلامية منذ قرر حزب العدالة والتنمية ترشيح غول لرئاسة الجمهورية، لذلك فإن مشاركة "الجمهور" الكردي في الانتخابات أقام نوعاً من التوازن مع العلمانيين، لما يشكله الأكراد من توجهات لا تتناغم مع التوجهات الاسلامية، كما انها تعادي أصحاب التوجه العلماني الذين يشنون حرباً دموية على الحركات الكردية المطالبة بأن تصبح جزءاً من المبنى التركي لا أن تبقى ناطوراً فيه.

ثالثاً، الخوف من محاولات المؤسسة العسكرية التركية في تجديد حيويتها بعدما فقدت جزءاً مهما من عنفوانها منذ الاحتلال الأميركي للعراق في نيسان /أبريل٢٠٠٣، ولذلك فوجود فضاء جديد واسع للمشاركة الفاعلة لها في الحياة السياسية التركية، بعدما "قلّم" حزب العدالة والتنمية أظافرها، سيضفي عليها أهمية مركزية، وإذا كانت الساحة العراقية مهياة لإظهار هذا الدور، فإنها ـ المؤسسة العسكرية ـ ستكون قد حققت جملة أهداف داخلية وخارجية دفعة واحدة، بعدم الابتعاد عن مسألة تحديد مستقبل شمال العراق ومصيره أو تركه للقوى الكردية في رسم خريطة المنطقة السياسة بعيداً عن أنقرة، ولهذا مثّل التلهف التركي للتصعيد على حدود العراق، تحولاً عسكرياً فجائياً في الموقف الأميركي من عناصر حزب العمال الكردستاني في شمال العراق، وهو ما أثار قلق أكراد العراق من عملية عسكرية سرية مشتركة قيد التنفيذ، تشارك فيها قوات خاصة تركية وأميركية لملاحقة عناصر حزب العمال في شمال العراق حسب ما جاء على لسان إريك ألدمان وكيل وزارة الدفاع الأميركية، الذي كان قبل توليه هذا المنصب سفيراً لبلاده في

تركيا، وذلك في جلسة مغلقة لإحدى لجان الكونغرس الأميركي (الوطن العربي ٢٠٠٧/٨/١٥). كما أكد على التحول الجديد مساعد وزير الخارجية الأميركي المسؤول عن الشؤون السياسية نيكولاس بيرنز، في التاسع عشر من أيلول/سبتمبر، قائلاً: إنهم يقفون إلى جانب تركيا في قضية العمال الكردستاني التي أعدها " منظمة إرهابية". مشيراً إلى أنهم في اتصال دائم مع أنقرة من أجل مكافحتها وحظر تسلل مسلحيها إلى الأراضي التركية.

لا شك في أن الانتخابات التشريعية في تركيا، بالإضافة إلى انها تشكل رسالة فهي أيضاً تحمل رداً مزدوجاً على كل من مؤسسة الجيش والتوجه العلماني المتطرف. فالفوز الذي حققه "حزب العدالة والتنمية"، مثّل أوضح تعبير من جانب الشارع التركي عن رغبته في استمرار دعم السياسات الاقتصادية والاجتماعية للحزب التي انقذت البلاد من انهيار، كانت قد أدت إليه سياسات الحكومات السابقة، مما انعكس جلياً على الحياة اليومية للمواطن التركي، وعمّق من حدة الانقسام القائم بين الدولة التركية وأكرادها، غير أن دخول الأكراد إلى البرلمان من جديد، أطاح سياسات الجيش الذي حشد أكثر من ١٤٠ ألف جندي تركي على الحدود التركية ـ العراقية في تموز/يوليو الماضي.

اتفاق تركي ـ أميركي

على وقع هذه التحولات تجاه أكراد تركيا، أصيب أكراد العراق بقلق جراء اتفاق القوات الأميركية والتركية على تصفية وجود عناصر حزب العمال الكردستاني في المثلث التركي - العراقي - الإيراني.

فالعملية المشتركة التي سربت خطتها إلى وسائل الإعلام، هدفت إلى تهدئة مخاوف أنقرة من أن واشنطن لا تقف متفرجة إزاء نشاطات حزب العمال في شمال العراق، حيث يقيم سبعة معسكرات على الأقل، لا سيما بعد تنامي المشاعر المعادية للولايات المتحدة في تركيا، إلى درجة أن مسؤولين كباراً في المؤسستين السياسية والعسكرية بتركيا، باتوا يتساءلون علناً عما إذا كانت الولايات المتحدة تستخدم حزب العمال الكردستاني للإساءة إلى المصالح التركية.

الأمر الأكثر خطورة في الكشف المتعمد من جانب واشنطن عن هذه العملية، هو توجيه رسالة إلى "الحكومة الكردية المحلية" بأن عليها أن تتولى بنفسها تصفية معسكرات حزب العمال، حتى لا تضطر تركيا إلى اجتياح المنطقة عسكرياً والقيام بالعملية بنفسها. ورغم أن هذا الموقف الأميركي انعكس على زيارة نوري المالكي إلى تركيا وأدى إلى تعهده إنهاء وجود الحزب في شمال العراق ، فإن الكثيرين شككوا في قدرة حكومة المالكي على تنفيذ هذا التعهد، لافتقاره إلى النفوذ الفعال على "الحكومة الكردية" التي يترأسها مسعود

البرزاني، بل إن الرئيس العراقي جلال الطالباني نفسه، لا يؤيد هذا التعهد بصفته زعيماً للاتحاد الوطني الكردستاني، ثاني أكبر فصيل كردي في العراق، يضاف إلى ذلك التحذير الذي وجهه حزب العمال إلى المالكي، في الثالث عشر من آب/أغسطس الماضي، من مغبة التعاون مع تركيا. غير أن البرزاني الذي يسيطر حزبه الديموقراطي الكردستاني على منطقتي دهوك وأربيل المحاذيتين للحدود التركية، سيبقى يعمل على استخدام "حزب العمال" وسيلة ضغط على واشنطن للحصول منها على تعهدات بضم منطقة كركوك الغنية بالنفط إلى منطقة "الحكم الذاتي الكردية". لكن البرزاني يعرف أن الكرة الآن في ملعب أكراد العراق، فإما أن يضحوا بمبدأ الأخوة الكردية الذي يتمسكون به، ويقفوا ضد إخوانهم أكراد تركيا، وإما أن يبحثوا عن خيارت أخرى أشد مرارة عبر الانفتاح على محور دمشق ـ طهران، اللتين تمتد أصابعهما كالشرايين في شمال العراق من خلال الأحزاب الكردية الإسلامية الأصولية المتنامية في تلك المنطقة، والتي تسبب صداعاً لحكومة "كردستان".

إن الاحتجاجات الكردية العراقية على التهديدات التركية بالقيام بعملية عسكرية ضد قواعد حزب العمال الكردستاني، كشفت عن نتيجتين رئيسيتين: الأولى عمق درجة الاحتقان بين أنقرة والعراق الجديد، والذي يشير في مضمونه إلى أن العلاقات بينهما سوف تستمر على منوالها من الشد الطويل والجذب القصير، على الرغم من وجود الحليف الأميركي المشترك بينهما، مما يعني في النهاية وجود صعوبة في تسوية المشكلات الثنائية. والثانية أن مستقبل العراق سيبقى مفتوحاً على احتمالات مختلفة، خصوصاً بعد بدء انسحاب القوات البريطانية من جنوب العراق، وتعهد الرئيس الأميركي بانسحاب بعض وحداته أيضاً، بسبب ضغوط داخلية عليه.

استمرار استراتيجية تركيا القديمة

في ضوء هذه الأسلاك المتشابكة والمعقدة، ما زالت الدولة التركية تقدم أطروحات غير واقعية، وتتحدث عن استراتيجيات تجاه حل المسألة الكردية داخل أراضيها في المرحلة المقبلة، وفي وقت تحاصر أكرادها بجريرة تعاطفهم مع حزب العمال الكردستاني في شمال العراق. تقدم أنقرة استراتيجية تركيا الجديدة ـ القديمة، العناصر التالية:

أولاً ـ الإصرار على إخراج مقاتلي حزب العمال الكردستاني من شمال العراق ومطالبة واشنطن بتطبيق الاتفاق السري بينها وبين الدولة التركية بتوجيه ضربات عسكرية لهم ما لم تقم هي منفردة بهذه المهمة.

ثانياً ـ تعميق وتوسيع العلاقات التجارية مع العراقيين بما يزيد من نفوذها ويخلق مزيداً من الأصدقاء ويدعم اقتصادها.

ثالثاً - مساومة الولايات المتحدة في إطار مشروعها الشرق الأوسطي الكبير. بمعنى أن بدور تضطلع في هذا المشروع مقابل ضمانات أميركية بعدم قيام دولة كردية في شمال العراق، وأن تعمل واشنطن على وقف دعمها للأكراد الذين أصبحوا حسب رأي أنقرة قوة مهيمنة في العراق.

رابعاً - تشكيل طوق إقليمي يحاصر الطموحات الكردية ويكون عامل ردع أمام أية توجهات نحو إقامة دولة للأكراد، سواء في العراق أم المنطقة.

لكن هذه الاستراتيجية ما زالت تفتقر إلى الواقعية، لأن الاستمرار في اعتبار الأكراد مجرد نواطير في المبنى التركي سيصطدم مع التوجه الكردي في التأكيد على أنهم شركاء في قيام هذا المبنى، ولن يصحح هذا الأمر الزيارة التي قام بها الرئيس التركي عبدالله غول إلى جنوب شرق تركيا حيث الأغلبية الكردية، في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر والتي قوبلت بترحيب حذر من جانب الأحزاب الكردية، التي رأت أن "الدولة التركية ليست مستعدة بعد لحل المسألة الكردية... المشكلة ليست مشكلة اقتصادية فقط، بل مشكلة سياسية وثقافية، وقضية هوية" (**الشرق الأوسط** ٢٠٠٧/٩/١٣). وذلك في رد واضح على تصريح الرئيس غول في مدينة "هكاري"، إذ شدد غول من هناك على أن أنقرة تقف إلى جانب تحسين الخدمات لهم بكل ما تستطيع من قدرات. وقال "اختلافاتنا تجعلنا أكثر ثراء.. سأكون رئيساً للجميع وسأعمل على ضمان أن ينال كل جزء من هذا البلد الخدمات العامة بشكل عادل". لكن بالرغم من هذه الأجواء التي رافقت زيارة غول، هناك شكوك في الهدف الحقيقي من الزيارة، وخشية من أن يكون حزب العدالة والتنمية الحاكم يسعى إلى تعزيز وجوده في جنوب شرقي تركيا استعداداً للانتخابات البلدية المقررة عام ٢٠٠٩، وكان حزب العدالة قد استطاع بالفعل خلال السنوات القليلة الماضية تعزيز وجوده في معاقل الأكراد، إذ إنه في آخر انتخابات، حصد في ديار بكر، أهم مدينة كردية، ٤١ في المئة من الأصوات، مقارنة بـ ١٦ في المئة في الانتخابات السابقة قبل خمس سنوات فقط، أي أن الإسلاميين ضاعفوا شعبيتهم بنحو ٣ مرات في المناطق الكردية خلال خمس سنوات.

حلول موضوعية

بعد عشرة أيام على انتخابه الرئيس الحادي عشر للجمهورية التركية، نزل غول ضيفاً في جنوب شرق تركيا، حيث الأكثرية الكردية، ودلالات هذه الزيارة لا تقتصر فقط على حزب "العدالة والتنمية"، او على الداخل التركي عامة، بل دلالاتها تمكّن من القول بأنها رسالة إلى الدول الاقليمية التي هي على حساسية مع الجماعات الكردية، وايضاً إلى الاتحاد الأوروبي، بأن القيادة التركية الجديدة ستعطي المسألة الكردية أولوية في المرحلة المقبلة من

"عمل الحكومة والدولة التركيتين" كما اشار إلى ذلك الباحث محمد نور الدين (**السفير**، ٢٠٠٧/٩/١٤).

ولا يمكن الحديث عن حل موضوعي للمسألة الكردية من دون وضع المسيرة الاصلاحية بنداً أولّ أمام حكومة "العدالة والتنمية" التي يقودها أردوغان، وهنا تتضح بجلاء الدلالة الثالثة لوصول غول إلى قصر تشنكايا، ذلك أن انتزاع حزب "العدالة والتنمية" لمنصب الرئيس سيزيح عراقيل عديدة من طريق حكومة أردوغان، لأنه سيحررها من سطوة وتعنّت مجلس الامن القومي بقيادة رئيس علماني طالما استخدم حق "الفيتو" إزاء التشريعات والاصلاحات التي طرحتها حكومة أردوغان السابقة (٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٧)، وبالرغم من أن رئيس الوزراء في تركيا يتمتع بسلطات واسعة، فإن منصب رئيس الجمهورية يكتسي مسحة رمزية بوصف شاغله خليفة أتاتورك مؤسس الجمهورية الحديثة، لذلك فإن فوز حزب "العدالة والتنمية" بهذا المنصب سيرسخ دعائمه في الحكم لأنه سوف يُحكم قبضته على المراكز الحيوية للسلطة والنفوذ في الدولة التركية من رئاسة وحكومة وبرلمان، الامر الذي سيخول الحزب اتخاذ قرارات جريئة فيما يخص الوفاء بشروط انضمام تركيا للاتحاد الاوروبي، كما يعينها على مواصلة جهودها لترشيد جمهورية أتاتورك وإصلاحها، توطئة للولوج بتركيا إلى عصر الجمهورية الثانية التي تحترم حقوق الانسان، والتي تفتح صفحة جديدة حيال المسألة الكردية التي يجب أن لا تختصر بشخصية اوجلان فقط، بالرغم من أهميته كزعيم استطاع نقل اكراد تركيا من زوايا الاهمال إلى انتزاع اعتراف دولي بقضيتهم، لكن طروحات حزب العمال وفرعه "حزب التجمع الديموقراطي"، الخيالية، وفي مقدمها الاعتراف بالهوية الكردية في الدستور، لا يجعل الدولة التركية ومؤسساتها السياسية والامنية ترفض الخوض بمثل هذه المطالب فحسب، بل هو ايضاً يستنفر رفضاً شعبياً كبيراً في تركيا، ويهمش اطروحات كردية اخرى تقبل بالاعتراف بالحقوق الثقافية وتوسيع الديموقراطية وترك ما دون ذلك لما قد تُدخله الاصلاحات الاوروبية من تغيير على آلية التفكير السياسي في الدولة التركية من جهة وحزب العمال الكردستاني الذي يحاول تسخير الإصلاحات الأوروبية لفتح الطريق أمام نقل عناصره من الجبال إلى الساحة السياسية من دون تغيير في افكاره. وهذا قد يهدد بحدوث نكسة في مجريات الاصلاحات السياسية التركية التي يسير بها الرئيس غول، والتي ستبدأ من التغييرات الدستورية التي يريد حزب "العدالة والتنمية" إدخالها على دستور ١٩٨٠ الذي وضع بعد الانقلاب العسكري في تركيا بقيادة كنعان افرين، بعد ما تمّ تغيير الكثير من مواد هذا الدستور منذ بداية العام ٢٠٠٠ في إطار جهود الانضمام للاتحاد الأوروبي.

في ضوء هذا الاتجاه، ستتعرض السياسات التركية المستقبلية تجاه المسألة الكردية برمّتها للتغيير الجذري، من باب التأقلم السريع مع مستجدات الوضع الداخلي، الذي

أوصل إلى رئاسة الحكومة ورئاسة الجمهورية وفي السيطرة على البرلمان بعدما نال ٤٧ في المائة من اصوات الناخبين في الانتخابات التشريعية التي جرت في ٢٢ تموز/يوليو الماضي.

يضاف إلى هذا الشأن الداخلي الوضع الاقليمي المتأزم الناتج من تداعيات الاحتلال الأميركي للعراق، ومحاولات الأكراد اقامة "دويلة" لهم مستغلّين الواقع التقسيمي القائم الذي دفع مجلس الشيوخ الأميركي في ٢٦ أيلول/سبتمبر للإقرار به والتصويت على قرار غير ملزم حول خطة تقسيم العراق على غرار خطة تقسيم البوسنة، وهو ما يهدد بتفتيت دول الجوار، لا سيما تركيا التي تنظر بعين الريبة إلى عناصر حزب العمال الكردستاني في شمال العراق، وهذا الأمر ناقشه وزير الداخلية العراقي جواد كاظم البولاني الذي وصل إلى أنقرة عشية مناقشة مجلس الشيوخ لخطة تقسيم العراق، ليبحث مع الحكومة التركية في كيفية تطبيق اتفاق تركي - عراقي يهدف إلى مكافحة حزب العمال الكردستاني، إذ أكّد البولاني انه "ليس ممكناً السماح لأي شخص وجماعة تستهدف تركيا" البقاء في العراق، في تلميح إلى عناصر حزب العمال الكردستاني، هذا إذا لم يفرض الحل العسكري نفسه على الساحة التركية ليعيد الوضع كله إلى المربع الاول إذا اعطت القيادة السياسية التركية موافقتها لجنرالات الجيش على ضرورة إجراء الجراحة العسكرية لاستئصال "ورم" العمال الكردستاني في شمال العراق، لا سيما بعد اعلان فشل محادثات بولاني في أنقرة والعملية العسكرية الكبيرة التي أودت بحياة ١٣ جندياً وضابطاً تركياً على يد حزب العمال الكردستاني في السابع من تشرين الأول/اكتوبر ٢٠٠٧ في منطقة شيرناق جنوب شرق تركيا، وفي هذا خطورة من عودة الهيمنة العسكرية من جديد على الملف الكردي في تركيا وفرض قانون مكافحة الإرهاب، ويبدو واضحاً أن تصعيد حزب العمال هجماته يصبّ أساساً في مصلحة مخطط الجنرالات الأتراك قبل اي شيء آخر.

صحيح أن ما حصل عيله الأكراد منذ نيسان/أبريل٢٠٠٣ برفع الحظر عن تدريس الكردية كلغة في المعاهد الخاصة واطلاق محطة إذاعية وقناة تلفزيونية تتحدث الكردية، ليست المظاهر الوحيدة التي ينتظرها اكثر من ٣٥٠٠ معتقل كردي سياسي في السجون التركية، وما يقارب الـ١٥ مليون كردي يعتقدون بأنهم دفعوا ثمناً باهظاً لأكثر من عقدين ويستحقون أكثر من هذا. لكن تلك الإصلاحات يضاف إليها القرار الاخير باستخدام الكردية في وسائل الاعلام الحكومية ولاحقاً في وسائل الإعلام الخاصة المكتوبة والمسموعة والمرئية اثبت رغبة تركيا في السعي من أجل حلّ سياسي وسلمي للمسألة الكردية.

المسألة الكردية شأن حقوقي

لا شك في ان اوجلان الذي اختصر قيادة أكراد تركيا في شخصه منذ أسس حزب العمال الكردستاني وحتى اعتقاله، ها هو يعيد اختصار حركة الأكراد في شخصه أيضاً وهو في سجنه الانفرادي في جزيرة "ايمرالي"، وذلك رغبة منه في دفع السلطات التركية مرغمة إلى التحاور معه، ولو بالواسطة عبر النواب الأكراد (المستقلين) الذين دخلوا البرلمان تحت لافتة "حزب التجمع الديموقراطي"، الذي دفع إلى تأسيسه اوجلان في العام ٢٠٠٥، وهذا الحوار إذ حصل فهو سيفتح من جديد قرار المحكمة الاوروبية لحقوق الإنسان الذي اعتبر، في الثاني عشر من أيار/مايو ٢٠٠٥، محاكمة الزعيم الكردي عبدالله اوجلان غير عادلة، وبما يعني أنه يتعين على تركيا اعادة محاكمته. إذ أعد هذا الحكم ملزماً للحكومة التركية في ضوء ارتباطاتها بالاتحاد الأوروبي، بالرغم من وصف أردوغان القرار بأنه محاولة من البعض لفتح ملف الارهاب من جديد في تركيا، وقال "ان هذا الملف مغلق تماماً في ضمير ووجدان الشعب التركي بأكمله". إلا أن المحامية ايسل توغلوك التي تشارك في الدفاع عن أوجلان قالت: "إنه ليتمكن من الحصول على محاكمة ثانية، على المحكوم عليه أن يقدم طلباً في هذا الصدد"، غير أن اوجلان الذي شجب القوانين التركية السارية لم يقدم طلباً في هذا الصدد، موضحة أن "أوجلان قال إنه لن يلعب الدور الرئيسي في مسرحية ستقوم بها تركيا" (السفير، ٢٠٠٥/٦/٤).

والقرار الأوروبي المذكور اعتبر في حينها وجهين لعملة واحدة، أي أنه سياسي بغطاء حقوقي. أي المحاكمة حقوقية في أسلوبها ونهجها ومجراها من جهة، وسياسية في نتائجها وتطوراتها وانعكاساتها.

وهكذا بدت الشواهد من جديد تسير وفق آلياتها القديمة، في صراع الدولة المزمن ضد الثائرين عليها، دون تغير يذكر. فالأحداث بقيت نفسها ومسارحها هي نفسها، تارة في الأماكن التقليدية للصراع في جنوب شرق البلاد، وتارة في شمال العراق، كما أكدت عليه لقاءات وزير الداخلية العراقي جواد كاظم البولاني مع نظيره التركي بشير اطالاي في السادس والعشرين من أيلول/سبمتبر. إذ أرادت تركيا أن يجيز الاتفاق بينهما للجيش التركي بمطاردة عناصر حزب العمال في الاراضي العراقي شرط الحصول على الضوء الاخضر من بغداد. وذلك كتتمة للاتفاق "الوثيقة" بين رئيس الحكومة العراقية نوري المالكي وأردوغان في ٧ آب/أغسطس في انقرة لمكافحة حزب العمال الكردستاني، وقد سعت أنقرة للاتفاق مع بولاني على تسليمها ١٥٠ من قادة هذا الحزب الذين سبق إن قدمت قائمة بأسمائهم إلى المالكي بحسب صحيفة **الزمان** في عددها في ٢٠٠٧/٩/٢٩، إلا أن أنقره وبغداد أخفقتا في التوصل إلى إتفاق بعدما رفض بولاني منح الجيش التركي "تفويضاً مطلقاً" لملاحقة الثائرين الأكراد.

غير أن اللافت للانتباه هو ان تحرك البولاني لم يأتِ من فراغ، بل هو جاء بالتنسيق مع "حكومة كردستان العراق"، التي أبلغت أنقرة انها ضد اي تواجد لعناصر حزب العمال في شمال العراق، وقال المتحدث بإسم هذه الحكومة جمال عبدالله "ان حكومته لن تسمح لعناصر الكردستاني ومنظمة باجاك الايرانية الكردية بأي نشاط مسلّح ضد الجارتين تركيا وايران" (القبس ٢٠٠٧/٩/٢٦). لكن العملية التي نفذها حزب العمال الكردستاني في الثلاثين من أيلول/سبتمبر في محافظة شيرناق على الحدود مع العراق وذهب ضحيتها ١٢ مدنياً تركياً، جاءت كتحذير "دموي" أراد الحزب توجيهها إلى الحكومتين التركية والعراقية من جهة، وكرسالة مبطنة موجهة إلى أكراد العراق من مغبة أي اتفاق مع أنقره وبغداد على توجيه ضربة عسكرية لمواقع حزب العمال في شمال العراق، لأن ذلك سيشكل سابقة خطيرة قد تمتد إلى مواجهة كردية - كردية غير أنه في المحصلة فإن هذه الوقائع يجب أن لا تغير من اهمية إعادة محاكمة اوجلان الذي لم تفُتْهُ فرصة احياء علاقة الالتصاق بالمسألة الكردية كرمز لها، من خلال دعوته لأنقرة ليمنح الأكراد حريات سياسية وثقافية واسعة حسب الرأي الذي عبّر عنه إثر صدور قرار المحكمة الاوروبية، وهو يعرف جيداً أهمية أن يعاد رسم صورته في اوروبا والغرب كمقاتل من اجل الحرية مما يضفي على قضيته وشخصيته المزيد من الاهمية رغم حكم المؤبد الذي يقضيه في جزيرة منعزلة في بحر مرمرة غربي تركيا. ومن المؤكد أن اعادة محاكمته من جانب الحكومة التركية يتطلب اجراء تعديل للدستور بوصفه تجديداً للمحاكمة.

إن على تركيا صوغ خطاب جديد مغاير يشجع مواطنيها على اعادة تفنيد ذاكرتها ومن ثم التخلص من شوفينيات صار الحاضر يتجاوزها. والدولة التركية لن يضيرها شيء اذا استوعبت جماعاتها الاثنية والدينية حتى وان اختلفت ثقافتها وقيمها الاجتماعية، فالطريق طويل وعليها أن تسير فيه، وشأنها في ذلك شأن طريقها نحو الاتحاد الاوروبي. والحل العسكري الذي تبنّاه الطرفان (الدولة التركية وحزب العمال الكردستاني)، أثبت فشله القاطع، ووضع البلاد أمام حرب استنزاف بلا منتصر نهائي، يغذيها الشعور بالظلم لدى الأكراد وبالتهديد الوطني لدى جميع الأتراك ❑

وثيقة *
قرار مجلس الأمن ١٧٧٣: التمديد لقوات "يونيفيل"

إنّ مجلس الأمن:

فقرة تمهيدية ١ - إذ يذكّر بكل قراراته السابقة عن لبنان وخصوصاً القرارات ٤٢٥ (١٩٧٨) و٤٢٦ (١٩٧٨) و١٥٥٩ (٢٠٠٤) و١٦٨٠ (٢٠٠٦) و١٧٠١ (٢٠٠٦)، وكذلك ببيانات رئيسه في شأن الوضع في لبنان وخصوصاً البيان الصادر في ٣ آب/أغسطس ٢٠٠٧،

فقرة تمهيدية ٢ - إذ يذكّر أيضاً بتقرير الأمين العام في ٢٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٧ (S/2007/392)، وبالرسالة الموجّهة من الأمين العام إلى رئيسه في ٢ آب/أغسطس ٢٠٠٧،

فقرة تمهيدية ٣ - إذ يؤكّد مجدداً التزامه القوي سيادة لبنان وسلامته الإقليمية ووحدته واستقلاله السياسي ضمن حدوده المعترف بها دولياً وتحت السلطة الوحيدة والحصرية لحكومته،

فقرة تمهيدية ٤ - إذ يجدّد دعمه القوي للاحترام الكامل لوقف الأعمال الحربية وللخط الأزرق بكامله،

فقرة تمهيدية ٥ - إذ يؤكّد مجدداً تمسكه بالتطبيق الكامل لكلّ أحكام القرار ١٧٠١ (٢٠٠٦)، وإذ يعي مسؤوليّاته حيال المساعدة على التوصّل إلى وقف دائم للنار وحل طويل الأمد كما هو منصوص عليه في القرار،

فقرة تمهيدية ٦ - إذ يشدّد على الحاجة إلى معالجة أسباب النزاع بما في ذلك أنّه لم يتم الإفراج بعد عن الجنديّين الإسرائيليين المخطوفَين أو تقديم إثبات لوجودهما على قيد الحياة، ويدعو مرّة أخرى إلى الإفراج عنهما فوراً ومن دون شروط،

فقرة تمهيدية ٧ - إذ يشجّع الجهود الهادفة إلى إيجاد تسوية عاجلة لمسألة السجناء اللبنانيين المحتجزين في إسرائيل،

فقرة تمهيدية ٨ - إذ يرحّب بالخطوات التي تتّخذها الحكومة اللبنانية لبسط سلطتها على أراضيها من خلال قوّاتها المسلّحة الشرعية، بحيث لا يعود هناك سلاح من دون موافقة

(*) ٢٥ آب/أغسطس ٢٠٠٧.

الحكومة اللبنانية، ولا سلطة غير سلطتها، وإذ يشجّعها على مواصلة جهودها في هذا السبيل،

فقرة تمهيدية ٩ ـ إذ يرحّب أيضاً بالترتيبات الثلاثية المشار إليها في التقرير المذكور آنفاً، ويشجّع الأطراف على التنسيق أكثر مع القوة الموقتة للأمم المتحدة في لبنان (اليونيفيل) وخصوصاً ترسيم الخط الأزرق بطريقة واضحة والتوصّل إلى اتفاق على الجزء الشمالي من قرية الغجر،

فقرة تمهيدية ١٠ ـ إذ يدين بأقوى العبارات كلّ الاعتداءات الإرهابية على اليونيفيل، ويشدّد على الحاجة إلى مزيد من التنسيق بين اليونيفيل والقوات المسلحة اللبنانية وخصوصاً في ما يتعلق بإنشاء منطقة بين الخط الأزرق ونهر الليطاني خالية من أي مسلّحين وأعتدة وأسلحة غير المسلحين والأعتدة والأسلحة التابعة للحكومة اللبنانية واليونيفيل، كما يشدّد على حاجة اليونيفيل إلى تعزيز قدراتها في مجال التحقيق رداً على هذه الاعتداءات،

فقرة تمهيدية ١١ ـ إذ يشدّد على أهمّية الجهود المستمرّة التي تُبذَل لنزع المعدّات الحربية غير المنفجرة في جنوب لبنان، ويدعو كل الأطراف إلى دعم هذه الجهود،

فقرة تمهيدية ١٢ ـ إذ يؤكّد مجدداً أنّ اليونيفيل تملك السلطة لاتّخاذ كل الخطوات الضرورية في مناطق انتشار قوّاتها وبما يتناسب مع إمكاناتها، حرصاً على عدم استخدام منطقة عمليّاتها للنشاطات العدائية من أيّ نوع كانت ومن أجل التصدّي للمحاولات الهادفة إلى منعها بالقوّة من الاضطلاع بتفويضها،

فقرة تمهيدية ١٣ ـ إذ يذكّر بالمبادئ ذات الصلة الواردة في الاتفاق عن سلامة موظّفي الأمم المتّحدة والموظّفين العاملين معها،

فقرة تمهيدية ١٤ ـ إذ يثني على الدور الناشط لعناصر اليونيفيل وخصوصاً قائد القوّة وتفانيهم، وكذلك على الدور الناشط للمنسّق الخاص للأمم المتحدة في لبنان وتفانيه،

فقرة تمهيدية ١٥ ـ إذ يعرب عن تقديره العميق للدول الأعضاء المساهِمة في اليونيفيل، ويشدّد على وجوب أن تتوافر لليونيفيل كل الوسائل والمعدّات الضرورية للاضطلاع بتفويضها،

فقرة تمهيدية ١٦ ـ إذ يستجيب لطلب الحكومة اللبنانية تمديد تفويض اليونيفيل سنة إضافية من دون تعديل، كما جاء في الرسالة التي وجّهها رئيس الوزراء اللبناني إلى الأمين العام في ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٧ (S/2007/396)،

فقرة تمهيدية ١٧ ـ إذ يشير إلى أنّ الوضع في لبنان لا يزال يشكّل تهديداً للسلام والأمن الدوليّين،

فقرة تنفيذية ١ ـ يقرّر تمديد تفويض اليونيفيل الحالي حتى ٣١ آب/أغسطس ٢٠٠٨؛

فقرة تنفيذية ٢ ـ يثني على الدور الإيجابي لليونيفيل التي ساعد انتشارها إلى جانب

القوّات المسلّحة اللبنانية، على إيجاد مناخ استراتيجي جديد في جنوب لبنان، ويتطلّع إلى تعاونها المعزّز مع القوات المسلحة اللبنانية في إطار اضطلاعها بتفويضها؛

فقرة تنفيذية ٣ ـ يناشد كل الأطراف المعنيين احترام وقف الأعمال الحربية والخط الأزرق بكامله؛

فقرة تنفيذية ٤ ـ يحض كل الأطراف على التعاون تعاوناً كاملاً مع الأمم المتحدة واليونيفيل والتقيّد بدقّة بموجب احترام سلامة عناصر اليونيفيل وموظّفي الأمم المتحدة الآخرين، وخصوصاً من خلال تفادي أيّ عمل يعرّض موظّفي الأمم المتحدة للخطر والحرص على تأمين حرية التحرك الكاملة لليونيفيل في منطقة عمليّاتها؛

فقرة تنفيذية ٥ ـ يناشد كل الأطراف التعاون تعاوناً كاملاً مع مجلس الأمن والأمين العام للتوصل إلى وقف دائم للنار وحل طويل الأمد كما هو منصوص عليه في القرار ١٧٠١ (٢٠٠٦)، ويشدّد على الحاجة إلى إحراز تقدّم أكبر في هذا المجال؛

فقرة تنفيذية ٦ ـ يعرب مجدداً عن نيّته النظر في خطوات إضافية للمساهمة في تطبيق وقف دائم للنار وحل طويل الأمد؛

فقرة تنفيذية ٧ ـ يرحّب بالجهود التي تبذلها اليونيفيل لتطبيق سياسة الأمين العام القائمة على اللاتسامح في الاستغلال والتحرّش الجنسيّين، وللحرص على تقيّد موظّفيها الكامل بمدوّنة السلوك في الأمم المتّحدة، ويطلب من الأمين العام أن يستمرّ في اتخاذ كل الخطوات الضرورية في هذا الإطار وأن يبقي مجلس الأمن على اطّلاع، ويحض البلدان المساهمة بجنود على اتّخاذ خطوات وقائية وتأديبية حرصاً على التحقيق كما يجب في هذه الأعمال ومعاقبة المتورّطين في قضايا كهذه؛

فقرة تنفيذية ٨ ـ يطلب من الأمين العام أن يستمرّ في رفع تقارير إلى المجلس عن تطبيق القرار ١٧٠١ (٢٠٠٦) كل أربعة أشهر، أو في أي وقت كما يراه مناسباً؛

فقرة تنفيذية ٩ ـ يشدّد على أهمية التوصّل إلى سلام شامل وعادل ودائم في الشرق الأوسط، والحاجة إليه بالاستناد إلى كل قراراته ذات الصلة وخصوصاً القرارات ٢٤٢ (١٩٦٧) الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ و٣٣٨ (١٩٧٣) الصادر في ٢٢ تشرين الأول ١٩٧٣ و١٥١٥ (٢٠٠٣) الصادر في ١٩ تشرين الثاني ٢٠٠٣؛

فقرة تنفيذية ١٠ ـ يقرّر أن يبقي المسألة قيد نظره الفعلي" ❑

THE ISSUE'S DIALOGUE

ARTICLES

REPORTS AND DOCUMENTS

Editor - In - Chief:
Muhammad Noureddine

Editing Secretariat:
Ghassan Rimlawi

Computer:
Mona Sherry

Responsible Director:
Mustapha Matar

Middle East Affairs

Shu'un al - Awsat

127

Fall 2007

A quarterly concerned with the strategical issues of the Middle East

contents

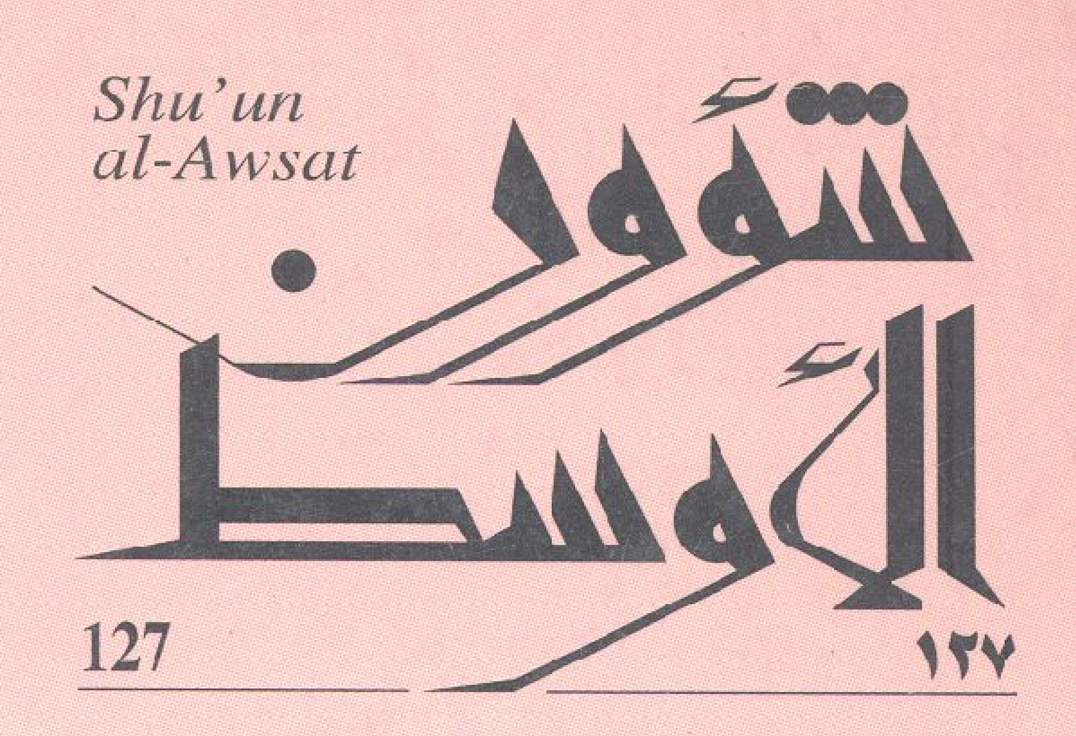
Muhammad Noureddine asks three Turkish writers of different political affiliations (Rasoul Towson, Faik Bolout and Samir Salha) about the developments in Turkey following the victory of the Justice and Development Party, and electing one of its members to the office of the president. The roundtable tries to portray the various elements of the agenda and platform of the Justice and Development Party, both internally and externally. It also tries to explore he prospects of changing the secular regime into an Islamic one.

THE ISSUE'S AXIS

The axis is comprised of three studies: the first is that of the Syrian Deputy Foreign Minister, Faisal Al-Mukdad that discuses the the role of the media in distinguishing between the national struggle and terrorism. In the second article the political Analyst, Bilal Al-Hassan, sheds a light on the way The Western media with the Middle East, Taking Palestine as an example. The third article, by Tahsin Al-Halabi, compares between the image of the Lebanese Resistance, before and after the Israeli aggression of July –August 2006.

Center for Strategic Studies

The Center is an independent Lebanese institution that was founded in Beirut in 1990 to take part in developing a new strategic awareness. To achieve this goal, the Center concentrated, since its establishment, on the geopolitical and strategic transformations that stormed the world since the end of the Cold War and the disintegration of the Soviet Union, especially their repercussions on the Arab and Islamic worlds.
The Center is also interested in the issues concerning of the Arab regional order and the various suborders including the structural relations between the three spheres: The Arab, the Iranian and the Turkish. In view of these repercussions and their wide - ranging impact on the security, political, economic, cultural and military levels, the Center defined various main spheres that its activities - seminars, research workshops, research programmes and publications - should concentrate on, being.
- The Arab - Israeli struggle.
- The Arab Order.
- The neighboring Islamic countries, especialy, Turkey and Iran.
- The international strategies and policies that have an impact on the Middle East.



العنوان

بئر حسن - شارع السفارات
هاتف: ٨٢٠٩٢٠ - ٨٣٥٥٨٤
فاكس: ٨٣٥٤٩٥ (٠١)
ص.ب.: ١١٣/٥٦٦٨
حمرا - بيروت ١١٠٣٢٠٦٠ - لبنان

ADDRESS

Bir Hassan - Embassies St.
Tel.: (01) 820920 - 835584
Fax: (01)835495
P.O.Box: 113-5668
HAMRA - Beirut - 11032060
Lebanon
http:// www.cssrd. org.lb
e-mail: cssrd@dm.net.lb

سعر العدد

■ لبنان ٦٠٠٠ ل.ل. ■ سوريا ١٥٠ ل.س
■ الأردن ٢،٥٠ دينار ■ العراق ٧٥ ديناراً
■ الكويت ٢ دينار ■ الإمارات العربية
المتحدة ٢٠ درهماً ■ البحرين ٢ دينار
■ إيران ٦٠٠٠٠ ريال ■ قطر ٢٥ ريالاً
■ السعودية ٢٠ ريالاً
■ عُمان ٣ ريال ■ اليمن ٢٠٠ ريال
■ مصر ٦ جنيهات ■ السودان ٧٥ دينار
■ الصومال ١٥٠ شلناً ■ ليبيا ٥ دنانير
■ الجزائر ٢٥ ديناراً ■ تونس ٢،٥٠ دينار
■ المغرب ٢٨ درهماً ■ موريتانيا ٤٥٠ أوقية
■ تركيا ٤ ملايين ليرة ■ قبرص ٥ جنيهات
■ فرنسا ٣٥ فرنكاً ■ المانيا ١٢ ماركاً
■ إيطاليا ١٥٠٠٠ لير ■ بريطانيا ٥ جنيه
■ هولندا ٣٠ فلورن ■ النمسا ١٢٥
شلناً ■ كندا ١٥ دولار ■ أميركا
وسائر الدول الأخرى ١٠ دولارات

التوزيع في الخارج - مؤسسة الفلاح للنشر والتوزيع
تلفاكس: ٨٥٦٦٧٧ / ٠١ ص.ب. ١١٣/٦٥٩٠ بيروت - لبنان

الاشتراك السنوي
بما فيها رسوم البريد
لبنان: افراد (٤٠$) مؤسسات (٦٠$)
الدول العربية: افراد (٦٠$) مؤسسات (٨٠$)
دول أخرى: افراد (٨٠$) مؤسسات (١٠٠$)
ترسل طلبات الاشتراك الى مركز
الدراسات الاستراتيجية

Annual subscription rate
(Including Postage)
Lebanon:
Individuals (40 USD) Institutions (60 USD)
Arab Countries: Ind (60 USD) Ins (80 USD)
Other Countries: Ind (80 USD) Ins (100 USD)
Send Your Subscriptions to the
Center For Strategic Studies

Shu'un al - Awsat
ISSN 1081 - 9408